الأمير شكيب أرسلان

مقالات للمستقبل

أبحاث، خطب، محاضرات وذكريات شخصية

الدار التقدمية

مقالات للمستقبل

أبحاث، خطب، محاضرات وذكريات شخصية

الأمير شكيب أرسلان / مقالات للمستقبل أبحاث، خطب، محاضرات وذكريات شخصية

الدار التقدّمية

المختارة - الشوف - لبنان

هاتف: ٩٦١-٥/٣١٠٥٥٥ - ٩٦١-٥/٣١١٥٥٥

E – mail: moukhtarainf@terra.net.lb

http ://www.daraltakadoumya.com

الطبعة الأولى / أيلول ٢٠١٠

الأمير شكيب أرسلان

مقالات للمستقبل

أبحاث، خطب، محاضرات وذكريات شخصيّة

الدار التقدّمية



الأمير شكيب أرسلان

مقدّمة الناشر

تقف أمام كتابات الأمير شكيب أرسلان في مجلاّت المنار ـ الزهراء ـ المقتطف ـ الجهاد ـ المشرق وغيرها، كأنّك أمام وثائق تاريخيّة غنيّة لمشاهد تكاد تُبعَث حيّة، بحسّه هو، وقد استحضرت موطنًا وحقبة من الزمان عربيّين تأرجحا ما بين التقدّم والثراء الحضاري، والتأخّر والامتهان من قِبل المستعمر. وهو الذي عاين المجتمع الغربي عن قرب، فما زاده ذلك إلاّ تمسّكًا بعروبته وإسلامه وإنسانيّته.

أمام كتاباته هذه كأنّك أمام موسوعة علمية تاريخيّة، دينية، اجتماعية وفقهية... وإنّك لتستمتع أشدَّ المتعة لدى قراءتك مآثره ومذكّراته التي تغذّي الفكر وتُثلج الصدر، فتصدّق هذه المرجعية في لغة الضاد، وتُعجب ببلاغة عجيبة مع جذالة وعذوبة. وهو نفسه يقول: "إنّ المقام مقام تحقيق وتدقيق وليس مقام مَيل وعصبيّة". فالتاريخ والنقد والفلسفة والتحليل والوصف والسّرد والطرائف والحِكمَ والخواطر... أمورٌ قلَّ وندرَ أن تجدَ لها اجتماعًا إلاّ في مؤلّفاته، علمٌ جزيل، وقلبٌ كبير يتّسع لشؤون وشجون أمّة العرب بكاملها. وكان من جرّاء مواقف الرجل الأرسلاني العربي هذا، سياسيًا واجتماعيًا أنْ عبّر عمّا هو في لبّ قضايا العرب.

وهذه المقالات التي بحوزتنا هي جزء من مشاهداته وأفعاله وانفعالاته، مزج بها حبّه للإصلاح، عَلِمَ فعلّم وأصلح فقوّم وإنّنا لنجدُ في هذا الكتاب أنّ له رأيًا في النهضة وآثارها فانشغل بها انشغال مَن يهمُّ باستنبات الصحارى القحلاء، ودأب على استخراج اللهجات العربية والمصطلحات واللحن عند العوام، والإمالة وغيرها... فأضحيتَ أمام معجم تمّت صياغته على عَجَل. كما قام الأمير شكيب أرسلان بتوثيق الواقع الثقافي، فكتب عن الصحف التي كانت تصدّر، والواقع السياسي الذي كان له دور فيه ألا وهو الدفاع عن أبناء أمّته، وعن الحالة الاجتماعية كالاضطهاد والمجاعة، وكان شاهدَ عيان حول ذلك كلّه.

كتب الأمير شكيب أرسلان مدافعًا عن العروبة بكلّ ما أُوتيَ من قوّة فكريّة وحنكة سياسية ونفوذ إداري وشخصي، فقد كان يأنف من التحامل على الغرب ويرغب في حريّة

واستقلال بلاده، كتب شيئًا من معاناته تلك من الاستعمار الأوروبي الذي نقّره والذي استبدله بالَميل نحو النفوذ العثماني، فقد عظُمت لديه أعمال العنف التي مورست من قِبل الفرنسيين ومسألة الانتداب برمّتها.

الدار التقدّمية

في ٢٠١٠/٨/١٨

الفصل الأول

مقالات متنوّعة: أبحاث، خطب ومحاضرات

الفضل للمتقدّم★

بقلم جناب السري(1) الأديب
الأمير شكيب أرسلان

ـ أول مقالة حرّرتها في حياتي مضى على كتابتها ستون سنة

هذا مقال جليل نشره أمير الوطنية والبيان ومدره العروبة والإسلام عطوفة الأمير شكيب أرسلان، في الجزء الثاني من الصفاء بشهر شباط سنة ١٨٨٦ وكان في ذلك العهد بين السادسة عشرة والسابعة عشرة من السنين، ممّا يدلّ على أنَّ الأمير، (أعزّه الله) وأمدّ في حياته الثمينة لخير الأمّة العربية، كان كاتبًا كبيرًا ومفكّرًا عظيمًا منذ حداثته. وقد كتب السيِّد المنفلوطي، رحمه الله، يوم ترجم شعراء العصر وكتّابه المعدودين عن الأمير فقال: لو لم يكن أكتب كاتب لكان أشعر شاعر ولكنّهما كفّتان كلّما رجحت الواحدة أشالت الأخرى. وهذا هو المقال الأنيق الثمين:

من تأمّل بعين الاعتبار حالة هذا العصر الجبّار فيما اتّصل إليه من المعارف العديدة والحقائق الفريدة والاختراعات المفيدة والاكتشافات السديدة، ونظر إلى حال ما تقدّمه من الأعصر السالفة وما كان من مبلغها القاصر في العلم بالنسبة إليه، ثمَّ تدبّر الفرق في هذا بين الماضي والحاضر رأى كم ترك الأول للآخر من شأن يعلم، وشيء يعرف، وكنه يفهم وسرّ يكشف، وحقيقة تحرز، ودقيقة تبرز، وآية تدرك، وغاية تملك، إلى بدائع لا تحصى ومنافع لا تستقصى، ومآثر قصر الأول عن مداها فنالها الآخر وتعدّاها وهي التي تسبّبت بمزية هذا العصر الأزهر الذي ارتقى من درجات العزّ والتمدّن بمعراج العلم والتفنّن، غاية ظنّ شاهدها أن ليس وراءها زيادة لمستزيد ولا مطلع لناظر. والحاصل أنَّ المتأخّرين قد أحرزوا من العلوم الكثيرة، والفنون الأثيرة، والتحقيقات الجمّة، والاختراعات المهمّة ما لو نشر المتقدّمون وشاهدوه لكانوا يعتبرون مخترعيه ويشكرون مبتدعيه آناء الليل والنهار. على

★ الاستقلال: السنة العشرون العدد ١٦ (٢٧ جمادى الأولى سنة ١٣٦٥ ـ ٣٠ نيسان ١٩٤٦) (ص ١ـ٢) لمؤسّسها الأمير أمين أرسلان والتي كانت تصدرها الجمعيّة الخيرية الدرزيّة في بوانس أيرس ـ الأرجنتين. نقلاً عن مجلّة الصفاء البيروتية ج٢ شباط ١٨٨٦. لقد كتب الأمير شكيب أرسلان، بخط يده، على نسخته في هذا العدد من الاستقلال: "أول مقالة حرّرتها في حياتي مضى على كتابتها ستّون سنة..."

(١) السريّ: الشريف.

أنه مهما يكن من قصورهم بالنسبة إلى ما نحن عليه اليوم فلم يزل الناس يحكمون لهم بالفضل ويثنون على همّتهم واجتهادهم، إذ هم الذين فتحوا لنا أبواب العلم فولجنا بها مقاصيره الرفيعة من بعدهم ووضّحوا لنا مناهج العرفان فسلكناها على أثرهم، وإنّا وإن كنّا قد سبقناهم وبانَ شأونا عليهم فلم يزل لهم فضل المتقدّم. وإن كنّا نحن المتقدّمين حقيقة فإنّهم تقدّمونا زمانًا وحازوا ذلك على حدّ قول الشاعر:

فلو قبل مبكاها بكيت صبابة بسعدى شفيت النفس قبل التندّم
ولكن بكت قبلي فهيج لي البكا بكاها فقلت الفضل للمتقدّم

لا مرية أنّ للمتقدّمين علينا فضلاً لا نزال نذكره لأنهم هم بنو بجدّة العلم وعاقدو بردة الفضل، ونحن إنّما جرينا على آثارهم واهتدينا بضوء منابرهم، لكن لا يلزمنا في ذلك أن نبالغ في تفضيلهم علينا، كما يذهب إليه بعضهم فينكرون فضل الخلف، ويفرطون في توفير علوم السلف، ويوجبون تصديق أقوالهم وآرائهم واحترام أحكامهم ومزاعمهم، حتّى منهم من يتعصّب لهم ويعدّ معارفهم مقدّمة ومبادئهم كلّها صحيحة ثابتة فلا يمكن نقضها بوجه من الوجوه. وإذا أخطأ أحد رأيًا للأقدمين لم يقف عندهم موقفًا محمودًا وهذا فيهم غريب، ولعلّهم ينزعون إلى ذلك بغضًا بمعارف المحدّثين لتوهّمهم مخالفتها لمشرب الدين والحقّ من وراء ذلك. أمّا وإنّ مبادئ علوم الأقدمين هي أكثر مخالفة للدين ولا يوجد شيء من العلوم الحاضرة إلاّ ويمكن تطبيقه على ما تنطق به الكتب والسنن، فلعمري إنّ أقلّ تصوّر كهذا إفراط وتحش في التعصّب والعماية وازدراء وخسف في حقّ العقل الذي ما زال ناهضًا بنا إلى ذرى المعرفة من حضيض الجهل والغباوة، وبالعكس نرى فريقًا آخر قد سحرتهم أعاجيب هذا العصر حتّى ظنّوا أنّ كلّ شيء لم يخص به ولم ينسب إليه هو باطل. وأنّ المعجب بشيء من معارف الأولين يشبه أن يكون مخالفًا لروح التمدّن العصري الذي يرونه خلقًا جديدًا ونشأة مستأنفة، وهم في هذا ما زال دأبهم الهزُوء بعلم السلف وفضلهم وعقولهم، واعتبار جميع أحكامهم خرافات لا يقبلها عاقل. ولعلّهم يقولون إنّ المحدثين هم أصحّ عقولاً وأرشح أفئدة من المتقدّمين، وهذا أيضًا من التفريط وفيه من الأجحاف بحقّ سلفنا الصالح، رضي الله عنهم، ما لا يغتفر لنا نحن معاشر الخلق لأنّا بذلك نسيء إلى العقل الإنساني. فعلى المرء أن ينهج في هذا الموضوع منهجًا معتدلاً، والحقّ لا يخفى لكلّ من تدبّر الكلام الآتي:

إنّ أسرار الطبيعة هي مكتومة، وإن كانت الطبيعة دائمة الحركة، فمفاعيلها غير مكشوفة، وإنّما يعرف منها ما يعرف بتمادي الأيام طورًا فطورًا ومن كونها هي هي بالذات فليست كذا بالنسبة إلى إدراكها لأنّ الاختبارات هي أبدًا في ازدياد، وبما أنّ عليها توقّف معرفة الطبائع تكون بحسب مقدارها. وبناءً عليه فإنّ لنا أن نذهب مذاهب جديدة ونتّخذ آراء أخرى في العلم بدون احتقار للمسلف ولا إنكار لفضلهم، لأنّ المعارف الأولى التي هدُونا إليها أصبحت لنا سلّمًا ارتقينا به إلى معارف أخرى فوقها، فنحن في تآليفنا الحاضرة مديونون بالتقدّم الذي أحرزناه عليهم، نحن في هذا أشبه بمن استدان رأس ماله من غيره فبعد أن أتجر به ربح أضعاف دينه حتّى فاق يُسْرَ دائنه مرارًا. وهم قد رفعونا من العلم إلى درجة معلومة فبأقلّ قوّة يمكننا الارتفاع إلى ما فوقها كثيرًا. ومن ثمَّ إذا نظرنا حالنا فوقهم فلنتذكرنّ أنّا حصلنا على هذه المزية بأقلّ عناء عنهم، وليس يحقّ لنا الافتخار عليهم مهما اطّلعنا على حقائق غابت عنهم أو كانت معرفتنا بالتي اطّلعوا عليها أدقّ من معرفتهم.

فإذا اعتبرنا أنّ الاختبارات تزداد بتوالي الأيام تمهّد لدينا عذر المتقدّمين عمّا لم يدركوا من أسباب الأمور لحداثة عهدهم في العالم، ومع ذلك فلا أدري كيف يصحّ لأحد أن يتوهّم أنهم لم يتركوا شيئًا من الحقائق إلاّ عرفوه وكشفوه، ولم يدركوا منها شيئًا إلاّ ذكروه ووصفوه، وهذه تآليفهم شخب في الأناء وشخب في الأرض، فتارة يصيبون وتارة يزلّون. وذلك فيما وقع حسبهم من الأشياء التي أرادوا الحكم عليها. وأمّا ما حقّقه المحدثون وامتازت به أعصارنا الحديثة فجميعه اكتشافات لم يكن للمتقدّمين بها قبل، فالتعصّب لهم فيما لا يحقّ لهم يكون من باب الاحتقار للعقل البشري واعتباره كالميل الغريزي المعروف في الحيوانات غير الناطقة، لأنّ بذلك ينتفي الفرق الكبير الواقع ما بين الإنسان والحيوان بأنّ مفاعيل العقل البشري تزداد دائمًا، والميل الحيواني المذكور يبقى على ما هو أبدًا. فالنحل يصنعن الخلايا اليوم كما يصنعها منذ ألف سنة على نظام لا يتغيّر، ومثله كلّ ما يصدر عن هذه الخاصّة الخفيّة التي في الحيوانات لأنّ الطبيعة تثقّفهن[1] ما صادفن من مسيس الحاجة، فإذا انقضت الحاجة ذهب ما علّمتهن الطبيعة سدى لأنهنّ يتلقّين ذلك بدون فهم وجدّ، فكلّما أعطي لهنّ مرّة رأينه جديدًا، والطبيعة تلقي إليهنّ هذه المعرفة البسيطة حذرًا من أن يقعن في الهلاك وحرصًا على النظام بإبقائهنّ فيه، وليس الأمر كذلك في الإنسان، وهو

(١) تثقّفهن: يقصد النحلات على وجه الخصوص، ومنها يعمّم.

المخلوق لمعرفة أشياء لا تحصى، فهو جاهل في أول أطوار عمره، لكنّه يتقدّم في العلم أبدًا لا بتجاربه واختباراته الخصوصية فقط ولكن باختبار من تقدّمه زمنًا، لأنه حافظ في ذهنه ما تلقّاه عن سلفه وتمكينه الزيادة عليه. فالناس هم الآن في نفس الحالة التي كان يوجد بها الأقدمون من الفلاسفة، لو قُدّر أنهم عاشوا إلى هذا العهد لأنهم بالطبع كانوا ازدادوا علمًا بتمادي الزمان. ومن هنا يستفاد أنْ ليس الإنسان وحده يتقدّم يومًا فيومًا في العلوم، بل العالم بأسره متقدّم فيها، ما شاء الله، وهو في أطواره نظير الإنسان الواحد. فالناس من بعد مضيّ هذه القرون العديدة يعتبرون كإنسان واحد، عاش منذ البدء إلى الزمان الحاضر، فكان يستفيد في كلّ يوم علمًا حتّى جمع ما جمع من المعارف. ومن هنا يعرف أنَّ القوم غير محقّين في احترامهم إلى هذا الحدّ لعلوم الأولين. فكما أنَّ الشيخوخة هي أبعد الأطوار عن الصبوة فالعالم لا تعتبر شيخوخته في الأزمان القريبة من ابتدائه، أي صبوته، بل في الزمان الأبعد عن ذلك فالأَلى نسمّيهم نحن أصحاب القِدَميّة التي نعتبرها في غيرنا. فيجب أن نحترم القدماء ونعجب ببراعتهم في النتائج التي حصّلوها من قليل من المبادئ، ويجب أن نعذرهم في الأمور التي جهلوها لكونهم لم يصيبوا الزمن الكافي لكشفها، لا من عدم إصابتهم عقولاً سليمة وقلوبًا عليمة في نفوسهم.

هذا، ولمّا كان معظم المتقدّمين الذين وضعوا قواعد العلوم، وأسّسوا مبادئ الفنون، واشتهروا بالحضارة والفلاح هم من البلاد الشرقية، ولا سيّما الديار السورية، وجب علينا نحن معاشر المشارقة، ولا سيّما أهل الديار الشامية، أن نعتني بإحياء العلوم التي كانت لأوائلنا، ونكون نحن المصحّحين لاعتلالها، والمصلحين لاختلالها، والمنصرفين فيها، والمضيفين إليها معارف جديدة نكتشفها بحيث نكون نحن ورثة...[1]

---

(١) لقد انتهت المقالة الأصيلة التي في حوزتنا عند هذا الحدّ، ولم نتمكّن من العثور على تتمّة لها، فاقتضى الاكتفاء بها والإشارة إلى هذا النقص اللاإرادي في مقالة الأمير شكيب أرسلان الأولى. (المحقق)

سورية عربية*

أولاً وآخرًا

للعالم الكاتب السياسي الكبير
الأمير شكيب أرسلان

-في البيان

قبل أن انجلى الأتراك عن سورية كان جميع أهلها عربًا، ولم نكن نسمع فيها بسرياني وعبراني إلاّ من قبيل العاديات (الآثار العتيقة). وكثيرًا ممّن برزوا لنا الآن بالحلّة السريانية كانوا من صميم القحطانيين يومئذٍ، وذلك لأنَّ مقصد مثل هؤلاء كان إخراج الترك حتّى يحلّ محلّهم إحدى الدول الأجنبية. فلمّا خرج الترك وجاءت محلّهم دولة عربية تريد تحرير البلاد باسم العرب وتنفي كلّ من يريد أن يغشى البلاد من غير العرب جدّت عند بعض هذه الفئة القليلة من أهل سورية نغمة لم تكن معهودة من قبل، وهي أننا نحن سريانيون غير عرب، وأنَّ لغتنا هي السريانية، وإنّما غلب علينا اللسان العربي منذ قرون ولكن بقيت لنا فيه لهجة خاصّة تشعر بكوننا سريانًا... ويا ليتهم قصّروا دعواهم على هذا القول فكنّا نوافقهم على كون هذه الفئة القليلة هي سريان، ولكن طمحوا إلى دعوى أعرض من ذلك، وهي أنَّ سورية كلّها سريانية وإنّما بدخول العرب الفاتحين تعلّم أهلها اللسان العربي، وهذا غاية ما في الأمر.

تكرّرت أقاويلهم هذه سواء في جرائد عربية اللغة، أو أجنبية اللغة، والعرب قلّما يحفلون بها لخروجها من التاريخ وإمعانها في التحكّم وكونها غلطًا أو مغالطة، فأوهم ذلك بعض إخواننا من أبناء البلاد أنهم على حقّ فيما يدعون فيه.

ومن هذا القبيل رسالة طالعناها آخرًا تحت عنوان «الحقيقة ضالتنا المنشودة» حاول فيها الكاتب أن يثبت كون سورية سريانية لا عربية، وأنه لا ينبغي أن يثقل هذا القول على العرب، إذ ليس فيه مساس بكرامتهم وكما لا يغضّ العرب أن نقول: إنَّ الفرنسيس ليسوا عربًا. الإنكليز ليسوا عربًا. الإيطاليون ليسوا عربًا. فكذلك قولنا إنَّ السوريين ليسوا عربًا

* نقلاً عن عددي جريدة الأفكار البرازيلية المؤرّخين ٦ و٩ نيسان (إبريل) سنة ١٩٢١ (المنار ج ٢٢ ص ٦٢٤ ـ ٦٣٠).

وإنّما هم سريان. توفّرت على ذلك الأدلّة التاريخية والأركيولوجية والأثنولوجية إلخ والاعتراف بالحقّ أولى. إلى غير هذا من الأقاويل التي كنّا نحبّ أن نطوي عنها كشحًا، كما طوى هو عن مناظر حدّث عنها. إلاّ أنه لمّا كان جاء من باب التاريخ والحقائق العلمية وكان من الفضلاء المستقرّين للخبر والأثر، المغرمين بالسير والنظر ـ كما يظهر من كتاباته ـ أحببنا أن نخوض معه عباب هذا البحث متوخّين فيه الوجهة العلمية الصرفة معتمدين على التاريخ ـ لكنَّ التاريخ المحقّق الممحّص لا المخيّل ولا المخمّن ـ لأنَّ الحقائق لا تكون بالظنون، بل بالأدلّة وبعد ذلك نترك للقارئ المنصف ناشد الضالّة التي أشار إليها الكاتب في رأس رسالته الحكم على نسب الأكثرية من أهل سورية، أهو عربي أو سرياني.

نقول: **أولاً** ـ إنَّ العرب والسريان (والعبرانيين) هم جميعًا من الشعوب السامية لأنه قد اتّفق المؤرّخون الإثبات على كون الساميين قسمين (أحدهما) الساميّون الشرقيون وهم البابليون والأشوريون، وبعد ذلك. فالساميّون الكنعانيون وهم الذين كانوا في فلسطين قبل اليهود والكنعانيون سكّان سواحل سورية أي الفينيقيون واليهود والأراميون والسريانيون وآراميو فلسطين الذين نطق بلغتهم السيِّد المسيح عليه السلام والتدمريون والنبط.

ثانيًا ـ الساميون الجنوبيون وهم العرب وهؤلاء قسمان: الشماليون وهم عدنان، والجنوبيون وهم قحطان، والعرب البائدة وعرب المهر وأهل جزيرة سوقطرة وينضاف إليهم الساميون والأفريقيون، وهم الحبشة وهؤلاء ثلاثة أقسام وهم اليتغري والتارينة والأمارينة، وكذلك من الساميين أقباط مصر وهم والصوماليون والجبرت من جنس واحد.

فالسريانيون إذًا هم والعرب من فروع شجرة واحدة متدانية الأغصان، يدلّ على ذلك تقارب ما بين لغتَي الفريقين، حتّى لقد يفهم العربي بعض السرياني بدون تعلّم، بل بمجرّد السماع لشدّة ما بين اللغتين من الشبه، ولقد اعترف بذلك الكاتب صاحب تلك المقالة، ولكنّه تجنّب في الموضوع ذكر سبب هذه المشابهة وهو اتّخاذ الأصل ووشيجة الرحم بين العرب والسريان. فنسبة السريان إلى العرب ليست أبدًا من قبيل نسبة الفرنسيس ولا الإنكليز ولا شعب من الشعوب الأوربية إلى العرب، بل هي نسبة أبناء عموم السلالة بحيث أنَّ الفرق بينهم هو كالفرق بين الفرنسوي والإيطالي أو الإسبانيولي ممّن تجمّهم اللاتينية أو هو أقلّ من ذلك.

ثالثًا - إنَّ أكثر المستشرقين الأوروبيين لا يرون في أكثر الأمم السامية إلاّ بطونًا من العرب، وإنَّ السريانيين هم في الحقيقة الأراميون، وإنَّ الأراميين كان فيهم عرب كثير لأنه ليس المقصود بالأراميين شعبًا ذا عرق واحد، بل معنى كلمة الأراميين سكّان البلاد العالية. كما إنَّ معنى كلمة "الكنعانيين" سكّان السهول. كما إنّه في أواسط آسيا يوجد الإيرانيون والطورانيون وقد يتوهّمونهم شعبين منفصلين نسبًا. والحال أنَّ معنى الإيرانيين سكّان الحواضر ومعنى "الطورانيين" سكّان البوادي. ولقد ثبت كون العرب سكنوا سورية من على عنق الدهر، راحلين إليها من الجنوب فدخل منهم من سكّان السهول في الكنعانيين واندمج من سكّان الجبال في الأراميين، وهؤلاء الأراميون لم يتسمّوا سريانًا إلاّ فيما بعد سمّاهم بذلك اليونان وادّعاء الكاتب أنَّ السريانيين السوريين هم السريان أهل بابل وأشور - ولهذا هو يفتخر بمدنيتهم - هذا فيه ما فيه فإنَّ المؤرّخين لا يخلطون بين السريان والأشوريين، كما خلط حضرته جهلاً أو تجاهلاً لغرض في النفس.

رابعًا - ذهب الأستاذ "سبرنغر" الألماني في كتابه "حياة وتعاليم محمَّد" (ﷺ) وكتابه الآخر الشهير "جغرافية بلاد العرب القديمة" إلى أنَّ جزيرة العرب هي مهد جميع الساميين. وممّن ذهب إلى ذلك من فحول العلماء الأستاذ "سايس" الإنكليزي في كتابه "أجرومية اللغة الأشورية" ومثله الأستاذ "شرودر" الألماني أعلن هذا الرأي في مجلّة "الشرق" الألمانية. ومثله الأستاذ "رايت" في كتابه "أجرومية الألسن السامية" وهو المدرّس بكلّية "كمبردج". ثمَّ العلاّمة "ماكس مولر" قال هذا القول نفسه وغير هؤلاء من العلماء المحقّقين ذهبوا إلى أنَّ جزيرة العرب هي مهد الأمم السامية بأسرها، فيكون السوريون بحكم الضرورة عربًا في الأصل كما لا يخفى. وذهب آخرون إلى أنَّ أصل الأقوام السامية هو من أفريقية، هاجروا إلى جزيرة العرب وفيها نشأوا ونموا وتقرّمت مميّزاتهم ومنها خرجوا إلى سائر الأقطار. ومن أصحاب هذا القول "روبرت سميث" الإنكليزي "وبارتون" الأمريكاني وغيرهما وعلى كلا المذهبين يكون مرجع السوريين إلى العربية.

خامسًا - في عهد العائلة المصرية السادسة أُنفذ قائد فرسان من مصر لارتياد أراضي سورية فلم يجد هناك سوى الكنعانيين، ولم يقف يومئذٍ على أثر للفلسطينيين ولا للعبرانيين. هذا في كتاب العلاّمة الهولندي "تيل" وأنَّ كثير من المؤرّخين البحّاثين لا يرون في الكنعانيين إلاّ بطنًا من العرب. ثمَّ إنَّ المصريين الأقدمين حاربوا جيلاً اسمهم "الشاسو"

في جهات سيناء وجنوبي سورية وهذا الجيل كان عربيًا.

سادسًا ـ الفينيقيون هم في سورية قبل السريان وقبل الأراميين وقد ذكر "هيرودتس" أنَّ قسمًا من الفينيقيين جاءوا إلى جهة خليج فارس كما أنَّ العلاّمة الإنكليزي "بينت" أجرى حفريات كثيرة في جزيرة البحرين استنتج منها كون الفينيقيين هم من هناك، وأنَّ قسمًا آخر من الفينيقيين جاءوا من سواحل البحر الأحمر، وعلى كلا الحالين فهم عرب من نفس جزيرة العرب. وبعد أن يثبت كون الفينيقيين عربًا لا يبقى محلّ للنزاع في عروبية القسم الأعظم من أهل سورية، ولا في الدرجة العليا التي يحلّها العرب في تاريخ المدنية قبل الإسلام فضلاً عمّا بعده.

سابعًا ـ الأنباط هم عرب يمانيون وقد كانت لهم في سورية دولة وصولة ومدنية ضخمة تدلّ عليها آثارهم وأخبارهم، وكانت لهم جرش وصرخد[1] وتدمر ووادي موسى (بترا) وإن لم يكن من صنعهم سوى وادي موسى (ينحتون من الجبال بيوتًا فارهين) لكفى فكيف وهناك جرش وما فيها وتدمر التي كانت عروس المشرق، ومن الأنباط الحوريون الذين يقال لهم العمالقة كانوا جنوبي نهر الأردن.

ثامنًا ـ عند مجيء ابراهيم الخليل إلى سورية كان في هذه البلاد عنصران، أحدهما الحتيت في الشمال والثاني العرب الكنعانيون والعموريون الكنعانيون في الجنوب، وقد وجد ابراهيم "ملكيصادق" الملك الموحّد الذي كان نظير ابراهيم يعبد العلي الأعلى وأدّى إليه ابراهيم العشر، وأنَّ العلاّمة "هبرخت" مؤلّف كتاب "الحفريات الأثرية في القرن التاسع عشر" يذهب إلى أنَّ "ملكيصادق" كان عربيًا. فلينظر الإنسان في أي دور كان العرب ملوكًا ودولات في سورية.

تاسعًا ـ اتّفق المؤرّخون على كون أساس المدنيّات القدمى هو الديانة والتجارة وكلّ الآثار تنبئ عن أنَّ أكثر مراسم الديانة في سورية آتية من جنوبي جزيرة العرب. وأهمّ مراسم اليهودية مأخوذة من ديانة مدين وهي يمانية بحتة، والفينيقيون سكّان سيناء كانوا عربًا من اليمن أيضًا.

هذا ومن اطّلع على كتب "ولهاوزن" الألماني "وروبرت سميث" الإنكليزي، المؤرّخَين

---

(١) صرخد: صلخد قرية سورية ـ مركز قضاء في محافظة السويداء.

البحّاثين في الأمور الدينية، يرى أنَّ أكثر هذه المسمّاة بالطقوس آتية من جزيرة العرب كما أنَّ المؤرّخ الأميركاني «هارون بورتون» ذهب إلى أنَّ كلّ الأديان السامية هي من العرب. أمّا التجارة فمن المقرّر أنَّ أكثرها كان مع اليمن وأنها كانت سبب سعادة سورية حتّى أنَّ ثروة سليمان بن داود الشهيرة كان معظمها من الإتجار مع اليمن ولا يخفى إنّه باستمرار القوافل بين اليمن وسورية كثر طراء العرب على الديار السورية وأوطنوها وتمكّنوا وتشعّبوا فيها.

عاشرًا ـ وُجِد الضجاعمة من عرب اليمن في حوران وجنوبي سورية قبل الإسلام بأحقاب متطاولة. وفي زمن النبي إيليا ـ أي قبل المسيح بنحو ستّمائة سنة ـ جاء القائد نعمان العربي من الشام يستشفي من البرص عند اليشع تلميذ إيليا. ثمَّ كان بنو سليح وكانوا يحكمون حتّى أبواب مدينة دمشق، أمّا الغساسنة وهم من الأزد من عرب اليمن أيضًا فقد كانوا في فلسطين والشام وتدمر، وكانت لهم القوّة والصولة وبقيت عنهم الآثار الباهرة واستمرّ ملكهم نحو ستّمائة سنة ـ فيما أتذكّر ـ إلى أن ظهر الإسلام. فأنت ترى تعاقب الدول العربية على سورية من أيام الكنعانيين وملكيصادق إلى الأنباط والعمالقة والفينيقيين إلى الضجاعمة إلى الغساسنة، وكلّ من هذه الأمم انبسطت وامتدّت وتركت ملايين من الذراري في أرض سورية.

حادي عشر ـ كان الغالب على سورية العنصر الوارد إليها من الجزيرة العربية قبل الإسلام فكيف من بعده. وقد جاء العرب المسلمون وفتحوا البلاد واندفق سيل المهاجرة من كلّ حدب، واستمرّ ثلاثة عشر قرنًا إلى اليوم. وممّا قرّره علماء التاريخ أنَّ الحواضر السورية تكسب كثيرًا من البوادي، حتّى أنَّ بعضها قد ينقرض لولا طراء البادية. وليس ورود العرب على سورية وإيطانهم [1] سورية هما من قبيل الحدس والتخمين وأنَّ ذلك عقلاً لا بدّ أن يكون هكذا، بل مئات ألوف من أهل سورية الآن يحفظون أنسابهم ويعرفون أنفسهم أنهم عرب، ومنهم من عنده كتابات خطّية تثبت دعواه ومنهم من يعتمد على التواتر ومنهم من انقطعت به أسباب العلم عن معرفة أصله، ولكنّك تعرفه عربيًّا من سحنته.

ثاني عشر ـ أمّا كون أهل سورية أسلموا لدن الفتح العربي فنريد عليه دليلاً واحدًا

(١) إيطانهم: استيطانهم.

نريد تاريخًا أو نصًّا مبينًا أو قرينة قاطعة. لا يكفي في ذلك مجرّد الظنّ لأنَّ الظنّ لا يغني من الحقّ شيئًا. نعم إنّنا لا نستبعد أن يكون كثير من الأفراد عند الفتح وبعد الفتح على توالي القرون دخلوا في الإسلام، ولكن لا يؤدّي دخول هؤلاء إلى كون السواد الأعظم من أهل سورية كانوا يوم الفتح الإسلامي نصارى أو يهودًا وأسلموا. كما إنَّ وجود العرب نحو مائة سنة في جنوب فرنسا وتنصّر من بقي منهم هناك بعد جلاء الحكومة العربية عن تلك البقاع، لا يفيد كون معظم أهل جنوبي فرنسا أصلهم من المسلمين، بل يقال إنَّ كثيرًا من العائلات في هاتيك الديار ترجع إلى العرب. كذلك تنصّر عشرات ألوف من عرب الأندلس وربّما مئات ألوف عندما حملهم فرديناند وإيزابّلا ثمَّ ديوان التفتيش الشهير بعدهما ثمَّ فيليب الثاني على اعتناق النصرانية بالسيف والنار، وربّما خيّروهم بين التنصّر والجلاء فالذي عزّ عليه دينه جلا، والذي عزّ عليه ملكه ووطنه تنصّر. ورغم هذا فلا يستطيع مؤرّخ أن يقول إنَّ أكثر سكّان إسبانيا أصلهم عرب. فهذه الرواية التي معناها أنَّ أكثر أهل سورية أسلموا عند الفتح العربي لا صحّة لها. والصحيح أنَّ الأمّة الفاتحة غلبت ونمت كما هو شأن جميع الأمم الغالبة، وأنَّ الأمم المغلوبة ضعفت وتناقصت كما هو شأن جميع الأمم المغلوبة على أمرها، ودخل في سورية أقوام كثيرة من المسلمين غير العرب فاستعربوا وصاروا عربًا، منهم الأتراك، ومنهم من المغول، ومنهم من الأكراد، ومنهم من الشركس، ومنهم مغاربة دخلوا في أيام الفاطميين وغير ذلك، ففاق عدد المسلمين في سورية كثيرًا على عدد سائر الملل بهذه الأسباب العديدة.

ثالث عشر - ينبغي لمثل هؤلاء الذي يرمون الكلام على عواهنه ويقولون إنَّ السوريين هم سريان أن يراجعوا التواريخ العربية ما كان منها على منازل الأعراب ودخولهم في الحواضر كالقلقشندي والمقريزي، وعلى تواريخ الحروب الصليبية التي حرّرها مؤلّفو العرب، وعلى كتب التراجم وأنساب بعض العائلات والعشائر، وعلى أخبار القيسية واليمنية، وعلى الجغرافيات العربية القديمة بحيث يتكوّن عندهم التصوّر اللازم لمعرفة الحقيقة، بل لا يكفي هذا وحده حتّى يقترن بالتنقيب بين سكّان البلاد وسؤال قبيلة قبيلة وقرية قرية عمّا يعلمون من أصولهم، وبعد ذلك يظهر أنه ليس الجهل الذي فشا والعلم الذي طمس هما اللذان جعلا أهل سورية يقولون "نحن عرب"، بل الجهل بتاريخ العرب وبأنسابهم والاقتصار على رواية واحدة هما اللذان أدّيا إلى القول الجديد "إنَّ

السوريين سريان»: إنَّ العرب هي الأمّة الوحيدة التي يستوي عامّيها وخاصّيها في معرفة نسبه، ولم يبلغ انحطاط العلم في سورية ولا مرّة أنْ جهل العرب فيها أصولهم، وما على المرتاب إلاّ أن يجول بنفسه في البلاد ويستقصي من أهلها عن أصلهم ليلمس الحقيقة لمسًا.

رابع عشر ـ إنَّ كثيرًا من نصارى سورية هم من أصل عربي غساسنة وغيرهم. منهم من بقي بحوران ومنهم من جلا إلى دمشق وحاصبيا وبعلبك وزحلة وجبل لبنان. ولا يلزمني الآن أن أتعرّض لأسماء هذه البلدان التي تعرف أنفسها. ولعلّنا نذكر ذلك مرّة أخرى وإنَّ طائفة الدروز هم من قبائل لخم وجذام وبطون أخرى جاءت آباؤهم أيام الفتح إلى معرّة النعمان، ثمَّ أسكنهم الخلفاء العبّاسيون جنوبي لبنان. وإنَّ أكثر طائفة الشيعة هم من عاملة من عرب اليمن جاءوا إلى الشام ونزلوا بجبل سمّي بهم وهو جبل عاملة أو بلاد بشارة. ولست أدّعي أني على شيء من الإحاطة بأنساب عرب سورية فإنَّ ذلك بحر زاخر لا ساحل له، لكنَّ المعروف منه عندنا هو ممّا تضيق عنه هذه العجالة. وبالاختصار فالسواد الأعظم من مسلمي سورية وطوائف سورية المتشعّبة من الإسلام هم عرب ثمَّ مستعربون من أمم غير سامية. وإنَّ قسمًا عظيمًا من نصارى سورية هم عرب صراح لا جدال فيهم وإنَّ بين الطائفة المارونية ذاتها التي تنتسب إلى السريانية بطونًا كثيرة عربية جلت إلى لبنان من حوران باعتراف المؤرّخين اللبنانيين من أهل التحقيق، وسواء أراد بعض السريان أن يفصلوا أنفسهم عن العرب بعد أن استعربوا منذ دهور أو لم يريدوا، فإنَّ الأكثرية الطاحنة في سورية هي للعرب الحقيقيين.

شكيب أرسلان

حاشية للمصحح[1] : هل كان التغلبيّون الذين حاربوا مع عبد الملك ضد خلافة عبد الله بن الزبير مسلمين؟ هل كانت جيوش العرب المنتصرة التي حاربت مع العرب في العراق ضد العجم مسلمة؟ هل ينكر أنّ بني الخازن وبني حبيش وآل شهاب وآل أبي اللمع من نصارى لبنان ـ وهم من عليّة طوائف لبنان ـ غير نصارى؟ ولا عبرة بأنّ هذه الطوائف ارتدّت ولكن: هل هي عربية أم أعجمية؟ وكتبه صالح مخلص رضا.

(١) مصحح مجلّة المنار

حضارة العرب وفلسفتهم*

لكلّ عصر شعوبية، وإنَّ شعوبية هذا العصر نفر من أدباء مصر، لا تمرّ بهم فرصة يتنقّصون فيها فضل العرب، ويغضّون من منزلتهم في التاريخ، وينحتون من أثلة مدنيتهم الشهيرة إلاّ توردّوها مبتهجين، ولا يرون للعرب عورة من العورات إلاّ تهافتوا على إظهارها تهافت الذباب على الحلواء.

ومن هذه الطائفة من يطعن في العرب جراهيةً بدون مواربة نظير هذا سلامة موسى الذي يكتب في «الهلال» والذي زعم أنَّ العرب بدو، هجموا على المدنيّات الرومانية والإغريقية، إلخ. وهذا النوع من العداء أقلّه خطرًا وأجدر بأن لا يباليَه أحد، لأنه كلام ساقط من نفسه: تكفينا الآثار الماثلة والتواريخ العامّة ـ من شرقي وغربي ـ مؤونة الردّ عليه.

ومن محاسن العرب أن يكون أعداؤهم ـ مثل سلامة موسى ـ إباحية يدعون إلى اختلاط الأنساب، ولا يرون بأسًا في أن لا يعرف المولود بأبيه[1]، وهي الشناعة التي أراد بعضهم أن يعزوها للبولشفيك فتبرّأ هؤلاء منها وأكبروا الأمر وهم البولشفيون الشيوعيون...

ومن هذه الطائفة من تراه يضيق صدره ـ كأنما يصعَّد في السماء ـ إذا سمع كلمة خير في العرب، أو قرأ عبارة توفّر لهم قسطهم من المجد. وقد قامت قيامة طه حسين على أحمد زكي باشا بزعمه أنَّ الأستاذ المشار إليه قال إنَّ مدنية العرب فوق كلّ مدنيّة، مع أنه لم يقل ذلك وإنّما أطرى مدنيّة قومه كما هو شأن الأمم كلّها، أنَّ كلاًّ منها تطري مدنيّتها وتفاخر بأحسابها. وكيف كان يقول لو قال أحمد زكي باشا: كلّما كان الإنسان عربيًّا كان أقرب إلى البشرية، كما يقول الفرنسيس ـ ولا يكبر ذلك طه حسين ـ «كلّما كان الإنسان إفرنسيًّا كان أعرق في البشرية» أو كما يقول الألمان «ألمانية فوق كلّ شيء» وهلمّ جرًّا، فلا تتحرّج صدور هؤلاء إلاّ إذا كان الإعجاب بالعرب. ولعمري لو قال أحمد زكي باشا إنَّ مدنية العرب كانت فوق كلّ مدنية بالنسبة إلى القرون الوسطى ـ أي إلى الوقت الذي ظهرت فيه ـ لم يكن كاذبًا، بل لكان ظهيره التاريخ العام كما يعلّم في مدارس أوربة.

---

* الزهراء: ج٣ القاهرة تشرين الثاني ١٩٢٦ (١٣٥٤ هـ) ص ٢٩١ ـ ٢٩٣.

(١) أنظر الزهراء (٣:١٣٩).

ولا يعيب العرب أنهم في القرون الوسطى لم تكن مدنيتهم أعلى من مدنية أوربة اليوم بعد القرون الوسطى بنحو تسعمائة سنة وألف سنة، فإنّه من البديهي أنَّ الآخر بطبيعة الحال يعلم ما لا يعلمه الأول، وأنَّ اللاحق يعي علم السابق ويضيف عليه، وأنَّ الدنيا شخص معنوي كلّما علت سنّهُ ازدادت تجاربه. وقد يأتي دهر يجد الناس فيه مدنيّة أوربة الحاضرة لعبًا وددًا، ويهزأون فيه بالقواعد التي يقرّرها علماء العصر الحاضر، وذلك كما نهزأ نحن ببعض القواعد التي كان الأولون يظنّونها حقائق ثابتة، فأظهرت التجارب الأخيرة بطلانها. نعم لا يعيب السلف أن يكون الخلف أعلم منهم، وإنّما يعيب السلف أن يكونوا قعدوا عن النهوض بالواجب عليهم في زمانهم. ولكنَّ طه حسين أذنه صمّاء عن الفحشاء... فلا يحبّ أن يسمع هذا اللغو الذي هو مدح العرب... وسبحان من جمع بين عمى البصائر وعمى الأبصار وأولهما أشدّ وأدهى.

يعلم الله أننا كنّا نحبّ أن لا نستعمل لهذه الطائفة مثل هذه الألفاظ، لكنَّ وقاحتهم على الوطن والدين واللغة والأخلاق والصيانة والقومية وما أشبه ذلك تجاوزت حدّها، فأصبح من الواجب على كتّاب الوقت أن يضعوهم حيث وضعوا أنفسهم، وأن يصبّوا السخن على هذه الجراثيم الفاسدة للتخلّص من شرّ عدواها.

ومنهم من لا تصل به الحماقة إلى هذا الحدّ، ولكنّه ينقّب في الكتب والآثار حتّى إذا وجد كلمة يقدر أن يغمز بها العرب، ولو من طرف خفي وقع عليها وأخذ يستنتج ويقيس ويذهب إلى بعيد. وكأنَّ مرماهم الأصلي هو سلب العرب محاسنهم التي حلاّهم بها التاريخ، فإن لم يكن فسلبهم بعضها، وأي شيء وجدوه في هذا المعنى عدّوه ربحًا. فترى الواحد منهم يذكر فلاسفة العرب وأطبّاءهم والكيماويين منهم، وهو يشير إلى أنَّ هذا كان نصرانيًّا، وذاك يهوديًّا، وذلك صابئًا أو حرّانيًّا، وكأنه رفع بذلك التأصيل عن ظهره وقرًا، فقد كان صعبًا عليه أن يكون هؤلاء الكبار من خلق الله عربًا في النسب فلمّا أثبت نسبتهم لغير العرب هانت عنده المصيبة...

ولو تأمّل هؤلاء لعلموا أنَّ الذي أخبرهم بأنَّ هذا كان فارسيًّا أو تركيًّا وذاك كان يهوديًّا أو صابئًا أو نصرانيًّا إنّما هم مؤلّفو العرب الذين لم يكونوا ينظرون إلى العالِم، بل إلى العلم الذي يحمله. وكان سيّين [1] عندهم أن يكون النبراس الذي يضيء لهم زيته من

(١) سيّين: سيّان، لا فرق.

الزيتونة الشرقية أو الغربية. على أنَّ هؤلاء العلماء كلّهم بعد أن كتبوا مؤلّفاتهم بالعربية لم تعرفهم الدنيا إلاّ عربًا، ومنهم ومن أقرانهم كانت الحضارة العربية التي انطووا فيها. وعلى فرض أنهم لم يكونوا عربًا في الأصل، فإنَّ الفضل الأول في تأسيس المدنيات ونشر المعارف إنّما هو للدول التي تستجيد العلماء وتستوري زناد القرائح. ولقد كانت تلك الدول عربية قحّة وما من أحد يقدر أن يقول إنَّ معاوية كان فارسيًّا أو إنَّ هرون الرشيد كان حرّانيًّا. ثمَّ على فرض أنَّ بعض فلاسفة العرب لم يكونوا من أصل عربي فالعرب أغنياء بالرجال، وكم عندهم من فيلسوف وحكيم وطبيب يرجع في نسبه إلى قحطان أو إلى عدنان. ثمَّ إنّنا إذا نظرنا إلى الأمم وجدنا علماء كلّ أمّة فيهم جمّ غفير ليسوا منها... ولكنّهم منها... أفترى الفيلسوف الألماني المعاصر أنشتين خرج من نسبته إلى ألمانية من أجل أنه يهودي؟ وكم من عالم إفرنسي أصله غير إفرنسي، وكم من عالم إنكليزي أصله غير إنكليزي... إلخ

ويلحق بهذا قولهم إنَّ العرب كان عندهم العلم الفلاني، وهم إنّما أخذوه عن الأمّة الأخرى. وأي أمّة اقتصرت في مدنيتها وعلومها على تحقيقاتها واجتهاداتها الخاصّة وأنفت أن تستعير من غيرها، وهل يكون أحمق من تلك الأمّة التي تأبى الاقتداء بغيرها في الأخذ بأمر نافع أو قول سديد!

ولكنَّ، التحامل كلّ التحامل هو قول بعضهم إنَّ العرب كانت علومهم كلّها مبنيّة على الأسلوب الغيبي، وإنّهم لم يعرفوا التجربة في العلم ـ كلمات ينقلونها عن بعض المؤلّفين الأوربيين الذين لا يريدون أن يعترفوا بفضل الشرقيين، أو بعض مؤلّفيهم الذين لم يفهموا تاريخ العرب حقّ الفهم.

ومن الغريب أنَّ هذه الفئة إذا حاجّها الإنسان بأقوال وشواهد من أناس من المستشرقين الأوربيين، كان جوابهم أنَّ المستشرقين هؤلاء من دأبهم المبالغة وهم لتعلّمهم اللغة العربية أحبّوها وصاروا يزيّنون كلّ شيء عربي. والحال أنَّ المقام مقام تحقيق وتدقيق ليس مقام ميل وعصبية. فأمّا إذا عثروا على رواية تنقّص من فضل العرب في كلام مستشرقي الإفرنجة أسرعوا إلى نقلها وعدّوها آية منزلة وبنوا عليها أحكامًا طويلة عريضة، ونسوا أو تناسوا أنَّ المستشرقين الذين يكرهون العرب، ويشنأون العالم الإسلامي، ويضمرون العداوة لكلّ شيء شرقي هم أكثر عددًا من المستشرقين المحبّين، فهم يحرّمونه عامًا ويحلّلونه عامًا،

فالمستشرق الصادق عندهم هو الذي يتنقّص العرب لأنه يأتي بما تهوى أنفسهم. وأمّا المستشرق الذي يؤدّي العرب حقّهم فإنّه بزعمهم مبالغ ينظر بعين الحبّ الكليلة عن العيب. ولا تنسى أنَّ حملاتهم هذه الخفيّة على الحضارة العربية والتاريخ العربي إنّما يأتونها بإسم العلم، وتمحيص التاريخ، وحبّ الحقّ...

وليس من عربي عاقل يجب أن ينحل العرب ذرّة ممّا لم يعملوه، ولا أن يمدحهم بالكذب. ولكن ليس من عربي عاقل يرضى بأنَّ فئة مريضة من أهل هذا الزمان تهجّم على مدنية العرب التي اتّفق على عظمتها المشرق والمغرب، وتحاول أن تحطّ من قدرها، وأن تطفئ من نورها بأفواهها، زاعمة أنها إنّما تتحرّى حقيقة وتثبت واقعًا.

وإمّا أنَّ علوم العرب كانت نظرية تخمينية ليس لها حظّ من التجربة العملية فهذا خلاف ما عليه الجمهور ممّن اشتغلوا بتاريخ حضارة العرب. وهذا خلاف الآثار الباقية المدهشة ممّا بناه العرب. وبينما أنا أفكّر في تحرير شيء في هذا الموضوع معتمدًا فيه على أقوال المحقّقين من علماء المشرقيّات إذ اطّلعت في جريدة "السياسة الأسبوعية" على مقالة ممتعة جمعت فأوعت في ظهور العلوم الطبّية وتقدّمها في الحضارات المختلفة من قلم المحقّق النقريس الدكتور محمَّد شرف، من جملة فصولها فصل في الحضارة الإسلامية وفضلها في العلوم الطبّية، من اطّلاع القرّاء عليه يتجلّى لهم مقدار تحامل القائلين بأنَّ علوم العرب كانت عمدتها الأسلوب الغيبي دون التجربة بالأدوات والآلات. فأنا أترك الآن الكلام لهذا الفاضل الذي لخّص هذا الموضوع وأجمل، فأحسن وأجمل. وسنعود إن شاء الله إليه في وقت أوسع.

لوزان

شكيب أرسلان

التاريخ لا يكون بالافتراض ولا بالتحكّم*

كان الغرب يغزو الشرق فيما مضى بأسلحته الخاصّة به في الحرب والسياسة والدعاية الدينية، فصار له اليوم جنود منّا يعملون على تشويه فضائلنا، وتسويء تاريخنا، وقطع صلتنا بآبائنا، وفتح قلوب أبنائنا لنوع آخر من أنواع الاحتلال الأجنبي، قد يكون شرًّا من احتلال البلاد والقضاء على استقلالها. وكنّا نظنّ أنَّ هؤلاء سيكونون عدّة الشرق في تجهيزه بقوّة الغرب المادّية لينتشلوه من كبوته، فرأيناهم منصرفين عن ذلك وجادّين في هدم بقايا قوّة الشرق المعنوية. وهذا مقال نفيس لأديب العرب الأكبر العلاّمة المجاهد الأمير شكيب أرسلان نشره في (كوكب الشرق) الأغرّ، ردًّا لبعض التهم التي وجّهها أناس منّا إلى تاريخ هذه الملّة. قال (حفظه الله):

لا أريد أن أناقش أحدًا، ولا أن أسمّي أشخاصًا، ولا أن أحمل على باحث أديب بتجهيل. وإنّما ألمّح من خلال الكتابات التي يجود بها بعض أدباء الوقت منزعًا، إن كان في حدّ ذاته محمودًا فقد ينقلب في إساءة استعماله مذمومًا ويصير ضلالاً.

ولع بعض الأدباء باتّهام التاريخ الإسلامي الذي لدينا، وسلوك طريقة في التعليل لم يسلكها الأولون؛ ارتيادًا لوجوه جديدة، وأسبابٍ للحوادث لم تكن معروفة، بحيث يقال: إنّهم كشفوا حقائق تاريخية لم يعرفها غيرهم، أو عرفوا أسرارًا أعماها التاريخ الديني أو عمستها[1] السياسة وأهواؤها عن الجمهور، ويسمّون ذلك تمحيصًا وتحقيقًا، ويظنّون أنَّ التمحيص والتحقيق هما بمجرّد المخالفة والخروج عمّا عليه الرأي العام. والحقيقة أنه إن كان مقصدهم مجرّد المخالفة وتغيير الأسلوب لعدم الصبر على طعام واحد فقد أصابوا الغرض. ولكن إن كانوا يزعمون أنَّ هذه التعليلات الغريبة هي الأصل في تلك الوقائع فليسمحوا لنا أن نستعفيهم من التصديق، لأننا نعرف التاريخ بالأدلّة العقلية والنقلية وملاحظة ما سبق وما لحق واستنباط النتائج من المقدّمات، ولا نعرفه تخرّصات وافتراضات وأبنيةً على غير أساس. فإن كان هذا هو التمحيص التاريخي الذي يتوخّى بعض العصريين أن يقلّد به الإفرنج فلا كان هذا التمحيص الذي هو عبارة عن قلب الحقائق لأجل الإتيان

* الزهراء ج٢ (شباط ١٩٢٦) ص ٤٦٢ ـ ٤٧٠.
نشر هذه المقالة مصطفى صادق الرافعي في كتابه.

(١) عمستها: محتها أو خفتها.

ببدع، ويجلّ علماء الإفرنج عن أن يكون تمحيصهم من هذا النمط. وقد خلط منهم من خلط في معرض التمحيص، ولكن نبهَ المدقّقون منهم على كونهم خلطوا.

فعندما يقوم واحد فيذهب إلى أنَّ تاريخ حرب اليمامة محاط بالغموض، وأنَّ مقاتلة أبي بكر لأهل الردّة لم تكن من أجل إقامة الدين، بل من أجل تأسيس الملك، وما أشبه ذلك من التوجيهات التي لم يقم عليها أدنى دليل؛ نعلم أنه حاول أن ينهج مناهج المحمّصين فظنّ التمحيص بمجرّد الخروج عن الإجماع ولو كان الإجماع صحيحًا، فلم يصب المرمى.

وعندما يقوم آخر فيدّعي أنَّ السلف في صدر الإسلام وضعوا «سانسورًا» على الشعر الجاهلي المُشْرَب مبادئ الوثنية أو النصرانية أو اليهودية، نعلم أنَّ هذه الدعوى مبنيّة على الافتراض والتخيّل، وأنها لا تستند على دليل، بل الواقع يناقضها من كلّ الجهات.

أعجبتني جدًّا عبارة الذي ردّ على هذه الفئة فقال لهم «مَنْ مِنْ ملوك المسلمين وحكّامهم أمر بوأد الشعر الوثني واليهودي والنصراني ومحوه؟ ومَن مِن أعوان هؤلاء الحكّام الذي تولّى ذلك؟ وكيف كانت طريقة المحو؟ وهل كتب لها النجاح في كلّ بلاد الإسلام؟ إلخ».

والحقيقة أنه ليس لهم من جواب على هذا السؤال، ولا حيلة لهم في التخلّص منه، إلاّ بإيراد أدلّة واهية لا تدفع شيئًا من حقيقة حرّية الرواية في ذلك العصر ومن كون بابها بقي مفتوحًا على مصراعيه. ولا تنفي أنَّ عصر الصحابة لم يعرف «السانسور»، ولا مراقبة الرواية، ولا كمّ الأفواه، ولا شيئًا من أوضاع «ديوان التفتيش».

وإذا تأمّلت في كلام هذه الفرقة رأيتهم يشيرون من طرف خفي إلى نزول درجة الحضارة التي كان عليها الصحابة، وأنَّ شرائعهم وقوانينهم إنّما كانت شرائع قوم في طفولية المدنية، وأنها «لا تمسّ الحياة» إلاّ قليلاً، وما أشبه ذلك. ثمَّ ينسون أنَّ مراقبة الكتابات والروايات إنَّ هي إلاّ من أوضاع الهيئات الاجتماعية المتمدّنة التي استبحر فيها العمران وتأثّل الملك، وإنَّ (السانسور) لا يتأتّى مع بداوة المجتمع، ولا يعقل وجوده في أيام السذاجة كالتي عاش فيها النبي (ﷺ) والصحابة.

فمراقبة الكتب والخطب كانت تقع في رومية والقسطنطينية لعهد عظمة القياصرة، وفي أيام سلطة البابوات، وفي عهد ملوك فاتحين كلويس الرابع عشر وقد بالغ فيها نابليون

الأول ثمَّ نابليون الثالث. وقد وقعت من أيام العرب في عهد العبّاسيين وغيرهم من ملوك الأعاجم، أو الملوك العرب الذين اتّخذوا أطوار الأعاجم. فأمّا القول بأنها كانت في عهد الخلفاء الراشدين وفي أيام الصحابة فمحض تحكّم ومكابرة.

نعم، كان هؤلاء الناس شديدي التحمّس بالدين الجديد الذي جاءهم به محمَّد (ﷺ) ولكنَّ حماستهم هذه لم تقلع ما في قلوبهم من حبّ الحرّية التي نشأوا عليها في الجاهلية، والتي لا يوجد في الشرق ولا في الغرب أمّة بلغت شأو العرب فيها. ومن قال «إنَّ العرب أعرق الأمم في الحرّية» فغير مبالغ. لهذا تجدهم رووا بألسنتهم وكتبوا بأقلامهم جميع مطاعن المشركين في النبي (ﷺ) وصحبه ولم يخفوا منها قليلاً ولا كثيرًا، ونقلوا الشبه والاعتراضات التي كانت تقع على الرسول ورهطه، وذكروا كثيرًا ممَّا كان يَسْفَه به بعض العرب على رسول الله (ﷺ)، وكيف أنَّ اثنين تخاصما إليه فحكم لأحدهما فقال المحكوم عليه: هذا حكم لم يُرَد به وجه الله. فقال عليه الصلاة والسلام: «أوذى موسى من قبلي بأكثر من هذا». وغير ذلك ممَّا هو مستفيض في كتب السيرة النبوية وأخبار صدر الإسلام. وممَّا رواه الرواة المسلمون وحرَّره الكتبة المسلمون وأقرأه العلماء المسلمون، ولم يكن عندهم حرج في نقل تلك الأحاديث وإيرادها كما جاءت، لأنهم كانوا على بيّنة من دينهم الذي دانوا به، وكانت قلوبهم مطمئنّة بالإيمان، وكانت سيرة النبي (ﷺ) معلومة عندهم بدقائقها فلم يكونوا يحتاجون فيها إلى «السانسور» دَرْءًا للشبهات عنها وخوفًا من أن يفضي تداول هذه الروايات إلى زعزعة عقيدة الإسلام التي لم تكن منذ جاء بها صاحبها (ﷺ) إلى اليوم على شفا جرف هار. بل الإسلام مولودٌ رُزق الصحَّة ووثاقة التركيب منذ ولادته.

نعم، في هاتيك الأيام وما يليها كانوا يروون أهاجي بعض الشعراء للصحابة والأنصار و«لبني النجّار»، وفي تلك الأيام كان يعاتب الرسول ويقال له:

ما كان ضرَّك لو عفوتَ، فربَّما ... مَنَّ الفتى وهو المغيظُ المحنقُ

في أيام السلف كان ينادي الأخطل:

ولستُ بصائم رمضانَ عمري ... ولست بآكل لحم الأضاحي
ولستُ بقائل ما عشت يومًا ... قُبيل الصبح «حيِّ على الفلاح»

كان يقول هذا ويدخل على الخلفاء ويجيزونه الجوائز السنّية، وكان هو وغيره من النصارى واليهود يفتخرون بدينهم ويعلنونه في أشعارهم التي كان يرويها المسلمون ويقيِّدونها في دفاترهم. ولمَّا جاء الملك النعمان بن المنذر رجلٌ نصراني في اليوم الذي كان عنده يوم بؤس وأمر النعمان بقتله استماحه النصراني مهلة أن يذهب ويودِّع أهله، فأذن له على أن يقدّم كفيلاً يحلّ محلّه في القتل إذا هو لم يرجع فرجع وتعجّب النعمان من وفائه فسأله: ما حملك على هذا الوفاء؟ فأجابه النصراني: حملني ديني. فقال له النعمان: وما دينك؟ قال له: النصرانية. وتنصَّر النعمان بعد هذه. فكانت هذه الرواية ممَّا حرَّره المسلمون، ولم يغمطوا النصرانية حقّها، ولا غمطوا اليهودية أيضًا حقَّها. وأجمع العرب المسلمون على نقل مآثر السموأل وكان السموأل يهوديًّا وما زال السموأل مَضربًا للأمثال في علوّ النفس وكرم السجيّة إلى يومنا هذا، حتَّى قال شوقي ـ شاعر العصر ـ منذ أيام قلائل:

كأنَّ من السموأل فيه شيئًا ... فكلّ جهاته كرَمٌ وخُلُقُ

فكيف يكون المسلمون الأوائل حاولوا خنقَ كلّ صوت غير صوتهم ومحوَ آثار النصرانية واليهودية والوثنية من شعر العرب؟

ثمَّ إنَّ شعر شعراء النصرانية من الجاهلية يملأ الدواوين، وما منهم إلاَّ من حرص علماء الإسلام على التنبيه أنه كان نصرانيًّا. وقد نقلوا خُطَبَ قس بن ساعدة الذي كان مطرانًا، ونقلوا ثناء النبي (ﷺ) عليه.

وأمَّا كون ديوان شعراء النصرانية المطبوع في بيروت موضوعًا، وأنَّ الشعراء المرويّة أشعارهم فيه لم يكونوا نصارى، بل جعلهم صاحب الديوان نصارى وهم جاهليون لا غير، فمن يقول هذا؟ ومن يصل به المراء إلى إنكار أنَّ أكثر أولئك الشعراء كانوا نصارى؟ غاية ما يقال أنَّ بعض أولئك الشعراء لم تثبت نصرانيّتهم. وهذا لا ينفي أنَّ شعراء كثيرين مثل العبادي والأخطل والقطامي كانوا نصارى مجمعًا على نصرانيّتهم، وأنَّ المسلمين نقلوا أشعارهم كما هي ولم يحذفوا منها شيئًا. وكان شعراء المسلمين يناقشونهم ويداعبونهم، وكان جرير يقول:

قال الأخيطل إن رأى راياتهم ... يا مار سرجس لا نريد قتالا

فالقول بأنَّ النبي (ﷺ) وأصحابه لم يبقوا على أيّ نزعة تخالف دين الإسلام، وأنهم

طووا شعر النصارى واليهود والمشركين محضُ تحكّم لم يقُم عليه أدنى دليل، بل قام الدليل على حرّية الإسلام وتساهله في الدين.

ونقل رواة المسلمين ليس شعر النصارى واليهود والمشركين فقط، بل أهاجي كثيرة قالها هؤلاء في النبي وأصحابه وأنصاره.

يا إخواننا إنَّه في صدر الإسلام كانوا يتناقلون مثل قوله:

لعبت هاشم بالدين وما ... نبأ جاء ولا وحي نزل

ليت أشياخي ببدر علموا ... قلق الخزرج من وقع الأسل

روى هذا المسلمون وما زالوا يروونه. وفي زمان بني أميّة كان العهد بسذاجة الجاهلية قريبًا، فكانت الحرّية في القول تامّة والألسنة منطلقة. وممَّا عزى إلى يزيد يوم جيء برأس الحسين رضي الله عنه:

مذ أقبلت تلك الرؤوس وأشرقت ... تلك الشموس على ربى جيرون

صاح الغراب فقلت صح أو لا تصح ... إنِّي قضيت من النبيّ ديوني

ثمَّ عُزي[1] إلى الوليد أنه قال، وقد سكر ومزّق القرآن:

إذا ما جئت ربّك يوم حشرٍ ... فقل يا رب مزّقني الوليد

نعم رويت هذه الأشعار وأمثالها مع لعن قائليها، ولكنَّها رويت وقيِّدت في التواريخ، ولم تمنع روايتها؛ ولا كان هناك قلم مراقبة ولا ديوان تفتيش، ولا كتب جائزة، ولا كتب ممنوعة.

وأمَّا عدم حرمة النبي والصحابة للشعر وقولهم إنَّ روايته ضلال فهذا زعم باطل مخالف للإجماع، فقد روى النبي (ﷺ) الشعر واستحسنه وقال "إنَّ من الشعر لحكمة". ورواه عمر وعلي وسائر الصحابة وتناشدوه وطربوا له وكان فكاهة مجالسهم. وقصّة كعب بن زهير مع رسول الله وإنشاده إيَّاه "بانت سعاد" واهتزاز النبي لهذه القصيدة وإنعامه

(١) عُزي: عبّر الأمير في نقل مثل هذه الأشعار بقوله "عزي" ليشير بذلك إلى أنها لم تتحقّق نسبتها إلى من نسبت إليهم، وقد نبّه إلى ذلك العلاّمة الشيخ شبلي النعماني (رحمه الله) في انتقاده كتب زيدان. وهذا أبلغ في بيان سماحة المسلمين وحريّتهم إذ أبقوا على مثل هذه الأقوال مع ضعف أنسابها "الزهراء".

على كعب ببردته الشريفة كلّ ذلك لا يحتاج إلى بيان. ولكن الشعر كسائر الأشياء إذا أسيء استعماله انقلب إلى الضرر. وإذا كان وقع من عمر رضي الله عنه ـ وهو من أبصر الناس بنقد الشعر وأشدّهم اهتزازًا لجيده ـ تضييق على الشعراء فيكون في المواطن التي أسيء فيها استعمال الشعر وصار بابًا للمشاحنات والفتن، وكما أنَّ للخليفة طبيعة ينفش بها إلى الأدب ويعجب بسحر البيان فإنَّ عليه واجبًا هو حماية الأعراض وحفظ السلام.

وأمَّا إزراء الشعر بالعلماء وما قاله بعض هؤلاء في الإعراض عنه والتعوّذ منه فهو من باب التورّع عند بعض الفقهاء، وذلك لأنهم كانوا يرون فيه مبالغة وغلوًّا وعبثًا، فأشفقوا من أن يؤثّر الاعتماد عليه في أخلاق الناشئة ويصرفهم عن العبادة.

ولكن هذا الزهد في الشعر لم يحملهم ولا حدا الخلفاء والسلاطين على منع قرض الشعر وروايته والتأدّب به. وذلك كما أنَّ نصرانية الأخطل والقطامي وأمثالها لم تمنع متأدّبي الإسلام من رواية أشعارهم وحفظها والتأدّب بها. وأنَّ وثنيّة أكثر شعراء الجاهلية لم تحُل دون انطباع طلاّب الفصاحة من المسلمين بأساليبهم ونسجهم على منوالهم. ومَنْ مِنَ العلماء والمؤرِّخين المحقّقين يقدر أن يقول إنَّ أدباء العرب بعد الإسلام رغبوا عن شعر الجاهلية وأهملوا روايته من أجل أنَّ قائليه كانوا مشركين؟ أو أنَّ المسلمين طووا كلام قس بن ساعدة لأنه كان نصرانيًّا؟ أو لم يعجبوا بقصيدة «إذا المرء لم يدنس من اللؤم عرضه» لأنَّ صاحبها كان يهوديًّا؟ مَن يا رب يقول هذا إلاَّ الذين يبنون التاريخ على الأهواء والخيالات؟

وقع التشدّد في مثل هذ الأمور في أيام الدولة العبّاسية، لبعد العهد بسذاجة الدور الأول، وميل هذه الدولة إلى مناحي الأعاجم، وفشو الفلسفة اليونانية والفارسية والهندية في دار السلام، ممَّا أخاف الخلفاء ووزراءهم على العقيدة الدينية وحفّزهم على الاحتياط لعدم انحلالها. وهذا أشبه بما كان في أوربة في القرون الوسطى، لا بل في القرون الأخيرة، لا بل بما لا تزال بقاياه إلى هذه الآونة. وبرغم ما كان من هذا الاحتياط في أيام العبّاسيين ومن في أعصرهم من ملوك الإسلام فقد كان الناس يروون أهاجيهم ومثالبهم، ويتناشدون المطاعن الفاحشة في أعراضهم حتَّى في مجالس أقرب الناس إليهم. وقد قال المأمون للقاضي يحيى ابن أكثم: من ذا الذي يقول:

قاضٍ يرى الحدّ في الزناء ولا
يرى على من يلوط من باس؟

يشير إلى أنَّ هذا البيت قيل فيه. فأجابه: هو الذي يا أمير المؤمنين يقول:

لا أرى الجور ينقضي وعلى الأمّـ ـة والٍ مِن آل عـبّـاس

وقد شاعت أقاويل التعطيل والإلحاد في هاتيك الأيام برغم الضغط والمراقبة، ودوّنت أقوال الملحدين والدهريّين.

ورويت أشعار المعرّي ومن في سبيله، حتّى في ما يخالف الدين الإسلامي مثل قوله:

وقـوم أتوا من أقاصي البـلاد لرمـي الجـمار ولثم الحَجَر

وكثير غير هذا من أقواله. ورسالة الغفران وصلت إلينا ولولا أنها تُدوولت بالنسخ من قراب ألف سنة ما وصلت إلينا. ولو كان هناك «سانسور» ما أبقى على رسالة الغفران.

وتجادل نصراني في الدين مع أحد بني العبّاس ونال النصراني من العقيدة الإسلامية. وبلغ المأمون ذلك فقال ما معناه: ما كان أغنى ابن عمّنا عن تعريض دينه للطعن.

والكتاب الذي كتبه أبو بكر الخوارزمي لشيعة نيسابور أشهر من «قِفَا نبكِ» وليس بكتاب خاصّ أو رسالة مكتومة، بل هو خطاب لأهل بلدة كانت من أشهر البلاد. وفيه من السبّ لمعاوية ما فيه ومن النعوت لخلفاء بني أميّة وبني العبّاس والخوض في أعراضهم ما لا يردّ في أقذع الجرائد. وهو الذي يقول عن الرشيد «هرون بن الخيزران»، وعن المتوكّل «المتوكّل على الشيطان لا على الرحمن» وهلمَّ جرًّا. وكان أبو بكر الخوارزمي في زمن بني العبّاس، وكان إذا قال أثر الناس قوله وتدارسوه.

ولا أنفي ـ مع ذلك ـ أنَّ الدول الإسلامية في القرون التالية كانت تحجر أحيانًا على الفلسفة التي يراد منها التعطيل أو الإلحاد، ويسمّون ذلك الزندقة، فأمَّا إزالة شعر النصارى أو اليهود أو المشركين ومنع روايته فشيء لم يقع لا في زمن الصحابة ولا في أيام بني أميّة ولا أيام بني العبّاس. وقد ألف النصارى في تعظيم دينهم في زمان بني العبّاس كتبًا كثيرة وتواريخ أيّدوا بها مذهبهم، وما اعترضهم أحد ولا منعت الدولة كتبهم.

وإن كان النبي (ﷺ) أمر بأن لا يجتمع في جزيرة العرب دينان، وأجلى عمر النصارى واليهود عنها، فلم يكن ذلك لينقص شيئًا من حرّية النصارى واليهود في دينهم في سائر بلاد الإسلام، بل من حرّية الصابئة والمجوس. وما قال مؤرِّخ غربي ولا شرقي إنَّ الإسلام

أكره أحدًا في الدين، أو منع كتب الملل الأخرى.

فيا إخواننا إنَّ التاريخ لا يكون بالظنّ، إنَّ الظنّ لا يغني من الحقّ شيئًا. وهذا نتف من كثير، ووشل من بحر، ولو كانت بيدنا الآن كتب لأحلناكم على شواهد لا تنتهي. فإن كنتم مع هذا تصرّون على المخالفة لأجل المخالفة فليس هذا ممَّا يزيد الثقة بعلمكم، بل هو ممَّا ينقصها، وبدلاً من أن يضع العلم على قواعد اليقين يضعه على قواعد أوهى من بيت العنكبوت...

رومة، في ٨ مارس

شكيب أرسلان

النهضة الشرقية الحديثة*

ـ أظهر مظاهرها وأبقى آثارها

كان الاحتفال بعيد المقتطف الخمسيني باعثًا على التأمّل في أحوال النهضة الشرقية الحديثة، فوقف المفكّرون هنيهة ينظرون إلى الوراء يستعرضون خمسين سنة انقضت منذ بدأت في الشرق الأدنى نهضة عامّة، تؤذن بانتظام الأمم الشرقية مع الأمم الغربية في موكب العمران الفخم. في هذه الحقبة شيّدت المدارس على اختلاف مراتبها من أوّلية وثانوية وعالية، وزاد الإقبال عليها رويدًا رويدًا، وأنشئت الصحف اليومية والأسبوعية والشهرية وأخذت تزداد عددًا وحجمًا ومقامًا وانتشارًا، ونشرت حقائق العلوم الطبيعية والاجتماعية وأساليب التفكير والبحث الحديثة، وكثر المتأدّبون والكتّاب وارتقى ما يكتبونه وتنوع وزاد جمهور القرّاء بازدياد المدارس، وتقدّمت مرافق البلاد الاقتصادية، فارتقت الزراعة واتّسعت أبواب التجارة، وتحرّرت المرأة بعض التحرّر ودخلت ميدان الأعمال. ثمَّ جاءت الحرب العالمية فنبّهت في شعوب الشرق الأدنى روح الاستقلال القومي، بعدما نبَّه التعليم الغربي روح الاستقلال الشخصي، وبثّت الحذر والخوف من وسائل الغرب السياسية. فكان من كلّ ذلك ما نسمّيه نهضة عمرانية تشمل مصر والشام والعراق وبلاد العرب وغيرها من البلدان المجاورة لها.

وقفنا نستعرض كلّ هذا ونسأل أنفسنا ترى أيّ مظاهر هذه النهضة أظهرها ـ السياسي منها أم الفكري أم الاجتماعي، أطلب الاستقلال القومي أم اقتفاء علماء الغرب ومفكّريه في أساليبهم، أم طلب الاستقلال الفردي ونشر التعليم وزيادة الثروة العامّة؟ وهل تتَّصل أصول هذه النهضة بأعماق النفوس، يلقّنها الجيل الحاضر للجيل المقبل، أم هي مظاهر تبدو على وجه الحياة العامّة ثمَّ لا تلبث أن تزول. هذا ما جال في خاطرنا حين وجّهنا إلى نفرٍ من أصدقاء المقتطف وأكبر الكتّاب والمفكّرين في البلدان العربية والمهاجر السؤال التالي: «ما هي أظهر مظاهر النهضة الشرقية الحديثة (ويراد بالشرقية ما يشمل مصر وسورية والعراق وبلاد العرب و«بالحديثة» عهد المقتطف أي منذ خمسين سنة إلى الآن) وما يحتمل أن

★ شكيب أرسلان.

المقتطف ج٧٠ (يناير كانون الثاني ١٩٢٧ ـ ص ٩ ـ ١٥ وص ١٣٦ ـ ١٤٣).

تفضي إليه من النتائج الباقية الأثر في التاريخ» فتكرّموا ولبّوا، وسننشر رسائلهم تباعًا في أجزاء المقتطف هذه السنة، ليطّلع عليها قرّاؤه وتكون خلاصة طلبنا وافية لآراء أكبر المفكّرين في هذا القطر وسائر الأقطار العربية.

١- رأي الأمير شكيب أرسلان

خطر لبعض المفكّرين أن يسأل الناس رأيهم في هذه النهضة الشرقية العربية التي بدأت منذ نحو قرن في مصر والشام والعراق وما جاورها من بلاد العرب، ثمَّ حمي وطيسها منذ خمسين سنة أي منذ ظهر المقتطف، وأن يستطلع أهل الذكر مذهبهم في أيّ مظهر من مظاهر الحياة. كانت هذه النهضة أجلى وأسطع وأبقى أثرًا، وأن يكون كلام من يُري زنده للجواب في عجالة موجزة لا تتجاوز أربع صفحات من هذه المجلّة.

ولمَّا كان هذا العاجز على ظلعه ممَّن أُلقي عليهم هذا السؤال لم أجد بدًّا من الإجابة بما يفتحه الله عليَّ من هذا الباب، تاركًا للقرّاء سدّ ما يوجد بينه وبين الواقع من فراغ. فأقول:

- نهضة العلم والتعليم

لا حاجة إلى القول بأنَّ أجلى مجالي النهضة كان في العلم والتعليم. وعندي أنه لا نهضة للأمم سوى النهضة العلمية، فإذا وجدت هذه جاءت سائر النهضات من سياسية وعسكرية و اجتماعية واقتصادية إلخ آخذًا بعضها برقاب بعض. فإذا قلنا إنَّ الشرق الأدنى نهض نهضة علمية، كفينا تعداد سائر مظاهر نهوضه ومعارج رقيّه لأنَّ العِلم وحده هو المفتاح وبه وحده الدخول إلى داخل البناء. وكلّ نهضة لا يكون ظهرها العلم فما هي إلاَّ ساعة وتضمحلّ. وقد يقال إنَّ نهضة شرقنا هذه ضئيلة لا تستحقّ أن تذكر بالقياس إلى معالي الأمم الراقية، وإنَّنا لا نبرح متخلّفين بمساوق شاسعة عن أمد أوربا وأميركا واليابان فلماذا نشغل أنفسنا بما لا يشغل حيّزًا في التاريخ العام؟ وعلى هذا نجاوب أنه ليس العلم متعلّقًا بالكمال وحده، ولا البحث موقوفًا دائمًا على ما بهر النُّهى وبلغ سدرة المنتهى، وإنَّما العلم هو ما تناول الدرجات كلّها الدنيا منها والقصوى، والبحث هو الذي به توزن مقادير الأشياء وتحدّد نسبة بعضها إلى بعض ونسبتها إلى الوقت. ثمَّ إنَّنا إذا تحرّينا الحقيقة وجدنا الشرق العربي قد اجتاز في هذه الخمسين سنة في طريق العلم والحضارة الحديثة ما لم يتهيَّأ

لأوربا أن تجتازه في أطول جدًّا من هذا الردح من الدهر. وذلك أنه من الطبيعي أن يسهل على المتأخّر ما لا يسهل على المتقدّم لأنَّ المتقدّم قد يضطرّ أن يمهّد الطريق وييسر وأمَّا المتأخّر فما عليه إلاَّ أن يلحق ويسير على طريق مذلَّل أمامه.

ـ محمّد علي الكبير مؤسّس النهضة

فالنهضة الشرقية العربية ـ نسمّيها بالعربية إخراجًا لما سواها من نهضات الشرق، كنهضة اليابان والصين في الشرق الأقصى، ونهضة فارس والأفغان والهند في الشرق الأوسط، ونهضة الترك في الشرق الأدنى بحذائنا[1] ـ قد بدأت في الواقع منذ أكثر من مائة سنة لعهد محمَّد علي عزيز مصر. فهو أول من لحظ الخطر الحائق بالشرق من جرّاء جموده على أساليب العمران القديمة، وجعل نصب عينيه حُدَيًّا الغرب في أساليبه الجديدة حتّى يتأتّى للشرق أن يقاتل الغرب بسلاحه ويدفعه عنه ويستقلّ بنفسه. إذ كانت سنَّة الله منذ وجد العمران على سطح هذه الكرة أنه كلَّما تقوّى جانب منها سطا على الآخر، واجتاحه وضرب عليه الذلّة والمسكنة.

فمحمَّد علي هو المؤسِّس الحقيقي لهذه النهضة الشرقية العربية، ليس بوادي النيل فحسب، بل في البلاد التي تجاور هذا الوادي المبارك وفي مقدّمتها سورية. وأول ما استنشأ السوريون ريح الحضارة الحديثة، إنَّما كان في زمن محمَّد علي وفي أثناء غزاة ولده ابرهيم باشا للشام. ثمَّ انكفأ ابرهيم باشا إلى مصر سنة ١٨٥٠ وبقيت في سورية آثار الانتباه ونزعة التجدّد وجدَّ السوريون لا سيَّما أهل الساحل منهم ينشدون أسباب المدنيّة الغربية لمّا رأوا بها من القوّة والرفاهية. وآنس المرسلون الأميركيون هذا الاستعداد في أهل سورية فأسَّسوا في بيروت كلّيتهم الشهيرة، فهي النبراس الأول الذي استضاءت به سورية ولا يزال يزهر في آفاق الشرق الأدنى إلى يومنا هذا. ورأت أمم أخرى أنَّ أرض سورية قابلة جدًّا لبذور المعارف فبثّوا فيها المدارس والكتاتيب وكلّ ذلك كان يبدأ في بيروت، ثغر الشام البسّام، ففي بيروت والحقّ يقال ابتزغ زرع العلم العصري وأخرج شطأه ثمَّ انبثّ في جميع الشامات ثمَّ فيما جاورها ونما واستوى على سوقه يعجب حتّى الأوربيين أنفسهم. واضطرّت الدولة العثمانية أن تفتح المكاتب الرشدية والإعدادية في سورية ثمَّ أن تقبل كثيرًا من شبّان السوريين في مكاتبها العالية في القسطنطينية، فتخرَّج فيها مئات لا بل ألوف من

(١) بحذائنا: أي بمحاذاتنا.

الناشئة، منهم من تقلّدوا مناصب ملكية ومنهم من تعاطوا مهنة المحاماة أو الطبّ أو الصيدلة ومنهم ضبّاط نبغوا في الفنون العسكرية وامتازوا بين الأقران. وأن ضبّاط العرب في العراق وسورية واليمن كلّهم ممَّن تخرج في مكتب بانغالدي بالأستانة وقد يزيدون على ثلاثة آلاف ضابط فيما يقال.

ومع أنَّ النهضة العلمية المصرية لم يكن الأصل فيها لا الكليّة الأميركية ولا الكليّة اليسوعية في بيروت ولا مكاتب الدولة بالأستانة، فممَّا لا ينكر أنَّ مصر كانت ميدانًا لجياد القرائح السورية وأنَّ أنبغ الذين تخرّجوا في بيروت إنَّما ظهروا واشتهروا وتعلَّقت قناديلهم بمصر. كما أنَّ لمصر على الشام فضل تخريج عدد لا يحصر من أبنائها في العلوم اللغوية والشرعية بالجامع الأزهر، وتخريج عدد كبير من أطبّاء سورية بالقصر العيني. وما زال كلّ من القطرين المصري والشامي يشدّ أحدهما الآخر في كلّ ضرب من ضروب الرقيّ. وقلَّما جدَّ في أحدهما شيء إلاَّ سمعت رجع صداه في الآخر. على أنَّ النهضة الشرقية العربية ـ وإن بدأت منذ نحو قرن ـ فلم تسِر هذا السير الحثيث إلاَّ في الخمسين سنة الأخيرة، وممَّا لا جدال فيه أنَّ لمجلّة «المقتطف» يدًّا طولى في هذه النهضة لا ينكرها إلاَّ المكابر.

ـ **الصحافة والطباعة**

فلمَّا ظهر المقتطف في بيروت لم يكن فيها إلاَّ ثلاث أو أربع جرائد ولم يكن في سائر مدن سورية ولا جريدة. والحال أنه لمَّا نشبت الحرب الكبرى أي بعد ظهور المقتطف بثمان وثلاثين سنة كان ينشر في سورية وفلسطين نحو ثمانين جريدة، موزّعة بين بيروت وجبل لبنان ودمشق وطرابلس واللاذقيّة وحمص وحماه وحلب وصيدا وحيفا ويافا والقدس. وكانت تظهر فيها مجلاّت شهرية وأسبوعية بشكل كرّاسة لا تقل عن بضع عشرة مجلّة. فهذا أفصح بيان عن سرعة رقيّ سورية، وإنّي لا أرى في البيان أفصح من الأرقام. فوفرة الجرائد دليل على وفرة عدد القرّاء ووفرة عدد القرّاء أول دليل على صدق عمل المدارس وانتشار العلم وتناقُص الأمّية، ويلحق الاستدلال بالجرائد الاستدلال بالمطابع فقد كان في جميع سورية منذ خمسين سنة بضع مطابع في بيروت وواحدة للحكومة في دمشق وأخرى في حلب. والحال أنه لا يوجد في سورية اليوم مدينة إلاَّ فيها مطبعة، بل مطابع. وإنَّك لتجد منها في بعض القصبات التي لا يزيد أهلها على أربعة آلاف نسمة كدير القمر وجونية أو ألفين كجزين أو بعض القرى البسيطة كاعبيه وعاليه. وبديهي أنَّ صاحب المطبعة إن لم يجد

لها عملاً يقوم بنفقاتها أسرعَ إلى إغلاقها، ولا يشتغل الإنسان في الغالب إلاَّ بما يعود عليه بالربح. وليس عمل المطابع إلاَّ طبع الجرائد والكتب التي إن لم تجد عددًا كافيًا من المشتركين والمشترين لم يقدم أصحابها على طبعها. ولك أن تقول مثل ذلك في مصر التي كان فيها سنة عُرابي[1] بضع جرائد فبلغت جرائدها اليوم أضعاف ذلك ثمَّ إنَّه لوفرة عدد السكان وتزايد القرّاء منهم وارتقاء المستوى العقلي تجد بمصر جرائد يومية ذوات ثماني صفحات فأكثر، تضاهي أحسن جرائد أوربا إتقان كتابة وغزارة مواد وسعة انتشار، وقد أكَّد لي أحد الأخبار بين الأوربيين وكان يراسل إحدى أمّهات جرائد مصر أنَّ هذه الجريدة لو وضعت بجانب صحف باريز لكانت معادلة لأحسنِها. وبلغني أنَّ في القاهرة صحفًا يومية تطبع من ٣٠ إلى ٤٠ ألف نسخة كلّ يوم.

ـ الشيخ علي يوسف والمؤيّد

وأنا أورد لك مثالاً وقع معي: جئت إلى مصر سنة ١٨٩٠ وزرت أصحاب المقتطف والمقطم الأساتذة الدكاترة فكانت المجلّة والجريدة على رواج عظيم، ولكن رواجهما اليوم لا يقاس به رواج الأمس. أمّا الأعجوبة فليست هنا، بل هي قصّة المرحوم الشيخ علي يوسف. كنّا نجتمع دائمًا في مجلس المرحوم الأستاذ الإمام الشيخ محمَّد عبده وأكثر ما نسمر عند صاحب الدولة سعد باشا زغلول، وهو يومئذٍ سعد أفندي زغلول المحامي الشهير بمصر. وكان ينتاب تلك الحلقة شيخ شَخْت الخلقة اسمه الشيخ علي يوسف يأتي فيجلس في الآخر ويلبث أكثر المجلس ساكتًا مستمعًا. وتكاد ترثي له لضعفه ومسكنته. وكان قد بدأ بإصدار جريدة اسمها «المؤيّد» كانت تظهر مرّتين في الأسبوع وهو يعجز أن يجعلها يومية. إلاّ أنَّ هذا الرجل على ضؤولة جسمه كانت بادية عليه سماء الهمّة والعزم. وزرته مرّة إلى مطبعة المؤيّد فرأيته جالسًا على مقعد رثّ لا يسع أكثر من ثلاثة جلوس بعضهم بجانب بعض وأمامه منضدة بدون غطاء عليها من بقع الحبر ما يهول الناظر وهو يعالج تحرير مقالة في دخول العام الهجري الجديد يومئذٍ ولا يعرف كيف يصوغها. وكانت بجانب تلك الغرفة غرفة ثانية وبينهما باب مفتوح وهذه الغرفة الثانية فيها المطبعة وأنا من مكان جلوسي أرى منضّدي الأحرف من خلال الباب المفتوح يصفّون الحروف. ولمّا رأيت الشيخ عليًا في تعب زائد مع مقالته هذه على الحلول الجديد وهو يكتب ويطلس

(١) أحمد عرابي: (١٨٤١ ـ ١٩١١) قائد عسكري وزعيم مصري، قاد الثورة العُرابية ضدّ الخديوي توفيق، فكان القائد لأولى الثورات المصرية في العصر الحديث.

ويمحو ويثبت، قلت له: لو قلت كذا كذا... فأجابني: بالله عليك تكتب هذه الافتتاحية. فكتبتها أمامه. ثمَّ بعد ٢٠ سنة من ذلك العهد جئت إلى مصر وأنا ذاهب إلى حرب طرابلس فماذا وجدت؟ وجدت جريدة المؤيّد من أعظم الجرائد اليومية في مصر تطبع من ٢٠ إلى ٣٠ ألف نسخة كلّ يوم. ووجدت إدارة المؤيّد تكاد تكون قصرًا من قصور الأمراء فيها الزرابي الحريرية المبثوثة والطنافس الفاخرة بدلاً عن ذلك المقعد الحقير عليه ذلك الغطاء القديم من الشيت. ووجدت مطبعة بخارية من أكبر المطابع كان اشتراها بخمسة آلاف جنيه مع أنَّ تلك المطبعة القديمة التي رأيتها ما كانت لتساوي مائة جنيه. ووجدت الشيخ علي يوسف من أكتب كتاب مصر وأسيلهم قلمًا، فضلاً عن أنه من عيون أعيان مصر وأشهرهم ذكرًا. ولم يغفل الشيخ علي أن يذكّرني بزيارتي الأولى وهو على تلك الحالة وأن يقابل بها الحالة التي رأيتها يوم زيارتي الثانية. فهذا المثال البارز كافٍ لقياس درجة الرقيّ الفكري في الشرق.

ـ المدارس

على أنَّ الجرائد ليست وحدها هي المقياس، ويجب أن ننظر إلى عدد المدارس والكتاتيب. فهذه بيروت التي لا يسكنها أكثر من ١٤٠ ألف نسمة توجد فيها جامعات للعلم لو قرنتها بجامعات أوربا لم تقصر عنها. هذا عدا ما فيها من مدارس من الدرجة الثانية والثالثة بحيث لو قست حركة التعليم في بيروت إلى حركة التعليم في أوربا مع مراعاة عدد السكّان لوجدت كثيرًا من المدن الأوروبية لا تسبق أمد بيروت. ومثل ذلك القدس الشريف الذي مدارسه العلمية والصناعية وافرة جدًّا بالنسبة إلى عدد سكّانه. وأحصينا مرّة في نابلس سنة ١٩١٢ عدد المتعلّمين من هذه البلدة فوجدنا عندهم ألفين من الأحداث في المكاتب الأميرية، وأحصينا عدد طلاّب المدارس العالية في الآستانة وأوربا فكانوا نحو مائة، مع أنَّ سكّان مدينة نابلس لا يزيدون على ٢٥ ألف نسمة.

وهذه النسبة تتمشّى على أكثر سورية بدرجات متفاوتة. وأظنّها تنطبق أيضًا على الديار المصرية وإن كنت أعتقد أنَّ الأمّيين لا يزالون في مصر أكثر منهم في سورية. أمّا التقدّم في التعليم في سائر البلاد العربية فأكثر ما برز للعيان أخيرًا في مدّة قصيرة في المملكة العراقية بعد أن حصلت على حكومتها الوطنية. والحكومة العراقية بهمّة الملك فيصل معتنية بزيادة

المدارس والكتاتيب ومنتظرة زيادة دخلها بعد مباشرة استخراج البترول لسدّ حاجة الأهلين كلّها من التعليم العالي والتالي والابتدائي. وقد بلغني أنَّ كتبية القاهرة يصدرون كلّ سنة مقادير جسيمة من الكتب المدرسيّة وغيرها إلى بغداد.

ـ الحركة التعليميّة في نجد واليمن

ثمَّ إنَّ في نجد حركة تعليمية تستحقّ التنويه بها سببها أنَّ الدعوة الوهابية توجب حمل جميع الناس على التعلّم بدون استثناء. وهو عندهم بمقام الجهاد، فترى الفقهاء والمعلّمين يجوبون الحواضر والبوادي ويفتحون الكتاتيب للأحداث وتشرّق قبائل العرب وتغرّب، والمعلّمون معها حتّى لا ينقطع التعليم بالرحيل. فالأمّية في البلاد الخاضعة لسلطان ابن سعود ستكون نادرة. ولكن يعترض بعضهم قائلاً: إنَّ هذا التعليم النجدي لا يساعد على الرقيّ، بل هو من النمط القديم القهقري الجامد الذي ليس فيه كبير جداء في هذا العصر. وهذا القول مردود من وجوه أولاً أنَّ النجديين ملتزم عندهم تعميم القراءة والكتابة بدوًا وحضرًا وزوال الأمّية بنفسه درجة عالية من العلم. وبعد فإنّهم يحفِّظون الأحداث القرآن الكريم ويفسّرونه لهم. وأي كتاب حثّ على العلم والتعليم والبحث والسير والنظر ووقر العلماء ونوّه بالحكمة أكثر من القرآن؟ ثمَّ إنَّ منزع النجديين في الدين منزع إصلاح وترقية وتنقية ومشرب بعيد بالمرّة عن الخرافات والأوهام. وهذا المشرب مستحبّ جدًّا في العصر الحالي وإذا سألت الأوربيين قالوا لك إنَّ هذا المشرب هو الذي فكّ قيود الأفكار، وحلّ عُقُل العقول وكان فاتحة عهد الارتقاء في الغرب. وكثيرًا ما أطلق الأوربيون على الوهابيين لقب «بروتستانت الإسلام».

وهذا الملك عبد العزيز بن سعود وهو إمام الوهابيين والمهيمن على تنفيذ مبادئهم لا يقف عن قبول أي علم نافع أو أي اختراع عصري مفيد، بل تراه دَئِبًا في تجهيز مملكته بأساليب العمران الحديثة. وعنده التلغراف والتليفون والأوتوموبيل يسير في طول البلاد وعرضها. وسيمدّ السكك الحديدية ويستخدم الطيّارات ويعتني بالوسائل العلمية لحفظ الصحّة العمومية. وإنّني بينما أنا الآن أحرّر هذه السطور تأتيني وصاة من حكومة الحجاز بأن ننشد لها أستاذًا بكتريولوجيًّا من سويسرة يقيم بجدّة ويصيف بالطائف ويكون له راتب وافٍ، فكيف بعد هذا وأشباهه يقال إنَّ الوهابيين جامدون غير قابلين للجديد. والذي نعلمه أنَّ الوهابيين يقبلون كلّ إصلاح ما لم يصادم الدين. والعلم والدين لا

يتصادمان عند من أحسن فهم العلم والدين. وأمّا اليمن، فالمسموع أنه لا يكاد يوجد فيه قرية تخلو من فقيه يعلِّم الأحداث القراءة والكتابة، ولا توجد مدينة ولا قصبة إلاّ فيها حلقات التدريس للعلوم اللغوية والشرعية. وأكثر من يُعنى بالعلم هم أهل حضرموت.

أمّا العلوم العصرية، فإنّ الإمام يحيى بن محمَّد بن حميد الدين غير غافل عن الشقّ الذي لا يجد منه مندوحة لأجل وقاية بلاده. وقد سبق لمحرّر هذه السطور مراسلة مع جلالته بيّنت له فيها ما لا بدّ منه عقلاً وشرعًا وعرفًا من أخذ اليمن بالمبادئ العصرية في العلم والصناعة، تأمينًا لاستقلال البلاد العربية من عوادي الأجانب الواقفين لنا بالمرصاد، فأجابني بأنه غير مهمل لهذا الأمر وأنّ هذا الصلاح وإن كان لا يزال طفلاً في اليمن فسينمو ويكمل بحول الله تعالى. على أنّ في صنعاء مدرسة عسكرية ومعملاً صغيرًا للسلاح يديره ضابط نمسوي وعددٌ من ضبّاط الأتراك والعرب يدرّبون الجيش اليماني. وتجد الأسلاك البرقية ممتدّة كما كانت في أيام الدولة وقد أضيف إليها التلغراف اللاسلكي الذي نصب الإمام له مراكز عدّة. وإن صحّ خبر المعاهدة بين الإمام وإيطالية، فيدخل الإمام في جيشه وفي بلاده كثيرًا من الأجهزة الحديثة.

(ستأتي البقيّة)

لوزان

شكيب أرسلان

٣ـ تتمّة رأي الأمير شكيب أرسلان في النهضة الشرقية الحديثة★

ـ طلب العلم في الغرب

نهضت هذه الرقعة المشرقية في تعلّم اللغات الأوربية والفنون الغربية فنجد ألوفًا في سورية يتكلّمون بالإفرنسية والإنكليزية وألوفًا يتكلّمون بهما في مصر. وتجد في باريز ولندن وبرلين وسويسرة وڤينا[1] ورومة ألوفًا من الشرقيين يحصّلون مختلف العلوم ويتعلّمون الصناعات. ولمّا كنت رئيس النادي الشرقي في برلين كان عندي مشتركون من الطلبة المصريين نحو مائة، وعلمت أنّ المصريين الذين يطلبون العلم في الجامعات الألمانية

★ لقد تمّ نشر هذا الجزء من عدد شباط (فبراير) ١٩٢٧ من رأي الأمير شكيب أرسلان بإغفال الجزء الثاني فاقتضى الإيضاح.

(١) فيينا.

يبلغون ٤٠٠ ومن المصريين، مئون أُخَر يطلبون العلم في لندن وباريز وروما وڤينا وجنيف ولوزان. وأمّا السوريون والعراقيون فمنهم في ألمانية نحو المائة، وضعف ذلك في فرنسا وعشرات في بلاد الإنكليز وعشرات في سويسرة.

ـ نهضة اللغة العربية

هذا وأمّا اللغة العربية العزيزة فقد طارت في هذه الخمسين سنة بجناحين وخلتُها عادت إلى جلالها الماضي وعنجهيتها القديمة. فكثر سواد الكتّاب والشعراء حتّى صاروا يحصَون بالمئات إن لم يكن بالألوف. ونبغ منهم فحول يمكن الإنسان أن يلزّهم في صفوف المنشئين والشعراء من أهل القرون الأولى للإسلام، عندما كانت اللغة في إبّان سورتها. فلا تنظر في جريدة إلاّ تجد فيها من النظم الفائق والنثر الرائق لشبّان لم تسمع في عمرك بأسمائهم، هذا عدا المفلقين والعبقريين الذين سارت بذكرهم الركبان. ولم يكن منذ خمسين سنة بمصر والشام والعراق معشار العدد الذي تجده في يوم الناس هذا من هذه الطبقة. وكان إذا نبغ شاعر أو برع كاتب لذلك العهد ضرب به المثل لتفرّده ونُدور من يباريه في صناعته، فلو نشرته اليوم من قبره وعرضته في الجمع لوجدت من أمثاله كثيرًا، وإن كانت لا تزال له طلاوة فيكون في صفّ المجيدين لا في صفّ العبقريين. وأحسن من هذا أنّ الكتابة لم تتقدّم في فصاحة الجمل وتنقيح العبارات فحسب، بل علت بأسلوبها الحكيم وتشبّعت بالمعاني التي أوجدتها حركة العلم الحديثة، فتبدّلت الصناعة اللفظية والسجع القديم بالمسحة العلمية والإنشاء المرسل.

وقد كثر في القطرين الأساتذة في علم الحقوق، ونبغ منهم من يطاول المحامين الأوربيين في إتقان المهنة، ولكنّهم بمصر أكثر منهم بالشام لما في مصر من استبحار العمران الذي ليس في الشام، كما أنّ خرّيجي الهندسة بمصر أكثر جدًّا منهم في سورية، وذلك بسبب أنّ الزراعة في مصر أرقى جدًّا منها في سورية.

وأمّا الطبّ فحسبُك أنّ الدولة العثمانية أخذت لجيشها في الحرب الكبرى مائتي طبيب ذي شهادة من جبل لبنان فقط. هذا عدا من بقي منهم في البلاد. وترى كثيرًا من خرّيجي مدارس الطبّ في سورية ومن السوريين المتخرّجين في مكاتب الطبّ في الآستانة وأوربا يتعاطون صنعتهم في مصر والسودان والعراق وغيرها. وبالإجمال، الطبّ فنّ لا يقصّر فيه الشرقيون عن الغربيين، فكان عندهم فيه ملكة فطرية ورثوها من أوائلهم.

- هجرة السوريين إلى أميركا

ومن أهمّ مظاهر النهضة الشرقية العربية المهاجرة، التي قام بها السوريون إلى أميركا وأستراليا وجزائر البحر المحيط وأفريقية، فضربوا في مناكب هذه القارّات المتنائية، ولم تكد تخفى عنهم منها زاوية، وكانوا أينما حلّوا يبزّون سواهم ويتحدّث أهل تلك البلاد التي نزلوا بها بفرط ذكائهم وحسن قيامهم على العمل. ولمّا كانت الجرائد من أحسن المقاييس للرقيّ نقول، إنَّ في الأميركيين الشمالية والجنوبية نحو ٣٠ جريدة ومجلّة بهذا اللسان العربي المبين. وإنَّ في الجالية السورية هناك من الكتّاب والشعراء والأدباء والأطبّاء والفلاسفة نفرًا تفتخر بهم أوطانهم. وترى هذه الجاليات في وسط هاتيك الأمم العديدة أشبه بجزائر عربية في أوقيانوس أمم غربية قد احتفظت تلك الجزائر بلغتها وآدابها وأذواقها، وهذا برهان الأصالة والنبالة وعلوّ الهمّة، فإنَّ الذي يخجل بوطنه وقومه ليس بإنسان. وقد أسّس السوريون في البرازيل مدارس خاصّة بهم، يعلّمون فيها أولادهم اللسان العربي والآداب العربية إشفاقًا على جنسيتهم أن تذوب في غيرها. وحبّذا لو اقتدى بجالية البرازيل سائر الجالية العربية في أميركا.

- ازدياد الثروة

ولقد كان من ثمرات هذه المهاجرة أن تسرَّب إلى سورية أموال لا عهد لها بها، فارتقت أثمان الأراضي ارتقاءً زائدًا في جميع أنحاء سورية، وأصبح ما كان يساوي من الأرض عشرة جنيهات يرتفع في عشر سنين إلى مائتين وثلاثمائة جنيه فأكثر. وظنّ بعضهم أنَّ ارتفاع أثمان الأراضي هذا ناشئ عن وجود اليهود الصهيونيين في فلسطين ومغالاتهم في شراء الأراضي، وهو رأي لا يوجد أعرق منه في الوهم، إذ إنَّ الأراضي في سورية الشمالية حلب وأنطاكية وحماه وحمص واللاذقية وفي سورية الوسطى دمشق وحوران وجبل لبنان وطرابلس وبلاد بشارة، قد ارتفعت أثمانها كما ارتفعت في فلسطين وأكثر. فالأصحّ في ارتفاع أثمان الأملاك هو ما يأتي: امتداد السكك الحديدية التي لم تكن من قبل، فصار يمكن إصدار الغلاّت إلى الخارج. ثانيًا، ارتفاع أسعار كثير من الحاصلات بزيادة المقطوعية العامّة. ثالثًا، درّ أخلاف المهاجرة بالأموال الطائلة. وكان من نتائج المهاجرة أنَّ المهاجرين بعد أن شاهدوا في المهجر ما شاهدوه من المدنيّة الباهرة، والزخرف الآخذ بالأبصار، والبنيان الشامخ، صارت تأنف نفوسهم من الإقامة في تلك المساكن الحقيرة، والأعشاش التي درجوا

منها، فلمّا رجعوا إلى الأوطان بذلوا قسمًا كبيرًا من الأموال التي اقترفوها في تشييد منازل أنيقة رحبة ضاربة في العلوّ، وفي تزيينها بالمفروشات النفيسة، فجرى انقلاب عظيم في المساكن وفي نوع المعيشة. وصارت القربة التي كنت لا تراها من قبل إلاّ بعد أن تصير فيها من شدّة اطمئنانها وحطّتها إذا دخلتَ فيها اليوم ظننتها «سرّ من رأى» لعهد بني العبّاس. وكيفما انقلبت لا سيّما في القرى والدساكر التي كانت معروفة بحقارتها، لا ترى إلاّ قصورًا ممرّدة، وصروحًا مشيّدة.

ـ هجرة الحضارمة

وإنَّ في العرب جيلاً لا يفوقهم السوريون في الإقدام على المهاجرة، ولا في ترك الآثار الباقية حيث انتجعوا، ألا وهُم الحضارمة. وليست نهضة أهل حضرموت للمهاجرة وقطع البحار شيئًا جديدًا بدا منذ خمسين سنة أو مائة سنة، بل هم أشبه الأمم بالفينيقيين ـ والفينيقيون أصلهم من جزيرة العرب ـ هبّوا على عنق الدهر فارتادوا سواحل الحبشة والصومال وزنجبار والهند والجزر التي في تلك البحار وأثروا الآثار وسادوا الأقوام، وهذا كان في الجاهلية. فلمّا ظهر الإسلام حملوا إلى تلك الأقاصي الحضارة العربية والشريعة الإسلامية. وإليك شذرة من فصل عن أهل حضرموت، نشره في مجلّة الزهراء أخيرًا الأستاذ محمَّد بن عقيل، من نخبة فضلاء جزيرة العرب. قال:

«لم تزل الهجرة من دأب الحضرميين منذ عرفهم التاريخ، وقد ملأوا سواحل الصومال وغيرها من شمال أفريقية في سابق العصور قبل الإسلام وبعده. وطالما انتشرت جالياتهم في العراق ومصر والسودان والأندلس (الإمام ابن خلدون صاحب التاريخ كان حضرميًّا) وغيرها بعد الفتح الإسلامي، فكان لها ذِكر وأثر لا ينسى. ولنشاطهم في الأسفار وشغفهم بالتجارة، واعتمادهم على الكسب من البلاد البعيدة، توغّلوا في أفريقية فأسلم بدعوتهم من أسلم من الحبشة والصومال وشرقي أفريقية إلى رأس الرجاء الصالح ومن في الجزائر التي بجوار تلك السواحل مثل ماداغسكر وجزائر القمر، وكذا أيضًا جلّ من أسلم من سكّان الشطوط الجنوبية من الهند ومثلها الشرقية منها وبعض من في داخلية تلك الأقطار ومن في برما وسيام وسومطرة وجاوه وفيلبين». إلى أن يقول «وقد صار للحضارمة هناك عزّ كبير ونفوذ واسع النطاق وثروة طائلة وإمارات متعدّدة ولم يزل إلى الآن بيدهم من ذلك شيء له قدر إن حفظوه».

أشار السيِّد الحضرمي بذلك إلى أنَّ نفوذ الحضارمة غلبت عليه الدول الأوربية المستعمرة كالإنكليز في زنجبار والصومال، وكالألمان في دار السلام، وكالفرنسيس في ماداغسكر وجزائر القمر، وكالهولانديين في جاوه وسومطره، وهلمّ جرًّا. ولذلك يصحّ أن نقول إنَّ بسطة العرب هناك في غيض لا في فيض. على أنَّ القهقرى[1] وقعت في سلطنة عمان أكثر ممّا وقعت بحضرموت، فقد كانت هذه السلطنة منذ مائة سنة تملك مائة بارجة حربية، وكانت أقوى دولة بحرية بعد إنكلترا في بحر الهند، فانحطّت اليوم إلى إمارة بسيطة لا شأن يذكر لها. ولكنَّ همّة الحضارمة في الأسفار والعمانيين في ركوب البحار لم تفتر. ولأهل جزيرة البحرين والسواحل العربية في خليج فارس الهمّة القعساء والإقدام العظيم في الغوص على اللؤلؤ، ويقدر الداخل منه كلّ سنة للغوّاصين وأصحاب رؤوس الأموال الذين ينفقون على المغاص بنحو مليوني جنيه.

- ارتقاء الزراعة

ونعود إلى مصر والشام والعراق فنقول، إنّه لا مشاحة في كون الزراعة قد ترقّت بمصر ترقيًا جعلها البلاد الزراعية الأولى في الشرق الأدنى. ولا نبالغ إذا قلنا إنّها من الطبقة الأولى في الزراعة في المعمور كلّه، قد تلاقت في رقي زراعة وادي النيل الطبيعة مع الصناعة.

وأمّا سورية والعراق، فالترقّي الزراعي فيهما لا يزال ضئيلاً بطيئًا، وإنَّ استعمال المحاريث الجديدة على البخار والكهرباء وآلات الحصاد والدِراس لا يزال نادرًا في بلادنا، إلاّ في المزارع الصهيونية في فلسطين. ومن الغريب أنَّ الماكنات الزراعية الحديثة فشا استعمالها في بلاد أطنه من تركيا وبجوارها السوريون ينظرون إلى ذلك، وينظرون إلى الصهيونيين بفلسطين، ولا يتحمّسون ولا يعدلون عن المحاريث القديمة والحصاد باليد، والتذرية باليد مع أنَّ الفرق بين القديم والجديد من جهة الغلّة قد يبلغ النصف.

ومع هذا التخلّف كلّه في استخدام الأدوات الجديدة إلاّ نادرًا تجد الحاصلات قد تضاعفت بصورة مدهشة، فقد استعملت قبل الحرب العامّة عن معدّل زيادة الأعشار التي تجبوها الحكومة، فظهر لي أنَّ اللواء الواحد كلواء نابلس أو عكّا مثلاً كان قبل بعشر سنوات يرفع منه ٦٠ ألف جنيه سنويًا من الأعشار، فأصبح يرفع منه ٢٠٠ ألف جنيه. وهذه الزيادة كلّها في مدّة عشر سنوات. فكيف لو اعتنى السوريون بزراعتهم اعتناء المصريين.

(١) القهقرى: التراجع.

وممّا لا يزال ويا للأسف مهملاً في سورية والعراق، أمر الريّ بواسطة الآلات الرافعة مع وجود أنهر كدجلة والفرات والعاصي والشريعة كانت مياهها بواسطة المحرّكات البخارية تروي كلّ ما في البلاد من المعاطش والمجادب، وكاد ينتفي المحلّ تقريبًا. فالأنهر جارية والأرضون تشرق ظمأً، "كالعيس في البيداء يقتلها العطش وقرب الماء فوق ظهورها". إلاّ أنَّ العراق نهض في هذه السنوات الأخيرة بعد الحرب نهضة تذكّر في الزراعة، وكثرت على ضفاف دجلة الآلات البخارية الرافعة، وازداد دخل الأراضي ازديادًا مطردًا سنة فسنة، وسيكون للعراق مستقبل زراعي باهر لا مراء فيه، وتكون الرقعة الزراعية التي تلي مصر.

- الصناعة

وأمّا الصناعة، فلا تزال في الشرق الأدنى قاصرة عن غيرها، وأكثر ما يدخل إلى بلادنا من المصنوعات هو من أوربا. والسبب في ذلك عجز الأهالي عن مضارعة الأوربيين وعدم ألفتهم تأسيس الشركات التجارية حتّى اليوم. والنادر لا يعتدُّ به، ولا تزال في البلاد صناعات شرقية موروثة كلّها تعتمد على عمل اليد، أشهرها المنسوجات الحريرية والقطنية التي لها أنوال عديدة في دمشق وحمص وحلب وجبل لبنان، والبسط في صافيتا وغيرها. وقد ضعفت هذه الصناعات عن ذي قبل بمزاحمة أوربا لنا في المنسوجات، ولكنّها لم تندرس تمامًا ولله الحمد، بسبب تفوّقها على المنسوجات الأوربية في المتانة والنيقة واللطافة وكون أكثر الأهالي المحافظين على الزيّ الشرقي يعتمدون عليها في الملبس والمفرش. وفي مصر، الحالة بعينها وأظنّ العراق كذلك. وقد وفق اللبنانيون للمعامل الحريرية لا لنسج الأثواب، بل لحلّ الفيالج (الشرانق) وإرسال حريرها إلى أوربا، ولكنّهم لم يقدروا أن يستغنوا عن ليون، كما أنَّ مصر لم تقدر في القطن أن تستقلّ عن مانشستر.

- التجارة

أمّا التجارة فهي خاصّة السوريين. وسورية منذ دحى الله هذه الكرة ممرّ قوافل ومسرب متاجر من الشرق إلى الغرب، ومن الشمال إلى الجنوب، وبالعكس. وهم من أقوم الناس على التجارة يمتازون بها على غيرهم. وقد كان للفينيقيين في التجارة المكان الذي لا يزال يذكره لهم التاريخ، وملأوا طباق الأرض مستودعات ومراكز. كما أنَّ العرب أمّة بفطرتها متّجِرةٌ مسفار، مولعة بالتسيار، وخوض البحار. ولقد كانت سورية قبل الحرب العامّة ترقّى في تجارتها برغم الموانع السياسية والامتيازات الأجنبية. ولكنّها منذ الحرب العامّة إلى اليوم في تقهقر مستمرّ من هذه الجهة. وكيف يُرجى نهوضها وقد انسلخت عن

الأناضول، وانقطعت عن العراق، وانخرمت عروتها عن نجد والحجاز، بل عن فلسطين التي هي الجزء الجنوبي منها فعلى من تتاجر سورية بعد اليوم؟ يتكلّمون عن المرفق الذي يحصل لسورية من تسيير السيّارات بينها وبين العراق. وهيهات أن ينسدّ بذلك هذا الشغور في صلاتها التجارية. فسورية فيما يأتي لا تنهض تجارتها إلاّ باتّحاد على الأقلّ اقتصادي بينها وبين العراق ونجد والحجاز وفلسطين. ولقد جاءت الثورة الأخيرة ضغثًا على إبالة فازدادت حركة الأخذ والعطاء وقوفًا. ومن قبل الثورة كان معدّل الصادرات عن سورية لا يوازي ثلث الواردات.

- النهضة السياسية

ولم ينحصر الرقيّ عندنا في العلوم واللغات والاقتصاديات، بل تجاوز إلى السياسة والأمور الاجتماعية، فأصبح كثيرون ممّن كانوا يهزأون بخدمة المصالح الوطنية العامّة، والمفاداة من أجلها، ويرون الدهاء كلّه في التزلّف إلى الكبار والأقوياء ومداراة الوقت، مضطرّين اليوم إلى الاعتراف بوجودها وبأهمّيتها، وإلى احترام المتفرّغين لها الناضحين عنها. وقد انبثّت فكرة الاستقلال الوطني في الطبقات كلّها بعد ظهور الناشئة الجديدة سواء بمصر أو بالشام أو بالعراق، حتّى صار لا يجرؤ أحد بمخالفتها جهرًا خشية أن يسقط من نظر الأمّة أو أن تبطش العامّة به. مع أنه من سنوات قلائل، كان كثيرون من وجهاء البلاد يتزلّفون إلى ممثّلي الممالك الأجنبية، متمنّين أمامهم خفوق إعلامهم فوق ربوع المشرق. وقد كانوا يلتمسون ذلك رسميًّا، ولا يخجلون به، لأنَّ فكرة الاستقلال السياسي الوطني والنزعة القومية كانت عند أهل بلادنا أشبه بإيماضات برق من أفق بعيد، أو خيالات مهوّم بين النوم واليقظة. وكان سبب النفرة من الأوربي هو اختلاف الدين فقط كما أنَّ تمنّي ولايته هو عند اتّفاق الدين. ولا نقول إنَّ هذه النزعة الدينية لم يبقَ لها أثر، وإنَّ النزعة الوطنية أصبحت هي السائدة دون غيرها. لكنّنا نقول إنَّ الفارق الديني لم يعد هو وحده المتصرّف بأهواء النفوس، بل جدّت فكرة وطنيّة ترمي إلى استقلال كلّ قطر بنفسه، وإدارته أموره بيده وأخذت هذه المبادئ تكون عمدة الجميع، وإن شذّ عنها شُذّاذ لم يجسروا أن يناهضوا مبدأ الاستقلال نفسه فإنّما يقولون بوجوب مراقبة أوربية إلى أجل مسمّى إلى أن تكون تمرّنت الأمّة، وتأثّل [1] فيها النظام والانتظام.

(١) تأثّل: تأصّل.

فالثورة السورية هذه المرّة تختلف عن كلّ ما سبقها من الثورات، إذ الثورات التي كانت تقع في زمن الترك لم تكن منها واحدة مبنيّة على نزعة قومية، بل كانت العساكر التركية تزحف إلى جبل الدروز وهم عرب، فترافقها قلوب أهالي سورية وهم مثلهم عرب. ولا ينزع عرق العربية يومئذٍ بأحد، وكان الدروز من جهتهم لا يثورون، لأنَّ الدولة تركية، بل إمّا لأنهم يريدون التملّص من دفع ضرائب أو غرامات ضربتها عليهم، أو لأنهم بطشوا ببعض جيرانهم فأرادت الدولة أن تؤدّبهم، فقاموا يدفعون العساكر الزاحفة لمهمّة التأديب، بخلاف الثورة الحاضرة التي هي ثورة وطنية قومية صرفة ليس لها غاية سوى تحرير الوطن من ربقة الحكم الأجنبي، وأن لا تعلو على العرب في أوطانهم يد لا أوربية ولا تركية ولو زحف الترك على سورية مكان الفرنسيس للقوا المقاومة نفسها. وإنَّ القائمين بالثورة هم المفكّرون والأدباء والمخرّجون بالشهادات من مدارس باريز، وقد التحق بها عدد من الطلبة الذين لا يزالون في المدارس ولم يتمّوا تحصيلهم. وقد كان العرب البادية والدروز والعشائر أهل السنان والعنان هم الذين يثورون دون أهل القرى والمدن، فصار اليوم أهل دمشق وأهل غوطة دمشق الذين لم يكونوا يعرفون إلاّ تقليب المرّ[1] والمجرفة، يقلبون البنادق والكرات اليدوية المحشوّة بالديناميت ويهجمون على نيران المدافع مستبسلين مستميتين. لا جرم أنَّ هذا انقلاب عظيم. وتجد هذا القروي يقول: لا نرمي السلاح إلاّ عند استقلال الوطن. وبالاختصار ترى الأمّة العربية كلّها من أطراف حلب شمالاً إلى عدن وحضرموت جنوبًا ومن الأطلانطيقي غربًا إلى البحرين وخليج فارس والأهواز والسليمانية شرقًا، تتمخّض مخاضًا شديدًا إلى الاستقلال التامّ عن كلّ دولة أجنبية أية كانت، وقد دبّ دبيب هذا الإحساس في خاصّتها وعامّتها ووضعت نصب نواظرها الاستقلال والوحدة على شكل خلقي يكفل لكلّ مملكة ولكلّ إمارة استقلالها الداخلي، مع تعيين الحدود بينها وبين جاراتها، ويضمن الوحدة في المكوس والبريد والتلغراف والأمور الخارجية والجيوش. هذه الفكرة العالية سارت بين العرب بأجمعهم في هذه السنوات الثمان التي عقبت الحرب ما لم تسِرْهُ في ثمانية قرون من قبل. والمفكّرون من العرب واثقون بأنه لا بدّ من تحقيق هذه الفكرة عاجلاً أو آجلاً، بواسطة المدارس والجرائد

(١) المَرّ بفتح الميم: "الرَّفش" وهو يشبه المجرفة.

والأندية والجمعيّات والسكك الحديدية والبواخر والسيّارات والطيّارات وكلّ ما يقرّب بين الأفكار والأقطار. وقد نظروا إلى مثال لهذا الاتّحاد العربي الحِلفي في الأمبراطورية الألمانية كما كانت قبل الحرب أو في شكل سويسرة أو شكل الولايات المتّحدة الأميركية. وكيف كان الشكل فمبدأ الاتّحاد العربي متّفق عليه ولم يخفَ هذا الاستعداد على الدول الغربية الطامحة، فقد بدأت هذه الدول تفهم أنَّ أرض العرب صارت غير صالحة لنبات الاستعمار. وبهذا من أنواع النهضة كفاية.

لوزان

شكيب أرسلان

نهضة العرب العلميّة
في القرن الأخير*

محاضرة الأمير شكيب أرسلان

بسم الله الرحمن الرحيم

ـ تمهيد

لقد تكلّمنا منذ أيام في النادي العربي عن نهضة العرب السياسية وسيرهم في طريق الاتّحاد فيما بينهم، اقتداءً بغيرهم من الأمم اللائي كنّ مفكّكات مبعثرات، فما زلن يسعين في الانضمام إلى أن أصبحن كتلة واحدة. ونحن نتكلّم الآن عن نهضة العرب العلمية التي هي في الواقع أساس النهضة السياسية، مختارين لهذه المحاضرة مكان المجمع العلمي [1] الذي هو المنبر الطبيعي للمباحث العلميّة كما اخترنا النادي العربي منبرًا للكلام عن الوحدة العربية التي هي من مباحثه، وإنّما كان الفرق بين البحثين أنَّ الواحد منهما سياسي صرف لا يجوز الخوض فيه إلاّ بالمقدار الذي تسمح به المصلحة، وأنَّ الآخر علمي بحث يقدر أن يستقصي فيه الباحث ما شاء دون أن يتعرّض لمحذور أو يعرّض أمّته لضرر. وبهذه المناسبة أعلن أني آسف، بل جدّ آسف من أن أرى بعض إخواننا معتقدين أنَّ الإنسان إذا حاضر في باب السياسة وجب عليه أن يفرغ جعبته من أولها إلى آخرها، وأن يجهر بكلّ ما يدور في خلده كما لو حاضر في باب العلم، فهذا لا شكّ مذهب من يسمّيه الإفرنج "بالولد الهائل"، ومن ليس في الواقع جديرًا بأن يطرق باب السياسة أصلا، بل بين هذا والسياسة ما بين المشرق والمغرب، فنحن لا نرضى أن نكون من الأطفال الهائلين ولا من الذين لا يعرفون إلى أن يذهب الكلم، بل نحن ولله الحمد من أمّة اشتهرت بالمرونة والدهاء وسرعة اللحظ. وقد جاء في أمثالها: اللبيب من الإشارة يفهم، ولقد كان هاديها الأعظم (ﷺ) إذا أراد غزوة

* مجلّة المجمع العلمي العربي ج١٥ تشرين الثاني ـ كانون الأول سنة ١٩٣٧ ـ ص ٤١٥ ـ ٤٤٣.

(١) من غريب الاتّفاق أن يلقي الأمير العلاّمة هذه المحاضرة الجامعة في المجمع العلمي في المكان الذي اجتمع فيه لأول مرّة في مقتبل شبابه بمفتي دمشق الشيخ محمَّد المنيني الذي كان يقطن يومئذٍ في المدرسة العادلية التي كان له حقّ التولية عليها يومئذٍ.

ورّى[1] بغيرها، ومنّا الذي يقول:

ومن لم يصانع في أمور كثيرة   يضرس بأنياب ويوطأ بمنسم

وقائل هذا البيت هو الذي قال فيه سيِّدنا عمر رضي الله عنه، أنه أشعر العرب لقوله: ومن ومن، ثمَّ أبدأ بالكلام عن نهضة العرب العلمية فأقول:

منذ عشر سنوات (أي سنة ١٩٢٧) اقترح علي الطيب الذكر الأستاذ يعقوب صرّوف، صاحب مجلّة «المقتطف» الذي انتهت إليه رئاسة المجلاّت العلمية أن أكتب إلى المقتطف شيئًا في موضوع النهضة الشرقية في هذه الخمسين سنة الأخيرة، فكتبت يومئذٍ فصلاً ظهر في أجزاء المقتطف من تلك السنة وراق العلاّمة المشار إليه كثيرًا وقد بدأته بما يلي:

لا حاجة بنا إلى القول بأنَّ أجلى مجالي هذه النهضة كان في العلم والتعليم، وعندي أنه لا نهضة للأمم سوى النهضة العلمية، فإذا وجدت هذه جاءت سائر النهضات من سياسية وعسكرية واجتماعية واقتصادية إلخ... آخذًا بعضها برقاب بعض. فإذا قلنا إنَّ الشرق الأدنى نهض نهضة علمية كفينا تعداد سائر مظاهر نهوضه ومعارج رقيّه، لأنَّ العلم وحده هو المفتاح وبه وحده الدخول إلى داخل البناء، وكلّ نهضة لا يكون ظهيرها العلم، فما هي إلاّ ساعة وتضمحلّ. وقد يقال إنَّ نهضة شرقنا هذه ضئيلة لا تستحقّ أن تذكر بالقياس إلى معالي الأمم الراقية، وإنّنا لا نبرح متخلّفين بمساوف شاسعة عن أمد أوربة وأميركة واليابان، فلماذا نشغل أنفسنا بما لا يشغل حيّزًا في التاريخ العام؟ وعلى هذا نجاوب أنه ليس العلم متعلّقًا بالكمال وحده، ولا البحث موقوفًا دائمًا على ما بهر النهى وبلغ سدرة المنتهى، وإنّما العلم هو ما تناول الدرجات كلّها، الدنيا منها والقصوى، والبحث هو الذي به توزن مقادير الأشياء وتحدّد نسبة بعضها إلى بعض ونسبتها إلى الوقت، ثمَّ إنّنا إذا تحرّينا الحقيقة وجدنا الشرق العربي قد اجتاز في هذه الخمسين سنة في طريق العلم والحضارة الحديثة ما لم يتهيّأ لأوربة أن تجتازه قبلاً في أطول جدًّا من هذا الردح من الدهر، وذلك أنه طبيعي أن يسهّل على المتأخّر ما لا يسهّل على المتقدّم، لأنَّ المتقدّم قد يضطرّ أن يمهّد الطريق ويسير، وأمّا المتأخّر فما عليه إلاّ أن يلحقه ويسير على طريق مذلّل أمامه.

(١) ورّى: أي أخفاها وأظهر غيرها.

ـ محمّد علي الكبير مؤسّس النهضة

فالنهضة الشرقية العربية ـ نسمّيها بالعربية إخراجًا لما سواها من نهضات الشرق كنهضة اليابان والصين في الشرق الأدنى بحذائنا ـ قد بدأت في الواقع منذ أكثر من مائة سنة لعهد محمَّد علي عزيز مصر، فهو أول من لحظ الخطر الحائق من جرّاء جموده على أساليب العمران القديمة، وجعل نصب عينه حُديًا الغرب في أساليبه الجديدة حتّى يتأتّى للشرق أن يقاتل الغرب بسلاحه ويدفعه عنه ويستقلّ بنفسه، إذ كانت سنّة الله منذ وجد العمران على سطح هذه الكرة أنه كلّما تقوّى جانب منها سطا على الآخر واجتاحه وضرب عليه الذلّة والمسكنة.

فمحمَّد علي هو المؤسّس الحقيقي لهذه النهضة الشرقية العربية ليس بوادي النيل فحسب، بل في البلاد التي تجاور هذا الوادي المبارك وفي مقدّمتها سورية، وأول ما استنشق السوريون ريح الحضارة الحديثة إنّما كان في زمن محمَّد علي وفي زمن غزاة ولده ابراهيم باشا للشام، ثمَّ انكفأ ابراهيم باشا إلى مصر سنة ١٨٤٠ وبقيت في سورية آثار الانتباه ونزعة التجدّد، وجدّ السوريون لا سيّما أهل الساحل منهم ينشدون أسباب المدنية الغربية لّما رأوا فيها من القوّة والرفاهية، وأنس المرسلون الأميركيون هذا الاستعداد في أهل سورية فأسّسوا في بيروت كلّيتهم الشهيرة التي كانت النبراس الأول الذي استضاءت به سورية، ولا يزال هذا النبراس يزهر في آفاق الشرق إلى يومنا هذا. ورأت أمم أخرى (كالفرنسيين والألمان والطليان والروس) أنَّ أرض سورية قابلة جدًّا لبذور المعارف فبثّوا فيها المدارس والكتاتيب وكلّ ذلك كان يبدأ في بيروت ثغر الشام البسّام. ففي بيروت والحقّ يقال ابتزغ زرع العلم العصري وأخرج شطأه ثمَّ أنبت في جميع الشامات، ثمَّ فيما جاورها واستغلظ واستوى على سوقه يعجب حتّى الزرّاع الأوربيين أنفسهم، واضطرّت الدولة العثمانية أن تفتح المكاتب الرشدية والإعدادية في سورية، وأن تقبل كثيرين من شبّانها في مكاتبها العالية في القسطنطينية فتخرّج فيها ألوف من الناشئة، منهم من تقلّدوا مناصب ملكية أو عدلية، ومنهم أطبّاء وصيادلة، ومنهم ضبّاط نبغوا في الفنون العسكرية وامتازوا بين الأقران. إنَّ ضبّاط العرب في العراق وسورية واليمن كلّهم ممّن تخرّج في مكتب (بانغالتي) في الآستانة، وقد يزيدون على ثلاثة آلاف ضابط فيما يقال.

ومع أنَّ النهضة العلمية في مصر لم يكن الأصل فيها لا الكلّية الأميركية، ولا الكلّية

اليسوعية في بيروت، ولا مكاتب الدولة في الآستانة، لا ينكر أنَّ مصر كانت ميدانًا لجياد القرائح السورية، وأنَّ أنبغ الذين تخرّجوا في بيروت إنّما ظهروا واشتهروا وتعلّقت قناديلهم بمصر؛ هذا كما أنَّ لمصر على الشام فضل تخريج عدد لا يحصى من أبناء هذه في العلوم اللغوية والشرعية بالجامع الأزهر، وتخريج عدد كبير من أطبّاء سورية بالقصر العيني، فما زال كلّ من القطرين المصري والشامي يشدّ الواحد منهما الآخر في كلّ ضرب من ضروب الرقيّ العقلي، وقلّما جدّ في أحدهما شيء إلاّ سمعت رجع صداه في الآخر. على أنَّ النهضة الشرقية العربية، وإن كان قد ذرّ قرنها منذ قرن فأكثر، لم تسر هذا السير الحثيث إلاّ في الخمسين سنة الأخيرة التي شهدها كاتب هذه الأحرف بجميع صفحاتها، وذلك لأني بدأت بالكتابة في الصحف وبمرافقة الحركة العلمية في سيرها منذ ٢٥ سنة متوالية، فلي الحقّ إذًا بأن أدّعي معرفة تاريخ هذه النهضة وما دخل فيه من التطوّرات على قدر ما يستطيع خادم أمين للعلم زاول عمله في مكافحة الجهل طوال مدّة خمسين سنة دون أن يتخلّف يومًا واحدًا.

- الصحافة

لا نزاع في أنَّ الصحافة العربية قد كانت من أقوى عوامل هذه النهضة بما أثارته من الحركة الفكرية ونقلت من أخبار الغرب الناهض إلى أهل الشرق النائم. وقد كان بحسب معلوماتي، وربّما أكون مخطئًا في بعضها، أول جريدة عربية صدرت في الشرق جريدة «الوقائع المصرية» بعهد محمَّد علي، ولكن بقيت سورية مدّة طويلة لا تصدر فيها جريدة، ويقال إنَّ أول جريدة صدرت في بلادنا هي جريدة «حديقة الأخبار» أنشأها خليل أفندي الخوري من شعراء لبنان في وقته وذلك سنة ١٨٥٨، ثمَّ أصدر المعلّم بطرس البستاني الشهير نشرات وطنية في بيروت لذلك العهد، ولم يلبث أن نشر جريدة أسبوعية باَسم الجنّة، ثمَّ جريدة يومية باَسم الجنينة، ثمَّ مجلّة شهرية باَسم الجنان، وقد التزم هذه المادّة في التسمية لمناسبتها مع اسمه «البستاني»، وكان اليسوعيون قد أصدروا في بيروت جريدة باَسم «البشير» تغلب عليها المباحث الدينية الكاثوليكية، ثمَّ أصدر القسّ لويس الصابونجي جريدة «النحلة»، وأصدر غيره جريدة اسمها «النجاح»، وأصدر الأمريكيون جريدة اسمها «النشرة الأسبوعية»، ثمَّ تحرّك المسلمون فأصدروا جريدة سمّوها «ثمرات الفنون»، وكانت تصدر بإدارة الشيخ عبد القادر القبّاني، وقد تولّى تحريرها في البداية العلاّمة الشيخ يوسف

الأسير، ثمَّ خلفه عليها العلاّمة الشيخ ابراهيم الأحدب الطرابلسي، وهذا كلّه كان بين ١٨٦٠ و١٨٨٠ أي في مدّة عشرين سنة، فوجدت في بيروت في ذلك العهد عدّة مطابع، وصارت تطبع الكتب العربية بعد أن كان طبع الكتب العربية منحصرًا في مطبعة بولاق المصرية وغيرها من مطابع مصر، وكانت قد صدرت في الآستانة في أثناء حرب القريم سنة ١٨٥٥ جريدة "مرآة الأحوال" وذلك بأمر الدولة وتولّى تحريرها رزق الله حسّون الكاتب الشهير، وقد وقعت إليّ عدّة نسخ كانت باقية عندنا من تلك الجريدة فيها أخبار حرب القريم وغيرها من الأخبار، وممّا أتذكّره أنه كان عند ذكر خديوي مصر يلقّبه بسعادة عزيز مصر، وأظنّ أنَّ جريدة "مرآة الأحوال" هذه هي الجريدة العربية الثانية بعد تقويم الوقائع المصرية، وقد بقيت تصدر في عاصمة السلطنة العثمانية عدّة سنوات إلى أن فرّ رزق الله حسّون من الآستانة إلى أوربة على أثر حادثة جرت معه، وقيل فيها إنّه اختلس مالاً للدولة فلاذ بالفرار، وكان أحمد فارس الشدياق في باريس فقدم إلى الآستانة وأنشأ جريدة "الجوائب" المشهورة، فكانت في وقتها أشهر جريدة عربية في العالم، وكان لها مشتركون في جميع الأقطار الإسلامية، نظرًا لبراعة كاتبها أحمد فارس المعدود من أكبر كتّاب القرون الأخيرة؛ وأمّا رزق الله حسّون فبعد أن فرّ إلى أوربة نشر كتابًا تحت عنوان "النفثات" نال فيه من الدولة العثمانية، ومن صاحب الجوائب، فأشار هذا إلى كتاب النفثات بقوله: "كان حسّون لصًّا وله سرقات، فانقلب صلاً وله نفثات". وأظنّني غير مخطئ إذا قلت إنّه لذلك العهد أو بعده بقليل ظهرت جريدة في تونس اسمها "الرائد التونسي"، وظهرت جريدة أخرى في مصر باسم "وادي النيل"، وربّما يكون قد صدر في جرائد أخرى لم أسمع بها، ولست محاولاً في هذه العجالة الإحاطة بأسماء جميع الجرائد العربية التي صدرت وتواريخ صدورها، إنّما أنا أذكر الآن أشهرها على سبيل التمثيل وأقول: إنّه لّما انتشرت جريدة "الجوائب" بمكان أحمد فارس من علم اللغة وبراعة الإنشاء وسعة المدارك كانت عاملا قويًّا من عوامل النهضة العربية الأدبية، وصار صاحبها يطبع في الآستانة من نفائس الكتب العربية التي كانت مجهولة، والتي اطّلع عليها في خزائن كتب القسطنطينية، ما أُعجب به العالم العربي كلّه، لا سيّما أنه نشرها بالطبع الجميل، وربّما كانت خدمته للثقافة العربية بهذه المطبوعات في الدرجة الثانية عن خدمة مطبعة بولاق، وأني قد أدركت، وأنا ابن ثلاث عشرة سنة أو أربع عشرة سنة، عهد أحمد فارس في أواخر عمره وكان لا يزال، وقد بلغ من العمر عتيًّا، يخدم هذه اللغة الشريفة التي كان من أعلامها، ومن شاء أن يعلم مدى

براعة أحمد فارس ومبلغ بلائه في سبيل اللغة العربية والوطن العربي، فليراجع مجموعة "كنز الرغائب في منتخبات الجوائب"، فهي كتاب يحتوي على سبعة مجلّدات لا يمكن أن يستغني عنه من أراد الاطّلاع على الحركة العلمية العربية والحركة السياسية العالمية بين ١٨٦٠ _ ١٨٨٠.

- الحركة العلمية

ولنعد إلى سير الحركة العلمية في سورية فنقول: إنّه إلى حدّ سنة ١٨٨٠ كانت الجرائد منحصرة في بيروت لا تتعدّاها إلى غيرها من مدن سورية، ولم يكن في دمشق سوى جريدة رسمية للولاية باَسم (سورية) وبعد ذلك بكثير أصدر مصطفى واصف جريدة اسمها (الشام)، وبعده أصدر الأستاذ كردّ علي جريدة سياسية في دمشق اسمها (المقتبس)، وكذلك كانت جريدة رسمية لولاية حلب باَسم (الفرات)، وكلّ من جريدتَي سورية والفرات كان نصفها بالتركي والنصف الآخر بالعربي، وقلّما كانت تنشر شيئًا خارجًا عن الأخبار الرسمية. وكانت في بغداد جريدة رسمية اسمها (الزوراء) على هذا النمط أيضًا. وأمّا بيروت فكانت لا تزال على تقدّمها في طريق العلم والعرفان، وأول مدرسة داخلية في بيروت كانت المدرسة الوطنية التي أسّسها المعلّم بطرس البستاني ثمَّ أخذت كلّ طائفة من الطوائف المختلفة التي في ساحل سورية تؤسّس مدرسة داخلية في بيروت، فكانت للروم الكاثوليك مدرسة يقال لها (البطريركية) وللموارنة مدرسة يقال لها (الحكمة) وللمسلمين مدرسة يقال لها المدرسة (السلطانية) تولّى إدارتها مدّة من الزمن العلاّمة الشيخ حسين الجسر الطرابلسي صاحب الرسالة الحميدية في التأليف بين العلم والدين، وكان اليهود أيضًا أسّسوا مدرسة داخلية باَسم المدرسة (الإسرائيلية) كان يديرها زاكي كوهين.

وكان اليسوعيون قد أنشأوا الكلّية (اليسوعية) مناظرة للكلّية الأمريكية؛ وكان في لبنان مدرسة فرنسية في كسروان يقال لها (مدرسة عينطورة) انتفع منها كثير ممّن اشتهروا في إتقان اللغة الفرنسية، ثمَّ شرع أساقفة الموارنة يؤسّسون مدارس لأبناء طائفتهم فكانت مدرسة (قرنة شهوان) ومدرسة (غزير) لبني زوين ومدارس أخرى متعدّدة، وقد كان للموارنة من قبل هذا مدارس قديمة أكليريكية مثل مدرسة (عين ورقة) ومدرسة (مار عبدا هرهريا) ومدرسة (مار يوحنّا مارون)، وكان للكاثوليك مدرسة في الشوير. وقد أطلعت

على مطبوعات قديمة ترجع إلى مئة سنة أو أكثر جرى طبعها في كسروان بمطابع للموارنة منها مطبعة دير سيِّدة طاميش، وكان الموارنة من القديم يطبعون بالعربية والسريانية.

ولا يجوز أن ننسى المدرسة التي قام بإنشائها الأمير ملحم أرسلان بمساعدة سعيد بك تلحوق لطائفة الدروز في قرية عبية، فقد كانت من أقدم مدارس لبنان يرجع تأسيسها إلى سنة ١٨٦٢.

وكانت تقبل الطلبة مجّانًا لاعتمادها في نفقاتها على الأوقاف التي ألحقها بها الأمير المشار إليه، ولمّا تولّى قائمقامية الشوف ابن عمّه الأمير مصطفى زاد الاعتناء بها وانتدب لها من الأساتذة مثل العلاّمة الشيخ أحمد عبّاس البيروتي وأمثاله، وهي هي نفس المدرسة التي يشرف على إدارتها الآن الأستاذ عارف النكدي مدير العدلية في الدولة السورية بما اشتهر به من الدراية والأمانة وعلوّ الهمّة.

ثمَّ نقول: إنّه كان ازدياد عدد الجرائد متساوقًا مع ازدياد عدد المدارس فظهرت في بيروت بعد الجرائد المتقدّم ذكرها جريدة "لسان الحال" لصاحبها خليل سركيس وجريدة "التقدّم" التي كان يتولّى تحريرها أديب اسحق الكاتب المشهور في وقته، وجريدة "المصباح" التي أنشأها المطران يوسف الدبس مؤسّس مدرسة الحكمة، وعهد بإدارتها وتحريرها إلى نقولا أفندي النقّاش من أعضاء مجلس الأمّة العثماني؛ وإلى بولس زين من أدباء الموارنة، وكانت مجلّة "المقتطف" قد صدرت في بيروت لصاحبَيها العلاّمتين الدكتور يعقوب صرّوف والدكتور فارس نمر. ومن أول نشأتها كانت مجلّة راقية حافلة بالفوائد العلمية والصناعية والتاريخية واللغوية.

وممّا لا جدال فيه أنَّ للمقتطف أثرًا بليغًا في عموم النهضة العربية ولا ينكره إلاّ كلّ مكابر - ومن مساعي العلاّمتين الشهيرين صرّوف ونمر تأسيس مجمع علمي في بيروت سمّوه المجمع العلمي الشرقي، قد ضمّ نخبة العلماء والأدباء الذين كان يشار إليهم بالبنان في ذلك الوقت، ولم يكن هذا المجمع أول مجمع علمي في بيروت، بل قد سبقه جمعية علمية تأسّست قبل ذلك بنحوٍ من عشرين سنة، كان رئيسها الأمير محمَّد الأمين أرسلان، وكان من أعضائها الشيخ يوسف الأسير، والشيخ ابراهيم الأحدب، والشيخ ناصيف اليازجي، والمعلِّم بطرس البستاني صاحب "دائرة المعارف"، والسيِّد حسين بيهم، وسليم أفندي رمضان، وغيرهم من علماء ذلك الوقت وأدبائه.

وفي نواحي سنة ١٨٨٤ فيما أتذكّر كان الشيخ عبد المجيد الخاني الأديب الدمشقي البارع جاء إلى بيروت فذكر ما رآه فيها من الرقيّ الفكري وسرد أسماء جرائدها نظمًا فقال:

ثمرات مقتطف الجنان بشيرها ... بلسان مصباح التقدّم قائلُ
ظلّ المعارف وارف في أرض بيرو ... ت ورهط الفضل فيها قائلُ(١)

ثمّ أنشأ علي بك ناصر الدين مجلّة اسمها "الصفاء" صارت فيما بعد جريدة سياسية ولا تزال إلى هذا اليوم قائمة حقّ القيام بخدمة العلم والأدب، وقد كان لي فيها أول مقالة صدرت من قلمي وذلك سنة ١٨٨٥ [الفضل للمتقدّم]، وأصدر عبد القادر أفندي الدنا جريدة بأسم "بيروت" كان يكتب فيها الأستاذ البليغ السيِّد مرتضى الجزائري ابن أخي المغفور له الأمير عبد القادر.

- ثمانون جريدة في سورية(٢)

ولكن عدد الجرائد لم يزدد هذا الازدياد الرائع إلاّ بعد إعلان الدستور العثماني، ومن قبله صدرت جريدة طرابلس التي كان ينشئها الشيخ حسين الجسر، ولم يكن جريدة سواها تصدر في غير بيروت من مدن سورية إلاّ أنه لمّا أعلن الدستور العثماني وتقرّرت حرّية الصحافة أخذت الجرائد تنتشر بسرعة عظيمة، فلمّا نشبت الحرب الكبرى كان ينشر في سورية وفلسطين ثمانون جريدة موزّعة بين بيروت ولبنان ودمشق وطرابلس واللاذقية وحمص وحماة وحلب وصيدا وحيفا ويافا والقدس، وكانت تظهر في هذه البلاد مجلاّت شهرية وأسبوعية لا تقلّ عن بضع عشرة مجلّة، ولا نجد لزومًا لسرد أسماء جميع هذه الجرائد وهذه المجلاّت. وهذا أول دليل على سرعة الرقيّ العلمي في سورية، وليس في الكلام أفصح من الأرقام، فوفرة الجرائد دليل على وفرة عدد القرّاء، ووفرة عدد القرّاء دليل على صدق عمل المدارس. نعم إنّه لا يزال عدد الأمّيين كثيرًا في هذه البلاد وربّما بلغ مع الأسف ٦٠ بالمئة، ولكن المظنّون بحسب ما نراه من إقبال الأهلين على تعليم أبنائهم أنه لا يمضي عشر سنوات حتّى ينزل عدد الأمّيين إلى ٢٠ بالمائة. وقد كان في بيروت بضع عشرة مطبعة فتضاعف هذا العدد مرّتين وثلاثًا، وتأسّست مطابع كثيرة في سائر المدن

(١) الأولى من القول والثانية من القيلولة.
(٢) المراد سورية ولبنان وفلسطين.

السورية، وليس عمل هذه المطابع كلّه منحصرًا في طبع الجرائد، بل هي تقوم بطبع الكتب التي لا تطبع إلاّ إذا كان أصحاب المطابع يجدون لها عددًا كافيًا من المشترين. وإنَّ مكانة الصحافة الآن في سورية ولبنان بالقياس إلى عدد أهلها لا تقلّ عن مكانة الصحافة في أوربة، فأمّا في مصر فما لا شكّ فيه أنَّ الصحافة أرقى منها في سورية لأنَّ ثروة مصر أعظم من ثروة سورية بكثير، وقد كان في أثناء ثورة عرابي باشا أي سنة ١٨٨٢ يصدر في مصر بضع جرائد لا غير منها "الأهرام" و"اللطائف" و"المفيد" وغيرها، فما زال عدد الجرائد يرتقي إلى أن تضاعف مرارًا، وأنَّ بعض جرائدها اليومية تصدر بثماني صفحات أو ستّ عشرة صفحة. ومنها جرائد مصوّرة كثيرة وربّما تطبع الواحدة من جرائد مصر الكبرى من ٣٠ إلى ٤٠ ألف نسخة، وقد أكّد لي أحد الأخباريين الأوربيين الذين يراسلون "الأهرام" من أمّهات الجرائد المصرية أنَّ هذه الجريدة لو وضعت في جانب صحف باريس في الإتقان وسعة النفقات وكثرة القرّاء لكانت معادلة لأحسنها.

ولمّا كانت الأمثال أحسن مظهر لحقائق الأشياء وأبلغ مؤثّر في النفوس، رأيت الآن إيراد مثال وقع معي، وكنت قد ذكرته في مجلّة "المقتطف"، ومنه يتبيّن الفرق الهائل بين حالة الصحافة في مصر منذ ٤٠ سنة وحالتها منذ عشرين سنة:

قلت في المقتطف: إنّني كنت زرت مصر سنة ١٨٩٠، وكنّا نجتمع في مجلس الإمام الشيخ محمَّد عبده، وأكثر ما كنّا نسمر عند سعد باشا زغلول وهو يومئذٍ سعد أفندي زغلول وكان من المحامين المشهورين بمصر، وكان ينتاب تلك الحلقة شيخ شخت الحلقة اسمه الشيخ علي يوسف، إذا أتى جلس في آخر المجلس ساكنًا ولبث أكثر المجلس مستمعًا تكاد ترثى له لضعفه ولمسكنته، وكان قد بدأ بإصدار جريدة اسمها المؤيّد كانت تظهر مرّتين بالأسبوع وهو يعجز أن يجعلها يومية إلاّ أنَّ هذا الرجل على ضؤولة جسمه كانت بادية عليه سيماء الهمّة والعزم، فزرته مرّة في مطبعة المؤيّد فرأيته جالسًا على مقعد رثّ لا يسع أكثر من ثلاثة جلوس بعضهم ملزوز إلى بعض، وأمامه منضدة بدون غطاء عليها من بقع الحبر ما يهول الناظر، وهو يعالج تحرير مقالته في دخول العام الهجري الجديد حينئذٍ، ولا يعرف كيف يصوغها. وكانت بجانب الغرفة غرفة ثانية فيها المطبعة، وبين الغرفتين باب مفتوح. وأنا من مكان جلوسي أرى منضّدي الحروف من خلال ذلك الباب يصفّون الحروف، ثمَّ إنّي رأيت الشيخ عليًّا في تعب زائد مع مقالته هذه عن الحول الجديد، وهو

يكتب ويطلس ويمحو، فقلت له: لو قلت كذا وكذا... فأجابني: بالله عليك تكتب أنت هذه الافتتاحية فكتبتها أمامه، هذا وبعد ٢٠ سنة من ذلك العهد جئت إلى مصر.

- المؤيّد تطبع ٣٠ ألف عدد

وأنا ذاهب إلى حرب طرابلس فماذا وجدت؟ وجدت جريدة المؤيّد من أعظم الجرائد اليومية في مصر تطبع في كلّ يوم من ٢٠ إلى ٣٠ ألف نسخة، ووجدت إدارة المؤيّد تكاد تكون قصرًا من قصور الأمراء، فيها الزرابيّ المبثوثة والطنافس الحريرية الفاخرة بدلاً من ذلك المقعد الحقير، عليه ذلك الغطاء القديم من الشيت بدون حشوة، ووجدت مطبعة بخارية من أكبر المطابع كان صاحب المؤيّد اشتراها بخمسة آلاف جنيه، مع أنَّ تلك المطبعة القديمة التي رأيتها من قبل ما كانت لتساوي ١٠٠ جنيه.

ثمَّ وجدت الشيخ علي يوسف نفسه من أكتب كتّاب مصر وأسيلهم قلمًا، فضلاً عن أني وجدته عينًا من أعيان مصر وأشهرهم ذكرًا، ولم يغفل الشيخ عن أن يذكّرني بزيارتي الأولى عندما كان على تلك الحالة الرثّة، وأن يقابل بها حالة الترف التي رأيته عليها يوم زيارتي الثانية، فهذا المثال البارز كافٍ لقياس درجة الرقيّ الفكري في الشرق[1].

- انتشار الصحافة في العالم الإسلامي

ولقد كانت الصحافة العربية فيما مضى منحصرة في القطرين المصري والشامي، فصارت الآن منبثّة في جميع الأقطار العربية. ففي العراق بضع عشرة جريدة ومجلّة منها ما هو في بغداد ومنها ما هو في البصرة، وكذلك ظهرت جرائد في الحجاز قد كان أولها جريدة «القبلة» في زمن الملك حسين. ولمّا استولى ابن سعود على الحجاز استبدل بها «أمّ القرى»، ثمَّ ظهرت جريدة اسمها «صوت الحجاز» في مكّة، وجريدة ومجلّة في المدينة المنوّرة، وصدرت جريدة «الإيمان» للحكومة اليمانية في صنعاء، وصدرت جرائد عربية وراء البحار أشهرها جريدة «حضرموت» في جاوة، كما أنه يوجد في الهند مجلّة عربية اسمها «الضياء» للأستاذ مسعود الندوي.

أمّا في المهجر، فإنَّ للعرب نحوًا من ٣٠ جريدة ومجلّة: منها ما هو في أمريكة الشمالية

(١) لا حاجة بنا الآن إلى سرد أسماء الجرائد المصرية الكثيرة ولا إلى سرد أسماء الجرائد السورية الصادرة في دمشق وحلب وبيروت وفلسطين ولا إلى ذكر المجلاّت الشهيرة كالمقتطف والهلال والرسالة وأمثالها، فإنّ الأعلام الشهيرة لا تعرَّف ولا تحتاج إلى تعريف.

وما هو في أمريكة الجنوبية. وفي المهاجر العربية هناك من الكتّاب والشعراء والأدباء والأطبّاء والفلاسفة نفرٌ تفخر بهم أوطانهم، وهو جزء متمّم للعالم العربي الأدبي لا يتمّ إلاّ بهم، وإنّي أشبّه الجاليات العربية في وسط هاتيك الأمم الأجنبية التي تحصى بمئات الملايين بجزائر عربية صغيرة في أوقيانوس من العُجمة لا نهاية له، وقد احتفظت مع ذلك هذه الجزائر الصغيرة بلغتها العربية وآدابها وأذواقها ومنازعها ومشاربها، وهذا لعمري برهان الأصالة والنبالة وعلوّ الهمّة، فإنَّ الذي يخجل بوطنه وقومه ليس بإنسان. وفي نيويورك شارع كبير خاص بالعرب تجد فيه على أبواب المخازن العناوين العربية فوق الإنكليزية، وتنظر المطاعم العربية التي تطهو من المآكل الشرقية المتنوّعة ما يكون قد درس بتمامه في البلاد العربية الأصلية.

وإنّك لتسمع الموسيقى ثمّة العربية كيفما توجّهت سواء من المغنّين أو من الآلات الحاكية، وإذا نظرت إلى النوافذ وجدت فيها الأصص من الفخّار فيها الرياحين وأكثرها من الحبق الذي يقال له الريحان في دمشق، وفي لبنان الحبق. ويظهر أنَّ العرب يأخذون هذه الريحانة أينما ذهبوا في الأرض، فإنّي قد وجدتها بكثرة في إسبانية وهي حافظة اسمها العربي، فيقول لها الإسبانيول «هبقة» أي حبقة. ومن غرائب ما سمعته عن اعتصام السوريين بعاداتهم القومية وهم في المهجر أنَّ كثيرين منهم يسكنون في حارات على حدة، وربّما بنوا قرى منفردة لأنفسهم، وذلك ليكونوا أحرارًا في ممارسة عاداتهم التي كانت لهم في بلادهم الأصلية، فإذا حصلت أعراس عندهم حسبتها واقعة في نفس سورية بما فيها من الأغاريد والأناشيد والزغاريد وما يقال له في لبنان «التراويد». وقد حضرت في نيويورك عرس فوزي بك البريدي من زحلة، وقد اجتمع فيه أبناء العرب فخلت نفسي في زحلة أو في أية بلدة من لبنان، وكذلك قيل لي إنّهم في الأماكن التي يسكن فيها السوريون على حدة ويمارسون عاداتهم الأصلية بالمآتم، فتندب النساء من جهة حول الميْت ويندب الرجال من جهة أخرى، وهم يذهبون ويجيئون وبأيديهم المناديل يهزّونها في الهواء وهي ما كان العرب يقولون له المآلي واحدتها مئلاة، إلاّ أنَّ بقاء هذه الحالة عند السوريين المهاجرين لا يعدو العصر الحاضر، لأنَّ أعقابهم مع الأسف ذائبون إلاّ ما ندر في الجنسية الأمريكية، وقلّما رأينا من ذراريهم المولودين في أمريكة من يعرف اللغة العربية، لا سيّما الذين أمّهاتهم من هناك، وقد عالج بعضهم هذه الحالة وحاولوا استبقاء اللغة العربية بين المولودين في أميريكة

من أبنائهم، وفتحوا مكاتب وكتاتيب علمت بوجود اثنين منها في ديترويت مشيغن، وحدّثوني عن غيرهما، ولكنّ هذا العوز لا ينسدّ مع الأسف ببضعة كتاتيب، فالسوريون الذين في أميريكة الشمالية يزيدون على ٢٠٠ ألف نسمة، وهم في الأميريكتين جميعًا أكثر من نصف مليون.

وقد قيل لي: إنَّ أعلى المهاجرين العرب همّمًا من جهة الاحتفاظ بلغتهم هم مهاجرو العرب في البرازيل الذين عندهم مجلاّت راقية وجرائد مفيدة، كما يوجد مثل ذلك في نيويورك، ولم يقتصروا في البرازيل على بعض الكتاتيب لاستبقاء عروبة بأبنائهم، بل أسّسوا هناك لهذا الغرض مدارس عالية، يدرس الطلبة فيها العربية الفصحى في جانب اللغة البرتغالية التي يتكلّم بها أهل البرازيل، أمّا إذا بقيت أبواب المهاجرة مسدودة على العرب في أمريكة الشمالية فلا يمضي عليهم هناك أكثر من نصف قرن حتّى ينقرض منها مع الأسف كلّ شيء أصله عربي، ويصير وجود العرب في تلك القارّة خبرًا من الأخبار التاريخية.

- الصحافة العربية في شمالي أفريقية

ولنعد إلى حديث الصحافة العربية الذي كنّا في صدده فنقول: إنَّ شمالي أفريقية قد نهض في العصر الحاضر نهضة أكيدة، وكثرت فيه الجرائد العربية والمطابع وسائر أدوات النشر التي تعوّل عليها كلّ أمّة ناهضة، ولم يكن في بادئ الأمر بغير تونس جرائد عربية مغربية، وقد تقدّم ذكرنا لجريدة «الرائد التونسي» التي كانت تصدر فيما أذكر من قبل احتلال فرنسة لتونس أي منذ ستّين سنة، وبعد ذلك صدرت في تونس جرائد أخرى، وفي يومنا هذا تصدر في تونس عدّة جرائد ومجلاّت راقية «كالزهرة» و«النهضة» و«الصواب» و«المجلّة الزيتونية» وغيرها.

وأمّا الجزائر فقد كانت تصدر فيها منذ خمسين سنة جريدة عربية واحدة اسمها «المبشّر»، وأظنّها كانت الجريدة الرسمية للحكومة، إلاّ أنَّ الأهالي منذ بضع عشرة سنة نشروا جرائد متعدّدة في مدينة الجزائر وفي قسطنطينة أتذكّر منها «البلاغ» «ووادي تراب». وأمّا اليوم فمن أشهرها جريدة «البصائر» ومجلّة «الشهاب»، ولم يقتصر إخواننا التوانسة والجزائريون على نشر أفكارهم في الصحف العربية التي أصدروها، بل لأجل إمكان تفاهمهم مع الفرنسيس

المحتلّين لبلادهم، وللمطالبة بحقوقهم عمدوا إلى نشر جرائد وطنية غربية إسلامية باللغة الفرنسية، وذلك على نسق مجلّتنا العربية المنهج، الإفرنسية الملهج "لاناسيون آراب"(١)، ومثل ذلك وقع في المغرب الأقصى الذي كانت السلطة مانعة فيه الأهالي الوطنيين من نشر الجرائد بتاتًا، خلافًا للأجانب، فقد كان ولا يزال يؤذن لهم في ذلك، بل كان محظورًا إدخال الجرائد العربية الصادرة في البلاد الأخرى إلى المغرب، وربّما عوقب من وجد قارئًا لجريدة كهذه، إلاّ أنَّ الأهالي لم يزالوا يعترضون على السلطة من أجل هذا الضغط الشديد على حرّية القراءة في بلادهم، حتّى سمحت من سنوات لبعض الأدباء بإصدار مجلّة علمية في الرباط اسمها "المغرب" أذنت لها في الظهور، على شرط أن تكون موالية للحكومة، فاضطرّ الحزب الوطني في المغرب إلى إصدار مجلّة إفرنسية في نفس باريز باسم "المغرب Magreb" جعلوا إدارتها بيد ضيف سورية الحالي "روبير جان لونغة"(٢) الذي جاهد هو وأبوه كثيرًا في النضال عن المسلمين الذين تحت حكم فرنسا، وفي منحهم جميع الحرّيات التي لهم الحقّ فيها، فلمّا ظهرت مجلّة مغرب وأقبل شبّان ذلك القطر العزيز ينشرون فيها باللغة الإفرنسية من المقالات القيّمة والآراء السديدة ما أحدث تأثيرًا عظيمًا في نفس باريس، انتقمت السلطة من تلك المجلّة بمنعها من دخول المغرب نفسه، فأصبحت في المقيم المقعد مع الوطنيين الذين كانت ترأسهم عصبة العمل القومي، ومنذ سنتين تمكّن السيِّد محمَّد ابن الحسن الوزاني من زعماء النضهة الوطنية في المغرب من إصدار جريدة في فاس باللغة الفرنسية سمّاها "عمل الشعب"(٣) وجعل مديرها إفرنسيًّا حتّى لا تتمكّن السلطة من تعطيلها، فلمّا ظهرت هذه الجريدة وأخذت تناضل عن حقوق الأهلين وتناقش بشدّة الصحف الفرنسية الصادرة هناك، أمرت السلطة بتعطيل هذه الجريدة خلافًا للقانون، فبقي أهل المغرب يئنّون من هذا الضغط، إلى أن تولّت فرنسة ولله الحمد الوزارة الشعبية في السنة الماضية، فراجعتها عصبة العمل القومي في موضوع حرّية الاجتماع والكتابة. وما زالت المراجعات مستمرّة بإصرار إلى أن لأذنت السلطة لعصبة العمل القومي بإصدار جريدتين إحداهما بالعربية اسمها "الأطلس" يتولّى تحريرها السيِّد محمَّد اليزيدي، وأخرى بالإفرنسية اسمها "العمل الشعبي"(٤) يحرّرها السيِّدان أحمد بلافريج وعمر عبد الجليل من زعماء الحركة الوطنية المغربية، وصدرت

---

(١) La nation arabe.
(٢) Robert Gean Longuet.
(٣) L'action du peuple.
(٤) L'action populaire

أيضًا جريدة "عمل الشعب" للسيِّد محمَّد بن الحسن الوزاني، وجريدة أخرى بالعربية يقال لها "الوارد". كما أنه صدرت في تطوان من المنطقة التي يحتلّها الإسبانيول جريدة "الحياة" للسيِّد عبد الخالق الطوريس ومجلّة "السلاح" للسيِّد محمَّد داود. وأمّا في طرابلس الغرب فلم يكن أيام الدولة العثمانية غير جريدة الولاية الرسمية، وفي الوقت الحاضر توجد جريدة للحكومة في طرابلس وأخرى في بنغازي، ولكن الطرابلسيين يقرؤون الجرائد العربية التي تردُ إليهم من الشرق والغرب بلذّة زائدة. ولا عجب فإنَّ علاقتهم من جهة الشرق مع مصر والشام، ومن جهة الغرب مع تونس، هي علاقات أقطار شقيقة، وفي زنجبار من شرقي أفريقية مطبعة سلطانية من قديم الزمن، أطلعنا على كتب مطبوعة فيها، ومؤخّرًا وصلت إلينا جريدة عربية صادرة في جزيرة زنجبار هذه.

فهذه هي لمحة دالّة عن الصحافة العربية في الخمسين من السنين الأخيرة لا نزعم فيها الإحاطة، وإنّما نجتزئ بالإشارة التي تعطي القارئ صورة صحيحة عن هذا البحث، وبالجملة، فالصحافة كانت من أعظم عوامل نهضة العرب ولا تزال تتقدّم إلى الأمام.

- المدارس في العالم العربي

إنَّ الجرائد ليست وحدها هي المقياس الكافي لأجل إعطاء صورة صحيحة عن درجة الرقيّ، بل المقياس الأكبر هو المدارس، فمدينة بيروت مثلاً وعدد سكّانها نحوٌ من ٢٠٠ ألف نسمة فيها من المدارس والجامعات، ما لو قرنته بجامعات أوروبة ومدارسها لم تكن قاصرة عنها، وربّما كانت زائدة عليها إذا روعيت نسبة عدد السكّان. وقد كنت منذ ٢٥ سنة في مدينة نابلس التي لم يكن أهلها يزيدون على ٢٥ ألف نسمة، فبحثت عن عدد المتعلّمين في هذه البلدة فكانوا ٢٠٠٠ من الأحداث في المكاتب الأميرية، وأحصينا عدد طلاّب المدارس العالية في الآستانة فبلغوا مائة شابّ، فإذا نظرنا إلى عدد أهالي نابلس وجدنا عدد طلاّب العلم من أهلها لا يقلّ عمّا يجب أن يكون في أية بلاد راقية، وليس هذا المثال وحيدًا في بابه، بل له أمثلة كثيرة في سورية، وإن كنت لا أزال أتأسّف من بقاء الأمّية في البلاد إلى هذا الوقت أكثر ممّا كنت أظنّ، وذلك بغلبة البوادي والقرى المفتقرة إلى التعليم، ولم يكن هذا كلّه من تقصير الحكومة وفقد إرادة العمل، وإنّما للميزانية المالية العمومية دخل في نزول درجة التعليم عمّا يجب أن تكون. ومن الغريب أنَّ الأمّية في مصر لا تزال أكثر

منها في سورية بالرغم من أنَّ بين القطرين بونًا شاسعًا في درجة الثروة، أمّا تقدّم التعليم في سائر البلاد العربية فأكثر ما برز منه للعيان بمدّة قصيرة هو في المملكة العراقية، لا سيّما بعد أن حصلت على استقلالها، فإنّه في وقت قصير أنشئت في العراق عدّة مدارس عالية كدار المعلّمين في بغداد والموصل، ومدرسة الطبّ والثانوية المركزية، وعدّة مدارس ثانوية متوسّطة، وعدد لا يحصى من المدارس الابتدائية، وفي العراق المدارس المسمّاة (رياض الأطفال) كثيرة وهي أرقى من أمثالها في سورية، والفضل يرجع في إتقان هذه الرياض إلى المربّي العربي الكبير الأستاذ ساطع الحصري. ثمَّ قد بلغني أنَّ الكتيبة من القاهرة وغيرها يصدرون كلّ سنة مقادير جسيمة من الكتب المدرسية إلى العراق وأنَّ هذا يزداد عامًا فعامًا.

أمّا في سورية فجامعتها العلمية تتألّف من كلّية الطبّ وكلّية الحقوق والمدرسة التجهيزية الكبرى للبنين، ومن فروعها دار المعلّمين الابتدائية والعالية، ومدرسة تجهيزية أخرى للبنات وفيها دار للمعلّمات أيضًا، ومدارس ابتدائية كثيرة، وفي حلب مدرسة تجهيزية ومثلها في دير الزور ومثلها في حماة وأخرى في حمص، ولو كانت الميزانية المالية كافية لقطعت سورية في أقصر وقت أبعد مرحلة في طريق التعليم، وهذا ما نأمل الوصول إليه في غير بعيد من الزمن ولا سيّما بعد أن نالت البلاد استقلالها، فإنّه لا يرجى نهضة علمية إلاّ بنهضة سياسية فهاتان توأمان دائمًا. وقد بلغني من وزير المعارف الدكتور الكيالي أنه لمّا ضاقت مكاتب الحكومة في هذه السنة عن استيعاب جميع الأولاد الذي يريد أهلوهم إدخالهم فيها، أوصى الوزير مديري المدارس الابتدائية بتسجيل جميع من يريد الدخول فيها، كما أوصى مديري الكتاتيب الأهلية الحرّة بأن يقبلوا كلّ من يأتيهم على أن تؤدّي إليهم الحكومة النفقات اللازمة، فيقظة الأمّة ولا سيّما بعد استقلالها الحديث غير محتاجة إلى استدلال.

- المجمع العلمي في دمشق ومصر

ولا يجوز لنا أن ننسى ذكر مجمعنا العلمي هذا الذي كان أول مجمع على نسق أكاديميات أوروبة في الأقطار الشرقية، فإنّه يضمّ نيّفًا ومائة عالم شرقي ومستشرق، كلّهم من ذوي الشهرة الطائرة سواء في الغرب أو في الشرق، وللمجمع مجلّة علمية من أرقى ما صدر من المجلاّت في العربية وأدقّها بحثًا وأحسنها أسلوبًا وأجمعها للنوادر وأحفلها بالفوائد، ولا يستغني متخصّص في العربية إذا أراد جدّ الاطّلاع عليها عن اقتناء مجموعة

هذه المجلّة منذ صدورها، وقد سبقت سورية مصر في تأسيس هذا المجمع، ولكن مصر عادت فسدّت هذا العوز بتأسيس مجمعها الحالي، فكلا المجمعين الشقيقين يخدم هذه اللغة الشريفة وثقافتها بكلّ ما أوتي من قوّة ووسائل. ولنا الأمل بأن يسير المجمعان معًا إلى الأمام خطوات واسعة، وأنَّ حكومتَي القُطرين تشدّ أزرهما بالمال إلى الحدّ الذي يمكنهما من القيام بخدمات جلّى للعربية والعروبة كما هو الشأن في أكاديميات الممالك الأوروبية، فإنَّ أمام العرب مهمّات عظيمة في إثارة دفائن عقولهم، وكشف دارس مدنيتهم، والتنقيب عن دقائق تاريخهم لا يقوم بها إلاّ هذه المجامع العلمية، التي هي أيضًا لا تقوم إلاّ بتوفير أقساطها من الميزانية المالية، ولست معترضًا الآن إلى الكلام عمّا قام به المجمعان الشامي والمصري من الخدمة اللغوية بإيجاد الألفاظ التي تقتضيها حاجة العصر، وإحياء ما وجد منها في لغتنا بتطبيقه على المعاني المناسبة له، فإنَّ من شاء أن يعرف طائلاً من هذا الأمر يقدر أن يراجع مجلاّت هذين المجمعين.

وإنّا نكون غفلنا عن الحقّ وأهملناه جانبًا إذا كنّا لا نقول إنّه في القرون الأخيرة لولا بقاء الأزهر والأموي والزيتونة والقرويين، لم يكن بقي أثر من آثار اللغة العربية فضلاً عن الشريعة الإسلامية، فهذه المساجد الأربعة هي التي في الدرجة الأولى قد وَقَتْ هذه اللغة من الدثور، وهذه الشريعة من البوار، وقد كانت الفوضى في القرون الأخيرة المذكورة قد نسفت عمران هذه البلدان، إلاّ بقايا تلوح كباقي الوشم في ظاهر اليد، وتسلّط على هذه الأقطار ولاة أتوا على الحرث والنسل، وهدموا كلّ شيء وطمسوا كلّ رسم، ومع هذا فقد بقيت هذه المساجد الأربعة بنوع خاصّ مع مساجد أخرى كانت تجري مجراها تقيم العربية على أركان، وتصدّ غارات الجهل عليها وعلى الشريعة بقدر الإمكان، فكيف تثبت هذه الشريعة وهذه العربية في وسط هذا الزوال؟ وكيف بقيتا في بهرة هذا الفناء مدّة تزيد على أربعة أو خمسة قرون تعاور العالم الإسلامي فيها الانهيار من كلّ جانب، إنَّ هذا لعجب عجاب!

ولا شكّ أنَّ ثبات الشريعة واللغة في وجه هذه الصدمات السياسية التي تدكدك الجبال، هو الدليل الكافي على متانة أصولهما، ورسوخ قواعدهما، وغزارة القوّة الحيوية التي فيهما. وفي مصر عدا الأزهر معاهد كثيرة للعلم مثل الجامعة المصرية ومدرسة القضاء الشرعي ومدارس الحقوق والهندسة والزراعة ممّا لا يتيسّر لي استقصاؤه الآن، وإنّما أشير إلى نتائجه الباهرة فإنّه لا يكابر مكابر في أنَّ الحركة السياسية الأخيرة التي جرت في مصر في الشتاء الماضي وانتهت باستقلالها، بالرغم من معارضات الإنكليز تحت مختلف العلل، إنّما كانت

ثمرة هذه المدارس، لأنَّ الذين تولّوا هذا الأمر هم العشرة الآلاف طالب الذين ثاروا في القاهرة ثورة الرجل الواحد وتنجّزوا الاستقلال التامّ لوطنهم تنجز المستميت باذلين من دونه دماءهم بذل السخي لماله.

ـ أثر الزيتونة والقرويين والأموي

وكما قام الأزهر بالواجب الذي عليه في مصر وكان أشبه بالصخرة العالية التي كانت تتكسّر عليها أمواج الجهل والفوضى، كذلك كان جامع الزيتونة في تونس وجامع القرويين في فاس والجامع الأموي في دمشق، ومنها ومن المساجد الأخرى خرج العلماء الأعلام والمصابيح الذين أناروا الإسلام في دياجي ذلك الظلام، ومن هؤلاء أيضًا خرج أولئك العلماء الوطنيون الذين أرادوا إدخال العلوم العصرية في البلاد، والتحقّق بمعارف الأوربيين حتّى لا يبقى الشرق مقصّراً عن الغرب، فكانت الجامعات والمدارس العصرية الكثيرة، وكان إرسال البعثات العلمية إلى أوروبة من أيام محمَّد علي إلى اليوم.

ـ النهضة العلمية والدعوة الوهابية

ولا يظنّ ظانّ أنَّ الحركة التعليمية في جزيرة العرب قد بقيت كما كانت عليه قبل، فأمّا في نجد والحجاز فلا يخفى أنَّ الدعوة الوهابية توجب حمل جميع الناس على التعليم بدون استثناء، وهو عندهم بمقام الجهاد فترى المعلّمين والفقهاء يجوبون الحواضر والبوادي ويفتحون الكتاتيب للأحداث وربّما شرّقت قبائل من العرب وغرّبت والمعلّمون معها حتّى لا ينقطع التعليم بالرحيل، فالأمّية في البلدان الخاضعة لسلطان ابن سعود ستكون نادرة، ولكن يعترض بعضهم قائلاً:

إنَّ هذا التعليم النجدي لا يساعد الرقيّ المدني، بل هو من النمط القديم الجامد الذي ليس فيه كبير جداء لأهل هذا العصر، وهذا القول مردود من وجوه؛ أولاً أنَّ النجديين يلتزمون تعميم القراءة والكتابة في البدو والحضر، فزوال الأمّية هو بنفسه درجة عالية من العلم، ثمَّ إنّهم يحفّظون الأحداث القرآن الكريم ويفسّرونه لهم بعد رشدهم، وأي كتاب حثّ على العلم والتعليم والسير والنظر أكثر من القرآن، وأي كتاب قدّس العلم والعلماء، ونوّه بالحكمة والحكماء أكثر من القرآن.

ـ الاصطلاح والعمران في المملكة السعودية

ثمَّ إنَّ منزع النجديين في الدين منزع إصلاح وترقية وتنقية، ومشربه بعيد بالمرّة عن الخرافات فهو مشرب إصلاحي مستحبّ جدًّا في العصر الحاضر، وإذا سألت الأوربيين أنفسهم قالوا لك: إنَّ مثل هذا المشرب هو الذي فكّ قيود الأفكار وحلّ عقال العقول في أوربة. وكان فاتحة عهد الارتقاء، وكثيرًا ما أطلق الأوربيون على الوهابين لقب (بروتستان الإسلام)، ثمَّ إنَّ هذا الملك عبد العزيز بن سعود إمام الوهابيين القائم بتنفيذ مبادئهم لا يقف عن قبول أي علم نافع أو اختراع عصري مفيد؛ فهو يجهّز مملكته بجميع طرق العمران الحديثة، وعنده التلغراف السلكي واللاسلكي في جميع بلاده، وعنده التليفون والراديو، وعنده السيَّارات الكهربائية تسير في طول البلاد وعرضها حتّى صارت تلك الأرض الشاسعة تطوى طيّ السجل للكتاب، ومن أعمال ابن سعود اعتناؤه بالصحّة العمومية وتعويله فيها على الوسائل العصرية الحديثة، وقد بدأ يستخدم الطيّارات في الجيش، ولو كانت ميزانيته المالية تأذن له في الاتّفاق كما يشاء لما سبقه في هذا الميدان سابق، ولكانت الأدوات العصرية في جيشه لا تقلّ عن مثلها في أي جيش أوروبي، ولكنَّ المال قِوام الأعمال، ثمَّ إذا كان المراد من العلم والتعليم هو إيجاد الأمنة في السوابل، فلا يكون في هذا المعنى أرقى من مملكة ابن سعود. لأنَّ الأمن العام ضارب أطنابه في بلاده كلّها، وواصل إلى الدرجة التي يتحدّث عنها المؤرّخون في الكتب، بعد أن كانت تلك الصحارى أشبه بمسبعة تزأر فيها الضواري من كلّ فجّ، وبالاختصار، فالوهابيون يقبلون كلّ إصلاح ما لم يصادم الدين، والعلم والدين لا يتصادمان في الحقيقة إلاّ عند من لم يحسن فهم كلّ منهما.

ـ النهضة العلمية في اليمن

أمّا اليمن، فإنّه يضارع مملكة ابن السعود في أمرين: عموم التعليم والأمن الشامل، فقد بلغني أنه لا يكاد يوجد في اليمن قرية تخلو من فقيه يعلّم الأحداث القراءة والكتابة، وأنه لا توجد مدينة ولا قصبة في اليمن إلاّ فيها حلقات تدريس للعلوم اللغوية والشرعية، فالأمّية في اليمن نادرة، نعم لا يوجد هناك من يعتني بالعلوم العصرية إلاّ نادرًا وهي علّة قد تزاح قريبًا، لأنَّ العلوم الأدبية لا بدّ أن تثير حركة في الأفكار، وتجعل نهضة في النفوس، وهذه من

شأنها أن تهتف بنشدان العلوم الطبيعية، وذلك كما جرى في مصر والشام وغيرهما. وهذا وإمام اليمن يحيى بن محمَّد بن حميد الدين هو بنفسه عالم فاضل متبحّر سيّال القلم لا يغرب عن باله شيء ممّا يجب لترقية بلاده، ولذلك نراه مهتمًّا بالمدرسة العسكرية التي في صنعاء، وعنده معمل سلاح صغير شاهدته بعيني أنا وزميلاي هاشم بك الأتاسي رئيس الجمهورية السورية والحاجّ أمين الحسيني مفتي القدس الشريف ورئيس المجلس الإسلامي الأعلى، وعلمنا أنَّ هذا المعمل يقدر أن يعمل البنادق وعلف البنادق كما يصنعونها في أوروبة، ورأينا مصنوعات هذا المعمل عيانًا، ولنا الأمل بأن تتّسع دائرة هذا المعمل، وأن يتأسّس في البلدان العربية معامل أسلحة كثيرة تكون وافية بحاجات أهلها، ولا ننسى أنَّ العراق والشام والمملكة السعودية هي في مقدّمة الأقطار العربية التي تحتاج إلى مثل هذه المعامل، لأنَّ على العرب واجبًا لا يجوز أن يغفلوا عنه طرفة عين، وهو أن لا يكونوا عيالاً على أوروبة في التسلّح، فإنّه إن أمكنهم ذلك في زمن الحرب استطاعوا أن يدفعوا الأخطار عن بلادهم. وخير للأرض أن تستغني بمائها عن مياه غيرها التي يجوز أن تنقطع عنها.

ـ الشعر والشعراء

أمّا اللغة العربية حيث هي، فقد طارت في هذه الخمسين سنة الأخيرة بجناحين، وصارت إلى جلالها الماضي، وعنجهيتها القديمة، فكثر في السنين الأخيرة سواد الكتّاب والشعراء حتّى صاروا يحصون بالمئات إن لم يكن بالألوف، ونبغ منهم فحول يقدر الإنسان أن يلزّهم في صفوف المنشئين والشعراء من أهل القرون الأولى للإسلام عندما كانت اللغة في إبّان سَورتها، فلا تنظر في جريدة إلاّ تجد فيها من النظم الفائق والترسّل الرائق لشبّان لم تسمع في عمرك بأسمائهم، هذا عدا المفلقين والعباقر الذين سارت بذكرهم الركبان وحفظ الرواة من شعرهم كما يحفظون شعر المتنبّي وأبي تمام، ولم يكن منذ خمسين سنة بمصر والشام والعراق والمغرب معشار العدد الذي نجده في يوم الناس هذا من هذه الطبقة الراقية في الأدب منذ خمسين سنة أو ستّين سنة فما قبل، وكان إذا نبغ شاعر أو برع كاتب ضرب به المثل لتفرّده وخلوّ الجوّ من حوله، والحال أنه لو نشرته اليوم من قبره، وعرضته في الجمع لوجدت أمثاله يعدّون بالعشرات، وإن كانت لا تزال له طلاوة، فهذه الطلاوة لا ترتفع به إلى صفوف العبقريين وإنّما تجعله في صفّ المجيدين، وقد كنّا في سورية

لا نعرف شاعرًا أحسن من نصيف اليازجي اللبناني الذي نبغ في بيروت وصارت له تلك الشهرة الطائرة باستحقاق، وهو لو وجد في زماننا هذا لما كان إلاّ واحدًا من جماعة، وكان في بيروت من الشعراء المجيدين عمر الأنسي البيروتي يقرأ الإنسان شعره بلذّة وكان قبل الأنسي واليازجي أمين الجندي وبطرس كرامة كلاهما من حمص ولهما قصائد كسبا بها شهرة لا تزال لهما إلى اليوم، ولو أنهما عاشا في هذا العصر لم تكن لهما هذه الشهرة بالرغم من إجادتهما، وعلوّ طبقتهما. وقد سأل الأمير بشير الشهابي أمير لبنان في وقته الشيخ أمين الجندي عن المعلّم بطرس كرامة قائلاً له: ما نسبة المعلّم بطرس إليك في الشعر؟ فأجابه: نسبة الثعلب إلى الأسد، ولم يكن هذا الجواب صحيحًا لأنَّ لبطرس كرامة من الشعر لا سيّما في الغزل والنسيب ما لا يقلّ رونقًا عن شعر الجندي، وكان في بغداد ثلاثة شعراء أو أربعة اشتهرت أسماؤهم في بلادنا مثل عبد الباقي العمري، صالح التميمي، عبد الحميد الموصلي، وعبد الغفّار الأخرس، وكان أكثرهم شهرة عبد الباقي العمري وعبد الحميد الموصلي هنا بسبب مراسلاتهما مع نصيف اليازجي، كما أنَّ شهرة صالح التميمي كانت بسبب المناقشة التي وقعت بينه وبين بطرس كرامة، وهذه الطبقة، وإن كانت تعدّ من الطبقة العالية في الأدب، فإنَّ الذين جاءوا بعدها ردّوها إلى الوراء. فبعد أن كانت من المجلّين صارت من المصلّين، اللّهم إلاّ إذا حسبنا الشاعر الأرزي الذي لا يلزّ هؤلاء في قوّته، ومن قبله ابن معتوق الذي كان يضارع الشعراء الأولين. وأمّا في مصر فما بدأ الشعر ينهض إلاّ بنبوغ محمود صفوت، وبعده محمود سامي وهو صاحب النهضة الشعرية الكبرى، وقد أجمع مؤرّخو الأدب على أنه مجدّد الشعر العربي في هذا العصر، وأنه الذي أعاد إليه ديباجته الأولى التي كانت القرون الأخيرة لا تعرف منها شيئًا، وما كان شوقي وحافظ وغيرهما من شعراء مصر إلاّ مبعوثين في عالم الأدب بأنفاس محمود سامي العالية، واليوم لا يكاد يحصى عدد المجيدين من شعراء مصر. وأغرب منه نبوغ شعراء في السودان لا يقلّ شعرهم في الإجادة عن شعراء الأقطار العربية الأخرى، وقد نبغ في تونس في القرن الماضي محمَّد قباد وهو صاحب تشطير (أفاطم لو شهدت ببطن خبت) الذي دخل فيه مدخلاً لا يفترق عن الأصل، والذي له قصائد أخرى جياد، وجاء بعده شعراء في تونس لم أعلم منهم أحدًا بلغ مداه، وقد هبّت ريح الأدب في هذا العصر في أرجاء الجزائر والمغرب الأقصى، وظهر شعراء ومترسّلون يمكن أن يضعهم القارئ في صعيد واحد مع شعراء الشرق، ومهما قيل في ترقّي الشعراء في هذا العصر الأخير فأعظم منه قد كان ترقّي الكتابة التي لم تتقدّم

في فصاحة الألفاظ وتنقيح الجمل فقط، بل علت ببلاغتها وحسن أسلوبها وتشعّبها بالمعاني الكثيرة التي أوجدتها الحركة العلمية الحديثة، فأديل[1] من الصناعة اللفظية والسجع الرنّان بالمسحة العلمية والإنشاء المرسل الملآن، وهذا النوع من الكتابة هو أصعب أنواعها لمن أراد أن يسمّى كاتبًا، ولا نزاع في أنّ ترقّي كلّ من فنّي الشعر والكتابة في الأدب العربي قد كان وليد النهضة العلمية العامّة التي حملت المتأدّبين على مراجعة أحسن ما كتب العرب وخلّفوه في زوايا المكاتب، فسمت الهمم بسبب هذه النهضة العلمية إلى طبع الكتب التي لا تزال مجهولة، أو ممّا ينحصر اقتناؤه في بيوت الأمراء والكبراء، فصارت هذه الكتب من مثل ترسّل ابن المقفّع والجاحظ وأمثالهما مشاعًا بين جميع عشّاق الأدب، وكانوا كلّما قرأوا كتب الأوربيين شعروا بحاجة إلى مادّة أغزر من اللغة العربية وأساليب أطلى وفنون أبدع ومجال أوسع، فكأنّ اللغات الأجنبية هي نفسها قد كانت الحافز الأعظم على إتقان العرب المحدّثين للغتهم وارتوائهم من معينها، ولا عجب في ذلك فالعلم يزيد بعضه بعضًا سنّة الله في خلقه.

ـ الفقه الإسلامي وعلماء الدين

هذا ما كان من جهة الأدب العربي، وأمّا من جهة الفقه الإسلامي فلا نقدر أن نقول إنّه تقدّم إلى الأمام، بل رجع في الحقيقة إلى الوراء، وذلك باستغناء الناس عنه بعلم الحقوق منذ ترجمت الدولة العثمانية هذا العلم عن قوانين أوربة إلى التركية والعربية، ومن عادة الناس أن يكون أكثر انشغالهم بما ينفعهم في دنياهم، وليس كلّ العلم طراز مجالس. نحن أولاء قد أدركنا في أواخر القرن الماضي طبقة عالية من علماء العلوم الشرعية في دمشق مثل الشيخ محمود الحمزاوي والشيخ سليم العطّار والشيخ بكري العطّار والشيخ سعيد الأسطواني والشيخ الطنطاوي والشيخ علاء الدين عابدين والشيخ محمَّد البيطار وأخيه الشيخ عبد الرزّاق البيطار والشيخ طاهر الجزائري والشيخ عبد الغني الميداني والشيخ محمَّد الخاني والشيخ جمال الدين القاسمي وغيرهم، وكان الناس يستفتونهم في النوازل ويعوّلون على آرائهم في الدين والدنيا، فلمّا انتشرت العلوم العصرية ومنها القوانين الأوربية المترجمة التي عملت الدولة بها صار إذا مات واحد من هؤلاء الفقهاء لا يخلفه غيره، وما زال الأمر كذلك إلى أن كادت هذه الطبقة تنقرض بالمرّة، وكذلك كان في بيروت

(١) أديل: انقلبَ واستُبدل.

الشيخ محي الدين اليافي والشيخ يوسف الأسير والشيخ ابراهيم الأحدب، وفي طرابلس الشيخ حسين الجسر والشيخ محمود نشابة فمات كلّ هؤلاء ولم يخلفهم أحد، وصار النبوغ للمحامين الذين تخرّجوا في المدارس الأوربية أو في مكاتب الدولة العثمانية، والمحامون بمصر أكثر منهم بالشام لما في مصر من استبحار العمران.

إلاّ أنه نظرًا لوجود الأزهر ومدرسة القضاء الشرعي في مصر بقي حمَلة العلوم الشرعية فيها أكثر منهم في سورية، وكان الواجب على هذه الأمّة في كلّ قطر أن لا تهمل هذا العلم الذي هو من مفاخر الثقافة العربية ومن محاسن تاريخها والذي لا يستغني عنه المسلمون في المعاملات الدنيوية فضلاً عن المسائل الاعتقادية.

- الطب والأطبّاء والصيدلة

وأمّا الطبّ فهو من العلوم التي يقوم عليها المشارقة أكثر من غيرهم ويوفّقون فيها، ومن الأطبّاء الشرقيين من يقيمون الآن في أوربة ويشتهرون بالنبوغ بين أهلها، وقد كانت الدولة العثمانية من الدول الراقية في علم الطبّ حتّى يقال إنّها في الدرجة الخامسة بالنسبة إلى الدول الأخرى، وقد نبغ فيها عدد كبير من الأطبّاء الجرّاحين يعدّون في الطبقة العليا بالنسبة إلى أطبّاء أوربة وجرّاحيها أنفسهم، منهم أتراك ومنهم عرب ومنهم أروام ومنهم أرمن، ولا نقدر أن نقول إنَّ سورية متأخّرة في حلبة الطبّ هذه عن غيرها، بل إنّي أتذكّر أنه لّما نشبت الحرب العامّة، واحتاجت الدولة إلى أطبّاء لجيشها ساقت إلى الجيش ٢٠٠ طبيب ذي شهادة من جبل لبنان وحده، وبقي عدد كبير منهم في البلاد. واليوم قد ازداد هذا العدد على ما كان عليه قبل، وبلغني أنَّ في دمشق وحدها اليوم (١٥٠) طبيبًا، وإنّا نرى خرّيجي مدارس الطبّ من السوريين يتعاطون صنعتهم هذه في مصر والعراق والسودان والحجاز وغيرها، وما يقال في الطبّ يقال في الصيدلة التي لها ممثّلون كثيرون من أبناء سورية، وكذلك بدأ كثير من الشبّان يدرسون في أوربة علم الجراثيم (البكتريولوجية).

- منافسة سورية للبلاد العربية

وما من علم يجدّ في أوربة إلاّ أقبل عليه الشرقيون كما أقبل الغربيون وأخذوا منه بنصيب، فالمباراة إذًا جارية بكلّ ما يمكن من الهمّة، على أنَّ سورية في علم الطبّ وتوابعه هي ذات المركز الأول في البلدان العربية، وذلك لسبقها غيرها إلى ورود حياض العلوم

الكونية، فلا مصر ولا العراق ولا جزيرة العرب ولا إيران ولا المغرب تضارع سورية في هذا الموضوع، ولكن نحن على ثقة أنَّ جميع البلاد العربية من الآن إلى ثلاثين وأربعين سنة تصير متساوية بعضها إلى بعض في درجة الرقيّ العلمي.

ومن العلوم التي يمتاز بها العرب، ولا سيّما السوريين منهم، العلوم العددية. وقد نبغ الكثيرون ممّن لا نقدر على إحصاء أسمائهم، نذكر منهم على سبيل التمثيل الشيخ محمَّد الطيبي في دمشق والمعلّم بطرس البستاني والمعلّم أسعد الشدودي في بيروت وغيرهم.

ولمّا كان السوريون من أقوى أمم الأرض على التجارة، كان علم الحساب من العلوم التي يتخصّصون بها بطبيعة الحال، وكذلك في مصر لا ينكر ترقّي العلوم الرياضية التي مصر من مراكز ازدهارها، بل نقدر أن نقول إنَّ المهندسين فيها أكثر منهم عددًا في سورية، نظرًا لأنَّ الزراعة في وادي النيل أرقى بكثير منها في سورية.

بقي علينا أن ننظر كيف يكون اتّجاه الأمّة العربية في المستقبل من جهة الثقافة! أتأخذ بالثقافة الغربية ولوازمها ومتمّماتها إلى النهاية؟ أم تبقى معتصمة بثقافتها الشرقية الأصلية لا تبغي بها بدلاً ولا عنها حولاً؟ أم تأخذ من الثقافتين معًا وتجعل من ذلك ثقافة خاصّة لا شرقية ولا غربية؟! هذا سؤال يرد كثيرًا على خواطر الباحثين وكلّ منهم يذهب في الجواب مذهبًا، وأظنّ أنَّ ثقافة العرب المستقبلة ستكون عصرية آخذة من التجدّد بأوفى نصيب، لكن مع الاحتفاظ التامّ بالطابع العربي، وهذه أشبه بما سبق للثقافة العربية في زمن بني العبّاس وفي زمن بني أمية بالأندلس حينما نقل العرب حكمة اليونان إلى لغتهم واطّلعوا على علوم فارس والهند، فجعلوا من هذه الثقافات الثلاث ومن الثقافة العربية الأصلية ثقافة جديدة عالية كانت أرقى ثقافة في القرون الوسطى، لكنّها كانت زاهرة بطابعها العربي الذي لم يكن يفارقها بحال من الأحوال، وهكذا ستكون ثقافة العرب بعد اليوم غير جامدة على القديم الذي ثبت للعرب المحدثين وجوب التعديل فيه والإضافة إليه، ولن تكون منسلخة من القديم، جاهدة في التبرؤ منه على النحو الذي نحاه الأتراك الكماليّون الغالبون على تركية اليوم، ولكنّها تكون ثقافة جامعة بين القديم والجديد مختارة من كلّ شيء أحسنه مع بقاء الصبغة العربية التامّة غير المفارقة للعرب، وذلك على النحو الذي نحاه اليابانبون الذين اقتبسوا جميع علوم الأوربيين، ولم يغب عنهم منها شيء ولا فاتهم من صناعات أوربة دقيق ولا جليل، ولبثوا مع ذلك يابانيين أصلاء في لغتهم وأدبهم وطربهم وطعامهم

وشرابهم وجميع مناحي حياتهم، وحسب العرب قدوة للاقتداء ومثالاً للاحتذاء هذه الأمّة اليابانية العظيمة التي لا يوجد أشدّ منها رجوعًا إلى قديم ولا أخذًا منها بحديث.

والآمال معقودة بأنه ستكون في الشرق الأدنى نهضة عربية علميّة تضاهي النهضة العلمية التي رأيناها في الشرق الأقصى.

ـ لماذا تأخّر الشرق الأدنى عن الأقصى

وإن كان الشرق الأدنى قد تأخّر عن الأقصى في درجة الرقيّ العصري فلم يكن ذلك كما يتوهّم بعضهم من جمود الأمم الشرقية العربية وتفوّق اليابانيين عليهم في حبّ العلم ونشدان وسائل القوّة، وإنّما كان الموقع الجغرافي للبلاد العربية قد عرّضها من هجوم الأجانب وغاراتهم المتوالية لما لم يتعرّض له اليابانيون بسبب تقاصي ديارهم وبُعد مزارهم بحيث خلا لهم الجوّ، وتمكّنوا من أن يتعلّموا ويتهذّبوا آمنين على حوزتهم، وهذا فرق طالما غفل عنه الناس ولم يتفطّنوا لخطورته، فحملوا بسبب غفلتهم عنه على الشريعة الإسلامية وجعلوها ظلمًا وعدوانًا هي المسؤولة عن هذا التأخّر، والمسؤول الحقيقي في الواقع هو الاعتداء الأجنبي المتواصل الذي يتيسّر في الشرق الأدنى ما لا يتيسّر في الشرق الأقصى، والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته.

شكيب أرسلان

أزمة كتاب الصلاة

في إنجلترا*

لصاحب السعادة أمير البيان

الأمير الجليل شكيب أرسلان

إنَّ الموضوع الذي سنخوض فيه لا نقصده لذاته، بل لمتعلّقه، ولا نتعرّض إليه في قليل أو كثير من جهة أساسه، بل تعرّضنا له، إنّما هو من جهة مغزاه وما يؤول إليه. فقد راق لبعض الناس في الشرق حتّى لبعض حكوماته والهيئات الرسمية فيه أن يوهموا عامّة الشرقيين أنَّ الدين في أوربة منفصل انفصالاً تامًّا عن السياسة، وأنَّ أوربة لم تبلغ هذا المبلغ من الرقيّ إلاّ بفصل السياسة عن الدين، وأنَّ الحكومات الأوربية لا تدخِل المسائل الدينية في شؤونها، بل تعدّها خارجة عن اختصاصها.

وقد يبالغون لهم في هذه الترّهات حتّى يخيّلوا لهؤلاء الشرقيين المساكين أنَّ الدول الأوربية تنظر إلى الدين كأنه غير موجود في الدنيا، وأنَّ هذا قد كان السرّ في نجاحها، وكثير من الشرقيين المساكين يصدّقون هذه الأقاويل لعدم اطّلاعهم على الحقائق، وليس هؤلاء المصدّقون بطبقة العوام، لأنَّ العوام جهلهم بسيط والجهل البسيط أقرب إلى العلم وأبعد عن الخطر. ولكنَّ أولئك المصدّقين بهذه الأضاليل هم من الفئة التي تدّعي أنها راقية وأنها مفكّرة وأنها متعلّمة وأنها عصرية المشرب[1]. والحقيقة أنَّ هذه الفئة عندنا في الشرق مؤلّفة من أنصاف متعلّمين هم من أشدّ الناس خطرًا على المجتمع ومن الملائمين للاستعمار الأوربي في الشرق، لأنَّ العلم الناقص أضرّ بالمجتمع من الجهل التامّ، فإنَّ الجهل التامّ يقبل أصحابه النصح والإرشاد، وأمّا العلم الناقص فإنَّ أصحابه هم على حدّ من لا يدري ولا يدري أنه لا يدري وفي ذلك البلاء الأعظم.

ولندخل الآن في الموضوع فنقول: منذ أشهر تخوض الجرائد الأوربية في قضيّة الخلاف

* المنار: انتهت الأزمة في الشهر (ذي الحجّة ـ يونيو) برفض البرلمان البريطاني للتعديل المقترح في كتاب الصلاة ـ مراعاةً للتطوّر الاجتماعي والديني والسياسي في الأمم النصرانية، وتقربيًا للبروتستنتية من الكاثوليكية أمها ـ وقرّر إبقاءَه كما كان بالرغم من أنوف طلاّب التجديد!! المنار ج٢٩ (نيسان ١٩٢٨) ص ٢٠١ ـ ٢١٤.

(١) المنار: وأنها مجدّدة وأنّ كلّ قديم قبيح وكلّ جديد حسن.

الذي نشب في إنكلترا بين الأساقفة والحكومة من أجل كتاب الصلاة، حتّى أنه لا يكاد يمرّ يوم إلاّ نجد فيه بحثًا عن هذه المسألة.

ولمّا كان الناس عندنا في الشرق لا يعلمون لدنبات هذا الخلاف ولا أسبابه (كذا) وكانوا يقرأون عنه ولا يفهمون الدواعي التي دعت إلى اختصام الحكومة الإنكليزية والإكليروس الإنكليكاني في كتاب الصلاة الذي يعتمد عليه الشعب الإنكليزي، رأينا أن نشرح لهم هذه المسألة معوّلين في ذلك على مقالة نشرها الأستاذ توما غرينفود، أحد أساتذة جامعة لوندرة، ورأيناها منشورة في مجلّة جنيف في عددها الأخير. قال:

وجد على باب كنيسة ليفربول الكاتدرائية عبارة من قلم لونغ بوتون من رؤساء الكنيسة البروتستنتية يقول فيها: إنَّ البروتستنتية في خطر.

ولم يخطئ القسيس المذكور في هذا الحكم إذا نظرنا أنه من أجل مسألة دينية قامت في إنجلترا أساقفة على أساقفة، ووزراء على وزراء، ومحافظون على محافظين، وعملة على عملة، وقد كان معظم ذلك يومَي ١٣ و١٥ ديسمبر سنة ١٩٢٧، إذ مجلس اللوردة ومجلس العموم تحوّلا إلى شكل مجمع من المجامع الدينية كالتي كان يعقدها آباء الكنيسة في القرون الأولى وأخذ الأعضاء يتشاحنون في سرّ استحالة الخبز والخمر إلى جسد السيّد المسيح وفي تناول القربان المقدّس وفي الأسرار الإلهية وفي الطقوس الكنسية، بينما الجدال قائم أيضًا في المطبوعات وفي الرعويات وفي العائلات على أشدّه من أجل كتاب الصلاة الجديد. حتّى أنَّ أزمة الفحم وحركة العمّال وقضيّة استعدادات أمريكا البحرية ومشكلات عصبة الأمم أصبحتْ نسيًا منسيًّا في جانب مسألة كتاب الصلاة، فبمجرّد ما يتلفّظ الإنسان بكلمة (Prayer Book)[1] تقوم القيامة فأناس معه وأناس ضدّه. فلا تجد إلاّ متعصّبًا لهذه الجهة أو للأخرى، فلماذا البرلمان يتدخّل في مسألة دينية كهذه؟ الجواب هو ما سترى.

من المعلوم أنَّ الكنيسة الإنكليكانية هي كنيسة الدولة في إنكلترا، وفي الأصل كان الانشقاق ناشئًا عن فضائح زوجية بدت من هنري الثامن الذي كان أول من انشقّ عن رومة وحمل البرلمان الإنكليزي سنة ١٥٣٤ على قرار معناه أنَّ ملك إنكلترا هو الرئيس الأعلى لكنيسة إنكلترا، ثمَّ جاء بعد هنري الثامن خلفه إدوارد السادس وأضاف إلى عمل سلفه هذا طقسًا كنسيًا جديدًا أنشأه له "كرانمير" سنة ١٥٤٩ ودستورًا للإيمان يشتمل على

(١) Prayer Book: معناها كتاب الصلاة.

٤٢ مادّة صدر سنة ١٥٥٢ وهو دستور مشرّب بروح عقيدة "كلفين". ثمَّ إنَّ هذه العقيدة قد هذّبت ونقّحت في أيام الملكة إليزابت ولخّصت في ٣٩ مادّة سنة ١٥٦٣ وصارت دستورًا للإيمان الإنكليكاني، فمنها رياسة البابا ونفي ذبيحة القدّاس ونفي عقيدة استحالة الخبز والخمر إلى جسد المسيح، وإنكار القول بالمطهر وإنكار عبادة القدّيسين والصور، وإنكار سرّ الاعتراف والغفرانات وغير ذلك. وأمّا الطُّقس الجديد الذي يشتمل على العقيدة وعلى المبادئ التي هي عمدة المذهب الإنكليكاني، فقد انحصر في كتاب اسمه كتاب الصلاة العامّة. فهذا الكتاب محرّر فيه نصّ الصلوات وترتيبها، ونصّ العظات والتراتيل، والمراسم الدينية، وإدارة الأمور المقدّسة، ونظام الرتب الكهنوتية وهلمّ جرّا. فكتاب الصلاة هو للإنكليز عبارة عن كتاب قدّاس وكتاب سواعية وكتاب مزامير وكتاب طقوس وكتاب رتب كهنوتية وحبرية وهو يمتاز بأمور كثيرة عن كتب الكنيسة الرومانية التي انشقّت الكنيسة الإنكليزية عنها، فهو أولاً محرّر بالإنكليزية وفيه تلخيص للكتب الدينية الضرورية للقدّاس الإلهي، وبموجبه تنزّلت الساعات القانونية السبع إلى خدمتين كلّ يوم إحداهما في الصباح والأخرى في المساء، وهو يلغي الأوراد وطلب الشفاعات والاستغاثات بالقدّيسين وبمريم العذراء، ويحذف الأماثيل المأخوذة من حياة القدّيسين والآباء، ويختصر الفرض الكنسي والكلمات المكرّرة فيه، ويطوي الاحتفال بكثير من أعياد القدّيسين. وعلاوة على ذلك يحدث تغييرًا في قانون القدّاس، ويحوّله إلى معنى آخر يخرجه عن معنى الذبيحة وعن استحالة الخبز والخمر إلى جسد المسيح. وكذلك يلغي التذكارات المتنوّعة فيما يتعلّق بالموتى والصلوات على أرواحهم ممّا يؤول إلى الاعتقاد بالمطهر، ويبطل على الخصوص كلّ ما له تعلّق بسرّ القربان المقدّس.

وفي أيام الملكة ماري التي رجعت إلى الكثلكة ألغي كتاب الصلاة هذا مدّة وجودها، لكن لم يطل الأمر حتّى أعيد في أيام الملكة إليزابيت سنة ١٥٥٩. ثمَّ إنّه في أيام "جيمس الأول" سنة ١٦٠٤، وفي أيام كارلوس الثاني سنة ١٦٦٢، وأخيرًا في سنة ١٨٥٩ أدخلت على الكتاب المذكور تعديلات غير أساسية. فكتاب الصلاة الحاضر هو الكتاب الذي صدر سنة ١٦٦٢، على أنه إذا كان هذا الكتاب لم يتغيّر منذ ثلاثة قرون، فلا يمكن أن يقال إنَّ حياة الكنيسة الإنكليزية الداخلية لم يقع فيها تغيير طيلة هذه القرون، بل هذه منقسمة إلى ثلاث كنائس: الكنيسة الدنيا، وهي التي أصحابها يميلون إلى العقيدة الكلفينية والبرسبيتيرية

والكنيسة الواسعة، وهي التي أصحابها يميلون إلى الحرّية والأفكار العصرية، والكنيسة العليا وهي التي أبناؤها يميلون شيئًا إلى الكثلكة.

ففي أواسط القرن التاسع عشر هبّ نفر من اللاهوتيين المنسوبين إلى الكنيسة العليا وأرادوا الرجوع إلى الكثلكة، لكن بدون خضوع البابا ولا اعتقاد بعصمته ومع التمسّك بالرتب الكنسيّة الإنكليكانية، فحصلت لهم مقاومة شديدة وقّفتهم عند حدّهم. إلاّ أنَّ هذه الحركة قد تقدّمت اليوم ونمت واشتدّت الرغبة في استعمال الطقوس الرومانية وفي الاعتقاد بحضور المسيح في الخبز والخمر وتسمّى هذه الفئة بالإنجلو كاثوليك، ولقد تجاوزوا في الحقيقة حدود كتاب الصلاة الذي عليه المعوّل من سنة ١٦٦٢، وأخذوا بإقامة شعائر مخالفة لروح الكتاب المذكور ولنصّه. مثال ذلك أنهم اتّخذوا الملابس الحبرية في كنائسهم، كما في الكنائس الرومانية واستعملوا البخور ورجعوا إلى ممارسة الاعتراف واستعملوا ما يقال له بيت الجسد، مع مكان خاص لحفظ الخبز والخمر، ليتمكّن المؤمنون من عبادتها في أي وقت أرادوا. فلذلك تبقى أبواب كنائسهم مفتوحة دائمًا، وفي بعض الأبرشيّات نجد بعض الأساقفة يقدِمون بكلّ صراحة على مخالفة قواعد المذهب الإنكليكاني وطقوسه، وفي أبرشيّات أخرى يغضّون النظر عنها. فهذه الاختلافات جعلت الصلاة العامّة المشتركة في غاية الصعوبة وأحدثت شقاقًا خطيرًا في وسط الكنيسة الإنكليكانية يدعو إلى النظر في مسألة توحيد الطُّقس. ففكّر الأساقفة في وجوب النظر إلى نزعة فرقة الإنكلوكاثوليك. وفي سنة ١٩٠٦ تألّفت لجنة للتدقيق في كتاب الصلاة والنظر في تعديله، فاستمرّت هذه اللجنة تعمل نحو عشرين سنة. وفي شهر يناير سنة ١٩٢٧، أخرجت مشروع التعديل الذي تقدّم في ٢٩ مارس سنة ٩٢٧ إلى المجلسين الروحانيين في كنتربري ويورك، فهذان المجلسان لم يكن لهما إلاّ إبداء الرأي على المشروع بمجمله، فقد صدّقاه بالأكثرية العظيمة وخالف فيه بعض الإنجيليين وبعض أناس من الإنكلوكاثوليك لأسباب تخالف الأسباب التي خالف من أجلها الإنجيليون، ولكن كان لا بدّ من تصديق الجمعيّة الوطنية الكنسية المسمّاة (Chuch Assembly) التي تأسّست بموجب قانون سنة ١٩١٩ لأجل مهمّة النظر في القوانين العائدة إلى كنيسة إنكلترا قبل تصديقها في البرلمان، وهذه الجمعيّة مؤلّفة من مندوبين غير إكليريكيين تابعين للأبرشيات ومن مندوبين إكليريكيين ومن الأساقفة. ففي اجتماع عقدته هذه الجمعيّة سنة ١٩٢٧ للمذاكرة في مشروع تعديل كتاب الصلاة قرّرت بأكثرية عظيمة

المشروع الجديد، إذ وافق ٣٤ من الأساقفة وخالف أربعة فقط ووافق ٢٥٣ من المندوبين الإكليريكيين وخالف ٣٧ لا غير، وكذلك المندوبون غير الإكليريكيين أو العالمانيون، فقد وافق منهم ٢٣٠ وخالف ٩٢. أمّا المطارين الأربعة المخالفون فكانوا مطارين فورستر وإكزيتر ونورفيش وبير منغام، ولم يبقَ إلاّ طرح المشروع في البرلمان.

فقبل أن نتكلّم على ما جرى في البرلمان بشأن كتاب الصلاة نرى من الواجب أن نبيّن ماهيّة التعديلات الجديدة، فكتاب الصلاة الجديد يبقى على ما كان عليه كتاب الصلاة المحرّر سنة ١٦٦٢ بوجه عام. ولم يقع تغيير في النصوص التي ارتضى بها الشعب حتّى اليوم وإنّما أضيف إلى نصوص سنة ١٦٦٢ نصوص أخرى يكون بموجبها الخيار لأبناء الأبرشيات في الترك والأخذ بحسب ميلهم. فهذه الطريقة أرادوا بها اتّقاء الانقسام، فكانت نتيجتها زيادة الانقسام، لأنها مخالفة لروح عهد الوحدة الذي صدر سنة ١٦٥٩. ففي هذا العهد مادّة خاصّة بالخدمات الدينية تصرّح بأنَّ الشعائر التي هي تحت الاستعمال في سالسبري وهيرفورد ويانجور ويورك ولينكولن قد ألغيت كلّها وتوحّدت بصورة واحدة عامّة لكلّ المملكة. فليس إذن في جميع الاختصاصات التي يعترف بها البرلمان للكنيسة الإنكليكانية ما يخوّل هذه حقّ الإذن بإقامة شعائر مختلفة عن الأولى، ثمَّ إنَّ ملك إنكلترا عندما يتوّج من رئيس أساقفة كنتربري يجب أن يقسم اليمين بأنه يحفظ كنيسة إنكلترا بتمامية طقوسها وبعقيدتها وشعائرها ونظامها كما هي مبيّنة في قوانين المملكة الأساسية وعلى هذا يكون متعذّرًا أخذ موافقة الملك على كتاب الصلاة الجديد بدون تغيير العهود السابقة.

فمن التغييرات التي أدخلت على كتاب الصلاة نذكر أنه أضيف إلى جدول القدّيسين الذين تعترف بهم الكنيسة الإنكليكانية قدّيسون آخرون لم يكونوا معروفين لديها، وهم مثل ماربو ليكارب، والقدّيس يوحنّا فم الذهب، والقدّيس كوتبرت، والقدّيس لاوون الكبير، والقدّيس أنسلمس، والقدّيسة كاترينة دوسيين، والقدّيسة مونيك، والقدّيس باسيلوس، والقدّيس إيزينوس، والقدّيس برناردوس، والقدّيس فرنسيس داسيس، والقدّيس أكليماندرس، والقدّيس أغناطيوس، فهؤلاء صاروا بحسب كتاب الصلاة الجديد من قدّيسي الكنيسة الإنكليكانية.

وكذلك قرّروا الاحتفال بعيد تذكار الموتى ٢ نوفمبر بما فيه من جمع الصدقات التي

من شأنها إيجاب الاعتقاد بالمطهر. فهناك عبارة نصّها (أيها الربّ الخالق المنقذ لجميع المؤمنين امنح المؤمنين من موتانا جميع النعم التي لا توصف من آلام المسيح حتّى في يوم رجوعه يتمكّنون أن يتقدّموا إليه كأبناء حقيقيين). والحال أنَّ المادّة الثانية والعشرين من المواد التسع والثلاثين من دستور الإيمان الإنكليكاني تنكر عقيدة المطهر وتجعلها اختراعًا منافيًا لكلمة الربّ، وكذلك كتاب الصلاة القديم يلغي الصلوات التي من شأنها الاعتراف ولو من طرف خفي بعقيدة المطهر، ولا يلزم من ذلك أن نقول إنَّ المطهر مذكور في كتاب الصلاة الجديد. فليس ثَمَّ أدنى صراحة به في الجديد كما في القديم. كما أنَّ الصلاة لأجل أرواح الموتى باقية مبهمة أيضًا في الأول والثاني، ومثل ذلك صلاة الموتى التي يقترحها الكتاب الجديد فهي متروكة تحت خيار المؤمنين. فيمكننا أن نقول مع مطران نورفيش إنَّ التغيير الذي جاء به الكتاب الجديد بشأن الصلاة للأموات عبارة عن تغيير في الشعائر العامّة لا في العقيدة نفسها. كما أنَّ رئيس أساقفة كنتربري عندما كان في مجلس اللوردة يدافع عن الصلوات الجديدة للموتى، وعن عيد ٢ نوفمبر قرّر بدون أن يكون مخطئًا أنَّ تذكار الموتى لم يكن في وقت من الأوقات مخالفًا لعقيدة الكنيسة الإنكليزية، وأنَّ الحرب العامّة جاءت بما يؤيّد ضرورة توسيع الشعائر المتعلّقة بالموتى. ومن جملة ما زيد في كتاب الصلاة الجديد، الأدعية الخاصّة لأجل الملك والأسرة الملوكية وللسلطنة البريطانية ولجمعيّة الأمم، وكذلك الإذن باستعمال القميص الخاص والبطرشين والغفارة في أثناء مناولة القربان. نعم، إنَّ كتاب الصلاة لم يسمح حتّى الآن بلبس حلة الكهنوت التي كان يطالب بها الإنكلوكاثوليك بحجّة أنها أليق لباس بعقيدة جسد الربّ. وكذلك من جملة التغييرات إعطاء الخيار في أمر المعمودية والتثبيت والزواج. ففي مراسم الزواج بحسب الكتاب الجديد لا يسأل الكاهن المرأة، كما في الكتاب القديم، عمّا إذا كانت تريد أن تطيع وأن تخدم وأن تحبّ وأن توقر الذي سيكون بعلها ولكن يسألها عمّا إذا كانت تريد أن تحبّه وتوقّره وتقوّمه وتحفظه، والسؤال نفسه يلقى أيضًا على الزوج. أي يلحظ الإنسان في ذلك إشارة دينية على المساواة الاجتماعية بين الذكور والإناث.

وأهمّ التعديلات في الواقع هو ما تعلّق بشعيرة الأفخارستية، أي سرّ القربان المقدّس، وهي المتروكة لاختيار المؤمن، فهذا التخيير هو الذي أثار تلك الثائرة الشديدة، وأوجب ردّ كتاب الصلاة بحجّة أنَّ فيه تسامحًا عظيمًا مع الإنكلوكاثوليك، ونظنّ أنَّ الخلاف هو في

الشكل أكثر مما هو في الأساس. فالكتاب الجديد مثل القديم فيه صيغة تقول: إنَّ المسيح مات لأجل فدائنا وإنَّ هذا الفداء كان واحدًا تامًّا كافيًا، كما في المادّة الواحدة والثلاثين من دستور الإيمان الإنكليكاني، فهذه الصيغة لا تنفي تمام النفي الحاجة إلى القدّاس الذي هو تكرار غير دموي لقضيّة موت السيِّد المسيح على الصليب ومن المعلوم أنَّ المذهب الإنكليكاني لا يجوّز القدّاس مع تناول القربان الفردي أي أن يتناوله الكاهن وحده كما عند اللاتين، فالكاهن الإنكليزي لا يقدر أن يتناول القربان إلاّ إذا كان محاطًا بعدد كافٍ من المؤمنين الذين يريدون الاشتراك فيما يسمّى بالعشاء السرّي، فلأجل هذا جعلوا في شعيرة القربان الاختيارية عبارة يلقيها الكاهن على المؤمنين في أثناء المراسم المتعلّقة بالقربان المقدّس فيما إذا كان الكاهن وجد أنَّ المؤمنين الحاضرين على المائدة الإلهية لا يبلغون العدد الكافي لتناول القربان معًا.

وممّا يجب أن لا ننساه أنَّ المادّة الثامنة والعشرين من دستور الإيمان الإنكليكاني تنكر بتاتًا عقيدة استحالة الخبز والخمر إلى جسد المسيح، ممّا هو حجر الزاوية في القدّاس الروماني كما قرّره مجمع ترنتا. فليس بصحيح أنَّ الكتاب الجديد يتسامح في هذه القضيّة من حيث الأساس، ولكن ممّا لا ينكر أنَّ صورة الشعائر من جهة التخيير قد تؤدّي إلى نتائج تخالف الأصل وتحمل على الانتقاد، ففي الكتاب القديم نصّ صيغة يفهم منها أنَّ تناول القربان قد شرّعه المسيح تذكارًا لموته وآلامه. والحال أنَّ الكتاب الجديد يحذف هذه الصيغة ويجعل محلّها كلامًا يدلّ على أنَّ الخبز والخمر هما مقدّمان لله كقربان احترام وشكر، حتّى يمنحنا باستحقاقات آلامه غفران خطايانا.

ثمَّ إنَّ الكتاب الجديد يحذف تمامًا العبارة التي في الكتاب القديم تنكر حضور المسيح بجسده ودمه في الخبز والخمر ويُعدّ ذلك عبارة وثنية، ويصرّح بأنَّ الخبز والخمر لا يتغيّران بعد كلمة التقديس، وأنَّ الجسد الحقيقي للربّ هو في السماء. ولا يعقل أن يكون في أماكن متعدّدة في وقت واحد، ويوجد ما هو أهمّ من ذلك في قضيّة التقديس المذكور، فإنّه في الكتاب الجديد يوجد ابتهال للروح القدس، لأجل أن يبارك ويقدّس الخبز والخمر حتّى يكون فينا جسد المسيح ودمه. فهذا الابتهال الذي يشبه من بعض الوجوه الصلاة اليونانية يؤدّي إلى الاعتقاد بأنَّ كلمات التقديس لا تكفي لتحويل الخبز والخمر إلى جسد المسيح وأنه يجب لذلك تدخّل الروح القدس. وحينئذٍ يلزمنا أحد أمرين لا مناص من أحدهما:

إمّا أن يكون هذا الابتهال ضروريًا لأجل حصول النتيجة، وعليه يكون الإنكليكان قد حرموا تقديس الخبز والخمر من البداية، لأنَّ كتاب الصلاة المعروف بكتاب سنة ١٦٦٢ لا يحتوي هذا الابتهال، أو أن يكون الابتهال لا يفيد معنى جديدًا وعليه يكون وضعه هنا موجبًا للخلاف بدون ضرورة، وزد على ذلك أنَّ صيغة الابتهال تحتوي مشكلاً جديدًا في العقيدة؛ وهو أنَّ الروح القدس يبتهل إليه حتّى يجعل الخبز والخمر فينا جسد المسيح ودمه، فيمكن أن يردّ على ذلك بأنه إذا كان الخبز والخمر يصيران فينا جسد المسيح ودمه فلماذا لا يصيران هما جسد المسيح ودمه في ذاتيهما؟ فمن هنا لا يبقى لنا إلاّ أن نعتقد باستحالة الخبز والخمر إلى جسد المسيح بصورة حقيقية، ولكن هناك فرق لأنه بحسب الكتاب الجديد عندما يتناول المؤمن الخبز والخمر لا يحوّلها الروح القدس إلى جسد المسيح ودمه إلاّ في المؤمن، وبعبارة أخرى الحضور الحقيقي للمسيح في الخبز والخمر لا يتمّ إلاّ في الشخص المتناول للقربان وبعمليّة مقارنة من الروح القدس، وهذا كما لا يخفى يشابه العقيدة الكلفينية وقد سلم بها كرانمر وجرى إدخالها في الابتهال المارّ الذكر خيفة أن يجر ذلك إلى عقيدة حضور المسيح الحقيقي في الخبز والخمر، ففي المادّة الثامنة والعشرين من دستور الإيمان الإنكليكاني هذه العقيدة ممنوعة، وهناك يقول إنَّ تقديس العشاء السرّي لم يكن من المسيح شعيرة مقصودًا بها الحفظ أو النقل أو الرفع أو العبادة. فالحفظ مقصود به إيداع الجسد محلاً خاصًا والنقل يراد به الزباح (والطوفان) والرفع يعني القدّاس، والعبادة يراد بها الاعتقاد بسرّ القربان المقدّس ممّا هو معروف بالتعبّد عند الإنكلوكاثوليك. وبهذه المناسبة يجب أن نظهر الفرق الكلّي بين الإنكلوكاثوليك والإنكليكان المحافظين الذين يقال لهم إنجيليون، فإنَّ هؤلاء يرفضون التعبّد المذكور بجميع لوازمه ولا يقولون إنَّ روح القدس يحوّل طبيعة الخبز والخمر، بل إنَّ الخبز والخمر ينزلان المسيح تنزيلاً روحيًا في قلوبهم لا غير. أمّا الإنكلوكاثوليك، فمنذ خطبة بوزي على سرّ الأفخارستية سنة ١٨٤٣ قد صارت عقيدة حضور المسيح الحقيقي في الخبز والخمر من أركان إيمانهم وهم يحتفلون بعيد جسد الربّ الذي لم يجرؤ كتاب الصلاة الجديد أن يجعله في روزنامته، وفي كنائسهم يوجد دائمًا بيت للجسد يتعبّد له المؤمنون في كلّ ساعة. وعلى هذا يجب تعديل المادّة الثامنة والعشرين من قانون الإيمان التي مرّ ذكرها.

والنتيجة نفسها تكون للاقتراح الجديد المتعلّق بحفظ الخبز والخمر لمناولتهما للمرضى.

فبحسب كتاب الصلاة القديم وبحسب المادّة الثامنة والعشرين من قانون الإيمان، ما يبقى من الخبز والخمر المقدّسين بعد إجراء الشعيرة الأفخارستية ينقسم بين المؤمنين الذي اشتركوا في تناول القربان. وإن وجد مريض يطلب تناول القربان وجب على الكاهن أن يكرّر الشعيرة الأفخارستية بشرط أن يوجد عدد كافٍ من متناولي القربان يتناولونه مع المريض، فإن لم يوجد هذا العدد الكافي فالكاهن يكتفي بإيصاء المريض بأن يندم على خطاياه ويقنعه بأنَّ مجرّد طلبه تناول القربان يعدّ كما لو تناول بالفعل، ولا يجوز أن يتناول الكاهن والمريض القربان بدون ذلك العدد الكافي من المؤمنين إلاّ في ظروف مستثناة، وذلك بأن يكون المريض مصابًا بمرض تخشى منه العدوى فلا يجوز أن يقرّبه الناس، وفي هذه الحالة يجب على المريض تقديم طلب خاص للكاهن. فهذه الصعوبات الواقفة في وجه الاستمتاع بسرّ الأفخارستية لم تزل موضع اعتراضات الإنكلوكاثوليك وكانوا كلّما اتّسعت حركة أكسفورد تزداد العرائض المقدّمة إلى رئيس أساقفة كنتربري بطلب إصلاح شعيرة الأفخارستية للمرضى، بل نقول إنَّ الإنكلوكاثوليك ذهبوا إلى أبعد من هذا وهو أنهم جعلوا في كنائسهم كلّها بيتًا للجسد، وأنهم يناولون المرضى القربان المقدّس عند طلبهم إيّاه برغم ما يحصل لكهنتهم من توبيخ أساقفة الكنيسة.

فالذين حرّروا كتاب الصلاة الجديد إنّما أرادوا إعطاء هذه المخالفات شكلاً قانونيًا، فأذنوا بحفظ الخبز والخمر المقدّسين، لكن لأجل إعطائها للمرضى فقط، ولا يجوز أن يكون المقصد من ذلك الحفظ شيئًا آخر، ولا أن يجعل لذلك احتفال خاص، ولا أن يوضع الخبز والخمر فيما يقال له بيت الجسد كالذي عند الكاثوليك، بل في صوانٍ ممّا يقال له أومبري وهو شيء لا يوضع على مذبح، بل يكون في أحد حيطان الهيكل.

وبالاختصار جميع المسائل المتعلّقة بحفظ الجسد تكون عائدة إلى الأنظمة التي ينشرها مجمع الأحبار ويكون التنفيذ عائدًا إلى مطران الأبرشية، فجعل مسألة حفظ الجسد من الأمور القانونية، وكذلك التخيير في الاعتقاد بسرّ الأفخارستية أوجب سخط الإنجيليين الشديد الذين يذهبون إلى أن حفظ الخبز والخمر له قيمة رمزية لا غير، وأنَّ الاعتقاد بحضور المسيح الحقيقي في الخبز والخمر مخالف للعقيدة الإنكليكية، ثمَّ إنَّ الإنجيليين يقولون إنَّ كتاب الصلاة القديم فيه كلّ ما يلزم لأجل استمتاع المرضى بتناول القربان، وقد يمكن إجراء بعض التوسيع في نظام التناول. أمّا مسألة وضع القربان في صوان يكون مندمجًا

في الحائط بدلاً من أن يكون مرفوعًا على مذبح، فلا يمنع الإنكلوكاثوليك من التعبّد للجسد. وفي هذا لا نرى الإنجيليين مخطئين لأنَّ التساهلات التي أجريت للإنجلوكاثوليك لا تمنعهم من أن يعترضوا على الأساقفة في الضغط على ضمائرهم بما يتعلّق بهذه العقيدة.

ويتذكّر الناس الرسالة التي نشرتها التيمس في ٢٨ أبريل الماضي من قلم ماكي وروس، وفيها رفض التجديدات التي وضعت لهم في كتاب الصلاة الجديد، والتي كان يغضّ النظر عنها مطران لندن منذ سنوات عديدة، وقد كانت هذه الخطّة التي يسير عليها بعض رجال الإكليروس الإنجلوكاثوليكي حائزة عضد رجال آخرين مثل اللورد هاليفاكس والسير هنري سليسر اللذين كتبا إلى التيمس في ٢٠ يونيو الماضي قائلين إنَّ المؤيّدين لهذه الخطّة هم عدد كبير من المؤمنين، إذن الإكليروس الإنكليكاني هو على بيّنة من أنه برغم التنبيهات والتحدّيات الأسقفية يوجّه فئة من قبيل ماكي وروس واللورد هاليفاكس وآخرين من الإنكلوكاثوليك لا يحجمون عن مخالفة أوامر الكنيسة، ولم يمضِ زمن طويل على الحادثة التي وقعت بين القس بولوك ـ وبستر وبين الدكتور بارنس مطران بيرمنغام في كنيسة القدّيس بولس وكيف أنَّ القس المذكور قطع على المطران المشار إليه كلامه عندما كان يريد أن يمتحن قضيّة حضور المسيح الحقيقي في الخبز والخمر (المطران بارنس أسقف بيرمنغام هو من ألدّ خصوم الإنكلوكاثوليك وممّن يعلنون في خطبهم استحالة سرّ الاستحالة المسمّى بالأفخارستية أي حضور المسيح الحقيقي في الخبز والخمر. وقد استشهد مرّة في إحدى خطبه في وسط الكنيسة بأقوال محمَّد (ﷺ) وكذلك في شهر يناير الماضي، قام أحد الناس في كنيسة «وست منستر» واحتجّ احتجاجًا شديدًا في أثناء قدّاس الصباح وجرى في الوقت نفسه في كنيسة غوبتر في داروين عربدة شديدة على الإنكلوكاثوليك اضطرّ فيها البوليس إلى دخول الكنيسة وإخراج الشعب منها.

والشكوى واقعة على الإنكلوكاثوليك من أنهم يريدون إلغاء الإصلاح الإنكليكاني بعضه إن لم يكن كلّه. فالدكتور «دارغيل ستول» مثلاً وهو من مقدّمي الإنكلوكاثوليك يعلن إرادة الرجوع إلى القدّاس الروماني، وإلى عبادة القربان المقدّس وإلى استعمال القميص التي يلبسها القسيس عند مناولة القربان وسائر الألبسة الكهنوتية، التي يصطلح عليها رجال الكنيسة الرومانية. نعم، إنّهم برغم هذا كلّه لا يريدون الخضوع للبابا ولا يقولون بعصمته ولا يزالون بعيدين عن رومة نظير الآخرين. ولقد ظهر من المنشور

البابوي الأخير بشأن اتّحاد الكنائس أنّ البابا أيضًا لا يوافق عليه إلاّ على شرط الخضوع التامّ للسلطة الرومانية.

وقصارى ما في الأمر أنّ الإنكلوكاثوليك بدون أن يرجعوا إلى البابا يقدمون على بدع غير مؤتلفة مع العقيدة الإنكليكانية، وهذا ما يعترف به الإنجيليون والإنكليكانيون المعتدلون. ولقد صرّح الدكتور "هدلم" مطران إكلوسستر - الذي هو من المعتدلين - بأنّ الإنكلوكاثوليك أصبحوا يتجاوزون مبادئ الكنيسة الإنكليكانية وأنه يخشى عليهم من ثورة الشعب الإنجليزي الذي بلغ صبره عليهم أمدّه الأقصى، وهذا هو السبب الحقيقي في رفض مجلس العموم تصديق كتاب الصلاة الجديد.

وإنّ امتيازات الكنيسة الإنكليكانية في إنجلترا يقابلها فرض الخضوع للتاج الملكي الإنكليزي. فكلّ تجديد أو تعديل في رسوم الصلوات غير ممكن إلاّ بموافقة الملك الذي هو رئيس الكنيسة الإنكليكانية، وذلك بعد تصديق البرلمان. وقد رأينا أنّ مجلس اللوردة[1] بعد المناقشة بياض يومين كاملين صدّق على كتاب الصلاة الجديد بأكثرية ٢٤١ ضدّ ٨٨ (١٣ ديسمبر)، وبرغم مهاجمات اللورد هاليفاكس من جهة الإنكلوكاثوليك ومهاجمات اللورد كوشندون من جهة الإنجيليين قرّر اللوردة بالأغلبية الثقة في هيئة الأساقفة الذين كان يرأسهم رئيس أساقفة كنتربري، ولم يعهد أنّ حفلة في مجلس اللوردة بلغت من الزحام ما بلغته تلك الحفلة فلم يتخلّف أحد، بل إنّ المرضى من اللوردة حملوا إلى تلك الجلسة حتّى لا يحرموا الاشتراك في تلك المناقشة.

وكان المنتظر بعد أن جرى تصديق المشروع في الجمعيّة الكنسية وفي مجلس اللوردة أن يقع تصديقه في مجلس العموم، إلاّ أنّ الأمر جرى بالعكس. فالمستر "بريدجمان" ناظر البحرية قدّم المشروع الجديد بشيء من التثاقل والفتور والمستر "بلدوين" رئيس النظّار أعلن أنه يحيل هذه القضيّة إلى رئيس أساقفة كنتربري ويترك المجلس حرًّا في التصويت، فالحكومة لم تتظاهر بعضْد المشروع ولا رفضه، لكن ناظر الداخلية السير "جونسون" هيكس وهو من المتشدّدين في البروتستانتية نهض وطلب رفض الكتاب الجديد قولاً واحدًا وبين خطر المسامحات الواقعة في العقيدة، وقال إنّ الأساقفة الإنكليكانيين خرجوا عن صلاحيتهم بالتساهل مع الإنكلوكاثوليك الذين يريدون وضع شعائر جديدة مخالفة لشعائر

(١) اللوردة: مصطلح استعمله الأمير شكيب للدلالة على اللوردات.

كنيسة إنجلترا. فكان لكلام ناظر الداخلية تأثير شديد لم يقدر اللورد "هوك سيسل" على منعه، وبعد مناقشة استمرّت ثماني ساعات (١٥ ديسمبر) ردّ مشروع الكتاب الجديد بأكثرية ٢٤٠ ضدّ ٢٠٧.

فرفض مجلس العموم للمشروع أعاد المسألة كما بدأت، وكان في نيّة رئيس أساقفة "كنتربري" الاستقالة من منصبه الأعلى بمجرّد تصديق الكتاب، إلاّ أنه اضطرّ بعد رفضه إلى متابعة جهاده، وتقرّر إعادة الكتاب تحت النظر والتدقيق بواسطة مجمع الأساقفة، ثمّ ردّه إلى البرلمان مرّة ثانية. والمظنّون أنه تدخل عليه شروط مشدّدة فيما يتعلّق بقدّاس الخبز والخمر وفي كيفية حفظهما في الكنائس، ولكن ليس من المؤكّد أنّ هذه التعديلات تكون كافية لإرضاء المعارضين.

فالكنيسة الإنكليكانية تجتاز أزمة شديدة وهي واقعة بإزاء أحد أمرين: إمّا أن تتخلّص من وصاية البرلمان وتنفصل عن الحكومة انفصالاً تامًّا، وعند ذلك يكون لها الحرّية في سنّ القوانين الكنسيّة التي يراها الأساقفة مناسبة أو أن تبقى خاضعة لقرارات البرلمان وتجري الجزاء القانوني الصارم على المشاقين حتّى يتسنّى تطهير الكنيسة الإنكليكانية من عناصر المخالفة، وعند ذلك يخرج الإنكلوكاثوليك على الكنيسة علنًا. وفي مثل هذه الحالة يزداد ضعف الكنيسة الإنكليكانية برغم صفتها الرسمية وتزداد الشيع والنحل البالغة اليوم مائة وستّين في بلاد الإنجليز، فالكنيسة الإنكليكانية لا تكون قد فقدت في الآخر مميّزاتها القومية فقط، بل تكون زعزعت أركان القانون الأساسي بصورة لا يعرف منها جيّدًا مقدار التأثير الذي سيحدث بذلك لإنجلترا وسلطنتها. اهـ (ما نُشر في مجلّة جنيف).

وقرأنا رسالة في جريدة الديبا بتاريخ ٣٠ يناير الماضي تشرح قصّة رفض البرلمان لكتاب الصلاة الجديد، وقد ورد فيها أنّ مجمع الأساقفة استاء استياءً شديدًا من ذلك الرفض وتفوّه بما يشبه الاعتراض على مجلس العموم. ولكن خطّة الأساقفة هذه ستزيد الأمر إشكالاً. ولقد ظهر أنّ الأساقفة استخفّوا بالرأي العام الإنجليزي ولم يتوقّعوا من أبناء الكنيسة الإنكليكانية مثل هذه الشدّة في تمسّكهم بتقاليدهم.

وممّا زاد هيجان الخواطر نشر تقرير عن المحادثات التي جرت من سنة ١٩٢١ إلى سنة ١٩٢٥ تحت رئاسة الكاردينال "مرسييه" لأجل النظر في توحيد الكنيسة الإنكليزية مع الكنيسة الرومانية. فالإنكليكانيون دهشوا عندما أطلعوا على كون رئيس أساقفة كنتربري

هو الذي جرت تلك المحادثات برأيه، وأنه أنفذ لها ثلاثة ممثّلين حضروا منها الجلستين الأولين. فالإنجليز ناقمون على أساقفتهم هذا المسلك الجريء، والمظنّون أنّ المناقشات عندما يعود كتاب الصلاة إلى مجلس العموم ستكون أشدّ من ذي قبل، وربّما يرد الكتاب ثانية ويفضي الأمر إلى انفصال الكنيسة عن الحكومة، وهذا ممّا لا يرضاه أكثر الإنكليكانيين.

ثمّ جاء في جريدة "جورنال دوجنيف" بتاريخ ٢٨ مارس أنّ رئيس أساقفة كنتربري أصدر بيانًا صريحًا عن التعديلات المراد إدخالها على كتاب الصلاة، وأنّ الأساقفة رجعوا عن كثير ممّا كانوا أرادوا حمل الناس عليه. وبالإجمال تقرّر إعطاء الحرّية للعمل بالكتاب القديم أي كتاب سنة ١٦٦٢.

نعم، إنّ الصلاة لأجل الملك جعلت من الشعائر المفروضة بدون تساهل، وهذا ممّا يزيد الوحدة بين الحكومة والكنيسة. وأمّا حفظ الخبز والخمر فقد كان قرار الأساقفة فيه حازمًا، وذلك بأنه لا يجوز حفظهما إلاّ لمناولة المرضى لا غير، ولا يجوز استعمالهما على وجه آخر وكذلك محلّ وضعهما منصوص عليه بصورة لا تدع محلاً لعبادتهما". اهـ

نعود إلى القول بأنّ هذا النقل الذي نقلناه لا نقصد به المسألة المختلف عليها بين الإنجليز من حيث هي والتي لا تعنينا من هذه الجهة. وإنّنا لنوقر حرمة عقائد الناس ولا نقابلها إلاّ بالاعتبار التامّ كيفما كانت، فتعرّضنا لهذا الموضوع لم يكن لذاته.

وإنّما مقصدنا إقناع الشرقيين الذين يلعب بعض المفسدين بعقولهم بأنّ أرقى أمّة في أوربة، بل أرقى أمّة اليوم في العالم، وهي الأمّة الإنجليزية لا تقدر أن تصلّي إلاّ تحت تصديق مجلسَي الأعيان والنوّاب وتحت أمر الملك، وأنّ هذه المباحثات والمناقشات الاعتقادية الصرفة قد جرت في مجالس دنيوية سياسية هي أكبر المجالس من نوعها في الدنيا.

فالذين يسفسطون بكلمة فصل الدين عن السياسة وبدعوى نبذ دول أوربة للقضايا الدينية تمامًا يكفيهم هذا المثال (ومن يضلّل الله فما له من هادٍ).

لوزان ٨ أبريل ١٩٢٨

شكيب أرسلان

تاريخ حروف الكتابة*

(ومكان العربية منها)

(أوّل من وضع الكتابة في العالم عرب اليمن، وعنهم أخذ الفينيقيون الذين هم من عرب البحرين وما جاورها، وعنهم أخذ اليونان. والحروف اللاتينية لا تصلح للغة العربية ولا للشعوب العربية والإسلامية أبدًا).

- بحث وتحقيق للأمير شكيب أرسلان

كان أمير البيان قد كتب مقالاً في تفنيد ما انخدع به بعض كتّاب العربية المتفرنجين من استحسان تقليد الترك الكماليين في شرّ ما جنوا به على لغتهم وثقافتهم، ومدارسهم وصحافتهم، إتمامًا لما جنوه على دينهم وآداب ملّتهم، وهو كتابة التركية بالحروف اللاتينية، ونشر هذا المقال في جريدة العهد الجديد التي هي من أخلص الجرائد العربية لأمّتها ووطنها وأقدرها على خدمتها. ثمَّ استزاده بعض المعجبين بتحقيقه لأمثال هذه المباحث فراجع فيه قبل إتمامه بعض كبار المحقّقين من علماء أوربة، ذلك وفي مقدّمتهم الأستاذ (مورتيز) الألماني المعدود من أشهر علماء هذا الفنّ في العالم كلّه، وله فصل طويل في الكتابة العربية نشر في دائرة المعارف الإسلامية - والأستاذ (هس) السويسري مدرّس الألسن الشرقية في جامعة (زوريخ) وهو من أصحاب القدم الراسخة في تاريخ الخطوط عامّة والخطّ العربي خاصّة، وقد تلقّى عنه أستاذنا الإمام الخطّ المسند في سويسرة. كتب إليه الأمير في ذلك وتلقّى عنه مقدّمة لجوابه مع وعد بتتمّتها. وكتب أيضًا إلى الأستاذ ليتمان الألماني العلاّمة الشهير، يستوري زنده في الموضوع فلم يجده في برلين لأنه كان بمصر وكان ذاكره في هذا البحث مرارًا ثمَّ جاء برلين وبحث مع الأستاذ مورتيز في المسألة زهاء ساعتين، وشرع بعد ذلك في كتابة خلاصة هذه المباحث وأرسل ما كتبه إلى جريدة العهد الجديد فنشرته متفرّقًا في شهر شوّال الماضي.

* المنار ج٣٠ سنة ١٩٢٩ ص ١٢٨ - ١٣٥.

ـ المقالة الأولى: تاريخ الكتابة والخطوط

قال الأمير بعد مقدّمة ذكرنا خلاصتها آنفًا:

الأستاذ موريتز يرى ما يراه هذا العاجز وما كان سبق لي ذكره في مقالة بهذه الجريدة وفي مقالات أخرى من قبل، وفي تصريح صرّحت به في أيام الحرب لإحدى الجرائد الألمانية، وهو أنَّ الخطّ العربي الحالي الذي يسمّيه علماء الخطوط بالخطّ النسخي هو نوع من الاختزال «الستينوغرافيا» وأنَّ العرب لم ينتقلوا إليه من الخطّ المسند الحميري الذي كانت حروفه منفصلة إلاّ حبًّا بالسرعة ومن بعد أن استبحر العمران وكثرت العلائق التجارية عند العرب.

والأستاذ «موريتز» موافق لي على القول بأنَّ طريقة العرب في الخطّ النسخي هي الطريقة التي يجدر أن يقال لها طريقة عصرية وأنَّ فيها اختصارًا لائقًا بكتابة الأمم التي ازدحمت أشغالها وتناهت مدنيّتها وأنَّ فيها أيضًا توفيرًا من الوقت ومن القرطاس.

ثمَّ إنَّ الأستاذ موريتز يصرّح تصريحًا لا مجال معه لأدنى مراجعة بأنَّ الحروف اللاتينية لا تصلح أبدًا للسان العربي، وأنَّ اللسان العربي بالحروف اللاتينية لا يمكن أن يعرف.

ومن بعد أن قرّرنا هذا نقلاً عن هذا العلاّمة الشهير المشار إليه بالبنان في المشرقيات، لا سيّما علم الكتابات السامية يحسن أن نذكر خلاصة أرائه في تاريخ الخطّ البشري.

فالأستاذ موريتز يذهب إلى ما هو معروف عند جميع العلماء من أنَّ الكتابة وقعت بالتدريج وأنها كانت في البداية صورًا تامّة. فإذا أريد التعبير عن الأكل مثلاً رسم الكاتب صورة رجل يأكل، وإذا أريد التعبير عن النوم رسم صورة رجل نائم على فراشه، وإذا كانت العبارة عن الضرب رسم رجلاً يضرب رجلاً آخر وهلّم جرّا، وهذا الخطّ التصويري الذي يسمّى بالهيروغليف في مصر وبالمسماري في العراق والذي منه آثار عند قدماء سكّان أمريكا قد مسّت الحاجة إلى اختصاره. وفي الصين لا يزال التصوير غالبًا على الخطّ.

ـ أوّل واضع للكتابة الحرفية عربي يماني

يقول البروفسور موريتز أنّ أول واضع للكتابة على شكلها الحالي منتقلاً من الصور لتامّة إلى الإشارة الجزئية يجب أن يكون رجلاً عربيًّا من أهل اليمن.

ويقول إنَّ الأستاذ «ليتمان» يرى هذا الرأي نفسه.

ويضرب مثلاً فيقول: كانوا في عهد الكتابة بالصور إذا أرادوا ذكر العين صوّروها كما هي، أي هكذا (.) ثمَّ عندما أرادوا الكتابة بالإشارات المختصرة عن الصور جعلوا حرف العين بصورة العين الباصرة، فجعلوا حرف العين هكذا «0 أو عـ»، ثمَّ إنَّ الباء مختصرة من صورة البيت، فالبيت صورته هكذا ◻ كما لا يخفى، لأنَّ الأصل في البناء يكون مكعّبًا، فعندما أرادوا الاختصار رسموا البيت هكذا ـــ وتجد أنَّ هذه هي صورة حرف الباء المشتقّة من البيت، أمّا نقط الباء، فهو متأخّر العهد والعلماء مجمعون على أنَّ النقط في العربي لم يقع الاصطلاح عليه إلاّ في القرن الأول للهجرة.

- المدينة البابلية والكتابة عربيّتان

ويستدلّ الأستاذ على أنَّ بداية الخطّ وقعت عند عرب اليمن بما يأتي:

إنَّ المدنية البابلية ترجع إلى ثلاثة آلاف سنة قبل المسيح. وإذا رجعنا إلى حفريات الإنكليز والأمريكيين الحديثة في «أور» الكلدانية، نجد أنَّ مدينة بابل كانت زاخرة مستبحرة العمران قبل المسيح بأربعة آلاف سنة.

والقرائن تدلّ على أنَّ مدنية بابل جاءت إلى بابل من بلاد العرب.

ووجدت في بابل أسماء «حمورابي» و«عميصادق» وهي هذه الأسماء نفسها وجدت في اليمن بلفظ «عمي رافع» و«عمي صادق». وإنّما تحرّفت في بابل قليلاً. ومن هذا وغيره استدلّ علماء الآثار على أنَّ أصل المدنية البابلية هو من اليمن.

وأمّا «الألف بآء (Alphabet) فقد وجدت في اليمن، بل في الدنيا كلّها قبل المسيح بألفي سنة. وأقدم خطّ عربي وُجد في اليمن ويقال له المسند. وقد أخذه الفينيقيون وأدخلوا عليه بعض تغييرات، هذا هو رأي المحقّقين الذي عوّلوا عليه أخيرًا بعد أن كان العلماء يظنّون أنَّ الفينيقيين هم الذين سبقوا الأمم كلّها إلى الكتابة.

ولعلّ الذي حمل علماء أوربة على نسبة إيجاد الكتابة إلى الفينيقيين هو كون اليونان أخذوا الكتابة عن هؤلاء. وكان ناقل الكتابة من الفينيقيين إلى اليونان رجلاً اسمه «قدموس» ومعناه «شرقي».

فاليونان يعلمون أنَّ الكتابة وصلت إليهم من الشرق وهم نشروها في الغرب. وكان اليونان يكتبون نظير الشرقيين من اليمين إلى الشمال، ولم يكتبوا من الشمال إلى اليمين إلاّ فيما بعد. ولم يكن عند اليونان بادئ ذي بدء سوى عشرين حرفًا، ثمَّ صاروا يزيدون عليها.

وأمّا الخطّ الأقدم وهو المسند الذي هو أصل الخطوط كلّها، فهو ثلاثة أنواع، وكلّها كانت حروفها منفصلة كالحروف الإفرنجية الآن. وهذه الأنواع الثلاثة هي الخطّ اللحياني والثمودي والصفاء لي (نسبة إلى حرّة الصفاء التي وجدت فيها كتابات بهذا الخطّ).

ومن الخطوط العربية الخطّ السباءلي قيل إنّه وجد قبل المسيح بستّمائة سنة إلاّ أنَّ العلاّمة موريتز يقول إنّه وُجد قبل المسيح بألفي سنة.

ومن الخطّ السبآءلي نوع جديد، وُجد منه كتابات في الرحبة شرقي جبل الدروز ترجع إلى ما بعد المسيح بثلاثمائة سنة. ووُجدت خطوط سبائية بين الكتابات اليونانية التي وُجدت هناك.

والخطّ الثمودي هو قبل السبآءلي[1] وهو الصفاءلي مختصران من المسند. ومن هذه الخطوط جاء الخطّ النبطي الذي هو أول خطّ وصلت فيه الحروف بعضها ببعض (Corsif)، والخطّ النبطي هذا هو أصل الخطّ العربي الموصول المسمّى بالنسخي. وقد تسنّى للعلماء بحسب ما حقّقوه إلى هذا اليوم تتبّع سير الخطّ العربي منذ أول إيجاده إلى أن تقرّر الخطّ النسخي الحالي. وإنَّ هذه الآراء هي نتيجة ما انكشف إلى الآن. وستبقي معولاً عليها إلى أن يجد في الحفريات ما يغايرها أو يعدلها.

- المقالة الثانية: أنواع الخط العربي وتاريخها

- رأي موريتز في الخط العربي

تقدّم لنا في «العهد الجديد» ذكر آراء بعض العلماء المستشرقين المتخصّصين في أمر الكتابات السامية، ومنهم الأستاذ موريتز الألماني الذي هو مجمع على أنَّ أقدم من كتب على وجه الأرض هو رجل عربي من اليمن، وعلى أمر آخر وهو أنَّ اللغة العربية لا يجوز أن تُكتب إلاّ بالحروف العربية.

(١) السبآءلي: هكذا وردت.

وإنّي لناشر غدا ما دار بيني وبينه من المباحثات الشفوية هذه المرّة جوابًا بعث به إليَّ إلى لوزان منذ نحو شهرين. وسأنشر له خلاصة بحثه عن الكتابة العربية في "الأنسيكلوبيديا الإسلامية" التي بدأت بها لجنة من العلماء قبل الحرب ولمّا تكمل. أمّا نصّ كتابه الأخير فهو هذا (بعد الترجمة):

"ألف شكر لك على كتابك اللطيف وعلى ما تمنّيته لي بمناسبة دخول السنة الجديدة التي ننتظر منها الاستمتاع بصحّة جيّدة والعون في إيصال أشغالنا إلى غاية حسنة.

في الفصل الذي حرّرته في "أنسيكلوبيدية" الإسلام على الكتابة العربية، قد فاتني بعض تفاصيل لم يتّسع لها المقام. فالكتابة النبطية التي تشتقّ منها الكتابة العربية (يريد الكتابة الحالية) هي ذات شكلين: (أحدهما) الشكل العادي الأقدم الذي منه كتابات على المباني الباقية من الأعصر الأولى ومنه الكتابات الرسمية، وحروف هذا الشكل ليست متّصلة بعضها ببعض. (والثاني) الشكل المتّصل وهو الشكل الذي اختير له الاختصار والبساطة لأجل الكتابات اليومية، وقد وصلوا فيه الحروف بقدر الإمكان حبًّا بالسرعة.

ولا شكّ في أنَّ هذه الكتابة الموصولة قد جرى الاصطلاح عليها في المدن التجارية الكبرى مثل بترآء ومكّة، حيث كانوا يشعرون بالاحتياج الشديد إلى أن يكتبوا سريعًا وكثيرًا. وإنّه يوجد كتابات حجرية من القرن الثالث والقرن الرابع قبل المسيح، ليست من الكتابات الرسمية يتجلّى لك منها هذا الشكل الجديد بكلّ وضوح.

وأمّا من القرن الخامس قبل المسيح فلم توجد كتابة من هذا الشكل، كما أنَّ كتابة زيد بقرب حلب وكتابة حرّان هي من الخطّ العربي الكوفي. وأمّا أصل تسمية هذا الخطّ بالكوفي فلا أزال من أمره في ظلمات. ويحتمل أن تكون دولة لخم الصغيرة في الحيرة، قد اصطلحت على خطّ مشتقّ من الخطّ السوري، وقد أعطي هذا الخطّ اسم الخطّ الكوفي لأنَّ الكوفة هي خلف الحيرة كما لا يخفى، فكأنهم أرادوا إعطاءه اسمًا يميّزه عن الخطّ السوري، إلاّ أنَّ هذا الافتراض لا يزال محتاجًا إلى أدلّة من كتابات على الحجر أو في الورق وهذه لمّا توجد.

وأمّا النقط فلم تظهر إلاّ في النصف الثاني من القرن الأول للهجرة، وذلك على كتابات المباني والمسكوكات المضروبة وعلى البردي. وكان الباعث إليها حسن الاحتياج إلى الفرق بين بعض أحرف الخطّ المتّصل التي يوصلها بعضها مع بعض تشابهت كثيرًا. ويظهر

أنّ أقدم النقط هي نقطة الباء ب ونقطة الذال ذ وقد وجدت مؤخّرًا قطعة سكّة قديمة من مجموعة البارون "أوبنهايم" عليها الكتابة الآتية هكذا (ضرب هذا الدينار سنة سبع ومائتين) انتهى.

ـ رأي الأستاذ هس في الخط العربي

وإليكم هذا المكتوب الآخر من الأستاذ هس المستشرق الشهير الذي يدرس الألسن الشرقية في جامعة زوريخ، وهو ممّن أقاموا مدّة مديدة في مصر وعرفوا بلاد العرب وكانت له صحبة متينة العرى مع المرحوم الشيخ محمَّد عبده، وعندما ساح الأستاذ الإمام في أوربة نزل ضيفًا على البروفسور "هس" في منزله في فريبورغ. ولقد تمكّنت الصحبة بيني وبين الأستاذ المشار إليه منذ نحو عشر سنوات، ففي هذه المدّة استطلعت رأيه في بعض مسائل تتعلّق بالكتابة العربية، فصادف كتابي إليه أنه كان ملتاثًا. فكتب إليَّ ما يأتي:

"يا أميري العزيز لم أكن قويًّا أصلاً عندما وردني بهذا الصباح كتابك الثاني، وإنّي مع ذلك أسألك العفو. فمنذ ثمانية أيام أنا عليل بالنزلة الوافدة، وعندما جاءني كتابك الأول لم أظفر بالوقت الكافي لأجاوبك إذ كانت الأسئلة التي ألقيتها عليَّ تقتضي لجوابها لا أقلّ من نصف نهار، وسأجاوبك عليها قريبًا وإنّما أكتفي الآن بالجواب على نقطتين: الأولى هي أنَّ جميع العلماء يذهبون إلى أنَّ الفينيقيين هم الذين اخترعوا الكتابة وحروف الهجاء السامية، وسأعطيك البراهين على أنه ليس الأمر كذلك، فأمّا الكتابة العربية فيجب التمييز جيّدًا بين الكتابة المعينية والسبائية ممّا يسمّيه علماء العرب الخطّ المسند أو خطّ حِمْيَر والكتابة العربية الشمالية المسمّاة بالنسخي، فإنّه لا تعلّق لإحدى الكتابتين بالأخرى. وليس عندنا شيء من العلم عن أصل الألف باء السبائية التي فيها عدّة من الحروف لا توجد في الفينيقية. أمّا الحروف الهجائية الشمالية التي أقدم أشكالها تشابه تمامًا النسخي الحالي (بدون تنقيط كما لا يخفي)، فهي مشتقّة من حروف الهجاء النبطية. وإنَّ أقدم كتابة عربية بلغة عرب الشمال التي عندنا في القرآن هي المنسوبة إلى مر القيس (امرئ القيس) بن عمرو التي وجدت في "عارة" بقرب دمشق. وتاريخها سنة ٣٢٨ بعد المسيح وحروفها نبطية، والخطّ النبطي حروفه موصولة مثل النسخي.

وأنت تدري أنَّ الكوفي هو مشتقّ من النسخي (وبعضهم ذهب إلى أنَّ النسخي مشتقّ من الكوفي). وقريبًا أكتب إليك مطوّلاً إلخ" انتهى.

فمتى وردني كتاب الأستاذ (هس) الثاني أبادره إلى نشره، وقد يصيب الإنسان في نشر منقولة أكثر ممّا يصيب في نشر مقوله لا سيّما إذا كان لا يتوخّى شيئًا سوى الفائدة وتجلية الحقيقة، وهذا لا يمنعنا من تعليق ملاحظتنا الخاصّة عند اللزوم.

شكيب أرسلان

علاقة التاريخ باللهجات العربية*

صورة محاضرة تلاها بالإفرنسية الأمير شكيب أرسلان

في مؤتمر المستشرقين المنعقد في ليدن في أوائل سبتمبر الماضي

(١)

إنَّ موضوع بحثي هذا هو العلاقة بين التاريخ واللهجات العربية، وهو بحث مهمّ يكاد يكون طريفًا، ولم أجد علماء العرب ولا علماء المشرقيات أولوه العناية التي هو لائق بها، ولا أحلّوه من التنقيب المحلّ الذي كان يستحقّه. وغاية ما علمت أنَّ أول من تنبّه لهذا الموضوع هو صديقي المرحوم حفني ناصف، من أكبر أدباء المصريين في عصرنا، وذلك في رسالة ألّفها تحت عنوان "مميّزات لغات العرب" وقدّمها إلى مؤتمر المستشرقين المنعقد في ڤينّا سنة ١٨٨٦.

فيكون هذا البحث قد استؤنف من بعد ٤٥ سنة من البدء به، وذلك في مؤتمر هو حلقة من سلسلة المؤتمرات التي أحدها كان مؤتمر ڤينّا المذكور. وهكذا العلم في كلّ عصر وفي كلّ مقام ليس إلاّ سلسلة تأخذ بالطول بما يتجدّد من الحوادث، وما يتكشّف من الحقائق التي كانت كامنة تحت حجب الغموض. ويجوز أن لا يكون حفني ناصف هو أبا عذرة هذا البحث وأن لا أكون أنا التالي فيه. ولكنّي أعترف بأني لم أطّلع فيه على كلام لأحد سوى هذه الرسالة التي أخرجها صديقي المرحوم حفني ناصف في ٤٨ صفحة وضمّنها تحقيقات لم أجدها سبقت لغيره.

إنَّ علاقة اللهجات بالتاريخ هي إثبات وحدة الأصول من وراء وحدة اللهجات، ولا ينبغي أن تكون هذه الوحدة عامّة ليقوم منها برهان تاريخي بحيث إن وجدت الوحدة في أشياء وتخلّفت في أشياء بطلت قيمة ذلك البرهان. كلاّ، فإنَّ الوحدة لا يجب أن تكون مطّردة حتّى يتجرّد من جزئياتها كلّية، وذلك أنه يتأتّى غالبًا عوامل غريبة كالتشبّه والمحاكاة، والاستعداد الحلقي، والامتداد الصوتي، والاستعارة من اللغات الأخرى، وتأثير البيئة والزمن

* المقتطف ج٨٠ (١٩٣٢) ص ٣٨ ـ ٤٤ و١٣٩ ـ ١٤٥ و٣٢٣ ـ ٣٢٧.

وغير ذلك من الأسباب التي قد تؤثّر في اللهجات الأصلية فتحوّلها عن أصلها. فليس في الدنيا لغة بقيت على ما كانت عليه في البدء، وعليه فإن لم يتحقّق التشابه على طول الخطّ وكان قاصرًا على بعض ألفاظ أو منحصرًا في بعض نغمات، فلا يؤخذ من ذلك أنَّ البحث لا يستحقّ العناء أو أنه لا يفيد حقيقة تاريخية، فإنّنا نجد أحيانًا بلدانًا عربية متباعدة جدًّا بعضها عن بعض من جهة العروض والأطوال ونجد أهلها مع ذلك غير متباعدين في اللهجات، بل نجدهم يتلفّظون ببعض الكلمات على صورة واحدة. فلا يمكن أن يكون ذلك مجرّد تصادف لأنَّ التصادف بمعناه الحقيقي شيء غير موجود في الدنيا. وإنّما الموجود هو حوادث وأعراض قد تمكّن الناس من تعليل بعضها وإظهار أسبابه وهذا ما يقال له العلم. وبقي البعض الآخر مجهولاً إلى اليوم متعزّزًا وراء أستار الغيب، وهذا ما يحاول العلم التوصّل إليه. فالتاريخ من جهة والمنطق من جهة أخرى يريدان أنه متى وجد قطران أحدهما في الشرق والآخر في الغرب، أو صقعان كلّ منهما ناءٍ عن الآخر، وكان بين أهليهما وحدة في اللفظ أو تقارب مستجلب للنظر في إخراج بعض الحروف ومخارجها يكون بين أهالي هذين القطرين وحدة في النسب من عهد قديم قد يجوز أن لا يكون تاريخها واضحًا أحيانًا أو يجوز أن يكون معوزها زيادة جلاء، ولكن لا يجوز أن يستخفّ بقيمتها التاريخية أصلاً. فلو كانت هذه الوحدة اللفظية أو هذا التشابه المستجلب للنظر بين قطرين متقاربين من الوجهة الجغرافية لم يكن ثمّة ما يقتضي العجب، وكان الأمر طبيعيًّا (القياس في النسبة إلى الطبيعة أن يقال طَبَعي، ولكن ليس بخطأ أن يقال طبيعي. ولقد جاء في كلام الأوائل: ولكن سليقي أقول فأُعرب) معتادًا، ولكن لا يمكن أن يقال إنّه طبيعي أو معتاد إذا كان القطران منفصلين بمساوف طوال، وأبحر وجبال عالية، وصحاري غير متناهية، وألوف من الكيلومترات، وكنت برغم هذا كلّه تتبيّن الوحدة أو التقارب الشديد في كيفيّة اللفظ. فهذه المسئلة لا تعرض في تاريخ أمّة من الأمم كما تعرض في تاريخ الأمّة العربية المشتّتة في قارتَي آسية وأفريقية، بل في قارة أوربة قبل قرون خلت. فمن المعلوم أنه لمّا خرجت قبائل العرب من جزيرة العرب لأجل الفتوحات الإسلامية التي اتّسق جُلّها على أيدي العرب كان بعضها في كاشغر الصين والبعض الآخر في بروفانس فرنسة، وذلك في وقت واحد، بل تقدّم منها أناس إلى بلاد البيامون وسويسرة. وكانت كلّ قبيلة تأتي إلى وطنها الجديد بعاداتها وأوابدها ومنازعها ولهجاتها. ولو أنَّ القبائل التي بلغت هذه القواصي في سبيل الفتح الإسلامي لم تختلط بأقوام أخرى من غير العرب، لكانت اللهجات العربية التي

انتقلت بها إلى تلك الأقطار البعيدة أنقى وأصفى ممّا كانت، ولكانت أقرب إلى الوحدة. ويمكنك أن تتحقّق ذلك بدليل أنه عندما كانت تقع هجرة غير مشوبة بغيرها نظير هجرة بني هلال من جزيرة العرب إلى أفريقية، أو عندما كان المهاجرون من عرب الجزيرة يقعون من تلك القواصي في أصقاع منزوية منفصلة عن سائر البلاد بحواجز طبيعية كانت لغة هؤلاء المهاجرين تبقى من نقاوة العروبة على ما كانت عليه في قلب الجزيرة. فأهالي شنقيط اليوم وهم في غربي صحراء أفريقية إلى جهة السنيغال يتكلّمون بعربية لا تقلّ فصاحة عن عربية أهل نجد أو أهل اليمن ولا تجد في كلامهم النغمة البربرية التي تجدها في الأحايين عند عرب المغرب.

ولنضرب لك مثالاً آخر وهو قبائل عرب برقة التي وقع جلاؤها عن نجد إلى مصر ومنها إلى برقة وطرابلس بين القرن التاسع والقرن العاشر للمسيح بسبب حروب داخلية والتي أكثرها من بني سليم بن منصور، فإنّك إذا سمعت نغية هذه القبائل لم تجدها تفترق عن نغية القبائل النجدية. ولمّا كنت قد عرفت برقة في أوائل الحرب الطرابلسية الإيطالية، فلقد تحقّقت هذه المشابهة بنفسي. ولم نكن هنا لنستقصي جميع الأمثال التي تؤيّد هذه القاعدة ولا لندّعي الإحاطة بالمبحث الذي نحن بصدده، وإنّما نورد بعض الشواهد التي تزيد القضيّة جلاءً فنقول:

لنأخذ مثلاً «الإمالة» وهي لفظ الألف مائلة إلى الياء، فهذه قد وجدت عند العرب من زمن الجاهلية ومن أول وجود اللفظ العربي. وكانت الإمالة لغة قيس وتميم وأسد ونجد على وجه الإجمال. وقرئ كثير من آيات القرآن الكريم بالإمالة وإن كان الأصل هو عدم قراءته بالإمالة بناءً على أنَّ أول من تلفّظ بالقرآن هو النبي (ﷺ)، ثمَّ أصحابه، وكلّهم كانوا قرشيين ليست عندهم الإمالة. وممّا قرئ في القرآن بالإمالة نورده على سبيل التمثيل ﴿إنّا خلقناكم من ذكر وأنثى﴾ فقرئ «أُنثي» تقريبًا بميل شديد إلى الياء. وقرئ ﴿إن أكرمكم عند الله اتّقاكم﴾ بإمالة «اتقاكم» حتّى تكاد تظنّها «أتقيكم» وقرئ (وتوفّنا مع الأبرار) بإمالة «الأبرار» حتّى تخالها «الابرير» وقرئ ﴿بآسم الله مجراها ومرساها﴾ بإمالة «مجراها ومرساها» يكاد يظنّ السامع أنهما «مجراهي ومرساهي» ومثل ذلك (نار الموقدة التي تطلع على الأفئدة) فوقفوا في «الموقده» و«الأفئده» على الهاء وكسروا الدال قبلها، ومن هذا القبيل آي كثيرة قرئت ألفاتها الممدودة والمقصورة بالإمالة. فالقرآن الكريم أصبح فيما بعد

كتاب جميع العرب، فكان لا بدّ من أن يقرأ بجميع لهجات العرب وأن توجد فيه الإمالة التي كانت لغة نجد، ولغة قبيلة تميم، المضروب المثل بكثرة عديدها. ولمّا كان لنجد من العلاقة مع الشام ما ليست لها مع غيرها، كانت لغة نجد بدون نزاع هي التي كان لها التأثير الأعظم في لغات القبائل العربية التي انتجعت الشام. وقد طالما فكّرت في هذه المسئلة فلم أجد سببًا لفشو الإمالة في لغة الشام غير التأثير النجدي وطن الإمالة الأصلي، فإنّك تحار عندما ترى جميع الشام تقريبًا تلفظ بالإمالة، وأكثر مصر تلفظ بدون إمالة إلاّ قليلاً في بعض أرياف.

ولا نقول إنَّ جميع قبائل العرب التي نزلت الشام صدر الملّة كانت من نجد، بل كان منها قبائل حجازية ويمانية تقلّ في ألفاظها الإمالة، إلاّ أنَّ هذا لم يكن سببًا لعدم غلبة لفظ الإمالة عليها، فإنّه من سنّة الاجتماع اقتداء الأقلّ بالأكثر، وعليه اتّبعت هذه القبائل لهجة الأكثرية. فالدروز في لبنان والشيعة في جبل عاملة هم جميعًا يمانيون كما هو ثابت تاريخًا. ومع هذا، فإنَّ الإمالة اليوم غالبة على لفظ الفريقين.

على أنَّ الإمالة لم تكن على درجة واحدة، بل اللفظ بها منه ما هو مفرط ومنه ما هو معتدل. فلنأخذ مثلاً لفظة «مدينه» بفتح النون Madina فهي بهذا الشكل ملفوظة بحسب القاعدة التدريسية. فإذا أمَلْتها ميلاً معتدلاً قلت «مدينِه» بكسر النون Madineh وهذه هي إمالة النجديين، وإن أمَلْتها ميلاً شديدًا قلت «مديني» Madini كأنك تلفظها بالياء. وهذه هي إمالة أكثر السوريين اليوم.

ولا نقول إنَّ الإمالة في سورية قاعدة مطّردة، ليس فيها تخلّف أصلاً، بل قد سمعت أهالي غزّة لا يميلون فلا يقولون مثلاً لاسم بلدتهم «غزِّه» بالكسر أو «غَزِّي» بلفظ الياء كما يلفظها سائر السوريين، بل يقولونها «غزَّة» بفتح الزاي المشدّدة كما يقولها المصري والحجازي واليماني والعراقي.

وهناك أقاليم أخرى شذّت عن القاعدة: مثلاً أهالي إقليم الخرّوب من جنوبي لبنان يلفظون بدون أدنى إمالة. وهذا الإقليم لا يزيد على عشرين قرية أهلها مسلمون سنّيون بين قراهم، قرى أهلها نصارى لا يلفظون بالإمالة، وجميعهم تابعون لقضاء الشوف وليس فيه أحد إلاّ يلفظ بالإمالة. والدروز وهم يسكنون إلى الشمال من إقليم الخرّوب يُميلون بأجمعهم. والشيعة أو المتاولة الساكنون إلى الجنوب من إقليم الخرّوب أشدّ إمالة من الدروز. وأهالي صيدا وهم مسلمون ونصارى بلدهم في طرف الساحل ـ الذي يسمّى

بإقليم الخرّوب ـ يميلون كسائر أهل سورية. وبرغم أنّ كلّ هذه البلاد المحيطة بإقليم الخرّوب تنطق بالإمالة، نجد أهل هذه البقعة يتكلّمون بدون إمالة أصلاً نظير المصريين والحجازيين والعراقيين واليمانيين والمراكشيين والتونسيين والجزائريين إلخ.

لماذا هذه البقعة الصغيرة من لبنان أشبه بالجزيرة في بحر تنطق بلا إمالة، في وسط بلاد تنطق كلّها بالإمالة؟ الجواب يظهر لنا لذلك سببان، وإذا لم تتيسّر الأدلّة التاريخية لم يبقَ أمام الباحث سوى الافتراضات. فإمّا أن يكون أهالي إقليم الخرّوب أصلهم من قبيلة واحدة لم يختلطوا بقبائل أخرى وقد كان أجدادهم يلفظون بدون إمالة، فحفظوا لفظة أجدادهم بقوّة ثبات غريزية فيهم منذ قرون كثيرة إلى الآن، أو أن يكون مجيئهم إلى جبل لبنان تأخّر كثيرًا عن مجيء غيرهم، وكان أصلهم من قُطْر لا يعرف الإمالة إلاّ نادرًا كمصر أو الحجاز مثلاً. ولمّا أقاموا بجبل لبنان اجتمعوا في كورة واحدة وجمدوا على نغمتهم الأصلية فلم تتغلّب عليهم جاذبية الإمالة المحيطة بهم من جميع الأطراف. وقد كان عرب الأندلس يلفظون بالإمالة في كثير من كلامهم. نعلم ذلك من منبعين أحدهما التواتر، أي الشهادات التي يرويها الخلف عن السلف. والثاني الألفاظ العربية التي دخلت في اللغة الإسبانيولية والتي لفظها إلى الآن يُشعر بالإمالة.

فالمهاجرون الأندلسيون الذين خرجوا إلى المغرب والجزائر وتونس منذ أربعة قرون، وإن كانوا في أوطانهم الجديدة هذه قد تركوا الإمالة اقتداء بأهالي هذه البلدان التي أوطنوها لم يزالوا يروون عن سلفهم أنّ لغتهم كانت أيام مقامهم بالأندلس ذات إمالة بليغة، مثال ذلك أنّ أهالي غرناطة مثلاً كانوا يقولون "كتيب" بدلاً من "كتاب". وألفاظًا كثيرة في ضرب "كتيب". وأمّا الألفاظ الإسبانيولية التي أصلها عربي سواء كانت إعلامًا أو كلمات معتادة ولا تزال كيفيّة لفظها تشعر بالإمالة فهي مستفيضة، مثالها "البيب" أي "الباب" فإنّ عرب الأندلس كانوا يميلون ألف "باب" إلى أن تخالها ياء. وفي قرطبة وإشبيلية وغرناطه أبواب كثيرة كان يقال لها "بيب" كذا وبيب كذا. وذهب العرب من تلك الأرض وبقيت الأسماء على ما كانوا يلفظونها به وتجد الإسبانيول اليوم يقلّدون العرب في لفظها. وأنا عرفت سوقًا في غرناطه اسمها "بيب الرملة" Bib-erramla وهذه الإمالة واردة على الأندلس من سورية، إذ كان أكثر العرب الذين فتحوا إسبانيا هم من عرب الشام كما لا يخفى. ولقد سمعت أناسًا من أهالي قرى بعلبك يقولون للباب "بيب" كما في الأندلس.

وكانوا يقولون في الأندلس "عبد المِلِك" بكسر الميم واللام معًا، كما نحن نقول الآن في لبنان بيت "عبد المِلِك" بكسر اللام والميم معًا. ولمّا كان الإسبان ينقلون الكلمات العربية لا سيّما الإعلام حسبما سمعوها من العرب نجدهم يكتبون مثلاً: Walid Ben Abdelmélic ويظهر أنَّ عرب الأندلس كانوا يميلون أيضًا ألف "هشام" فنجد مؤرّخي الإسبانيول مثل "كوند" مثلاً يكتب "هشام" هكذا Hixem ولا يكتبها Hixam وكذلك كانوا يقولون "الحكِم" بكسر الكاف. ولذلك تجد كثيرًا من الإسبانيول يكتبونها Alhakem ولا يكتبونها Alhakam إلاّ من يريد مراعاة القاعدة العربية. ثمَّ لحظت بعض مؤرّخي الإسبانيول يكتب اسم "بني عبّاد" ملوك إشبيلية هكذا Abbed، ولحظت بعضهم يكتبها Abbad، فالذي يكتبها بالإمالة، فإنّما يراعي لفظ الأندلسيين لها، والذي يكتبها بالألف المطلقة فإنّما يراعي اللفظ الأصلي فيها. وكذلك كتبوا اسم "ابن عثمان" هكذا Iben Osmin لا Iben Osman وقد وجد أيضًا لفظ "Othman" بدون إمالة، فيظهر أنَّ بعض الجهات كانت تميل وبعضها كانت لا تميل. ووجدتهم يميلون في لفظة "الأوزاعي" فيلفظونها كأنها "الأوزيعي" ويقولون "ابراهيم المرادي" كأنها "ابراهيم المريدي" و"القاضي أبو جعفر القلاعي" كأنها "القليعي" ولفظة "الجهاد" كأنها "الجهيد" وعرفت ذلك من كيفية كتابتها بالأحرف اللاتينية مع التكرار الذي يفيد أنه ليس بغلط نسخ ولا طبع. والمؤرّخ "دوزي" أشهر أوربي كتب في تاريخ الأندلس يذكر كثيرًا من هذه الألفاظ بالإمالة ولا يقول عن مجاهد العامري صاحب دانية إلاّ Moujéhid وكان حقّها بدون إمالة أن تكتب Moujahid كما لا يخفى ولكن الأندلسيين كانوا يميلون ألف "مجاهد" وألف "دانية" ولا يزال الإسبانيول يلفظون "دانية" بالإمالة ويكتبونها هكذا Dénia. ولمّا كنت في السنة الفائتة في الأندلس ذهبت من مرسية إلى القنت ودانية. فلمّا كنت في القنت وأردت أن أقطع ورقة السفر بسكّة الحديد إلى "دانية" قلت لهم: اقطعوا لي ورقة إلى دانية وتلفّظت بها كأنها Dania فلم يفهموا منّي. ثمَّ لحظ أحدهم ما أريد، فقال لي هي Dénia لا Dania ولا أريد أن أقول إنَّ الأندلسيين كانوا يميلون كلّ ألف، بل هذا في كلامهم مستفيض أكثر من كلام غيرهم تقليدًا للشامين الذين أكثرهم منهم. وفي سورية لا سيّما في بعض القرى وفي البلاد التي تغلب عليها الأمّية تسمعهم يقولون "كتيب" بدل كتاب و"جهيد" مكان "جهاد" ومن سمع أهالي بلاد ريشيا يتكلّمون لم يقدر أن يفرّق بين ألفهم ويائهم فتسمعهم يقولون مثلاً "أعطه إيّاهي" بدلاً من "أعطه إيّاها"، و"حاملهي" بدلاً من "حاملها" وهلمّ جرّا.

فالسواد الأعظم من عرب الأندلس كان من القطر الشامي. وهذه هي حقيقة تاريخية ثابتة لم يقع فيها خلاف. وكانوا يسمّون غرناطة دمشق لا لشبهها الجغرافي الشديد بدمشق، ـ وهي بالفعل أشبه البلاد بدمشق ـ بل لأنَّ العنصر الدمشقي كان فيها غالبًا. وكذلك إشبيلية كان يقال لها حمص لأنَّ أكثر من نزلوا فيها كانوا من عرب حمص. وكان يقال لـ"شريش" فلسطين لأنَّ معظم من نزلها كان من فلسطين. ولمّا كانت أوريولة أو تدمير مجمعًا لجالية المصريين أطلقوا على هذه البلدة وما يليها من عمل مرسية اسم مصر. وكان باقي إسبانية العربية غالبًا عليه مسحة عربية شامية بلا مراء. وكانت لهجات سورية متمثّلة في تلك الأقطار ومن غريب ما لحظته أنَّ صاحب كتاب "أخبار مجموعة" في فتح الأندلس وذكر أمرائها (رحمهم الله) والحروب الواقعة بها بينهم وهو مصنّف قديم وصل صاحبه إلى أيام عبد الرحمن الناصر الأموي ـ قد ذكر عند قتل الشاميين لعبد الملك بن قطن الفهري أمير الأندلس في خبر يطول شرحه هنا أنهم أخرجوه وهو شيخ "كأنه فرخ نعامة وهو ابن تسعين سنة أو أكثر حضر الحرّة مع أهل المدينة، ومنها فلّ إلى أفريقية فأخرجوه وهم ينادونه يا فالّ فللت من سيوفنا يوم الحرة. ثمَّ عرضتنا أكل الكلاب والجلود طلبًا بنار الحرة، ثمَّ بعت جند أمير المؤمنين" فأخرجوه إلى رأس القنطرة فقتلوه إلخ.

ولا يخفي أنَّ وقعة الحرّة كانت في المدينة بين أهل المدينة الثائرين على بني أميّة وبين جندهم من أهل الشام وفتك فيها هؤلاء بأولئك، وبقيت ثاراتها وذحولها فيما بين الفريقين إلى ما بعد جلائهم إلى الأندلس. وشاهد كلامي هنا فعل "فلَّ" بمعنى انهزم وانصرف واسم الفاعل منه "فالّ" بمعنى "منهزم" و"منصرف"، فهذه لفظة خاصّة بأهل قطرنا الشامي لا يستعملها غيرهم. ولقد سمعت بيروتيًّا يقول أمام مصريين "خلّه يفلّ" أي دعه ينصرف، فكان المصريون يتضاحكون من هذه الجملة كثيرًا. والصواب في هذا الفعل من جهة اللغة أنه فعل متعدٍّ بمعنى كسر. يقال هذا الجيش فَلَّ ذلك الجيش، أي هزمه، وذلك الجيش مفلول. والفلّ بفتح أوله هو الرجل المنهزم وقد يكون للجمع فيقال جمع فلّ أي منهزمون يستوي فيه المفرد والجمع لأنه في الأصل مصدر والجمع فلول وفُلَّال. جاء في لسان العرب: "قال أبو الحسن لا يخلو من أن يكون اسم جمع أو مصدرًا، فإن كان اسم جمع فقياس واحده أن يكون "فالاً" كشارب وشرب ويكون "فالَّ" فاعلاً بمعنى مفعول لأنه هو الذي فُلّ (وبضمّ أوله) ولا يلزم أن يكون فلول جمع فلّ، بل هو جمع فالّ، لأنَّ جمع اسم الجمع نادر كجمع الجمع. وأمّا فُلَّال فجمع فالّ لا محالة لأنَّ فعلاً (أي فلاًّ) ليس

ممّا يكسَّر على فعَّال (أي فُلاَّل) اهـ.

فقول أهل الشام فَلَّ (بالفتح) بمعنى هرب أو انصرف هو من لحن العوام، والأصل فيه فُلَّ (بالضمّ) ولكن قولهم "فالّ" كما قالوه في قرطبة لعبد الملك بن قطن وهم يعيّرونه "يا فال فللت من سيوفنا يوم الحرة" فيه من الصواب قولهم "يا فالّ" لأنه فاعل بمعنى مفعول أي يا مفلول، ولكن قولهم "فللت من سيوفنا يوم الحرة" إن كان فعل "فللت" فعلاً معلومًا فغير صحيح هنا، لأنه ليس المراد أنه هزمهم، بل إنّه انهزم، وإن كان فعلاً مبنيًّا للمجهول أي فللت (بالضمّ) فصحيح لكن غير فصيح لأنه ليس من جيد الكلام أن يقال كسر فلان من سيوف فلان كما لا يخفى. وإنّما قد جاء في كلامهم بمعنى "انصرف" أو "هرب" كما نحن نستعملها اليوم. وعلى كلّ حال "فلّ" شامية لا يقولها إلاّ أهل بلادنا. وقد انتقلت مع أجدادنا إلى الأندلس ونقلها عنهم صاحب كتاب "أخبار مجموعة" أقدم تاريخ لفتح الأندلس. فلفظة "فلَّ" هي حجر من بناء تاريخ الفتح الشامي للأندلس، ولهذا كان بناء محاضرتي هذه على علاقة اللهجات العربية بالتاريخ.

وليس بضروري لإثبات وحدة الأصل وقوع التشابه في جميع الألفاظ وجميع النغمات كما تقدّم الكلام عليه، فإنَّ أهل الإقليم الواحد الذين لم يظعنوا من بلادهم قد يقع التحوّل في كلامهم بتوالي الأعصر، فما ظنّك إذا هاجروا من بلد إلى بلد أو من الشرق إلى الغرب، واختلطوا بمهاجرين آخرين من عرب الحجاز، وعرب اليمن، وعرب نجد، وعرب مصر، وعرب أفريقية، وبرابر المغرب، ومستعربة الإسبان، والإفرنج وغيرهم لا جرم أنَّ الحال تزداد تحوّلاً، وأنَّ الفروع تبعد عن الأصول بمختلف الطوارئ. ولقد ذكرنا أنَّ الإمالة غالبة على لغة عرب الشام وأنَّ عرب الأندلس أخذوها من هناك. ولكنَّ الإمالة لم تكن مطّردة في كلام أهل الأندلس كما أنها لم تكن مطّردة في كلام أهل الشام، وأنَّ ٢٠ في المائة من اللغة الإسبانيولية هي ألفاظ عربية وسمعناهم يلفظونها بالإسبانيولي فلم نجدهم نطقوا بها نطق أهل الشام، فلا يقول الإسبانيولي "زيتوني" أي "زيتونة" كما يقولها أهل الشام، بل يقولها Zeitouna كما يقولها أهل مصر أو المغرب مثلاً. وشاهدت في قرمونة من عمل إشبيلية امرأة تستقي من حوض فقلت لها: الجبُّ؟ لأنَّ الإسبان يقولون للبير الجب أخذوها من العرب. فقالت لي: هكذا: non, al - bourka أي: لا وإنّما هي البركة. ولم تقل "البُرْكِة" بكسر الكاف كما نقول نحن في الشامات.

(ستأتي البقيّة)

علاقة التاريخ باللهجات العربية*

صورة محاضرة تلاها بالإفرنسية الأمير شكيب أرسلان

في مؤتمر المستشرقين المنعقد في ليدن في أوائل سبتمبر الماضي

(٢)

- الإمالة وعدمها في سورية

وفي سورية ألفاظ لا يأخذها الإحصاء، غير خاضعة لقاعدة الإمالة، لا سيّما ما كان على وزن فعالة وفعيلة وفعلة ومفعولة وفعولة وفاعلة وأفعلية وجاء قبل آخره أحد الحروف الآتية: الراء والعين والغين والقاف والضاد والظاء والخاء والحاء والطاء والهاء، فإنَّ العادة في مثل هذه الألفاظ عند السوريين أن يلفظوها بالفتح فيقولون "بشارة" و"عطارة" و"نشارة" و"بصيرة" و"صخرة" و"طفرة" و"فقرة" و"مطمورة" و"منظورة" و"مجرورة" و"عثورة" و"صابرة" و"شاطرة" و"حاضرة" وهلمّ جرّا. وقد تشذّ عن هذه القاعدة ألفاظ بحسب البلدان فيجيء قولهم من باب فعيلة مثلاً "يده قصيره" بكسر الرآء و"ناس كثيره" بكسر الرآء أيضًا و"كبيره" و"صغيره" بالكسر أيضًا. وتشذّ ألفاظ من باب فاعلة مثل "يده جابره" وقد سمعت أناسًا يقولون "امرأة طاهرَة" بفتح الراء وآخرين يلفظونها "طاهرِه" بكسر الرآء. وسمعت "سافرَة عن وجهها" بفتح راء سافرة وبكسرها. ولم أسمع فعالة وفعولة ومفعولة ممّا يسبق آخره رآء إلاّ مفتوح الرآء. وكذلك في حرف العين يقولون "رفاعة" و"رضاعة" و"جماعة" ولم يرد في هذا الضرب إمالة. ثمَّ يقولون "رفيعة" و"بديعة" و"شنيعة" وما أشبه ذلك بلا إمالة أيضًا. ويقولون "نبعة" و"ضبعة" و"شنعة" و"رقعة" إلخ بدون إمالة أيضًا. ويقولون "مرفوعة" و"منصوبة" و"مرقوعة" و"مسموعة" و"أربعة" وما ماثلها كلّ هذا بفتح ما قبل آخره. ومثله "رافعة" و"صانعة" و"الشمس طالعة" إلخ بدون أدنى إمالة. وسمعت في حرف العين من يميل "الأربعاء" فيقولها كأنها "الأربعي" ولكن الأكثرين لا يميلونها. وحكم الغين هو حكم العين فيقولون "صياغة" و"صباغة"

---

* المقتطف ج٨٠ الجزء الثاني.

و"أصبغة" و"بلغة" و"نابغة" و"فارغة" و"ممضوغة" كلّ ذلك بفتح الغين. ويقولون في حرف القاف "رقاقة" و"علاقة" و"لزقة" و"فرقة" و"سرقة" و"محروقة" و"مطروقة" و"صاعقة" و"باعقة" و"غيمة مارقة" و"الشمس شارقة" و"حقيقة" و"دقيقة" و"رفيقة" و"منمَّقة" وهلمّ جرّا وكلّه بالفتح أيضًا. وحرف الضاد تقلّ الإمالة فيما ينتهي به من الصيغ فيقولون بالفتح "قراضة" و"عراضة" و"ربضة" و"نهضة" و"عريضة" و"فريضة" و"مريضة" و"ممرّضة" و"ناهضة" و"غامضة" و"بضاعة معروضة" و"زبدة ممخوضة" و"غميضاء" وهلمّ جرّا. ومثلها حرف الظاء فمنها "لماظة" و"لحظة" و"لفظة" و"غلظة" و"غليظة" و"ملحوظة" و"ملاحظة" و"حافظة" وما هو في ضربها. ولا يميلون في الصيغ التي قبل آخرها حرف الخاء، بل يقولون "صارخة" و"نفَّاخة" بالتشديد و"شيخة" و"فرخة" و"منسوخة" و"ممسوخة". وكذلك حرف الحاء يقولون فيه "صباحة" و"سماحة" و"عين نضاحة" و"فضيحة" و"واضحة" و"صفحة" و"نفحة" و"نصوحة" و"أطروحة" و"مشروحة" و"أضرحة" وهلمّ جرّا وكلّه بفتح الحاء. وتجري مجراها الطاء فتسمعهم يقولون "خراطة" و"خريطة" و"منقوطة" و"أغلوطة" و"مغالطة" و"ساقطة" و"لاقطة" و"لقطة" وغير ذلك وكلّه بالفتح. وحرف الهاء أيضًا قلّما يميلون بعده فتسمعهم يقولون "فهاهة" و"نباهة" و"نبيهة" و"سفيهة" و"والهة" و"مشافهة" وغيرها. وتجري مجرى هذه الحروف الصاد، فتجد الشاميين يقولون "حمصة" و"رقصة" و"وبصة" و"أعين شاخصة" و"مخصوصة" و"حريصة" و"مناقصة" إلخ. أمّا بعد حرف الباء فيميلون ويقولون "شربه" أي "شربة" و"ضربة" أي "ضربه" "وبقرة حلاَّبه" و"غالبه" و"مغلوبه" وهلمّ جرّا. وكذلك يميلون بعد الجيم فيقولون "ضجّه" و"عجّه" و"معالجه" و"حجه" و"أعضاؤه مشنّجه" و"حالته موجوجه"، وكلّ هذا بكسر ما قبل الآخر، ويميلون بعد التاء والثاء فيقولون "شماته" و"ثابته" و"نابته" و"مبتوته" و"حتِه" بمعنى قطعة و"وارثِه" و"ثياب رثّه" و"أفكار مبثوثِه" و"حمى خبيثِه" وهلمّ جرّا وكلّه بكسر التام والثاء قبل الوقف. ومن الحروف التي يمال فيها الدال فإنّهم يقولون "الحدِّه" بكسر الدال و"الشدِّه" و"المهدِه" و"أقوال مردوده" و"أيام معدودِه" و"الفائده" و"الجريده" و"المعانده" و"الأنشوده" وما أشبه ذلك وكلّه بالكسر. وحرف الدال أقرب الحروف إلى الميل إلى الكسر ومنه قراءة (نار الله الموقِده التي تطلع على الأفئده) في كتاب الله. ثمَّ حرف الذال وهو يجري مجرى الدال في الميل فيقولون في البلاد الشامية "نبذِه" أي "نبذة" و"لذّه" و"شاذِّه" و"أكلة لذيذِه" و"تعويذِه" وكلّ ما جرى

هذا المجرى بكسر الذال. ومثل ذلك حرف الزاي فإنّهم يقولون "حمزِه" و"غمزِه" و"فائزِه" و"فيروزه" و"أختنا العزيزه" و"قطعة مفروزه" و"عصا مركوزه" و"هذه المسئلة غير محرزِه" أي ليست ذات بال و"الغريزِه" وكلّ هذه الأوزان إذا جاءت على حرف الزاي نطق بها الشاميون بالإمالة. ومثل ذلك حرف السين، فإنّه ممّا ينطق به الشاميون مع الإمالة فيقولون "خمسِه" و"ليلة مأنوسِه" و"أمتعة مكردسِه" و"وجوه عابسِه" و"أموره محسوسِه" و"أسطر مطموسِه" وهلمّ جرّا. ومثله حرف الشين فيقولون مثلاً "من نكش هذه النكشه" و"مناظر منعشه" و"حوادث مدهشه" و"آنية منقوشِه" و"دار مفروشِه" وما أشبه ذلك. وممّا يلفظه الشاميون بالإمالة حرف الفاء فيقولون "غَرف غرْفِه" و"دراهم مصروفِه" و"سيِّدة شريفِه" و"قصّة لها سالفِه" و"الغرفِه" و"الحرفه" و"العاطفِه" و"وصف الطبيب له وصفِه" و"كتب مصنّفه" وما شاكلها. ومثله حرف الكاف فيقولون "ملكِه" و"تنكِه" و"أرض مملوكِه" و"هالكِه" و"طريق سالكِه" و"البركِه" أي الحوض و"البركِه" أي الزيادة وهي محرّكة و"حرب مشتبكِه" و"معركِه" إلخ. ومنها حرف اللام وأمثلته "مسئِله" و"مائِله" و"عائله" و"محمولِه" و"معلولِه" و"حصّة قليلِه" و"مقاصد نبيلِه" و"مظلِّه" و"مجلِّه" و"الكلِّه" و"القلِّه" و"الغلِّه" و"الدنيا زائلِه" و"ثياب مبلّله" وما لا يحصى من الألفاظ التي تهوي نزولاً بمجرّد ما يتلفّظ بها أهالي الشامات. ومنها حرف الميم وشواهده "الأمِّه" و"العمامِه" و"السلامِه" و"يوم القيامِه" و"خيل ملجمِه" و"أظفار مقلمِه" و"حربة مسمومِه" و"قضيّة معلومِه" و"الناعمِه" و"الحروف الجازمِه" و"يتيمِه" و"حليمِه" و"العزيمِه" و"أسود مثل الفحمِه" و"الرحمِه" وما أشبه ذلك. ثمَّ حرف النون فيقولون "الجنّه" و"الأنِّه" و"حنِّه" ويلفظون الحنّاء الممدودة بالإمالة أيضًا فيقولون "الحِنّي" و"المعايَنِه" و"السحنه" و"المصونِه" و"الصوَّانِه" و"الخزانِه" وهلمّ جرّا. ومن هذه الحروف الواو والياء فيقولون فيهما "العلوِه" و"النعوِه" و"الكنْيِه" و"المُنْيه" و"المنيّه" بتشديد الياء و"الحلوه" و"الجلوِه" و"الخلوه" و"العبايِه" و"العنايه" و"المشويِّه" و"المقليّة" ومن العدد "ميّه" و"الألفيِّه" و"الجاهليِّه" و"الأمّة العربيِّة" وكلّ ما جاء بالواو أو بالياء قبل الوقف في وزن من هذه الأوزان، فهو عند أهل الشامات بالكسر.

وكذلك يميلون في المقصور والممدود ولكن بدون اطّراد فتجد بلدًا مثل بيروت يقول أهلها للهواء "هوا" بإمالة الألف و"نجا" و"جوى" و"سوا" و"ظمأ" و"ندى" وما أشبه

ذلك كأنما هي بين الألف والياء. وبجانبها لبنان يقول أهله جميع هذه الألفاظ المنتهية بالألف المقصورة أو الممدودة كما يقولها أهل الحجاز أو مصر. ومن السوريين من يقول "أنا" بدون إمالة ومنهم من يقول "أني" أي بإمالة زائدة. فأنت ترى من هذه الأمثال أنَّ اللفظ يختلف في سورية من صقع إلى صقع، وأنَّ الإمالة ليست عند السوريين عامّة للحروف كلّها. فلا عجب أن لا تكون الأندلس قد أمالت في كلّ لفظ. ثمَّ هي قد ضمّت من العرب شماطيط ومن غير العرب تخاليط، فليس كلّ الأندلسيين شاميين.

- تحريف غريب:

ومن أغرب ما لحظته من ألفاظ الإسبانيول العربية النازعة إلى عرق قديم في لغة الناطقين بالضاد لفظة "رَبَال" Rabal، ومعناها ضاحية البلد أو الربض. وفي كتب اللغة عندهم أنها لفظة عربية محرّفة، أي أنَّ ضادها انقلبت لامًا. وقد كنت أظنّ أنَّ قلب الضاد لامًا في هذه اللفظة إنّما جاء من الإسبانيول كما هي عادة كلّ أمّة في تحريف ما تنقله عن أمّة أخرى. لكنّي لمّا كنت في الحجاز من سنتين وصعدت إلى جبال الطائف للنزهة سمعت قبيلة هذيل وطائفة من ثقيف في جبال الشفا ينطقون بالضاد لامًا مفخّمة، فيقولون للضيف "ليف" وللضيق "ليق" وللأخضر "أخلر" وكذلك الظاء يلفظون منها كثيرًا كاللام فيقولون "صلاة اللُهر" أي صلاة الظهر. فتذكّرت هذا الأمر وعلمت أنَّ الإسبانيول لم يحرّفوا الربض من عند أنفسهم، بل سمعوا ضاده لامًا منذ جاء العرب إلى ديارهم.

ومن مميّزات لهجات العرب شين الكشكشة وقد كانت لغة ربيعة في نجد، ولهذا نجدها في أكثر بادية الشام لأنَّ أكثر قبائل الشام مثل الرولا وولد علي والمعجل والسبعة والفدعان هم من عنزة. ولا يخفي أنَّ عنزة هي من ربيعة، لأنَّ عنزة هي من أسد وأسد من ربيعة فقد نقلوا شين الكشكشة معهم من نجد إلى الشام.

ومثلها سين الكسكسة سمعت أناسًا من بني صخر في البلقاء ينطقون بها، فيقولون للكعابنة "السعابنة" وسمعت أناسًا من العارض في نجد ينطقون بها ويقولون "يبسي" أي يبكي وغير ذلك من الألفاظ التي فيها حرف الكاف والتي يلفظونها بالسين. وممّا لا نزاع فيه أنَّ أصل عرب بيروت من اليمانية، ولذلك لمّا كانت المناظرة بين القيسية واليمانية في برّ الشام كان أهل بيروت من الفئة اليمنية، وحدثت بينهم وبين القيسية معركة في "الغلغول"

على باب بيروت. وليس الدليل على كون أهل بيروت يمانيين في الأصل منحصرًا في التاريخ، بل تجد اصطلاحات يمانية في ألفاظهم مثل قولهم «امبارح» أي البارح وهي لغة حمير، وعليها الحديث الشريف (من أمبر صيام في أمسفر) أي من البرّ صيام في السفر. ويقول أهل بيروت «ناهي» بمعنى طيب كما يقول ذلك أهل اليمن. وكذلك مدينة حمص، هي بلدة غلبت عليها اليمانية حتّى جاء في الأمثال «أذلّ من قيسيّ بحمص». ولمّا هاجر كثير من الشاميين إلى الأندلس كان أكثر نزول الحمصيين بأشبيلية، فسمّيت أيضًا بحمص. وغلب على أهل حمص الأندلسية العرق اليماني أيضًا، مثل اللخميين والبلويين والجذاميين وبني خلدون وبني حجاج. فحمص الغربيّة كانت مثل أمّها حمص الشرقية، بلدة يمانية وكلتاهما نقلت ألفاظ اليمن. ولمّا فتح العرب الشام أتى اليمانيون إلى حمص بصناعتهم النسيج وبأسمائها، فهم إلى الآن يقولون للثوب «برد» كما يقولونه في اليمن.

ومن هذا القبيل استعمال الدروز للفظة «عقلاء» بمعنى الوجوه والرؤساء، فهذا الاصطلاح آتٍ من اليمن، ولا يزال في اليمن. ومثله «منصب» يقولون «بنو فلان مناصب» أو «عائلة مناصب»، فهذا من اصطلاح اليمن وحضرموت، ومن اصطلاح الدروز وشيعة جبل عاملة. وهاتان الطائفتان متوالية جبل عاملة، ودروز جبل لبنان جيرانهم أصلهما من عرب اليمن الدروز من لخم وجذام والشيعة من عاملة، وكانتا من قبل فرقة واحدة كلّها مشيّعة لآل البيت، ثمَّ أخذ بعضهم بمذهب الشيعة الاثنا عشرية، والبعض الاخر بمذهب الشيعة السبعية، الذين منهم الاسماعيلية فالدروز. ولا تزال بطون كثيرة منها حافظة أسماءها قبل الانشقاق، وأصحابها يعرفون أنهم من أرومة واحدة.

- لفظ القاف في مصر

هذا ومن المناسبات الواقعة بين التاريخ واللهجات كيفية لفظ القاف، فإنَّ القاف المقلقلة كانت في القديم لفظ قريش وأهل مكّة أمّ القرى، كما أنَّ القاف المعقودة أي التي بين القاف والكاف كانت لفظ البادية، وإنّك لتجد الحالة بعينها إلى يوم الناس هذا. فأهل الحواضر والعلماء والأدباء والمترفون يلفظون القاف النحوية، وأهل القرى والصحاري سواء في الشام أو مصر أو جزيرة العرب أو العراق أو شمالي أفريقية يلفظون القاف المعقودة.

وانظر الآن إلى ما قاله كبير أدباء وقته حفني ناصيف، رحمه الله، في موضوع الاستدلال التاريخي من اختلاف اللهجات، فقد فرى[1] في هذا البحث فريًا لم يسبقه إليه أحد فيما أعلم وبلغ من الإجادة ما ليس وراءه متطلّع لغايةٍ فكرًا وتعبيرًا، فقال "وأول ما انقدح في ضميري هذا الخاطر رأيت في أحد الأندية قومًا يتحاورون، بعضهم من مديرية المنيا وبعضهم من مديرية بني سويف فسمعت كلامهم، فإذا هم على تقارب ديارهم وتجاور مواطنهم متباعدون في اللهجة متباينون في طريقة الكلام أي تباين. فقلت يا سبحان الله، كيف يكون هذا التباين والاختلاط موجود والتقارب حاصل. فلا بدّ أن يكون لذلك سرّ خفيّ وسبب واقعي انبنى عليه هذا التخالف العجيب، رغمًا من مصادمة الاختلاط والتجاور. ثمّ قلت: لا شكّ أنّ هذا الجيل القائم لم يأتِ بدعًا في اللغة، ولم ينطق بشيء غير ما سمعه من الجيل الذي قبله، كما هو مشاهد في تساوي لهجة الشيوخ والصبيان، فالبضرورة هذا الجيل ورث طريقة الكلام عن سلفه. ثمّ نقلت النظر إلى الجيل السابق المتّصل بالجيل القائم، وبحثت عن سبب اختلافه أيضًا، فتبيّن لي بقياس الغائب على المشاهد أنّ سببه إرث اللغة عن الجيل الذي قبله أيضًا ولم أزل أنقل النظر من جيل إلى جيل راجعًا إلى جهة الماضي حتّى انتهيت إلى الجيل الذي دخلت في العربية أرض مصر، وذلك في أيام ما فتحها المسلمون في خلافة سيِّدنا عمر بن الخطّاب رضي الله عنه. فقلت ههنا تنحلّ المسألة ويظهر السرّ الخفي، ويتجلّى للعيان السبب في اختلاف طريقة الكلام في الأجيال المتتالية من ذلك العهد إلى الوقت الحاضر. فأخذت مادّة من مواد الاختلاف وألقيتها تحت منظار البحث ووضعتها موضع التأمّل حتّى إذا ظهر خافيها تكون نموذجًا لباقي المواد، وتلك المادّة هي طريقة النطق بالقاف. فبعض أهل بني سويف ينطقون بها قافًا صريحة كالقاف التي ينطق بها القرّاء والعلماء. وأهل المنيا ينطقون بها مشوبة بالكاف كما ينطق بالجيم عوام أهل القاهرة. ثمّ عرضت هذا الاختلاف في تلك المادّة على المنقول عن قبائل العرب فوجدته موافقًا حذو النعل بالنعل للاختلاف بين قريش وغيرهم، حيث كان قريش تنطق بها قافًا خالصة وغيرها يشوبها بالكاف. فأوقفتني تلك المقارنة على أنّ العرب الذين استوطنوا أرض بني سويف مدّة الفتح وبعده كانوا قرشيين، والذين استوطنوا أرض المنيا كانوا من غير قريش. وعلى هذا، فيمكن أن ننسب إلى قريش، إمّا بالنسب أو بالولاء أو بالمخالطة كلّ من ينطق من أهل مصر بالقاف الصريحة كسكّان مديرية الفيوم، وبعض

(١) فرى فريًا: أتى بالعجب والتحيّر في عمله.

مديرية الجيزة وأهل أبيار ورشيد وضواحيها والمحلّة الكبرى والبرلس وبلبيس من الشرقية والخصوص من القليوبية وأن نحكم على كلّ من يتكلّم بالقاف المشوبة بأنه ليس من قريش كأهل الصعيد ومديريتَي الشرقية والبحيرة إلاّ قليلاً، وبعض مديرية المنوفيّة وجميع سكّان بوادي مصر.

«وأكّد لي صحّة ذلك الحكم ما كان ولا يزال كائنًا من عموم الخصب والنماء على جميع الأراضي التي يسكنها المتكلّمون بالقاف الصريحة دون الأراضي التي يسكنها المتكلّمون بالقاف المشوبة، فإنَّ منها ما هو صحار قحلاء لا ترى العين فيها إلاّ الرمل والحصى ومنها ما هو سهول سبخة لا تصلح إلاّ لزراعة بعض الأصناف، ويتوقّف استنباتها على مشاقّ زائدة وتكاليف باهظة ومنها ما لا يزرع في العام إلاّ مرّة واحدة. وأنت تعلم أنه مركوز في طباع الأمم الفاتحة حبّ الاستئثار بالمنافع، والميل إلى الاختصاص بأحسن ما يمكن وضع اليد عليه من الأرض التي يفتحونها سنة الله التي فطر الناس عليها. وقريش أيام فتوح مصر كانت أشرف العرب نسبًا، وأوفرها قوّة، وأعزّها نفرًا، وكان لها في الدولة الإسلامية النفوذ الأقوى، والسطوة العليا لقرابتها من صاحب الدين عليه الصلاة والسلام، فلا جرم أن سكنت أحسن البقاع، وامتازت بأحسن الأصقاع».

إلى أن يقول رحمه الله:

«وههنا وقفت على الضالّة المنشودة وتيقّنت إمكان فتح الكنوز المرصودة، بأن تطبّق جميع مواد الاختلاف الشائعة في اللغات العاميّة، على ما يماثلها من لغات العرب الصحيحة ويُنسب كلّ من يتكلّم بطريقة إلى أصحابها. وحينئذٍ يمكّن أصحاب الأنساب المجهولة في مصر والشام والغرب والسودان والعراق وسائر الممالك التي افتتحها العرب أن يعلموا إلى من ينتسبون وبمن يرتبطون، سواء في ذلك ارتباط النسب وارتباط الولاء والمحالفة. ويمكّن أيضًا القبائل المتفرّقة في أقطار مختلفة إذا كانت طريقة كلامهم متّحدة أن يعلموا أنَّ لهم أصلاً واحدًا يجمعهم ويؤول إليه انتماؤهم».

ثم يقول برّد الله ثراه:

«ولعمرك ليس هذا بقليل عند من يقدّر الأمور حقّ قدرها ويعنيه استخراج الدقائق التاريخية، بل هو أمر يتنافس فيه المتنافسون. وما الاستدلال بهذه الطريقة طريقة الكلام بأدنى خطورة ولا أقلّ اعتبارًا من الاستدلال بالأحجار الصامتة والدفائن العتيقة، وإنّي

لأعجب كيف لم يتناول هذا الموضوع جهابذة العلماء ومشاهير المتقدّمين مع ما لهم من سعة الاطّلاع ورسوخ القدم، وكيف لم يهتمّ المتأخّرون بإذاعة ما كُتب والحذو عليه إن كان قد كتب شيء في هذا المعنى».

ويقول في محل آخر:

«ويتفرّع على ما تقدّم إمكان معرفة انتساب أقوام متفرّقين في جهات عديدة إلى قبيلة واحدة. فإذا اشترك قوم في الشام وقوم في المغرب في جملة خواص لقبيلة واحدة، بحيث تكفي تلك الخواص للتمييز، حُكم بأنهم من أصل واحد، ولسبب من الأسباب الكونية قضى الزمان بتفرّقهم وتشتّتهم في النواحي، وههنا تتنبّه الخواطر للسؤال عن علّة تلك الحادثة وتستشعر بنقص التاريخ من هذه الجهة فتتشوّف إلى تكميله بالبحث عن أسباب هذا التبدّد، ولا بدّ أن تعثر ولو بعد حين على مطلبها» انتهى

جمع حفني ناصف كلّ هذا العلم الجليل في هذه الأسطر التي تقدّمت، وحقّ له أن يعجب من تأخّر العلماء والجهابذة عن إعطاء هذه المباحث حقّها من الجهد، خدمة للتاريخ على حين أنهم أنفقوا الأعمار الطويلة، والأموال الطائلة في التنقيب في الأحجار وتحت الأرضين لأجل هذه الخدمة. فأمّا تفرّق القبائل العربية في الأقطار المتنائية، فأكثره وقع بسبب الفتح الإسلامي الذي كانت هذه القبائل هي القائمة به إلى أن خلا كثير من أصقاع الجزيرة من أهله. ثمَّ وقع منه شيء كثير بسبب حروب القبائل بعضها مع بعض، وذلك نظير حروب بني عقيل وبني تغلب في البحرين مع بني سليم بن منصور، ممّا أدّى إلى خروج هؤلاء إلى مصر ثمَّ إلى برقة، أيام المعزّ بن باديس.

علاقة التاريخ باللهجات العربية*

صورة محاضرة تلاها بالإفرنسية الأمير شكيب أرسلان

في مؤتمر المستشرقين المنعقد في ليدن في أوائل سبتمبر الماضي

(٢)

نعود إلى الموضوع فنقول:

إنَّ أهالي حلب والشام وسورية الداخلية إذا أرادوا أن يسألوا أحدًا كيف حاله قالوا له: إيش لونك؟ وهو قول صحيح لطيف، لأنَّ لون الإنسان هو أول دليل على صحّته وعدمها.

وهذا الاصطلاح غير معروف في مصر والسودان، وبعكس ذلك تجده في برقة، والحال أنها أبعد عن الشام من مصر. فلو كان الجوار هو العامل الوحيد في تشابه طرق الكلام، لكان الأَولى بأهل مصر أن يقولوا: إيش لونك؟ لأنَّ مصر مصاقبة لبرّ الشام، وبين هذين القطرين من العلاقات ما لا يوجد بين قطرين آخرين. وكان الأولى بأهالي برّ الشام أن يقولوا في سؤال الإنسان عن صحّته: زيّك؟ كما يقول أهل مصر، والحال أنَّ شيئًا من هذا غير موجود. فلزم أن يكون هناك أسباب أخرى وهي أنَّ قبائل برقة التي أكثرها من سليم بن منصور هي قبائل نجدية ـ لأنَّ سليم بن منصور بن عكرمة بن خصفة بن قيس عيلان هي أكبر قبائل قيس ـ وكانت منازلهم في عالية نجد بالقرب من خيبر. ومنهم من هلال بن عامر بن صعصعة ابن معاوية بن بكر بن هوازن بن منصور بن عكرمة بن خصفة بن قيس عيلان وهم من جبال الطائف. ولا شكّ أنَّ قبائل نجد وجبال الحجاز، كما أنَّ قسمًا منها هاجر إلى برقة، فإنَّ القسم الآخر نزل بوادي الشام ومنهم من تحضّر بمرور الأيام. فمن هنا جاء التشابه في بعض اللهجات والاصطلاحات بين أهل سورية وأهل برقة، ووجدت جمل خاصّة يقولها هؤلاء وأولئك وهي ليست من الاصطلاحات العامّة لكلام العرب، حتّى يقال إنّها ممّا يقوله العرب في كلّ مكان.

---

* المقتطف ج٨٠ الجزء الثالث.

ثمَّ إنَّ أهل كسروان من جبل لبنان يضعون الشين في حال النفي في آخر الجملة، فيقولون مثلاً: ما هو من لبنانش أي "ما هو من لبنان" وإذا كان النفي مقرونًا بالاستفهام: "ما أنت من بيروتش؟" أي ما أنت من بيروت؟ وجميع كلامهم هو على هذا النمط على حين أنَّ هذا الاصطلاح في الشين لا يوجد عند مجاوريهم لا أهل المتن ولا أهل الشوف ولا أهل زحلة ولا أهل البترون. وأهالي هذه الأقسام الأخرى من لبنان تضع هذه الشين في وسط الجملة فتقول: "ما هوش من لبنان" أو "موش من لبنان" و"ما انتش من بيروت". ولكن أهالي برقة يضعون هذه الشين في آخر الجملة فكنت أسمعهم يقولون ذلك دائمًا مثل أهل كسروان. ومرّة كنت ذاهبًا إلى "شحات" أو "سيرنًا" القديمة فضللت الطريق وأخذت في شعب ظننت نفسي به ذاهبًا إلى شحات، فصادفني أحد شيوخ العرب فقال لي: ألى أين؟ فقلت: إلى شحات. فقال لي: " هذه الطريق ما تأخذ إلى شحاتش " أي بالاصطلاح الكسرواني المعروف بلبنان بعينه. وكان السوّاس يقولون: "الخيل ما عندها شعيرش" أي ما عندها شعير، وهلمّ جرّا. يقال إنَّ في دمياط من برّ مصر شيئًا من هذه الشين. ومن المعلوم أنه ليس بين أهالي كسروان في لبنان وبين أهالي برقة في أفريقية أدنى علاقة لا في القديم ولا في الحديث. فكيف اجتمع هذان القطران في لغة كهذه؟ الجواب لا يمكن تفسير ذلك إلاّ بكون القبائل التي نزلت برقة متّحدة الأصل مع بعض القبائل التي نزلت بعلبك وشمالي لبنان. ولا يقدح في ذلك كون أكثر كسروان موارنة مستعربين من أصل آرامي كان آباؤهم يتكلّمون قبل الفتح العربي بالسريانية. فإنَّ هؤلاء المستعربين قد تلقّوا العربية عن عرب أقحاح نزلوا في سهول بعلبك وفي لبنان الغربي ممّا يليها، وهؤلاء العرب هم آباء المسلمين الشيعة الساكنين مع الموارنة في وطن واحد.

ولقد لحظت إذ أنا في الأندلس أسماء عربية كثيرة مبدوءة بلفظة "بني" لكنّها في بلاد بلنسية ودانية والقنت تلفظ بفتح الباء مع إمالة قليلة، ودليل ذلك كتابة الإسبانيول لها هكذا: Beni فيقولون: بني قاسم Beni Kassim وبني غفار Beni Gefar وبني سالم Beni Salem أمّا في جزيرة ميورقة وفيها أيضًا أسماء كثيرة مبدؤة بلفظة "بني" فيلفظونها بإمالة شديدة ويكتبونها بالإسبانيولي هكذا Bini فيقولون Bini Aly وBini Kassim وقد أخطرت ببالي هذه القصّة الاختلاف نفسه في سورية.

ففي فلسطين مثلاً يقولون "بني صعب" و"بني مالك" و"بني مرة" بفتح الباء. وفي جبل

لبنان يقولون «بني يزبك» و«بني أحمد» و«بني ركين» و«بني قعيق» و«بني خميس» بكسر الباء.

ومن العرب من يبدل التاء هاءً في الوقف وتنسب هذه اللغة إلى طيّء وقالوا: «دفن البناه من المكرماه» أي دفن البنات من المكرمات. ويقول حفني ناصف إنَّ هذه اللغة منها أثر في المنوفيّة فيقولون: «يابه» أي يا بِنت. ومن العرب من يعكس القضيّة فيبدل الهاء تاءً في الوقف كما يفعلون في الوصل سمع بعضهم يقول: «يا أهل سورة البَقَرتْ». فقال مجيب: «ما أحفظ منها ولا آيتْ». ولقد سمعت هاتين اللغتين من عرب البادية وأهل نجد. فالمثال على الأولى قولهم «ذرعاه» أي «أذرعات» هذه البلدة التي في حوران. وعلى الثانية لغة أهل حائل وأهل القصيم يقولون «مكت» و«المدينت» وكان معي واحد منهم يوم كنت في الطائف، فكان يقول «الشجرت» و«السدرت» إلخ.

ومن العرب مثل بلحوث وخثعم وكنانة من يقلب الياء ألفًا بعد اتّصالها بالضمير وذلك في مثل «عليهِ» و«إليهِ» و«عليك» و«إليك» فهؤلاء يقولون فيها «علاه» و«الاه» و«علاك» و«الاك» ولا شكّ أنَّ في النازلين الأولين في طرابلس الشام من العرب قومًا من كنانة وخثعم وبلحوث لأنهم إلى الآن يقولون في «عليه» «علاه» وفي «عليك» «علاك» وهلمّ جرًّا. والمشهور في اللغة تحقيق الهمزة الساكنة في مثل بئر ورأس وفأس وثأر ولؤم وظئر ونؤي وغيرها. وإنّما كانت تميم من الأصل تقلبها من جنس حركة ما قبلها فتقول بير وفاس وراس وثار إلخ. ومن الغريب أنَّ لغة تميم هذه هي الغالبة على الكلام العامّي اليوم في جميع الأقطار العربية مصر والشام والمغرب والعراق إلخ.

وعند طيّ لغة اسمها القطعة وهي حذف آخر حرف من الاسم ومثاله «أبو الحكا» في «أبو الحكم» وعليها كلام أهل قرية نيحا الشوف في جبل لبنان كانوا يقولون «أبو حسا» في «أبو حسن». ويقال إنَّ أهل المحلّة الكبرى وأبيار وغيرها بمصر عندهم هذه اللغة، وقد ورد عن العرب «لم يسما» أي لم يسمع. وأنا سمعت كثيرًا بعض شيوخ من بيروت يقولون «نهارك سا» أي نهارك سعيد.

والترخيم هو حذف الحرف الأخير من المنادى، وهذا مستفيض في كلّ بلاد العرب ولغة بلحوث حذف اللام والألف من على الجارّة، فيقولون «عَلْماء» أي «على الماء». وطلع «عَسَّطح» أي «على السطح». وهذه اللغة نظرًا لما فيها من الاختزال غلبت على عامّي الأقطار العربية بأسرها.

ومثلها في الاختصار لغة خثعم وزبيد في حذف نون «مِن» إذا وليها ساكن فيقولون: «خرجت مِالدّار» أي «من الدار» وقد جاء فيها شعر، وهي معروفة عند بعض العامّة اليوم، لكنّها لم توفّق توفيق حذف اللام والألف من «على».

ومن العرب من يبنى «مَعْ» على الفتح وهو المشهور (يا ليتني كنت مَعَهُمْ)، إلاّ أنّ ربيعة تبنيها على السكون فتقوم «كنتَ مَعْهُمْ»، وهاتان اللغتان موجودتان عند عامّة العرب اليوم. وفي جبل لبنان من يفتح ويمدّ الفتحة حتّى تصير ألفًا فيقول «كنت معاهم» ومنهم من يسكن. وهكذا في الديار المصرية وفي كلّ البلدان أناس تكسر ميم مع. ومن غرائب اتّحاد اللغة لفظة يقولها العامّة للحمار إذا أرادوا أن يهيّجوه وهي «ازعرّ» وهي لفظة ذات أصل في اللغة جاء في القاموس: وزعّر بالجحش تزعيرًا دعاه للسفاد. وقد كان معروف الرصافي الشاعر العراقي المشهور أطلعني إذ كنّا في استانبول على بعض اصطلاحات لعامّة أهل العراق منها لفظة «ازعرّ» التي تقال للجحش. وقال إنّ لها أصلاً في اللغة، فقلت له أن ازعرّ هذه معروفة عندنا في سورية أيضًا. وكان في مجلسنا ساعتئذ المرحوم الأستاذ الشيخ عبد العزيز جاويش، فسألته: أهذا معروف عندكم بمصر كما هوَ معروف بالعراق والشام فقال: نعم هذا معروف بمصر. وكان في المجلس المرحوم الأستاذ الشيخ صالح الشريف التونسي، فقال: ومعروف في تونس أيضًا. وكان في المجلس الأستاذ الشيخ محمَّد العتابي المراكشي حفظه الله فقال: ومعروف في المغرب أيضًا.

فأنت ترى أنَّ لفظة سخيفة كهذه يهاج بها الحمار للسفاد، معروفة في جميع الأقطار العربية.

وإنّنا لنجتزئ بهذه الأمثال لإعطاء صورة ذهنية عن البحث الذي نتوخّاه وننتدب الباحثين أن يكمّلوه لما فيه من الحجج بين يدي التاريخ، فإنّه إذا كان الكلام متشابهًا بين سكّان بلدان مصاقبة بعضها لبعض لم يكن ثمّة إلاّ الشيء الطبيعي، وكان الناس علّلوا هذه المشابهة بالجوار الذي يحدث أصناف العلاقات بين المتجاورين. وأمّا إذا كانت المشابهة حذو النعل بالنعل بين بلدان متباعدة هذا في الشرق وهذا في الغرب، كما بين الشام والأندلس مثلاً أو نجد وشنقيط، فلا يكون لذلك سبب إلاّ وحدة الأصل.

إنَّ هذا الفصل ليس إلاّ عجالة وأمام الباحثين والمنقبين عمل كبير إذا أرادوا أن يعرفوا القبائل العربية المختلفة التي طارت إلى القواصي في الفتح الإسلامي وأن يعيّنوا مختلف الاتّجاهات التي اتّجهت بها هذه القبائل في هذا المعمور الفسيح بين الحملايا والألب.

ـ ملحق

ومن آثار التشابه بين لهجة الشاميين والأندلسيين ما كان عليه لفظ عرب غرناطة في عصر سقوط تلك البلدة، أنهم كانوا في غرناطة يقولون مثلاً "والدنا" فيميلون الواو والألف إمالة شديدة حتّى تسمعها كأنها "ويلدينا" Wildina وأنهم كانوا يقولون "كلّ سنة" بكسر السين والنون، والوقوف على الهاء أي "كلّ سنه". وهذا كما يقال في سوريا اليوم "كلّ زيمين" "أي كلّ زمان". وكانوا يقولون مثلاً "خمس ميه" بكسر الميم والياء، ويقفون على الهاء، وذلك كما نقول نحن اليوم في الشام. ومن آثار النسب اللغوي الذي بيننا وبينهم استعمالهم "القدّ" بمعنى المقدار وهو استعمال فصيح في ذاته يقال هذا على قدّ هذا، ولكن يكاد يكون خاصًّا بأهل سوريا. غير أنَّ الغرناطيين كانوا يقولون "قد دِي" في مكان "بقدر هذا"، فتجد في هذه الجملة اصطلاحًا مصريًّا لأنَّ "دِي" ليس من اصطلاح أهل الشام، بل من اصطلاح أهل مصر. وكانوا يقولون أيضًا على لغة مصر "بعد دي" أي "بعد هذه" وكانوا يقولون "قد هؤلاين" أي بقدر هؤلاء. وكانوا يقولون ألفاظًا كثيرة بإمالة شديدة كأهل سورية. فإذا أرادوا أن يقولون مثلاً "بَرّي" قالوا "بري" بكسر الباء، مع أننا نحن في الشام نلفظ هذه الباء هنا بالفتح نسبة إلى البرّ فنقول مثلاً "بَرّي" غير أنني سمعت العوام في شمال سوريا يلفظونها كأهل غرناطة أي "برِي" بالكسر، فيقولون "حيوان برّي" مثلاً. وكان الغرناطيون يفكّون الإدغام في كثير من الكلمات فيقولون "مننا" بدلاً من قولنا نحن "منّا"، غير أني سمعت أيضًا كثيرين في سوريا يقولون "مننا" بفكّ الإدغام. ومن المعلوم أنَّ الإدغام كان لغة نجد وأنَّ فكّ الإدغام كان لغة الحجاز وكلتاهما سقطتا إلى سورية. وقد جاء القرآن الكريم بكلتا اللغتين، ولكن من اصطلاحات الغرناطيين أشياء لم أطّلع عليها في لغة الشام، ويجوز أن تكون موجودة وأكون غير مطّلع عليها لأنَّ من يتحرّى التاريخ من منابع اللهجات ينبغي له أن يثافن[1] ويشافه جميع أهالي الأقطار العوام منهم أكثر من الخواص، وأن يستمع إلى أحاديث أهالي القرى خاصّة، لأنَّ المتعلّمين والمتأدّبين يتوخّون متابعة الكتب المدرسية بخلاف العامّة. وقلّما تيسّر لبحّاثة لغوي أن يجوب في الحواضر وفي القرى وفي البوادي حتّى يأخذ لغات أهلها في العربية، ويقيّد لهجاتهم، ويقايس بعضها إلى بعض ويستنبط أصولها ومآخذها من العربية الأولى أيام

(١) يثافن: يجالس.

كانت القبائل ساكنة في جزيرة العرب قبل الفتوحات. فمن اصطلاح الغرناطيين أنهم كانوا يقولون "كلّ عامي" و"كلّ يومي" بدلاً من كلّ عامين وكلّ يومين وهذا على إسقاط الحرف الآخر ممّا ورد مثله في كلام العرب وتقدّم لنا أمثلة على هذا الاصطلاح من كلام أهل سورية وغيرهم.

وكان أهل غرناطة يقولون "ابن آدِم" بكسر الدال كما يقول كثير من العامّة في لبنان. وكانوا يقولون "بعد الغدِي" أي بعد الغد. وهذا كما يقال أيضًا في سورية. وكانوا يقولون "نِفس" بكسر النون أي "نفس" ويقولون "بلا شِكّ" بكسر الشين في "شكّ" وهي مفتوحة. وكلّ هذا من باب الإمالة، وكانوا يقولون "عقب النفيس" أي "عقب النفاس" للمرأة وهذا من الإمالة الزائدة مثل قولهم "الجهيد" للجهاد و"الكتيّب" للكتاب و"الإمام الأوزيعي" للإمام الأوزاعي. ومن الدلائل على كون السواد الأعظم من العرب الذين فتحوا إسبانية كانوا من أهل الشام أنهم جميعًا على مذهب الإمام الأوزاعي إمام أهل الشام ولم يتبدّلوا مذهب مالك منه إلاّ في زمان بني أميّة في قرطبة.

وكان أهل قرطبة يقولون عن بلدتهم "المدينه" بكسر النون كما يقول اليوم أهالي سورية إلاّ النادر منهم. وتجد الإسبانيول يكتبونها في كتبهم Almédine ولا يكتبونها Almadina ولو كان الأندلسيون يلفظون "المدينة" كأهل مصر أو أهل الحجاز أو أهل المغرب مثلاً، لكان الإسبانيول نقلوها عنهم بهذا الشكل Almadina أي بحرف a لا بحرف e الذي يتلفّظون به كأنه الياء. وكان أهل غرناطة يقولون لمدينة "إشبيلية" حمص ولا يقولون إشبيلية إلاّ نادرًا، وهكذا سمّاها صالح بن شريف الرندي في رثائه المشهور للأندلس.

وأين حمص وما تحويهِ من نُزَهٍ ونهرها العذب فيّاضٌ وملآن

وقد كنت أتذاكر هذه المرثية أنا وصاحبنا الأستاذ الشيخ عبد العزيز جاويش روّح الله روحه، فقال لي: كيف يكون الوادي الكبير فيّاضًا، ثمَّ يعود ملآن، والفيض بعد الامتلاء لا قبله.

وكان من رأيي أنَّ مراد الشاعر كون الوادي تارةً فيّاضًا وطورًا ملآن، بحسب فصول السنة. فتسمية الأندلسيين لإشبيلية حمصًا هي من باب ولوعهم بأسماء البلاد الشامية.

(اختصرنا من الأصل الذي تلوناه بالإفرنسية في مؤتمر المستشرقين كثيرًا من الأمثال).

الكلمات غير القاموسية*

عود إليها[1]

كان الأخ (المغربي) بعث إليَّ كما بعث إلى غيري بأسئلته اللغوية لأجيب عنها فيمن أجاب، لكن كتاب الأخ غرق في لجج أوراقي الزاخرة ـ إذ معدّل ما يَرِد عليّ في دور السنة هو من ألفين إلى ثلاثة آلاف مكتوب ـ وإن شئت أغوص على تلك الدرّة الثمينة لزم لي ساعات طويلة لا أملكها. فبقيت ساكتًا عن الجواب إلى أن تكون انتشرت الأسئلة كلّها مع أجوبة جهابذة اللغة عليها في مجلّة المجمع العلمي العربي. ولقد جاء هذا التأخير خيرًا لي وخيرًا من العجلة، إذ صرت لا أدلي بدلوي إلاّ من بعد أن عرفت ما عند غيري ونخلت الآراء التي تقدّمت رأيي.

ولندخل الآن في الموضوع:

ـ الصنف الأول

الكلمات التي وردت في كلام فصحاء العرب ولم تدوّنها المعاجم، وذلك مثل "تبدّى" بمعنى "ظهر".

لا يمكنني أبدًا أن أقول بإهمال هذا الصنف، وأنا الذي كتب وكرّر الكتابة في أنه "ليس للّغة قاموس محيط بها" وأورد شواهد كثيرة من كلام الفصحاء تؤيّد مذهبه. نعم إنَّ الفصيح الذي أملته معاجم اللغة يجب أن يكون موثّق الرواية غير محتمل لوجهين ولا لتحريف أو تصحيف من قبل النسّاخ.

ولمّا كان الوثوق من هذه الجهة يختلف كثيرًا فلا بأس عندي في جعل هذا الصنف درجات في الوثوق كما يصنع علماء الدين بالأحاديث. فالمحدّثون يروون الأحاديث كلّها، لكنّهم يشيرون إلى درجة كلّ حديث فيقولون هذا صحيح وهذا حسن وهذا ضعيف. لا

* مجلّة المجمع العلمي العربي ج١٣ (أيار ـ حزيران ١٩٣٥) ص ٢٦٦ ـ ٢٧٥.

(١) ـ المجمع ـ كان الأستاذ الرئيس (المغربي) استفتى أعضاء المجمع في الكلمات غير القاموسية وأصنافها السبعة: أيها الجائز وأيها غير الجائز، وقد نشرت أجوبتهم في المجلدين الثامن والتاسع ثمَّ لخّصت واستخرجت زبدتها في المجلد ١٢ ص ٥٢١ وصفحة ٥٧٧ وكان الأمير شكيب أرسلان أحد أعضاء المجمع ممن سئل رأيه في الموضوع فأجاب بهذا المقال متأخرًا معتذرًا كما يرى القارئ.

نقدر أن نقول هنا: وهذا متواتر أو مشهور لأنَّ التواتر والشهرة في اللفظة لا يمكن تأليفهما، مع عدم ورودها في المعاجم. فمثل هذا الصنف لا بدّ أن يبقى في طبقات الصحيح والحسن والضعيف، وإليك المثال:

لفظة "تبدّى" بمعنى "ظهر" جاءت في كلام [1] فصيح وبصورة لا تقبل تأويلاً ولا احتمال تصحيف أو تحريف لأنها جاءت قافية. فهذه تستحقّ رتبة "صحيح" ومثلها ما رأيته في كلام جاهلي "ربيعي الذي أبغي نوال وصالك، أي نيل وصالك" مع أنَّ المعاجم لا تذكر النوال بمعنى نيل.

مررت مرّة بلفظة "خابر" في معنى "فاوض" في بيت استشهد به أحد العراقيين نقلاً فيما أتذكّر عن مستشرق طلياني، وأظنّ أنَّ الأب الكرملي هو الذي دلّ على هذا البيت. فبعد التأمّل فيه وفي الرواية وسياق البيت لم أجده يستحقّ رتبة "صحيح" وإنّما وجدته يستحقّ رتبة "حسن". ومن كان متشدّدًا في اللغة يقدر أن يجعله من باب "الضعيف".

وهل يجوز وضعه في المعجم العتيد أم لا؟ أقول: بل يجب إيراده في المعجم العتيد لكن مع الإشارة إلى مصدر الرواية. والكاتب بعد ذلك هو بالخيار. فهو يقدر أن يأخذ بقول ضعيف كما يأخذ بعض الفقهاء بأقوال مرجوحة [2]، لأنَّ الحديث الذي استنبط منه الحكم كان من أصله حديث آحاد أو ضعيفًا، فبعضهم ليّنه ولم يطمئنّ إليه، والآخرون وجدوه جديرًا بالثقة أو لم يجدوا سببًا يردُّه. وهكذا الكاتب أو حافظ اللغة له أن يقول: تبدّى بمعنى ظهر على رواية صحيحة لكن لم ترد فيما عثرنا عليه إلاّ مرّة واحدة. خابر بمعنى فاوض جاءت في بيت جاهلي واحد، من شاء أن يعمل به فله ذلك على أنه يكون عمل برواية وحيدة ضعيفة.

وإليك مثالاً آخر:

"الدعاية" لم ترد في معاجم اللغة، ولكنّها وردت مرّتين في صحيح البخاري. ثمَّ ورد في المعاجم "الدعاوة" بمعناها. ومن المعلوم أنَّ الواو قد تقلب ياءً لخفّتها. فقد قالوا "مسنيّة"

---

(١) ومما قرأته أخيرًا في تاريخ بغداد لابن الخطيب (جزء ١ ص ٣٠١) بيتين من الشعر قالهما إبراهيم بن العبّاس يهجو أبا الوليد بن القاضي احمد بن أبي دواد ويمدح أباه ولله دره على هذين البيتين وهما:

عفَت مساوٍ تبدّت منك واضحةً ... على محاسن أبقاها أبوك لكا
لئن تقدّمت أبناء الكرام به ... لقد تقدّم آباء اللئام بكا

(٢) مرجوحة: اسم مفعول من المجرّد رجَحَ.

من سنا المطر الأرض يسنوها. وكان الحقّ أن لا يقال إلاّ «مسنوّة» وقد قالوا «أُحجية» من حجا يحجو كما قالوا «أحجوة». وهذا باب قد سبق لي أني أشرت إليه في الجواب على من انتقد استعمال «الدعاية» فلأجل ورودها في الحديث الشريف مرّتين ولموافقتها كثيرًا ممّا ورد في كلام العرب من الألفاظ التي تقال بالياء مقلوبة عن الواو يمكننا أن نجعل «الدعاية» من القسم الصحيح الفصيح، ولو لم تأتِ في المعاجم.

وهناك ألفاظ رويتها عن سيّدنا عمر رضي الله عنه، وذلك في فصل سبق لي في هذه المجلّة، وهي ممّا لم يرد في المعاجم لكنّي أعدّها من باب الصحيح الفصيح وإن لم تكن من باب المتواتر ولا المشهور. والسبب في صحّتها عندي أني بعد التأمّل لم أجدها ممّا يحتمل تحريف النسّاخ أو تصحيفهم، وأني وجدتها مكرّرة مرّتين أو أكثر، وأنها موافقة للقياس، وأنَّ راويها محمَّد بن سعد، رواها في الطبقات الكبرى، ومحمَّد بن سعد ثقة كبير وعهده متقدّم.

ـ الصنف الثاني

الكلمات التي وردت في كلام فصحاء الإسلاميين الذين لا يحتجّ بأقوالهم، مثل «أقص» الخبر بمعنى قصّه الوارد في كلام الطبري.

فهذه أيضًا أوافق على تدوينها في المعجم، لكن مع الإشارة إلى أنها لم ترد في كلام الجاهليين، وأنها مع ذلك معدودة في الصحيح لأمرين، أحدهما أنها صدرت عن رجال ينزّلون ما يقولون بمنزلة ما يروون. والثاني أنها موافقة للقياس. وهذا ممّا يفيد الاستئناس وإن لم يكن بذاته حجّة في اللغة.

ومن هذا النمط قول بديع الزمان «تقلّق» وقول الحافظ ابن الأبار القضاعي البلنسي «استركب» بمعنى طلب الركوب. وقد جاءت لفظة (استركب) في كلام لسان الدين ابن الخطيب، وهو في اللغة علم شهير راسخ رسوخ ابن الأبار. ومثله استعمال المتنبّي «استأسر» بمعنى «أخذ أسيرًا». ومثله استعمال ابن خلدون «المتارك» في مقابلة «المآخذ». ومثله جمع الفيروزأبادي النادي على «النوادي» في مقدّمة القاموس مع أنَّ جمعها في المعاجم لم يأتِ إلاّ على «أندية» ومثله استعمال صاحب البردة «احترم» بمعنى رعى الحرمة «أو يرجع الجار منه غير محترم» واستعمال الأكثرين لها وهي وليست في المعاجم، إلاّ أني أعترض ـ كما اعترض الكرملي وأصاب ـ على جعل «فخيم» الذي قاله صديقنا الشيخ ابراهيم اليازجي، و«صدفة» التي قالها أستاذنا الشيخ محمَّد عبده من هذا الباب. فالأستاذان المشار إليهما مع

علوّ كعبهما في اللغة لا يقال إنّهما من فصحاء الإسلاميين، وأنا على رأي قسطاكي بك حمصي الذي يرى تحديد أعصر الفصحاء الإسلاميين، وذلك حتّى لا يدخل الخطأ والسهو في هذا الباب. فالشيخ نصيف اليازجي استعمل لفظه "انعكف" وكان أديبًا مشهورًا ولغويًا أفنقول إن "انعكف" ممّا يجب أن يدوّن، لأنه جاء في كلام اليازجي الكبير؟ وهو ما جاء إلاّ خطأ أو سهوًا. وقد جاء في كلام أحمد فارس الشدياق (كمثل لجام للفرنسيس تلاّل) وذلك على ظنّ أنَّ الفعل هو "تلَّ" الجواد بلجامه. والحال أنَّ هذا الفعل هو المزيد "أتلّ" وأنَّ "تلّ" هو بمعنى صرع. وليس هو المراد هنا، أفنقول يجب استعمال "تلّ الدابة" بمعنى قادها لأنها جاءت في كلام أحمد فارس وأنَّ مكانه في اللغة أشهر من أن يذكر؟ لا. فهذه أغلاط سبقت بها أقلام هؤلاء الكتّاب سارية إليهم من الكلام العامّي، فاستعملوا هذه الألفاظ بدون مراجعة في كتب اللغة. وكلّنا وقع له مثل هذا، واللغة العاميّة مرض يسري إلى الفصيح سريان الميكروب إلى الصحيح. وأنا قد استعملت مرّة "الرفاه" بمعنى الرفاهية أو الرفاهة، وذلك من كثرة ما سمعت الناس يقولون "رفاه" ومن كثرة ما قرأتها في الجرائد. واستعملت (الطياشة) بمعنى الطيش لأني كنت قرأتها أيضًا في الجرائد. فجاء الشيخ ابراهيم اليازجي في مناقشة له معي فانتقدني فيهما، وكان مصيبًا في انتقاده. وأنا لم أجد جوابًا أقوله له إلاّ أنَّ ذلك خطأ (وسبحان الذي أوقعني في الخطأ ولم يستثن الشيخ) وأوردت له يومئذٍ أغلاطًا سرت إلى قلمه من اصطلاحات غير المحقّقين. كلاّ، لا تدخلوا أغلاط العصريين في القسم المذكور. ولا تنسوا هنا "التكتّم" اللفظة التي لا تزال تكتبها الجرائد ولم ترد في اللغة، وإنّما جاء "كتم" و"كتّم" المشدّدة. قال المتنبّي: ما لي أكتم حبًّا قد بَرَى جسدي، وأمّا "التكتّم" فهو يعني التظاهر بالكتمان وليس هذا ما يريدون. ثمَّ إنّي أقول ما قال النكدي: أية حاجة إلى تدوين هذه الأغلاط في المعجم وعندنا ما يقوم مقام هذه الألفاظ من الفصيح الصحيح. إنّي أفهم أن ندوّن في المعجم لفظة "تفرج" لأننا لا نستغني عنها، ونحن نصحّحها بالقياس. وأفهم أن ندوّن (تنزّه) لأننا بحاجة إليها. ولكنّي لا أفهم أن نقول (احتار) وعندنا (حار) و(تحيّر) ولا ضرورة لقولنا (احتار) إلاّ إذا كان المراد تصحيح اسم حاشية ابن عابدين (ردّ المحتار في شرح الدرّ المختار) أو تصحيح قول الشيخ عبد الغني النابلسي:

حِكَم حارث البريّة فيها ... وجديرٌ بأنها تحتارُ

فهذه ألفاظ سرت إلى أقلام هؤلاء الأكابر من ألفاظ العامّة. وفتح الباب للعامّي لا

يجوز إلاّ عند الضرورة، ولا ضرورة هنا "وفخيم" يقال مكانه "فخم"، و"أصبته صدفة" يقال مكانها "مصادفة"أو "اتّفاقًا" أو "عرضًا".

ـ الصنف الثالث

الكلمات العربية التي اصطلح عليها رجال العلوم والفنون والصناعات ولا يعرفها أهل اللسان كقولهم "ميزانية" و"كيفية" و"كمّية" و"هويّة" و"ذاتيّة" و"هيأة المحكمة" و"انعقدت الجلسة".

أقول: هذه يلزم أن تدخل في المعجم لأنَّ اللغة لا تكون لغة أمّة مثقّفة بدونها. ولكنّي استحسن هنا ما قاله السيِّد عيسى المعلوف، وهو أن ننظر في كتب العرب صدر الإسلام، فالمعنى الذي نجدهم اصطلحوا له على لفظ ولم يرد عن أهل اللسان نقبل ما اصطلحوا عليه، وله ندفع به الاصطلاح الجديد، وإلاّ فإنّنا نقبل هذا الجديد تحت حكم الضرورة، لأنَّ اللغة هي أيضًا مثل الشريعة يجب أن ينظر فيها إلى التيسير على الناس قبل كلّ شيء.

ثمَّ إنّي أستحسن أيضًا غربلة هذا الصنف على رأي الكرملي لأنه صنف متشعّب واسع: فما قاله السلف مثل "كمّية" و"كيفيّة" و"ماهيّة" و"ذاتية" نقبله وندوّنه أي ندوّن "كشّاف اصطلاحات الفنون" الجديد وغيره. وما اصطلح عليه أهل هذا العصر ندوّن منه ما لا غنى لنا عنه، ونتجنّب مخالفة الأسلوب العربي ما أمكن.

غير أني أزيد على أقوال الإخوان، إنّنا نحن العصريين مقصّرون كثيرًا في التنقيب في كتب السلف عن هذه الاصطلاحات التي لو نقّبنا كما يجب لوجدنا ما يغنينا عن كثير من الاصطلاحات الحديثة.

ـ الصنف الرابع

الكلمات التي ولّدها العرب الإسلاميون من مادّة عربية الأصل مثل "خابره" من الخبر و"تفرج" من الفرج و"احتار" من الحيرة و"تنزّه" من النزهة إلخ...

سبق أني ذكرت في الكلام على الصنف الثالث أني أردّ من اصطلاحات المولّدين كلّ ما لا تدعو إليه ضرورة مثل (احتار) و(رفاه) و(فخيم) و(صدفة) وأعدّه من باب العامّي

الذي يجب نبذه. أمّا (خابر) فإن كان ورد بها بيت جاهلي فيكون لها حينئذٍ شأن آخر، وتدوّن مع الإشارة إلى سبب تدوينها. وأمّا (تفرج) و(تنزّه) فلا غنى عنهما. ومثلهما (التطوّر) بمعنى Evolution لا غنى عنها وإن لم ترد في المعاجم ولا في كتب السلف. وأعود فأشير إلى وجوب تنقيبنا في كتب السلف وفي المعاجم أيضًا لا سيّما مخصّص ابن سيّده الذي فيه ألفاظ لا تحصى من أسماء وأفعال، عن معان لا نجد لها نحن ألفاظًا فصيحة، ونلجأ فيها إلى ألفاظ عاميّة وأحيانًا أجنبية. يجب أن ننخّل كتبنا القديمة قبل أن نرضى بالعاميّ والأجنبي بحجّة الحاجة إليه.

- الصنف الخامس

الكلمات المولدة بالتقريب وذلك مثل "فلم" و"أتوموبيل" و"برسوناليته" فهذه أقول فيها: ما لا نجد في لغتنا ما يسدّ مسدّه من لفظ قديم أو لفظ نشقّه نحن ونصطلح عليه نقبله بلا مراء.

ولا أفرّق هنا بين الأزمنة الكريمة وغيرها، فجميع ما تدعو الضرورة إلى تعريبه ولا نجد له من لغتنا ما يفيد معناه يجب أن نجعله في المعجم ونلحقه بما عرّبه السلف وصار عربيًّا. نعم لا يجوز لنا هذا إلاّ بعد استنفاد الوسع في إيجاد اللفظة التي تعوّزنا وذلك، إمّا بالعثور على لفظة عربية قديمة تفيد معناها أو بصوغ لفظة جديدة من لفظ عربي موجود نراعي في صوغه قواعد اللغة.

ولا أشارك الزهاوي في قبول كلّ دخيل وعدم اشتراط شيء في قبوله غير صقله وإعادته إلى الأوزان العربية، فالأعجمي لا يجوز أن نقبله إلاّ مضطرّين. نعم إنّ أجدادنا قبلوا ألفاظًا أعجمية وأدخلوها في اللغة ولم يبحثوا في اللغة عمّا يفيد معناها، وقالوا أسطرلاب وأسطقس وغير ذلك، ولكن زمانهم كان غير زماننا. كانت اللغة لعهدهم في عنجهيّتها، فلم يكن ليخشى عليها كما يخشى عليها اليوم وقد طمى عليها سيل العجمة وفشا بين العرب تعلّم اللغات الأجنبية.

وفي هذا التسامح بقبول الأعجمي مع وجود ما يفيد معناه عندنا لا أشارك الكرملي أيضًا. وما جاء على خلاف القياس فلا يكون مقيسًا عليه.

أنا هنا موافق للسيِّدين إدور مرقص ورشيد بقدونس، إلاّ في قول الثاني أنه يجب أن

نخترع كلمة مهملة من حروف عربية ولا نقبل الأعجمية، فهذا تجاوز الحدّ.

ـ الصنف السادس

أساليب أو تراكيب ذات معانٍ أعجمية الأصل، وقد تسرّبت إلى لغتنا العربية مترجمة عن اللغات الأجنبية ولا عهد للعرب الأقدمين بها كقولهم «ذرّ الرماد في العيون» و«عاش ستة عشر ربيعًا» و«ساد الأمن في البلاد» إلخ.

إنّي لا أميل إلى قبول هذه التراكيب، وإنّي أحبّ أن أسدّ عليها الباب ولو كانت هي عندي درجات لأنَّ منها ما ينطبق على الذوق العربي ومنها ما يقرُب ومنها ما هو نافر.

وإنّي لأعجب كيف أنَّ أكثر الإخوان قبلوا هذا الصنف وقالوا: إن لم يكن فيه ما يخالف القواعد النحوية واللغوية فإنّنا نقبله. أفيكفي هذا؟

وأعجب العجب من السيِّد بقدونس كيف أقفل الباب ووثّقه بسلاسل من حديد من جهة، وترك حائط البيت مهدومًا من الجهة الأخرى.

فإنّي أرى خطر هذه الجمل عربية الظاهر، أعجمية الباطن، أشدّ بكثير من خطر المفردات الأعجمية التي حجّر فيها كلّ ذلك التحجير.

وليس هذا من باب المجاز والكناية والتشبيه، بل هذا من باب أساليب العرب وعدمها، والحكم فيه للذوق العربي.

قال قائل مرّة: (جزئيات الأمور وصغار الوقائع وصبيان الحوادث) فهل في هذا شيء مخالف لقواعد اللغة؟ أفليس قوله: صبيان الحوادث مجازاً؟ بلى ولكنّه مردود، لأنَّ الذوق يأباه.

وإنَّ كثيرًا من هذه الجمل يأباه الذوق العربي بتاتًا، وإنَّ بعضها لا يقبله إلاّ بتكلّف، وإنَّ النادر منها مثل «ساد الأمن» لا يجد فيه مقالاً.

فتقييد الدكتور نقولا فيّاض بقوله إنّه يجب في قبول هذه التراكيب موافقتها للأذواق السليمة يعجبني.

وقول الأب الكرملي: «بشرط أن يكون تركيبها عربيًا لا خلل فيه» أجيب عليه بأنَّ هذا لا يكفي.

ولله درّ النشاشيبي الذي يقول: ولكلّ إنسان أسلوب والتسامح في هذا الشأن هو الهلاك.

وموافقة هذه الجمل المترجمة عن الأعجمي لأساليب العرب هي الشرط الأول، ولكنّي أقول إنَّ هناك شرطًا آخر هو موافقتها للذوق العربي. يا ليتنا نستغني عنها بالمرّة لأنها تفسد اللغة العربية ولا حاجة إليها: غريب وغير أديب. أقول إنّها ليست من باب قبول المعرّب ولا من باب قبول الاصطلاحات الفنّية، فتلك أمور قضت بها الضرورة. ثمَّ لا يخشى منها فساد اللغة.

وأمّا هذه، فإنّها تذهب بطلاوة الإنشاء العربي وتهجّنه بعد أن كان خالصًا.

أنا أصبحت لا أقدر أن أسمع "عالم بمعنى الكلمة" و"عسكري بمعنى الكلمة" و"سياسي بمعنى الكلمة" إلخ. و"أهديت فلانًا سلامك وهو بدوره يسلّم عليك"، وما أشبه ذلك ممّا أقرأ فيه جملاً إفرنسية بحروف عربية. وأمّا "يحرق البخّور أمام فلان" فأكاد أحترق عندما أسمعها. وأمّا "ضحّى فلانًا على مذبح أغراضه" فأرى على من يقولها تضحية كبش فدية عن هذه الجملة.

إنّي أكره هذه الجمل وأكره قائليها ولولا قليل لأعلنت: إنّي لا أريد أن تكون لي علاقة بهم.

هؤلاء أعداء اللغة العربية ومفسدو بيانها ومهجّنو نسبها.

طالما عاشرنا أدباء من الفرنسيس وترجمنا لهم جملاً من العربية إلى لغتهم، وذلك بأحسن بيان وأفصحه بلغتهم وكانوا يجاوبون نبرًا: Ce n'est pas français أي ليس هذا بإفرنسي، كانوا يعترفون بأنه ليس في هذه الجمل أدنى شيء يخالف نحو لغتهم أو صرفها أو بيانها، ولكنّه يخالف أسلوبها وذوقها.

وكثيرًا ما ترجمتُ جملاً من الإفرنسية إلى الألمانية ولم أخطيء فيها من جهة القواعد، وكان الألمان يقولون: نحن لا نقول هذا ومن لا يعرف الإفرنسية لا يفهمه.

فاتّقوا الله أيها الإخوان في لغتكم وإنشائكم، وصكّوا الباب على هذه الخوانس [1] التي لا تزيد لغتنا رونقًا، بل تفسدها والتي لا تمسّ إليها أدنى حاجة.

شكيب أرسلان

(١) الخوانس: خنسَ القول خنسًا: أساءَه.

(المجمع): رأينا أن نلحق بهذا المقال النبذة التالية لظهور علاقتها به، وهي للأستاذ زكي مبارك:

قرأت الكلمة التي نشرها الأديب محمَّد عطيّة يوسف، يناقش بها الأمير شكيب أرسلان إذ اعترض على قول المتنبّي:

وإن تكن محكمات الشكل تمنعني ظهور جرى فلي فيهن تصهال

وقال "فإنّك لا تجد تصهال في كتب اللغة، وإنّما قاسها المتنبّي على غيرها"

أمّا صاحبنا محمَّد عطيّة يوسف فقد قال: إنَّ المتنبّي لم يقس ولم يبتدع، وإنّما نقل عن صاحب إحدى المعلّقات وهو الحارث بن حلّزة اليشكري الذي يقول:

اجمعوا أمرهم عشاء فلمّا أصبحوا أصبحت لهم ضوضاء

من مناد ومن مجيب ومن تصـ ـهال خيل خلال ذاك رغاء

والمهمّ في إيراد هذه الملاحظة هو تذكير القرّاء بخطأ الوقوف عند المعاجم اللغوية، فإنّها أعمال أفراد يعسر عليهم الاستقصاء، ومن العنت أن نرفض كلّ كلمة لم ينصّ عليها القاموس.

على أنَّ أخطاء المتنبّي تصلح نماذج للفصيح، لأنَّ ملكة اللغة عند مثله قويّة جدًّا، فلا يخطيء إلاّ وفي طبعه مرشد إلى الإفصاح. وقد ظلّ الناس عشرة قرون يخطئونه في هذا البيت:

فإنَّ يكُ بعض الناس سيفًا لدولة ففي الناس بوقات لها وطبول

وقالوا إنَّ البوق لا يجمع على بوقات، وإنّما بجمع على أبواق.

ولو تأمّلوا لعرفوا أنَّ البوقات ليست جمع بوق، وإنّما هي جمع بوقة، وقد رأيت شاهدًا عليه في كتاب تجارب الأمم لابن مسكويه

وعلى مدرّسي البلاغة أن يرحموا المتنبّي فيمحوا قصّة البوقات التي نراها في مقدّمة البلاغة من كلّ كتاب.

طرائف لغوية*

يقول أمير البيان في حاشية الصفحة ٣٤٦[1] من هذا الكتاب ما نصّه:

«كنت دائمًا إذا وجدت في كلام السيِّد لفظة لا أجد لها أصلاً في اللغة أعترض عليه فيها، وأسأله عن الوجه الذي عنده في هذه اللفظة، وكان هو يفعل معي كذلك، وسنورد جلّ ما وقع بيننا من المطارحات اللغوية، لأنَّ فيها فوائد لطلاّب العربية».

جاء في رسالة للسيِّد رشيد رضا (رحمه الله) ص ٣٤٤ ما نصّه:

(الدعاية) وردت في كتاب النبي (ص) إلى هرقل قال: «أدعوك بدعاية الإسلام» كما في كتاب «بدء الوحي» من أول صحيح البخاري، وهي كالدعوة الكثيرة الاستعمال في كلّ ما يدعى إليه، فأحببت استعمال الكلمة الطريفة في الدعوة الخاصّة بالمذاهب العامّة من سياسية ودينية، واتّبعني بها كثير من الكتّاب.

وجاء في رسالة أخرى أخرى للسيِّد رشيد ص ٦٩٥ ما نصّه:

«سألتني في كتاب سابق عن كلمة دعاية وقد خطرت في بالي الآن، فذكرتها هنا بغير مناسبة لئلاّ أنساها كما نسيتها من قبل، فأقول: إنّها وردت في أصحّ الروايات في كتب النبي (ص) إلى الملوك كما تراه في البخاري وغيره، وأنا الذي روّجتها في الاستعمال، فهي من شواهد حجّتك على الذين يفكّرون كلّ ما لم يرد في كتب المعاجم المتداولة، ونقل رواة الصحاح من الحديث أوثق من رواة اللغة، وقد ورد دعاوة بالفتح في دعوة النسب وقلب الواو في الكسر ياء لمناسبة الكسرة، وهذا القلب جائز لا واجب كما ورد في القوام والقيام».

وجاء في رسالة أخرى للسيِّد ص ٦٦٨ ما نصّه:

«وأمّا المنتقد اللغوي فقد ذهب به الإدلال بنظرياته إلى الجرأة على ما نقول في الحديث النبوي، فلفظ الدعاية ثابت في رواية البخاري وفي أصحّ الروايات، وهو مقيس، ومثله الشكاية من شكا يشكو، وهو أيضًا منقول في لسان العرب، ومستدرك الزبيدي على

* مجلّة المجمع العلمي العربي ج١٥ (تموز ـ آب ١٩٣٧) ص ٢٦٩ ـ ٢٨٤. مقتبسة من سيرة «السيِّد رشيد رضا» تأليف عضو مجمعنا العلمي الأمير شكيب أرسلان، وفي هذا الجزء من المجلّة بيان وتقريظ لهذه السيرة الجليلة.

(١) كلّ ما ورد من أرقام للصفحات داخل هذا الكتاب تتبع المصدر الأصلي للمنشورات.

(٢)... هذا وإنّني لم أذكر لك أنَّ لفظ الدعاوة قد ورد في اللغة إلاّ لبيان أنَّ كون القاموس أصل المادّة واوية لا يمنع قلب الواو ياء لمناسبة كسر أول الكلمة. وجملة القول إنَّ لفظة الدعاية وردت بأصحّ الروايات وهي مقتبسة".

وعلّق مؤلّف هذه السيرة الرشيدية الأمير شكيب أرسلان على الرقم (١) من الشذرة الأولى ما نصّه:

«نعم قد صار هذا الاستعمال تمامًا في معنى ما يسمّيه الإفرنج (بروباغندا)، وقد سألت السيِّد رشيدًا عن مصدرها فأجابني بهذا الجواب، وسألت غيره من علماء الحديث مثل الأستاذ تقي الدين الهلالي المغربي السجلماسي، فأيّد كلام السيِّد رشيد، وقد جاء في لسان العرب خبر هذا الكتاب من النبي عليه السلام إلى هرقل: "أدعوك بدعاية الإسلام" أي بدعوته؛ ولكنّه قال بعدها: وفي رواية "بداعية الإسلام" وهو مصدر بمعنى الدعوة كالعافية والعاقبة، واقتصر صاحب المصباح على الدعاوة، ولهذا تمسّك بعضهم بأنَّ دعاية قد تكون خطأ نسخ، وأنَّ أصلها الدعاوة لا يجوز غيرها، وعلّلوا ذلك بأنَّ الفعل واوي، وأنَّ الدعاية بالياء، والحقيقة أنَّ نُسَخَ البخاري لا تعدّ ولا تحصى، فلو كانت الدعاية من خطأ النسخ لكان العلماء أصلحوها. ومن المعلوم أنَّ علماء اللغة في المحدّثين كحصى البطحاء، فليس السيِّد رشيد رضا وحده بالذي روى ذلك، وأمّا كون الفعل واويًا قد يمنع من انقلاب الواو ياء، ولذلك أمثال كثيرة جاء في لسان العرب: سنت السانية تسنو سنوًّا إذا استقت، وسناية وسناوة، وهو في صيّابة قومه وصوابة قومه، والنقاوة والنقاية من كلّ شيء، والنفاوة والنفاية من كلّ شيء، وهي النفية والنفوة، وداهية دهواء ودهياء، وله غنْم قنوة وقنية وقنوان وقنيان، وأهل العالية يقولون القصوى، وأهل نجد يقولون القُصيا، وأتوت به أتاوة وإتاية، ورغاية اللبن ورغاوته، وجباية الخراج وجباوته، وهو بلو سفر وبلي سفر، وهلمّ جرّا ممّا لا يحصى.

وجاء في التعليقة الأرسلانية على الرقم (٢) من الشذرة الرشيدية الثالثة ما نصّه:

"جاء في مخصّص ابن سيده صفحة ١٩ من الجزء الرابع عشر ما يلي:

وأرى كيف تدخل الياء على الواو، والواو على الياء من غير علّة، إمّا لمعاقبة عند القبيلة الواحدة من العرب، وإمّا لافتراق القبيلتين في اللغتين. فأمّا ما دخلت فيه الواو على الياء والياء على الواو لعلّة فلا حاجة بنا إلى ذكره في هذا الكتاب، لأنه قانون من قوانين

التصريف. قال الأصمعي: سألت المفضل عن قول الأعشى:

لعمري لمن أمسى من القوم شاخصًا لقد نال خيصًا من عفيرةَ خائصا

فقلت: ما معنى خائصًا؟ فقال: أراه من قولهم: فلان يخوّص العطاء في بني فلان، أي يقلّله "فكأنَّ خيصًا شيء يسير، ثمَّ بالغ بقوله: خائصًا كما قالوا موت مائت. قلت له: فقد كان يجب أن يقول: لقد نال خوصًا إذ هو من قولهم: هو مخوّص العطاء. فقال: هو على المعاقبة، وهي لغة لأهل الحجاز وليست بمطردة في لغتهم. وأنا أذكر منها بحسب ما يحضرني ما شاء الله. قال ابن السكيت: أهل الحجاز يسمّون الصوّاغ الصيّاغ، قال: ويقولون المياثر والمواثر، والمواثق والمياثق (وأخذ يورد من الأمثال) المتأوّب والمتأيّب وشيّطه وشوّطه، وقد دوّخوا الرجل وديّخوه، وقد فاد يفود ويفيد في الموت، وعار يعور ويعير إذا ذهب ههنا وههنا، وغارني الرجل يغيرني ويغورني إذا أعطاك الديّة، وقد تحيّزت وتحوّزت، وتوّهت الرحل وتيّهته، وطوّحته وطيّحته، وماهت الركية تموه وقد قيل تميه وتماه، ويقال طال طِوَلك وطال طيلك، وضاره يضيره، وزعم الكسائي أنه سمع بعض أهل العالية يقول: لا ينفعني ذلك ولا يضورني، وأنَّ فلانًا لسريع الأوبة وقوم يحوّلون الواو ياء، فيقولون سريع الأيبة، وقوم يقولون: لاتَه يليتُهُ ولغة أخرى يلوته، إلى أن يقول:

تبوّغ الدم بصاحبه غلبه، وفي الحديث: إذا تبيّغ الدم بصاحبه فليحتجم[1] وما أعيج من كلامه بشيء، وبنو أسد يقولون: ما أعوج بكلامه، ويقال: هو من صيابة قومه وصوّابة قومه، وثور وثورة وثيرة، وقد تصيّح البقل إذا هاج وتصوّح، وتصيّع، وتصوع وأقاوم وأقايم، وتهيّر الجرف وتهور، وفاحت ريحه تفيح فيحًا وفاحت ريحه فوحًا، والطُّوَّع والطُّيَّع. ويقول بعضهم: حكوت عنه الكلام أي حكيت، وطما الماء يطمي ويطمو، وكذلك ينمي وينمو، ومقا الطست أي جلاها يمقوها ويمقيها، وقد نثوت الحديث ونثيته، والنقاوة من كلّ شيء خياره، والنفاية والنفاوة، وعَزَيْتُهُ إلى أبيه. وبنو أسد يقولون: عزَوته إلى أبيه، وحثيت عليه التراب وحثوته، وما كان مرضيًا ومرضوًّا، وأهل العالية يقولون: القصوى وأهل نجد يقولون القصيا، وحكى الفراء عن الكسائي: سناها الغيث يسنوها فهي مسنوّة ومسنيّة، وسحوت الطين عن الأرض وسحيته، وقد أتوت به إتاية وأتاوة، ورثوته

(١) يحتجم: الحجامة هي التخلّص من الدّم الزائد في الجسم.

ورثيته، ورغاية اللبن ورغاوته، ومحوت أمحو ومحيت أمحي، وجبوت الخراج وجبيته جباوة وجباية، وطغوتَ يا رجلُ وطغيتَ، وهذوت وهذيت، ولحوت العصا ولحيتها وطهيت اللّحم وطهوته، وقد صفوتَ وصفيتَ، ولغوتَ ولغيتَ، وعلوتَ وعليتَ وسلوتَ وسليتَ. اهـ. باختصار.

ولم يذكر الفيروزابادي إلاّ الدِّعاوة بالواو، ولكنّه ذكر أن دعيت لغة في دعوت، وذكر الزبيدي فيما استدركه على القاموس دعاية الإسلام بكسر أوله وهي دعوته.

وقد أعاد الأستاذ الرشيد طبع "آخر بني سراج" في مطبعة المنار، وهي رواية "شاتوبريان" المشهورة التي كان الأمير شكيب قد عرّبها في شباب آدابه، فعثر السيِّد رشيد على بعض ألفاظ وتعابير لم يرضَ نسبتها إلى أمير البيان، فأرسل إليه رسالة لغوية مطوّلة ص ٣٨٣ نقتصر منها على ما يلي ص ٣٨٥:

"النوع الثاني ما هو من الأصل وسببه في الأكثر كثرة استعمال المعاصرين وهو قسمان: أحدهما المفردات والثاني الجمل والأساليب، فمن المفردات قولكم: الخطر المحيق (هذه وقعت سهوًا)، والصواب في مثله الثلاثي كقوله تعالى: (وحاق بهم ما كانوا به يستهزئون) وقوله: (ولا يحيق المكر السيّئ إلاّ بأهله) ويعدى حاق بالهمزة فيقال: حاق به السوء وأحاق الله به.

ويشبّهها قولكم: ضجّة مهولة، وإنّما يقال: هاله الأمر أو الخطب، وفي الأساس: أمر هائل وهوّل الأمر جعله هائلاً، نعم في مجازه: مكان مهول أي فيه هول، ولا يظهر مثله في وصف الضجّة، وإنّما صحّحت مثل هذا مع علمي باحتجاجكم أو إمكانه بمثل "مكان مهول (١)".

ومنها قولكم: (إنَّ هذا لنبأ عظيم) وهنا غيّرت الموصوف فقلت: الخطب عظيم، لأنَّ النبأ خاص بالكلام، وليس المقام مقام كلام، بل مقام وصف ابن سراج لأرقِهِ وذلّه.

ومنها (ارتياد التعاشيب) والتعاشيب نصّ في مرادكم، فإنّها النُّبذ المتفرّقة من العشب، وأظنّ أنَّ هذه من غلط الطبع، وإلاّ فهي من سبق القلم، والأول أرجح، فإنَّ الكلمة من الفرائد غير المستعملة عند ضعفاء الكتّاب الذين جنوا على جهابذتهم (إنّما كتبتها تعاشيب وأردت أن أحيي بها كلمة فصيحة مجهولة تقريبًا عند ضعفاء الكتّاب).

الثاني: الجمل والأساليب، وما استنكرته من هذا القسم أكثر من غيره، وقد كاشفتكم بشيء منه قبل الشروع في الطبع، فعلمتم ممّا رجعتم إليّ من القول فيه: إنّ بعض ما هو قطعي عندي أو قريب من القطعي ممّا يترجّح أو يمكن أن يكون موضع بحث وجدال طويل عندكم، فصحّحت ما رجّحت أو جزمت باستحسانكم لتصحيحه، إن لم يكن لاعتقادكم بأنه خطأ أو غير فصيح، فلاعتقادكم بأنّ بدله صحيح فصيح أو أنه أفصح. وأذكر بعض الأمثلة على هذا القسم غير مرتّبة:

١ـ قولكم: (وسرت الفلك بريح طيّبة) استبدلت به (وجرت الفلك به بريح طيّبة) ووجهه أنّ السّرى خاص بما كان في الليل، ولا محلّ لهذا التخصيص، وأنّ ما ذكرته موافق لقوله تعالى: (وجرين بهم بريح طيّبة). وقد خطر ببالي أنكم أردتم استعمال أسلوب القرآن فلم تتذكّروا الآية، وقد راجعت أستاذنا (الشيخ محمَّد عبده) مرّة في كلمة كتبها في مقالات الإسلام والنصرانية مخالفة لاستعمال القرآن وهي صواب في نفسها، وكانت المراجعة كتابة فكتب إليّ بأن أصحّحها أو أغيّرها، وعلّل ذلك بأنه لا يجب مخالفة أسلوب القرآن ولو إلى صواب، والكلمة المذكورة "نصح له" أو "وهب له" لا أتذكّر أيهما الآن.

٢ـ مَثَل (وما هو ذلك القصر؟)، وهذا ممّا يكثر في كلام المعاصرين، وهو مأخوذ من اصطلاح المناطقة في السؤال عن ماهيّة الشيء، وكلمة الماهيّة مشتقّة منه، وهو من اصطلاحهم وقلّدهم كثيرون والضمير فيه (هو لا حاجة إليه ولا مرجع له)، والمدقّقون من الكتّاب ومصحّحي الإنشاء في وزاة المعارف يتحامونه ويرمّجون[1] الضمير ممّا يصحّحون، وفي الكتاب العزيز: (قال وما ربّ العالمين).

٣ـ قولك: (ولذلك فإنّ بقايا آياته)، وفيه أنّ ما بعد الفاء لا يعمل فيما قبلها، وأنّ الجمع بين لام التعليل وفاء السببية لا حاجة إليه في أكثر هذه الاستعمالات، التي كثرت جدًّا في أسلوب المعاصرين غير المدقّقين، والوجه في الجمع بينهما تقديم الفاء، كأن يقال: فلذلك يقال كذا.

٤ـ كلمة (فضلاً عن كذا) في مقام الإثبات، وقد تكرّر في كلامكم لأنه صار من الاستعمال المألوف عند العلماء منذ قرون، ولكنّ المتقدّمين قلّما يستعملونه إلاّ بعد النفي، لما لهم من التخريج النحوي له مع تصريح بعضهم بأنه ليس من كلام العرب؛ فتقدير

(١) رمّجوا: كتبوا ثمّ أفسدوا ما كتبوا.

الكلام في (فلان لا يملك درهمًا فضلاً عن دينار): أنه فقد ملك درهم فقدًا فاضلاً وزائدًا عن فقد ملك دينار إلخ... ولا بدّ أن تكونوا أطلعتم على هذا ونسيتموه، ولا سيّما عند الاستعمال فجريتم على ما تقرأون دائمًا في الكتب والجرائد، وكم وقعت أنا وغيري في مثل هذا، ومنه قولكم في كون المسلمين أحوج من النصارى إلى الماء: (لأنه فضلاً عن الشراب يلزمهم لأجل الوضوء) فبمَ تنصب كلمة فضلاً هنا؟

واستعمال (يلزمهم) هنا بمعنى يحتاجون إليه، لا أعرف له أصلاً في اللغة، وإنّما هو عصري حديث، ولكن لا أدري متى كان استعماله، ولعلّكم تعرفون له أصلاً فإنّني لم أراجع عنه باستقصاء؟

ومنه قولكم في وصف غناء أو ماء (وتجود بكلّ نغمة يترنّح لها الجلمود فضلاً عن كون الموسيقى الإسبانية في طبيعتها ما اشتملت عليه من كذا وكذا تفعل كذا وكذا)، فيجوز أن تكونوا أطلعتم على تخريج يرضيكم لمثل هذا الاستعمال، ويجوز أيضًا أن تكونوا قد أطلعتم على نصّ فيه لم نطّلع عليه نحن، ولا مثل أبي حيان الأندلسي الذي بحث ما لم نبحث؛ ولكن ما أظنّ أنه يسخطكم تغيير هذا الاستعمال أنا وأمثالي بما لا تنكرونه بدليل أنكم قرأتموه ولم تعدّوه خطأ، على أني لا أتذكّر أني غيّرت هذا الاستعمال في كلّ مكان، وإنّما عرفت هذين الموضعين لأنهما ممّا كنت وضعت عليه علامات الاستنكار.

٥ـ يقرّب من هذا الاستعمال مثال قولكم: (ولكن كأني بهذا الطريق بدلاً عن أن يزداد بهم حركة وأنسًا ازداد وحشة ووحدة). وقولكم (ولكن واأسفاه بدلاً من قرع الطبول لم يكن حول ابن حامد إلاّ السكوت التامّ). فيقف الذهن هنا في (بدلاً) المنصوبة حتّى يجيء ما بعدها فيلتمس لها ناصبًا بالتقدير في الكلام، وبتأخيرها معما يتعلّق بها يزول هذا التعقيد، ومن الخطأ في الجملة الأولى وضع (عن) مكان (من) والمنقول (بدل منه) كما في الجملة الثانية، وربّما كانت الأولى من غلط الطبع، والمعاصرون يستعملونها.

٦ـ ومثله فيما تقدّم وحقّه التأخير قولكم (وأسلحته تزيد رونقًا وجلالاً صباحةَ وجهه)، فصباحة وجهه مفعول أول، ورونق مفعول ثان، وتقديمه خلاف الأصل، فلا ينبغي إلاّ لضرورة شعر أو نكتة من نكت المعاني. وأنا أعتقد أنك إذا لم توافقني الآن على هذا فعلّته أنك ألِفت قراءة هذه الرواية لأنها من أوائل ترجمتك، بل أعتقد أنك لولا هذه الإلفة لصحّحت منها عند قراءتها الأخيرة ألفاظًا وجملاً كثيرة ممّا لا نراك تستعمله الآن، وأعيد

التذكير بأنَّ المراد تصحيح ما ينافي الفصاحة والبلاغة، لا ما ينافي قواعد الإعراب ومفردات اللغة فقط.

٧ـ قولك (ثمَّ تحفّزًا وتواثبًا الواحد على الآخر)، ولا يغرب عنك أنَّ معنى تواثبا وثب أحدهما على الآخر، فلا حاجة معها إلى قولك: الواحد على الآخر.

٨ ـ ومثله (وصاروا يتظاهرون بعضهم على بعض) وهو ما يسمّونه لغة البراغيث والفصيح يتظاهر بعضهم على بعض.

٩ـ وأبعد منها عن الفصاحة، بل عن الصواب قولك: (وبقيت سرايا الفريقين تتردّد إلى غزو بعضها بعضًا)، فإنّه من عدوى الجرائد وأمثالها من مكتوبات المعاصرين التي لا تقبلها لغة البراغيث ويتجنّبها من دونك من الكتّاب المتأنّقين.

١٠ـ وأتذكّر أنَّ ممّا تكرّر وهو لا يرضيك الآن مثل (نحو ثلاثمائة) بإضافة نحو إلى العدد، والمنقول عن الفصحاء (نحو من كذا)، فإن وجد نقل للأول فلا أذكره، ولا أجد وقتًا للمراجعة الطويلة وحسبي من القصيرة اقتصار أساس البلاغة على قوله: وعنده نحوٌ من مائة رجل.

١١ـ قولك: وكانت المقبرة عبارة عن روضة معروشة من النارنج[1] والسرو والنخيل، كلمة (عبارة) خاصّة بالكلام، واستعملها كثير من علمائنا في تفسير بعض الكلم أو تعريف بعض الاصطلاحات اللفظية، وأنكر هذا بعض إخواننا من نظّار المدارس في إحدى جلسات المجمع اللغوي، فصوّبت كلامه في مثل هذا الاستعمال الذي يكثر في الجرائد وأمثالها فقط، وفي العبارة أيضًا أنَّ المعروش من الشجر والنجم ما كان كالدوالي، وغير المعروش ما كان كالسرو والنخيل، وهو ما حقّقناه في تفسير "جنّات معروشات وغير معروشات".

١٢ـ قولك: (أن يصلح ذات البين بين الفرسان) الوجه أن يقال: ذات بينِ بينَ الفرسان، بالإضافة فقط كما قال تعالى: "وأصلحوا ذات بينكم".

١٣ـ قولك في حثّ البغال وزجرها: (بأن يناديها تارة يا جيّدة يا سريعة، أو أن يزجرها طورًا بقوله عدس، لا حاجة هنا (لأو) ولا (لأن)، فالمقام مقام الواو وحدها.

(١) النارنج: كلمة فارسيّة تعني شجر من الليمون تعرفه العامّة بـ "بوصفير".

هذا بعض ما بذلت من الاجتهاد في تصحيح كتاب أجلّ أصدقائي فضلاً وأدبًا ووطنية وخدمة للأمّة من طريق المساعي السياسية ونفثات اليراع، إلى أن يقول: وما جريت معك في هذا إلاّ على الطريقة التي استقمت عليها في معاملة شيخنا الأستاذ الإمام في عهده وبعد عهده. فقد كنت أراجعه في حالة القرب بما أرى أنه يحتاج إلى إصلاح لفظي أو معنوي من كلامه، فيسرّ بذلك جدّ السرور ويعمل به، وكنت أصحّح في حالة البعد ما أقطع بأنَّ تغييره أولى، وقد علّقت على رسالة التوحيد حواشي لا تخلو من تخطئة الأصل، وقد أذن لي بتصحيح خطابه الذي ألقاه في تونس بعد أن طبع فيها مصحّحًا بقلمه، ولم يبال أن يرى علماء تونس وأدباؤها أنَّ ما طبع في المنار أصحّ ممّا طبع عندهم، فقد كانت هذه المعاملة من أستاذنا الأكبر في الإنشاء وعلوم البلاغة سببًا في تمكين تلك العادة التي أشار إليها سيِّدي الأمير، واعترفنا له مع ذلك بالحقّ فيما انتقده منها...

هذا بعض ما جاء في هذه الرسالة اللغوية الطويلة، وقد راجع الأمير صديقه الرشيد في كثير من تصحيحاته، منها لفظة مهول فقد علّق عليها بقوله: "كلاّ لم نجز لفظة مهول لأجل قولهم مكان مهول، بل لورود مهول في الكلام العربي، جاء في لسان العرب: وهول هائل ومهول، وكرهها بعضهم وقد جاء في الشعر الفصيح وقال:

ومهول من المناهل وحش ... ذي عراقين آجن مدفان

وتفسير المهول أي فيه هول، والعرب إذا كان الشيء "هُولة" أخرجوه على فاعل مثل دارع ذي الدرع، وإن كان فيه أو عليه أخرجوه على مفعول، كقولك مجنون فيه ذاك ومديون عليه ذاك اهـ. وقد قال بديع الزماني الهمذاني لأبي بكر الخوارزمي في المناقشة التي جرت بينهما مرتجلاً:

أراك على شفا خطر مهول ... بما أودعت لفظك من فضولِ

وبديع الزمان يجعل ما يقوله بمنزلة ما يرويه.

وناقشه الأمير في عبارة (وما هو ذلك القصر) بقوله: لا شكّ أنَّ القاعدة هي ما قال، ولكن ليس بخطأ أن يقال "ما هو ذلك القصر" وما في ضربه. وقد ورد كثيرًا في كلامهم وذكر سيبويه أنَّ هذه الضمائر: أنت وأنا ونحن وهو وهي وهم وهنّ وأنتنّ وهما وأنتما وأنتم، تأتي وصفًا للمضمر المجرور والمنصوب والمرفوع، وذلك قولك مررت بك أنت

ورأيتك أنت وانطلقت أنت، وليس وصفًا بمنزلة الطويل إذا قلت مررت بزيدٍ الطويل، ولكنّه بمنزلة نفسه إذا قلت مررت به نفسه وأتاني هو نفسه ورأيته هو نفسه، وإنّما تريد بهن ما تريد بالنفس إذا قلت مررت به هو (إلى أن يقول): واعلم أنَّ هذا المضمر يجوز أن يكون بدلاً من المظهر وليس بمنزلته في أن يكون وصفًا له، لأنَّ الوصف تابع للاسم مثل قولك رأيت عبد الله أبا زيد، فأمّا البدل فمنفرد كأنك قلت زيدًا رأيت أو رأيت زيدًا. ثمَّ قلت إيّاه رأيت وكذا أنت وهو وأخواتهما في الرفع، وأورد سيبويه قوله تعالى "ولا يحسبنَّ الذين يبخلون بما آتاهم الله من فضله هو خيرًا لهم". وقال: صارت "هو" هنا بمنزلة ما إذا كانت لغوًا في أنها لا تغيّر ما بعدها عن حاله قبل أن تذكر، واعلم أنها تكون في إنَّ وأخواتها فصلاً وفي الابتداء، ولكن ما بعدها مرفوع لأنه مرفوع قبل أن تذكر الفصل (قال): واعلم أنَّ "هو" لا يحسن أن تكون مفصَلاً حتّى يكون ما بعدها معرفة أو ما أشبه المعرفة ممّا طال ولم تدخله الألف واللام (قال): وقد جعل ناس كثير من العرب "هو" واخواتها في هذا الباب اسمًا مبتدأ وما بعده مبني عليه، فمن ذلك أنه بلغنا أنَّ رؤبة كان يقول أظنّ زيدًا هو خير منك وناس كثير من العرب يقولون (وما ظلمناهم ولكن هم كانوا الظالمون). وكان أبو عمرو يقول: إن كان لهو العاقل، ثمَّ يقول سيبويه إنَّ "هو وأخواتها" يكون بمنزلة اسم مبتدأ وذلك قولك ما أظنّ أحد خير منك وما أجعل رجلاً هو أكرم منك، فلم يجعلوه فصلاً وقبله نكرة كما أنه لا يكون وصفًا ولا بدلاً لنكرة، وكما أنَّ كلّهم وأجمعين لا يكرّران على نكرة، فاستثقلوا أن يجعلوها فصلاً في النكرة كما جعلوها في المعرفة لأنها معرفة فلم تَصِرْ فصلاً إذًا لمعرفة، كما لم تكن وصفًا ولا بدلاً إلاّ لمعرفة اهـ.

وقد جاء في مغني اللبيب لابن هشام أنَّ "ما" نكرة متضمّنة معنى الحرف، وأنَّ "ما" الاستفهامية معناها أي شيء نحو: ما هي؟ ما لونها؟ وما تلك بيمينك؟ قال موسى: ما جئتم به السحر. وذلك على قراءة أبي عمر وآلسحر بمدّ الألف، فما مبتدأ والجملة بعدها خبر، وآلسحر إمّا بدل من ما ولها قرن بالاستفهام وكأنه قيل آلسحر جئتم به، وإمّا تقدير أهو السحر أو السحر هو، ويقوّيه قراءة عبد الله ما جئتم به سحر؛ إذًا لو قيل ما هو السحر مثلاً "فما" مبتدأ والجملة بعدها خبر والسحر بدل من ما. وقد سألت عن هذا الاعتراض العلاّمة السيِّد تقي الدين الهلالي السجلماسي، فاستغرب وقال لا أظنّ أنَّ السيِّد رشيدًا يمنع جوازه، كما أنه لم يتبيّن لي أنَّ الجملة منافية للبلاغة وقال: ما هو ذلك القصر. الضمير يعود على

القصر وإن كان متقدمًا لفظًا فهو متأخر رتبة لأنَّ "ذلك" مبتدأ والقصر بدل وجملة "ما هو" خبر ووجب تقديمها من أجل ما الاستفهامية.

وأمّا إنكار السيِّد رشيد على الأمير قوله (ولذلك فإنَّ بقايا آبائه) بحجّة أنَّ ما بعد الفاء لا يعمل فيما قبلها، وأنَّ الجمع بين لام التعليل وفاء السببية لا حاجة إليه، وأنَّ الوجه تقديم الفاء كأن يُقال: فلذلك كان كذا، فقد ردّه الأمير مستدلاً على صحّة قوله ص ٣٩٠ بما نصّه: "إنَّ هذا الاستعمال وارد من القديم حتّى في كلام سيبويه نفسه. ففي الكتاب صفحة ٣٩٠ من الجزء الأول يقول: فعلى هذا فأجر ذا الباب. وفي الجزء الأول أيضًا صفحة ١٨٩: فعلى هذا فقس المعرفة. وفي الجزء الثاني صفحة ٩٧: فكذلك فقس هذه الأشياء، وفي صفحة ١٦٧: فعلى هذا فقس هذا النحو، ومثله ما لا يحصى في كلام أئمّة اللغة قديمًا وحديثًا، وابن هشام وهو من هو في النحو يقول في الصفحة الخامسة من الجزء الثاني من مغني اللبيب الذي عليه حاشية الأمير: وعلى هذا فلا يصحّ استئناف ما إلخ... وقال في الآية الكريمة "وما بكم من نعمةٍ فمنّ الله" الأرجح أنها موصولة وأنَّ الفاء داخلة على الخبر لا شرطية، والفاء داخلة على الجواب اهـ، وقال الله تعالى: (والذين كفروا فتعسًا لهم).

وأنكر (رحمه الله) على الأمير استعماله في مقام الإثبات (فضلاً عن كذا) فردّ إنكاره بقوله: إنَّ استعمال (فضلاً عن كذا) بمعنى زيادة عن كذا مستفيض في كلام المؤلّفين والكتّاب من زمن قديم كما يعلمه كلّ من تتبّع كلام القوم، وإن كنّا لم نعرف متى بدأ هذا الاستعمال؟ وقول أبي حيان الأندلسي إنّه ليس من كلام العرب لا يدلّ على عدم جوازه، لأننا لو نقضنا كلام المؤلّفين من بعد الإسلام إلى اليوم لوجدنا فيه ما لا يحصى من الاستعمالات التي لم يكن يعرفها العرب، ليس في الأمور العلمية والفنّية والمواضيع الفلسفية فحسب، بل في الأمور المعتادة الاجتماعية أيضًا، فقد استعمل العرب بعد الإسلام جملاً وألفاظًا لا يأخذها الإحصاء، لو نشر عرب الجاهلية وألقيت على أسماعهم لم يفهموها ولا عرفوا المراد منها، حتّى أنهم قالوا إنَّ بدويًا سئل عن القلم فلم يفهم معناه فقيل له: ماذا تتصوّر من كلمة القلم؟ فقال: أتصوّر أنه شيء يقطع أو يقلم ولا أقدر أن أفهم شيئًا وراء ذلك. وبقي العرب بعد الإسلام بكثير يتحامون كثيرًا من الاصطلاحات. قال سيبويه في باب الجموع: إعلم أنه ليس كلّ مصدر يجمع كالأشغال والعقول والحلوم والألباب، ألا ترى أنك لا تجمع الفكر والعلم والنظر اهـ. فتأمّل الآن لغة عربية لا يجوز فيها جمع العلم

والفكر والنظر... والحال أنه لا يكاد الكاتب ينمّق بضعة أسطار حتّى يضطرّ إلى ذكر العلوم والأفكار والأنظار وهي مستفيضة في النظم والنثر، فقولهم (فضلاً عن هذا) زيادة على هذا لأنَّ الفضل هو زيادة، وقد رأيت في بعض كتب المتقدّمين قوله: فضلاً عن كذا وزائدًا على كذا. نعم إنَّ أكثر استعمال فضلاً عن كذا يجيء بعد نفي، ولكن قولهم إنَّ ذلك في الأكثر صريح بأنه قد يجيء أيضًا بعد إيجاب، والسيِّد رشيد (رحمه الله) قبل أن كتب إلينا هذا الاعتراض قرأ ما جاء في "المصباح" فإنّه يقول: لا يملك درهمًا فضلاً عن دينار وشبّهه معناه لا يملك درهمًا ولا دينارًا وعدم ملكه للدينار أولى بالانتفاء وكأنه قال لا يملك درهمًا فكيف يملك دينارًا وانتصابه على المصدر والتقدير، فقد ملك درهم فقدًا يفضّل عن فقد دينار. وقال قطب الدين الشيرازي في شرح المفتاح: إعلم أنَّ فضلاً يستعمل في موضع يستبعد فيه الأدنى ويراد به استحالة ما فوقه، ولهذا يقع بين كلامين متغايرَي المعنى وأكثر استعماله أن يجيء بعد نفي. وقال شيخنا أبو حيّان الأندلسي نزيل مصر المحروسة أبقاه الله تعالى: ولم أظفر بنصّ على أنَّ هذا التركيب من كلام العرب وبسط القول في هذه المسألة وهو قريب ممّا تقدّم اهـ.

وقد نقل الزبيدي في شرح القاموس ما ورد في المصباح عن قضيّة (فضلاً عنه). أمّا سؤال الأستاذ عن إعراب فضلاً في قولي (لأنه فضلاً عن الشراب يلزمهم لأجل الوضوء) فأجيب بأنه منصوب على المصدر مثل قولهم لا يملك درهمًا فضلاً عن دينار، وتخريجه أنَّ الماء يلزم المسلمين لأجل الوضوء لزومًا فاضلاً عن لزومه للشرب. أمّا استعمال (يلزمه) (ويلزم له) فهو أيضًا مستفيض أكثر من استفاضة الأول، ومعنى لزم وثبت ودام وكأنهم لحظوا أنَّ ما يحتاج إليه الإنسان بصورة دائمة يعدّ من الأمور اللازمة أي التي يحتاج إليها الإنسان لزامًا فصار هذا الاصطلاح يفيد معنى الاحتياج ولو لم يكن كذلك في الأصل. وقد سألت العلاّمة السيِّد تقي الدين الهلالي المتقدّم الذكر عن جملة: (لأنه فضلاً عن الشراب يلزمهم لأجل الوضوء). فأجاب: الذي يظهر لي أنَّ هذا جائز وأنَّ نصبه على المفعولية المطلقة كما ذكرتم سائغ (قال) وبدا لي وجه آخر في نصبه وهو أن يكون حالاً بمعنى فاضلاً من فاعل يلزم وتقديم الحال جائز. قال ابن مالك:

والحال أن ينصب لفعل صرفا ... أو صفة أشبهت المصرّفا

فجائز تقديمه وهو هنا كذلك فإن (يلزم) فعل متصرّف؛ وأمّا كون المصدر حالاً

فكثير. قال ابن مالك:

ومصدر منكر حالاً يقع   بكثرة كبغتة زيد طلع

وفي ذلك خلاف معروف.

وراجع الأمير في استعماله مثل (نحو ثلاثمائة) بإضافة نحو إلى العدد، لأنَّ المنقول عن الفصحاء (نحوٌ من كذا)، فأجابه الأمير بما يلي: متّفق على أنَّ الأفصح أن يقال «نحوٌ من كذا» ولكن ليس بغلط إن قيل نحو كذا. وقد رأيت هذا الاستعمال في كتاب سيبويه وليس مرّة واحدة. فقد جاء في الجزء الثاني صفحة ٢٣٥ من طبعة الكتاب في باريز ما يلي: وقالوا نظير كما قالوا وسيم فبنوه بناء ما هو نحوه في المعنى. وجاء في صفحة ٢٣٦ من الجزء الثاني: وما كان من الصغر والكبر فهو نحو من هذا. وجاء في صفحة ٣٣٥: وقالوا ضخم، ولم يقولوا ضخيم كما قالوا عظيم. ثمَّ قال في الصفحة التي تليها: وقد يبنون الاسم على فعل وذلك نحو ضخم وفخم وعبل وجهم اهـ. ثمَّ يقول: فهذا يدلّك على أنه نحو الطويل والقصير، إذًا يجوز الوجهان ووضع (من) بعد (نحو) هو أولى. وسألت صاحبنا السيِّد الهلالي وهو الغاية البعيدة في النحو واللغة عن هذه المسألة. فقال لي: نعم الأفصح العربي الخالص (نحو من ثلاثمائة)، وأمّا المؤلّفون من عهد سيبويه إلى الآن والشعراء فإنّهم أكثروا من ذلك، والنحو من معانيه المثل كما هنا فلا إشكال في جوازه اهـ.

وسألته أيضًا عن بقيّة اعتراضات السيِّد رشيد (رحمه الله) فقال: (بدلاً من قرع الطبول إلخ) يظهر لي أنَّ السيِّد إنّما اعترض هنا من جهة البلاغة وكان يدقّق فيها كثيرًا، وأمّا الجواز فلا أراه ينكره وأمر ذلك سهل، إذ لا يخلو إنسان أن يوجد في كلامه خلاف الأولى من جهة البلاغة. (قال): وأسلحته تزيد رونقًا وجلالاً صباحة وَجهه). هذا الاعتراض أيضًا من جهة البلاغة بلا شكّ، ويظهر لي أنَّ الصواب فيه مع السيِّد رشيد لأنَّ ركاكته بادية ولست أمنعه وما أجبتم به فيه أنَّ استجلاب الفكر لصباحة الوجه أهمّ وأَولى. (قال): «وبقيت سرايا الفريقين تتردّد إلى غزو بعضها بعضًا» جائز وليس هو من لغة الجرائد لأنَّ لغة الجرائد ولغة عامّة مصر أن يقال مثلاً: «وبقيت السرايا تتردّد على غزو بعضها». نعم لا تخلو تلك العبارة من ركّة، ولو قيل: «وبقيت السرايا يغزو بعضها بعضها» كما قال تعالى: (وتركنا بعضهم يموج في بعض) لكان أَولى اهـ.

وقد ختم الأمير هذه المناقشات بقوله: تقدّم لنا كلام في أننا ترجمنا هذا الكلام ترجمة عن الإفرنسيّة من أربعين سنة وراعينا فيه الترجمة الحرفيّة.

ويعثر قارئ السيرة الرشيدية في غير حواشي الرسائل على فوائد لغوية يحسن بنا نشرها إتمامًا لهذه الطرائف الممتعة، منها ما جاء في ترجمة السيِّد رشيد رضا لنفسه، وفيها ألفاظًا عاميّة يرويها السيِّد على سبيل الحكاية كلفظة (تعبان) ص ٢٧، قال الأمير معلّقًا عليها ما نصّه:

روى الأستاذ هنا لفظة (تعبان) على الحكاية، وإلاّ ففي الصحيح لا يقال تعبان، بل هو تعِب ومُتعب على وزن كثف ومكرم؛ وعلّق على لفظة «البخشيش» التركية أنها مصدر «بخش إيتمك» أي أعطى، ومقابها في العربي «الحلوان» أو ما يعطى للخادم «النُّحل» والنحلان بالضمّ، وتأمّل هنا أيضًا مشرب الشيخ رشيد (رحمه الله) في نقل الأخبار على علاّتها.

وعلّق الأمير على لفظة (صادرت) الواردة في كلام السيِّد ما نصّه:

جاء في لسان العرب: ومن كلام كتّاب الدواوين أن يقال:

صودر فلان العامل على مال يؤدّيه أي فورق على مال ضمنه. وهكذا نقل ذلك صاحب «أقرب الموارد» بلفظ «فورق»، ولكن هذه العبارة نفسها منقولة في التاج بلفظ «قورق» بالقاف أولاً وهي في التاج غلط طبع أو نسخ، إذ لا معنى «لقورق» هنا؛ وأمّا «فورق» فهو للمجهول من فارقه من حسابه على كذا، إذا قطع الأمر بينه وبينه على أمر وقع عليه اتّفاقهما ومثله صادره على كذا، وكلّه مولّد ليس من كلام العرب الألى. وقد جاء في تاريخ الوزراء تأليف أبي الحسن الهلال المحسَّن بن ابراهيم الصابي، الكاتب المتوفّي للسنة الثامنة والأربعين بعد الأربعمائة قوله في ترجمة أبي الحسن علي بن محمَّد بن موسى بن الفرات: «وصودر على مائة وعشرين ألف دينار وصحّ منها ستّون فجيء به من محبسه إلخ... وقوله عن لسان الخليفة المعتضد في ابن الفرات أبي الحسن وأخيه أبي العبّاس: أسأنا إليهما وصادرناهما. وقوله في موضع آخر: وسلم إليه عليّ بن عيسى ومحمَّد بن عبدون فاعتقلهما في دار بدر اللاني وقرّر عليهما مصادرة خفّفها عن علي بن عيسى وثقّلها على محمَّد بن عبدون لعداوة كانت بينهما، وهكذا هذه اللفظة تدور كثيرًا في أخبار ديوان الخلافة.

فوائد لغويّة*

بقلم جناب الأديب عزّتلو الأمير شكيب أرسلان

أحد أعضاء جمعيّة المستشرقين الفرنسويّة

(١)

١ـ سألني أديبٌ ما تقول في لفظة «النوادي» فقد وجدناها في كلامك ووجدنا بعضهم ينتقد استعمالها بقوله إنّها لم ترد في متون اللغة، وأنّ الوارد في جمع نادٍ هو أندية لا نوادٍ، فما جوابك هذا؟

(قلت) لا ينكر ورود أندية جمعًا لنادٍ في كتب اللغة المعروفة لدينا كما أنه لا ينكر كون القياس أن يكون جمعه نوادي لأنه كما لا يخفى يجمع فاعل على فواعل لغير العاقل. ثمّ أظنُّ أنّ الفيروزابادي يوثَق بقوله وهو يقول في مقدّمة قاموسه «خير من حضر النوادي» وإذا اعتُرض بأنّ الفيروزابادي غير جاهليّ لم نعدم هذه اللفظة بهذا المعنى في كلام الجاهليّة نفسه. ورد في مجمع الأمثال للميدانيّ عند شرح مثل (زُرْ غِبًّا تزدَد حبًّا) أبيات رواها المفضل لمعاذ الخزاعي فارس خزاعة في وقته في قصّة جرت له مع جحيش بن سودة ومن جملة هذه الأبيات قوله:

ضربتُ جحيشًا ضربةً لا لئيمةً ... ولكن بصافٍ ذي طرائق مستكِ

ولستُ برعديدٍ إذا راع معضلٌ ... ولا في «نوادي» القوم بالضيق المسكِ

فإن لم نثق بالقياس وبالمسموع من كلام العرب فبماذا نثق وعمّن نأخذ لغتنا؟

٢ـ قال وما تقول في لفظة «استأْسر» هل تأتي بمعنى أسر فقد أيّد ذلك بعضهم وانكره آخرون.

(قلت) قد تمسَّك الذين جوَّزوا هذه اللفظة بحديث عبد الرحمن وصفوان نقلاً عن المطرّزيّ وهذا سند لا يُهزأُ به. وقد رأيتها في كلام الكبار مثل ابن الأثير صاحب التاريخ

* المشرق ج٢ (١٨٩٩) ص ١٠٦٥ ـ ١٠٦٧
وج٣ (١٩٠٠) ص ١٢٣ ـ ١٢٦.

وابن الأثير هذا علَمٌ في اللغة من دقّق في عبارته هذه المرسلة علِم علوَّ كعبه فيها ونصيبه منها وهو يقول في غزوة شهاب الدين أجمير بلاد الهند وغلبته على ملك تلك البلاد عند ذكر وقوع الملك أسيرًا في يد شهاب الدين: «إنّ بعض الحجّاب أخذ بلحيته وضربه إلى الأرض حتّى أصابها جبينه وأقعده بين يدي شهاب الدين» فقال له شهاب الدين: لو «استأسرتَني» ما كنت تفعل بي؟ فقال الكافر: قد استعملتُ لك قيدًا من ذهب أقيّدك به إلخ. وهؤلاء قوم رأوا من الكتب ما لم نرَ وسمعوا ما لم نسمع.

٣ـ قال وما تقول في لفظة «احتمى»؟ (قلتُ) هي واردة في كتب اللّغة المعروفة عندنا بمعنى امتنع عن الطعام حِميةً. على أنّ فحول الكتّاب والشعراء الذين حفظوا اللغة نظير جامعي هذه المتون، إن لم نقل أكثر قد استعملوها في معنى طلب الحماية. قال ابن الأثير: «واحتمى ثلاثمائة من فرسان الإفرنج على تلّ فقاتلهم المسلمون». ووردت في كلامه مرارًا وقال ابن هاني الأندلسي المضروب به المثل في الشعر، وكان يحمل من اللغة أمرًا عظيمًا وذلك من قصيدة يهنّئ بها جعفر بن غلبون بفتح قلعة كتامة:

بلى هذه تيماء والأبلقُ الفردُ ... فسلْ أجَمات الأسد ما فعل الأسد

إلى أن قال:

فتوحات ما بين السماء وأرضها ... لها عند يوم الفخر ألسنةٌ لدُّ
سيعبق في ثوب الخليفة طيبُها ... وما نمَّ كافورٌ عليهِ ولا نَدُّ
حَروريَّةٌ ما كبَّر الله خاطبٌ ... عليها ولا حيَّى بها ملكًا وفدُ
وكانت هي العجماء حتّى احتمى بها ... ملوكُ بني قحطان والشعرُ والمجدُ

٤ـ قال وما قولك في «بارح» هل تأتي بمعنى بَرَحَ؟ (قلتُ) أوردوا على ذلك شاهدًا من كلام الإمام عمر رضيَ الله عنه. وها أنا ذا مورد شاهدًا آخر ذكر ابن عبد ربّه في باب التوديع في الجزء الثالث من عقده الفريد هذه الأبيات من قول إعرابي:

أمبتكرٌ للبين أم أنت رائحُ ... وقلبك ملهوفٌ ودمعك سافحُ
الآن تبكي والنوى مطمئنّةٌ ... فكيف إذا بارحتَ من لا تُبارحُ
فإنّك لم تبرح ولا شطَّت النوى ... ولكنّ صبري عن فؤادي نازحُ

٥ـ قال صاحبنا أمّا استعمال « النوال » بمعنى النيل كما تستعمله الجرائد خصوصًا المؤيّد فهو غلطٌ فاضح بلا شكّ. (قلت) لا أقدر أن أغلِّط كلامًا تكلّم به أهل الجاهلية ورد في ديوان الحماسة قوله من أبيات شهيرة:

وهل حملت عيناي في الدار غدوةً — بدمع كنظم اللؤلؤ المتهالكِ
أرى الناس يرجون الربيع وإنَّما — ربيعي الذي أرجو نوال وصالكِ
لئن ساءني أن نِلْتني بمساءَةٍ — لقد سرَّني إنّي خطرتُ ببالكِ

٦ـ قال وهل يُقال عدوٌّ ألدُّ؟ (قلتُ) يظهر أنّ اللدد من الصفات التي قد يتَّصف بها العدوّ. ويتبعه الحنق والحقد وما أشبه ذلك. قال الشاعر وهو ربيعة بن مقروم الضبّي:

وألدَّ ذي حنقٍ عليَّ كأنما — تغلي عداوةُ صدرهِ في مرجلِ

فإذا كان يُقال « ألدّ ذو حنقٍ » فكيف يمتنع أن يُقال عدوّ ألدّ. فاستقصى صاحبنا البحث إلى ألفاظ وتراكيب أخرى زعم بعضهم عدم صحَّتها وآخرون جوازها سائلاً فيها رأيي، وإن كان يستوري بذلك زندًا لا يفيده قَدحًا ويستحثّ ياسرًا لا يُجيل في مثل هذا قِدحًا فقلتُ له: تلك اعتراضات فيها وفي أجوبتها مجال واسع للقول، والعربيّة بحرٌ لا ساحل له وقد أخطأ كلّ من ظنَّ احتكار علمها أو التبحُّر في فقهها وما أُوتيتم من العلم ألاّ قليلاً.

فوائد لغويّة*

لحضرة الأمير شكيب أرسلان

أحد أعضاء الجمعيّة الآسيوية

(٢)

قال لنا الفاضل الذي أجبناهُ على أسئلته الواردة في العدد الثالث والعشرين من هذه المجلّة: قد فهمنا كلامك في "النوادي" وإنّها ممّا ورد في أقوال المتقدّمين والمتأخّرين ولم يخلُ منه كلام الجاهلين، فضلاً عن كون القياس يؤيّد هذا الجمع. أمّا "استأسر" فلم تورد لنا عليها سوى شاهد ابن الأثير صاحب التاريخ، وابن الأثير هذا مولَّد ويجوز أن يسقط فيما سقط فيه غيره مهما كان من علوّ طبقته ورفعة قدره فهل يا ترى إذا ذهب قوم إلى أن "استأسر" الواردة في حديث المطرّزي هي تحريف يمكنك أن تأتينا بشاهد ينفي عنها هذه الشبهة ويؤكّد أنّ الحديث مرويٌّ بلفظهِ ولا دخل فيه؟

(قلتُ) إذا لم يقنعك الإمام المطرّزي بروايته وابن الأثير في درايته جئتك بأبي الطيّب المتنبّئ الذي كان فوق طبقته في الشعر إمامًا، بل أمّةً وحده في علم اللغة، وذلك حيث لا يحتمل وقوع التحريف قال:

تقنص الخيلَ خيلهُ قَنصَ الوحشِ ويستأْسرُ الخميسَ الرعيلُ.

وقال في محلٍّ آخر:

يستأْسرُ البطلُ الكميُّ بنظرةٍ ويجول بين فؤادهِ وعزائه

قال صاحبنا ما بعد هذا من مقنع، والله أنني لأخجل أن أرتاب في لغة المتنبّئ واتّهم في العربيّة من سأله يومًا أبو عليّ الفارسيّ صاحب الإيضاح والتكملة: "كم لنا من الجموع على وزن فَعْلى؟" فقال: في الحال حجْلى وظربى. قال الشيخ أبو علي: فطالعتُ كتب اللغة ثلاث ليالٍ على أن أجد لهذين الجمعين ثالثًا فلم أجد. قال ابن خِلّكان: وحسبك من يقول في حقِّه أبو علي هذه المقالة. وكان المتنبِّئ من الكثيرين من نقل اللغة المُطَّلعين على غريبها

* المشرق ج٣ (١٩٠٠).

وحوشيّها ولا يسأل عن شيء إلاّ واستشهد فيه بكلام العرب. فحاشا للمتنبِّئ أن يكون قد استعمل لفظة «استأسر» بمعنى أسر متابعة أو على غير بيِّنة.

(قلتُ) وقد حدّثني من أثق به أنه رأى هذه اللفظة بهذا المعنى في ديوان البحتريّ أيضًا. أمّا احتمال تحريفها في رواية الحديث، لا سيّما وأنهم أجروا رواية الأحاديث بالمعنى أحيانًا فهذا بعيدٌ جدًّا أولاً لكون استعمال هؤلاء الفحول الذين هم أساطين العربيَّة لهذه اللفظة بمعناها هذا دليلاً على كونها هكذا وردت في الحديث المذكور. ثانيًا لكون رواية الحديث بالمعنى إنّما تقع أحيانًا إذا كان المقصود استنباط حكم شرعيّ أو استخراج نكتة فقهيَّة. فأمّا أن يكون المقام مقام لغةٍ أو نحو أو صرفٍ ويُروى الحديث بمعناه فلا إذ يفوت بذلك محلّ الاستشهاد. ثالثًا قد أجازوا رواية الحديث بالمعنى لكن ليس لكلّ الناس إنّما حصروها في طبقتين هما الصحابة والتابعون رضوان الله على الجميع، فالصحابة كأبي بكرٍ وعُمر وعليّ وأصحاب هذه المرتبة والتابعون كالأوزاعي وسعيد بن المسيب المخزوميّ وسعيد بن جُبير الأسديّ وأشباههم، وذلك لأنّ مثل هؤلاء كيف روى الكلام فكلامهُ حجَّة وهو ينزّل ما يقوله بمنزلة ما يرويهِ.

(قال) أمّا برهانك على لفظة «احتمى» بمعنى امتنع باستعمال ابن الأثير لها وورودها في شعر ابن هانئ، فابن الأثير كما قدَّمنا وابن هانئ، وإن لقَّبوه بمتنبئ الغرب يجوز أن يُدخل عليه وأن يتناول من لغة العامَّة. فنحبُّ أن تأتي لنا بشاهد أعلى من كلامهما.

(قلتُ) إذا كان ابن هانئ متنبّئ الغرب بعد متنبّئ الشرق أصبح لا يميّز بين العاميّ والفصيح ولا يفرّق بين الهجين والصريح، فمن ذا الذي يميِّز بعدهما؟ أمّا وأنه عندنا شاهد أعلى. ما تقول في ابن دريد؟ قال: هذا علَم اللغة المفرد والقائم مقام الخليل بن أحمد والذي يوم موته قيل: مات علم اللغة. (قلتُ): فهو الذي يقول في مقصورته الشهيرة:

من ظلَم الناس تحاموا ظلمهُ ... وعزَّ عنهم جانباهُ واحتمى
وهم لمن لان لهم جانبه ... ألذعُ من حيَّات أنباث السفا

قلتُ له: بديهيّ أن «احتمى» هنا لا يتضمَّن معنى الامتناع عن الطعام. قال: فهل لك أن تريني النصّ؟ فأريته إيَّاه فنظر في المتن والشرح وقال: لم يبقَ من شبهة في أنّ ابن هانئ وابن الأثير وغيرهما لم يستعملوا هذا الفعل بهذا المعنى إلاّ وهم على ثقة من معناهُ.

(قال): ذكرت لنا أنّ «بارح» جاءت بمعنى «برح» وأوردتَ شاهدًا من شعر أعرابي

رواه صاحب العقد الفريد، وقيل أنّ الإمام عمر رضيَ الله عنهُ نطق بها، فلماذا لم ترِد هذه اللفظة في مطوّلات اللغة مثل لسان العرب وغيره؟

(قلتُ): أمّا كون عدم ورود اللفظة في بعض متون اللغة مانعًا من التسليم بصحّتها مع قيام الدليل على ذلك من كلام العرب فممّا لا نسلّم به. لقد وردت ألفاظ كثيرة في أشعار العرب وكلام الجاهليين وأقوال الصحابة كنهج البلاغة مثلاً، وهي لا توجد في تلك الكتب. وقالوا لا يحيط بلسان العرب إلاّ نبيّ. وممّا يؤيّد عدم الإحاطة ورود لفظةٍ في هذا المتن وهي غير واردة في غيره، بل ورود كلمة في محلّ وهي إذا فتّشت عنها في مادّتها من نفس الكتاب لم تجدها، وجلَّ من لا يسهو ولا يغرب عنهُ شيء. فإذا قلنا أنّ "بارح" مثلاً ممنوعة لكوننا لم نجدها في القاموس وجاءت في شعر جاهليّ ورواها من هو أوثق من الفيروزاباديّ لزمنا أن نرجع عن قولنا حالاً، خصوصًا وقد تبيَّن لك أنّ كلاًّ منهم جاء بشيء لم يجئ به الآخر، بل أنّ أصحاب المختصرات قد ذكروا ألفاظًا لم ترد في المطوَّلات وكلّه يدلّ على الفوت والسهو بحسب البشريّة ويوجب عدم الاقتناع بهذه النصوص حجةً بالغة، لا سيّما عندما تكون بإزاء الشواهد الصريحة.

على أنه من قال لك أنّ "بارح" لم ترد في لسان العرب؟ نعم إنّها لم ترد في مادّة (برح) لكنّها وردت في مادّة (زيل) فإنّه يقول: "زايلهُ مزايلةً وزيالاً بارحهُ" ويقول في مادّة (حفر): "فكانوا لا يبارحون من اشتراها" فكيف يقال بعد هذا إنّها لم ترد في المتون؟ لا ريب أنّ الاستقراء يؤْثمنا في كثيرٍ من الظنون.

(قال) قلتَ لا يخطئ من يقول "سعى في نوال الامتياز الفلانيّ" واستشهدتَ ببيت الحماسة الذي يقول فيه "ربيعي الذي أرجو نوال وصالكِ" فالنوال لا يفيد معنى الأخذ لكن يفيد معنى الإعطاء. كما ورد في كتب اللغة نلتهُ أنولهُ نولاً ونوالاً أي أعطيتهُ، ولعلَّ هذا هو مقصود الشاعر؟. (قلتُ) فما المانع أن يكون مقصود الكاتب أيضًا في قوله "سعى في نوال الامتياز"؟ ولماذا يُعدّ هذا الاستعمال غلطًا ويُشدّد فيه النكير ولا موجب لهذا أصلاً؟ وكما يجوز أن يسعى الإنسان في نيل شيءٍ يصح أن يقال إنّه سعى في إعطاء الآخرين إياهُ إذ المرجّح واحد، وليس هذا من التخريجات البعيدة والتآويل المكلّفة لنعدّه في حكم الغلط.

(قال) فأحبُّ أن تنشر ما دار بيننا أيضًا هذه المرّة لا تجهيلاً لأحد ولا تعريضًا بمنتقد، ولكن حرصًا على فوائد اللغة ونفاسةً بمقام كبار الكتَّاب والفصحاء أن يُظَنَّ كونهم لم يعلموا ماذا قالوا، وأنها قد ظهرت فرطاتهم لمتأخري هذا العصر.

حكم وخواطر*

(١)

كتبت منذ سنوات في المجلّة المصرية بعض جمل وخواطر سنحت لي يومئذ منها ما تحدّيت به مناهج الحكماء، ومنها ما ذهبت به مذاهب التعريض والإيماء إلى معانٍ عصرية ومقاصد سياسية، فاستحسن بعضهم تلك الجمل واستشهدوا بها ووجد في بعضها قوم إغلاقًا ولم يدركوا جميع مراميها فقصدت أن أجرّب هذا النمط مرّةً ثانيةً لا لأنني مخترعٌ شيئًا، بل لأني مجدّد أسلوبًا، إذ إنّ المعاني وإن كان أكثرها قديمًا فلا بدَّ لها في كلّ عصرٍ من زيّ يلائمه، ولكلّ زمنٍ لغة، ولكلّ عصرٍ بلاغة.

ـ قرائح الرجال كمعادن الجبال، لا تظهر القرائح إلاّ بالاختبار، كما لا تعرف المعادن إلاّ بالاحتفار

ـ ما حثَّ مطايا التقدّم مثل مناخس الإنتقاد.

ـ إذا تأخّر بالإنسان مركب الحياة تمنّى مهبَّ الحوادث.

ـ حملة العاقل في رأسه وحملة الجاهل على ظهره.

ـ الفضل ذنبٌ يذنبهُ الفاضل إلى أهل النقص، فليكفّر عنه بالتواضع.

ـ ربَّ ملولٍ من العمل لو ارتاح ملّ أكثر.

ـ قد يفيد السلب، كما يفيد الإيجاب، وأحيانًا ينهض بالمرء النقص ما لا ينهض به الكمال.

ـ قد يكون ما يُجدي العدو بعداوته، بوزن ما يفيد الصديق بصداقته. وكم عداوة أكسبتك محابّ.

ـ المتكبّر ممقوت ولو أخرج الحقّ من جنبه، والمتواضع محبوب ولو لم يتب من ذنبه، لأنه مهما يكن من فضيلة فإنّ الكبر ينسفها، ومهما يكن من نقيصة فإنّ الإقرار يخفّفها.

* المقتبس ج٢ (١٩٠٧) ص ٢١ ـ ٢٤، ٧٨ ـ ٨٢.

ـ أحسن مركز للعدوّ العاقل العدل في غير لين والأدب في غير خضوع.

ـ بعض الناس يداوي العداوة بالظلم، وبعضهم يعالجها بالذلّ، وكلاهما يزيد الداء.

ـ قد تقع الندامة على العجلة بالخير، كما تقع على العجلة بالشرّ، وربّما كان الندم على المعروف مع غير أهله أنكى من الندم على الجزاء في غير أهله.

ـ الصادق أشدُّ الناس دهاءً، لأنه يصل إلى جميع مقاصده من أخصر الطرق، ويعبر إلى النجاة على جسر الاعتقاد.

ـ إذا كان العامل عالِمًا؛ كان إذًا العالم عالمًا (العامل الأول هو الوالي).

ـ إذا كان الملك حكيمًا فمملكته هي المدينة الفاضلة.

ـ لا تظننّ العالم الشرير عالمًا؛ لأن العلم الذي لا تطهّر معه النفس هو كالماء الذي لا يطهّر من النجس.

ـ جميع الخلائق مفترسة، لكن بعضها يأكل بالأسنان وبعضها يأكل اللسان.

ـ ليس المهذّب من لا تجد له عدوًّا، بل المهذّب من لا تجد عليه طاعنًا بحقّ.

ـ أكثر ما يمتدح العدوّ عدوَّه في موطن الحملة عليه.

ـ إذا ضعف زرع القلب أنبت زوان[1] الكذب على أسَلَة اللسان.

ـ إذا قدرت فاصفح؛ لأنّ علو المقام كافٍ في الانتقام.

ـ ما أقبح الهجوم بالمُعوِر والسباق بالمقصّر، وإثارة العداوات بمخروق الستر.

ـ الثناء نبتٌ شائك لا يُجتنى إلاّ بإدماء الأصابع، والراحة لصٌّ هارب لا يُمسك إلاّ بهجر المضاجع.

ـ إذا أنعمت بنعمة وجحدها جاحدٌ فلا تذكرها لأنّ سكوتك عن المنِّ أكرم من كرمك بالمنّة.

ـ أكبر الرجال في عيني من كان فعله أكثر من قوله، وباطنه خيرًا من ظاهره.

(١) زوان: مخفّفة من زؤان.

ـ ضدّان لا أصعب من اجتماعهما لدى المرء، ضيق الرزق وسعة العقل.

ـ لا تنتقم لنفسك مثلما ينتقم لك الدهر، وقد يزيد على ما كنت تريد.

ـ ما عاض من المال مثل العقل، ولا سدَّ هوَّة الفقر مثل الشرف، ولا قصفَ غصنُ الفضيلة مثل ريح الدعوى، ولا جدع أنف الأصالة مثل دنس العرض، والأصيل الطاهر أولى بالعشق من الجميل الباهر.

ـ مناط الحساب العقل، وعلى قدر عقل الخصم يكون إنفعال خصمه منه.

ـ لا يغلبك في خصام مثل المجنون، لأنه محكومٌ له من الجميع من أول جلسة.

ـ الصداقة أمانةٌ، وجدير بالأمانة التي أبت حملها الجبال أن لا تُعرض إلاّ على أقوياء الرجال.

ـ أسعد حالات الصداقة أن يتوازن الحسن والحبّ، وأن تتساوى درجات الاعتبار في العقل مع درجات الإئتلاف بالقلب.

ـ يجب أن يصوَّب الصواب ولو خاب صاحبه وأن يُخطَّأَ ولو فاز راكبه، لأنّ الصواب للنجاح أساس، وما جاء خلاف ذلك فعلى خلاف القياس.

ـ كلّ عهدٍ لازمٌ ذمَّة صاحبه، إلاّ في الشرّ فالنقص حلال.

ـ ما أعجب إلاّ ممن يتعرّض للنوافل وهو غير متمّم للفروض، وممن يتصدّى للمكارم وهو غير مؤدٍّ للحقوق، وممن يأخذ طريقة رفاعيّة أو قادريّة وهو مقصّر في نفس الإسلام.

ـ من أغرب ضروب الحسد أنّ العين تجمد لجاهك، ولو كنت محسنًا وتسيل لبؤسك ولو كنت مُسيئًا.

ـ ليس معنى التعنُّت في اختيار الصديق النفور من الناس، أو التقطيب في وجوه الجلاَّس، إذ بين الصداقة والمؤانسة درجات، فمؤانسة الجميع لباقة وكياسة، ومصادقة الجميع حماقة وخساسة.

ـ لا يمكن الإنسان أن يحب من لا يحترم، ولكن ربما اتخذ من لا يحترم وسيلة لقضاء حاجته وشتّان بين المحبّة والمصانعة.

ـ لا يجب الاتّكال على الكبار في تجويد الأعمال العامّة بسبب علوّ مراتبهم، لأنّ غلط الكبير يكون كبيرًا، ولأنّ علوّ المركز يحول دون التدقيق.

ـ بقدر حظّك من الدنيا تقسو عليك القلوب، وعلى درجة علوِّك تنظر شزرًا إليك العيون.

ـ لو كانت قيمة كلّ امرئٍ ما يحسنه حقًّا لخسف المقام بكثير من كبار الأرض.

ـ الشهادة الحسنة بحق العدوّ أحبولة التصديق عند الذمّ.

ـ الجهل البسيط أول درجات العلم، وخيرٌ للإنسان أن يقيم بالعراء من أن يقيم بالبناء الساقط.

ـ يستريح المرء مع الصدوق لأنه يركن إلى كلامه كلّه، ومع الكذوب لأنه لا يقبل شيئًا من جدِّه ولا هزله، وإنّما كان التعب مع المتوسّط هذا الذي لا يُدرى متى يصدق ومتى يكذب.

ـ ما من خيرٍ محض، ولا من شرٍّ محض، ولا من حالٍ تضرُّ من وجهين.

ـ قيمة الشيء الحاجة إليه، فالثلج قيمته حمله، والحجر ثمنه نقله، وكم تراب هو ذهب، وكم عودٍ يستطرَف، وهو في أرضه حطب.

ـ إذا طال البؤس على امرئٍ تمنّى التبديل لأنّ بالتقلّب على الجنبين راحةً للعليل.

ـ التواضع ستّار كلّ العيوب، والخضوع مليّنٌ لأقسى القلوب.

ـ لا تفرط في تشهّي أمر فربّما صار حلوُه علقمًا وآلت راحته ألمًا وجنيت من كثرة التمني ندمًا.

ـ كثرة التسهيل في الأول تورث كثرة التعقيد في الآخر.

بيروت

شكيب أرسلان

حكم وخواطر★

(٢)

ـ من ترك شغله للوكلاء ضاع عليه النصف إذا ربح، ودفع من ماله الضعف إذا خسر.

ـ ما احتاج إنسان مداجاة أعدائه إلاّ من فسولة[1] أصدقائه.

ـ كما لا ترجو صداقة الكذّاب، فلا ترجُ صداقة الجبان، لأنّ الكذب والجبن أخوان أبوهما الضعف.

ـ أدلُّ الدلائل على حماقة المرء جمع الضدّين على بغضه، والصادق الحكيم يجمع الأضداد على حبّه.

ـ أكثر ما تكون المواعظ كالخزف الصيني في البيوت تُحفظ ولا تستعمل.

ـ خمود الهمم عند اشتعال اللِّمم.

ـ إنّما آثر الناس العدوّ العاقل لا لأنه لا يضر، بل لأنه أبلغ في الضرر، وأخفُّ في الألم، فهو كالسيف الماضي يقطع ولا يؤلم، أمّا العدوّ الجاهل فهو سيف كليل لا يقطّ الرقاب ولا يُريح من العذاب.

ـ لا يقدر على احتمال رفعة الأدنياء إلاّ الفيلسوف الذي تساوت عنده الأشياء.

ـ يُظَنُّ الكريم قليل الأنانيّة والحال أنّه أشدّ حبًّا لنفسه حيث آثرها على المال، ويُظنُّ اللئيم محبًّا لذاته والحال أنه عدوُّ نفسه إذ أسقطها في مساوىء الأعمال. وإنّ سموأل الوفاء أشدّ إثرةً من كل إنكليزيّ على وجه الأرض، لأنه سمح بحياة ابنه لأجل حياة اسمه.

ـ إذا خاف الإنسان غائلة عدوّ متكبّر أنامه بمورفين التقريظ.

ـ لا تظننَّ محالاً عداوة محبّ مهما اشتدَّ كلفه، ولا محبّة عدوّ مهما تناهى شنآنه، فإنّ الزوجين يكونان جسمًا واحدًا ويقع بينهما الطلاق، وإن في مخازن الغيوب ما لا يخطر على القلوب.

★ المقتبس ج٢ (١٩٠٧) ص ٢١ ـ ٢٤، ٧٨ ـ ٨٢.

(١) فسولة: كسل وضعف.

- إن لم تلن دمامل الفتن بمراهم المراحم لم ينجع فيها إلاّ المبضع الصارم، لكن لا خير في عنف لم يتقدّمه لطف.

- يُتّقى الخراب الكبير بالإضطراب الصغير وكلاهما من البلاء، كما يُتّقى المرض الثقيل بالتلقيح الخفيف وكلاهما من العياء.

- العقل بلا قلب نورٌ بلا حرارة.

- لذّة الخيال أقوى من لذّة الواقع، لذلك المجاز أوقع من الحقيقة.

- القليل من الخبيث يفسد الكثير من الطيّب، كما أنّ المتر المكعّب من الآجن يفسد ذوق مائة مثله من العذب الفرات.

- قوّة الإرادة من قوّة الكهرباء، لأنه متى امتلأت الإرادة جذبت المقاصد البعيدة بدون سلك ظاهر.

- إذا تلبّدت غيوم الغموم لم ينشرها مثل تموُّجات الهواء، بألحان الغناء.

- الطبيعة مثال، والشاعر مصوّر، وأحسن الشعراء توليدًا، أجودهم للطبيعة تقليدًا.

- يكاد الشعراء يكونون صوفيّةً لأنّ المعنى واحد والصور مختلفات كما أنّ الوجود واحد والتعدّد للجهات.

- من دلائل أنّ الحياة خيالٌ لذّة الإنسان بالأماني وأنّ عِلمها كواذب، ولهوَه بالتصوُّرات ولو كانت محالات، وبكاؤه بالدموع في قراءة قصصٍ موضوع.

- لا تخالنَّ المستغرق في فنٍّ قاصر نظره عليه أبصر به من سواه ممن ينظر في متعدّد الأمور، لأنّ تنوُّع الموضوعات في ذهن الإنسان يوسع دائرة العقل ويسدّد مرامي الحكم.

- ينبغي أن تدقّق في اختيار صديقك كما تدقّق في اختيار امرأتك، إذ كما يجب للناس أن يتخيّروا لنُطفهم كذلك يجب أن يتخيّروا لمرؤآتهم.

- خيرٌ للمرء أن يكون خصيًا من أن يلد عاقًّا عصيًّا.

- لا يبرد على الأكباد شيءٌ كزكاء ثمراتها.

ـ التقبيل ضريبة الحُسن، والمشورة ضريبة الذكاء، والجود ضريبة اليسار، والنجدة ضريبة البأس، ولا يمنع الضرائب إلاّ العاصي على الله والناس.

ـ إذا أوصيت بامرئٍ ولم يرجع إليك فاعلم أنّ حاجته قد انقضت، لأنّ أكثر المراجعة يقع استنجازاً للحاجة، ونادرًا يقع شكرًا على النعمة.

ـ كذب الكبير يسمّى سياسة.

ـ يستدلُّ بسيادة الغرباء في بلاد على انحلال العصبيّة أكثر مما يستدلّ بها على الأخلاق الرضيّة.

ـ المملكة جسمٌ والأجنبيُّ ميكروب، ولا يرعى الميكروب من الجسم إلاّ مواطن الضعف.

ـ قلوب العشاق أقدم من تلغراف ماركوني.

ـ العصر الجديد هو عصر الحديد، والغناء الأقوى بالغُثاء الأحوى (الفحم الحجري).

ـ لو ردَّ الناس كلام الكذّابين بحذافيره لالتزموا الصدقُ وإنّما روَّج بضاعة الأفك أنه مهما اشتهر به الإنسان فلا يزال يلصق منه بالأذهان.

ـ خير لمن لم يُصب طهور العلم أن يتيمَّم بالتقليد.

ـ ما أجدر العائلة بنقطة.

ـ كم وجهٍ أبيض منه بلاء أزرق، وفرع أسود منه موت أحمر.

ـ أكثر الناس استعدادًا لعداوتك من قام من تحت سلطتك، لأنه يريد أن يقوم بقدر ما نام، ولأن سواد الليالي متعادل مع بياض الأيّام.

ـ قد لا يكون الإمام تقيًّا وتصحّ الصلاة إذا راعت الجماعة شروطها، وقد لا يكون الوالي عادلاً وتمشي العدالة إذا عرفت الرعيّة قوانينها.

ـ الحسد نارٌ في الفؤاد يبرّدها بعضهم بالتنقُّص ويلقي عليه اسم الانتقاد.

ـ الوالي الظالم خائن للسلطان في أمانته فجزاؤه جزاء الخائنين.

ـ "جهنّم بالعزّ أطيب منزل" أبلغ بيت إلاّ في مقام الهوى.

ـ قد تذهب الحقوق ضحيّة الخلابة، وقد تأكل المتاع نار الذرابة، وقد تختفي الحقائق بين هدرات الشقاشق، ولكن ذو البصر يميّز بين الغَثّ والسمين، ودريفوس يتبرّأ ولو بعد سنين.

ـ من كان مرمى نقده الإصلاح العام لم يخفَ ذلك من أسلوبه، والناس أكيس من أن لا يفرّقوا بين الحاسد والناصح.

ـ إحذر من هو دونك في العداوة أكثر من حذرك ممن هو كفؤك، لأنّ الكفؤ يأنف أن يقاتلك إلاّ بسلاحك ولا يأخذك غيلة، أما الدون فإنّه يأخذك كيفما استطاع ولا يرى في ذلك غضاضة.

ـ كانت الفتوحات أولاً بالسيف فصارت اليوم بالدَّين فهي لا تزال بين الأحمرين.

ـ لا تُجتاز عقبة بدون جُهد سواءٌ النازل فيها والطالع.

ـ متى ثارت القبائل وهاج هائج التعصّب على الأجانب، فاعلم أنّ في تلك الجهة معدنًا أعجب المهندسين أو أنّ شركة تألّفت لاستثمار بعض الأرضين.

ـ أجدر المصابين بالشماتة قومٌ لم يزالوا يتحاملون على ولاتهم العقلاء حتّى ابتلاهم الله بولاية المجانين.

ـ إذا اهتدى المغول إلى معارف الإفرنج فالصين قد صين.

ـ لا بدَّ من يومٍ أسود بين الأصفر والأبيض.

ـ السياسة في أيّامنا هي فوق الديانة، لأنه إذا تعارض العقل والنقل أُوِّل النقل حتّى يطابق العقل، أما السياسة فلا تقبل التأويل أيًّا كان مصادمها.

بيروت

شكيب أرسلان

الشعر

طبعٌ أو صنعةٌ أو كلاهما*

للأمير شكيب أرسلان

كنت في العام الماضي إذ أنا على ضفاف النيل المقدّس قد تمتّعت في أثناء القراءات المستعجلة بكتاب وقفت له وأرسلت طرفي فيه على مهل أقلّبه بين أمثال الرياض والجنان وأشباه اللآلئ على نحور الحسان، إلى أن انتهيت منه وأنا به جدّ معجب وفي نفسي أن أعيد قراءته ألا وهو كتاب "الطبع والصنعة في الشعر" من قلم الأستاذ مفخرة الكتّاب السيِّد محمَّد الهيهاوي الذي أتى به من جملة بدائعه. ونويت أن أقول فيه شيئًا أبتّ به بعض ما بلغ هذا الكتاب من نفسي، ولم أكن في هذا الأمر إلاّ ما كنته في خطابي القديم لمحمود سامي باشا البارودي إذ أقول:

إذا مطر الغيث الرياض بوابلٍ ... فأيُّ يدٍ للطائر المترنّم

أكان للناس عجبًا أن يخرج الأستاذ الهيهاوي مثل هذا الكتاب؟ لا والله، بل العجب كلّ العجب أن يستكثر الدر على مثل هذا البحر وأنَّ الكتّاب إذا قيسوا إليه يقصّرون ويضمرون، وأنهم في جانبه لكَما قال الله تعالى: ﴿ومنهم أمّيون لا يعلمون الكتاب إلاّ أمانيّ وإن هم إلاّ يظنّون﴾ ولكن تأبى الأقدار إلاّ أن تظهر الأقدار ويجدر بالعيون أن تبتهج بالأنوار، ولا يمرّ بالفضل فلا يكبره إلاّ من كان من الظالمين ﴿ولا نكتم شهادة الله إنّا إذًا لمن الآثمين﴾.

قبل كلّ شيء أريد أن أورد بعض الأمثال من أسلوبه الفائق في التعبير المبيّن عمّا في النفس من معنى عميق وخاطر دقيق، قال في المقدّمة: "وهو رأي جديد وليس ممّا ينافي ذلك أن يكون أحد في القديم أو الحديث قد رآه وصحّت عنده بيّناته ثمَّ حبسه في نفسه إيثارًا للصمت المريح". وقال بعد ذلك: "ثمَّ أقبلت الحضارات فاحتوت الشعر فيما احتوت من معالم الحياة ونفضت عليه من صنعها ما نفضت على غيره". ويقول: "ليس يطّرد أن يكون إنسان صانع شعر على الإطلاق فربّما كان للشعر في فطرته ينبوعه، ولكنّه يتكلّفه في بعض

* المقتطف ج٩٧ تموز سنة ١٩٤٠ ص ١٤٩ ـ ١٥٥.

حالاته ليصانع ممدوحًا، أو يحاسن ظالمًا، أو يداري سفيهًا، أو يزدلف إلى قويّ أنكد». ثمَّ يقول: «وفي خوالج النفس ضروب بعيدة الغور قاصية المراح فما يكون منها كذلك ليس كلّ شعر مقتدرًا عليه في كلّ آن، ولا كلّ شاعر موفقًا له في كلّ حين فقد تهتاج النفس فينقدح فيها من المعاني والمشاعر والأخيلة وصور الإحساس ما تعلم وما لا تعلم، ثمَّ تضطرّم في كلّ ذلك بما تدريه وما لا تدريه. ثمَّ يموج ذلك بعضه في بعض فتموج هي به، فإذا هي دنيا يعمرها من هذه الإلهامات عالم تعرفه بما يلتمع في جوانبها من ضوء وما تجده مع هذا الضوء من حرارة وفي دون ذلك ينقطع عنها الخبر ويفتر الوحي».

هنا تصوير لخوالج النفس الشاعرة لا سيّما في حال انبعاثها بالشعر قلّما وفّق كاتب إلى مثله غاص الكاتب على أدقّ حركات النفس، فانتزعها انتزاع من لم يبقَ ولم يَذَرْ وأبرزها في قالب هو المثل الأعلى في الجلاء، والأمدّ الأقصى في الجمع بين الجزالة والرقّة، وهناك في وسط هذا المأزق البياني الأسلوب العربي الخالص الذي لا تأتيه العجمة من بين يديه ولا من خلفه، فلمثل هذا فليعمل العامل إن كان ممّن يطيق هذه الغاية البعيدة، وإلاّ فليذروا بوصف خوالج النفس والغوص على دقائق حركاتها بالأساليب التي تنكرها العربية، وقد تفهم مفرداتها ولكن لا تفهم مركّباتها، فكأنها لغة جديدة لا يفهم العربي منها قليلاً ولا كثيرًا. وانظر إلى عمق قوله «ما يلتمع في جوانبها من ضوء وما تجده مع هذا الضوء من حرارة». يريد أن يقول إنَّ النفس المهتاجة إلى الشعر تتجلّى لها أنوار ومعارف من جهة العقل، وتثور بها أشواق وعواطف من جهة القلب، وإنَّ المعرفة قلّما تأتي إلاّ قرينة للحبّ وإنَّ النور قلّما يكون بلا حرارة. وهذا في الذروة من الإبداع والنهاية من سلامة الاختراع ولو لم يكن في هذا التأليف سوى هذه الفقرة الغنيّة بفحواها لكان كافيًا لإثبات سحر بيانه، فكيف وكلّه على هذا النسق المدهش، لا جرم أنه شأو لا يطاوَل. ثمَّ تراه يقول: «وليس كلّ أحد تداخل نفسه هذه الإلهامات بمستطيع أن يعبّر عنها بهذا اللسان الذي يتحرّك بين الجوانح لا بين الأفواه»، أي أنَّ الكلام لفي الفؤاد، وأنَّ اللسان الذي يتحرّك بين الفكّين إنّما ينثّ[1] حديث القلب والبيان الأصلي، إنّما هو له وما اللسان إلاّ رجع صدى تلك التجاويف التي هي الجوانح. ثمَّ قال: «وإذن فليس كلّ أحد بمستطيع أن يكون شاعرًا ولو كان ناطقًا، فإنَّ الله الذي خلق الشعر وجعله صفوة الكلام لصفوة المعاني اختار الشعراء وجعلهم صفوته لهذا الشعر». وهنا تذكّرت أنَّ لي فصلاً شهيرًا سبق لي في تعريف الشعر

(١) ينثّ: يبثّ ويفشي.

من مدّة تناهز نصف قرن، ونقله المنفلوطي (رحمه الله) في مختاراته، ولست بمورد من هذا الفصل إلاّ جملة واحدة هي من هذا المقام بسبيل لأني ما جئت لأتكلّم على نفسي وإنّما جئت لأحدّث القرّاء بإبداع الههياوي، وتلك الجملة هي هذه:

«وحسبك أنَّ الأولين الذين هم الأوّلية في البيان كما في الزمان كانوا يحسبون الشعر قوّة من وراء الطبيعة وربّما جعلوا له شياطين ـ وكان الشعر في الجاهلية دولةً وملكًا، وإذا أجاده واحد تهيّبوه تهيّب الأمراء، وأجلّوه إجلال الرؤساء، وإذا تذبذبوا في الإيمان برسول بهرتهم آياته، وأفحمتهم معجزاته، أحالوا إعجازه على الشعر كأنه الدرجة الثانية التي يمكن أن تنزل عنها الآيات من عتبة الوحي». ثمَّ عالج الأستاذ الههياوي قضيّة من قضايا تاريخ النفس هي، هل النظم سبق النثر أم النثر سبق النظم، فجاء هذا بفلق الصبح عن دجنة هذا البحث المظلم، وقرن إلى أصالة الرأي وقوّة الحجّة قالبًا من البيان وطابعًا من الفصاحة انتظم اللفظ فيهما بالمعنى انتظامًا يتائم البحور في نحور الحور. وما قولك في بيانِ أحسنُ وصفِ له عَرَضه وأحسنُ خبر عنه عِيانه. وقد قال شوقي (رحمه الله):

ما كلام الأنام في الشمس إلاّ أنها الشمس ليس فيها كلام

وقلت أنا في معارضة لذلك:

وفعال الضرغام أوقع في النفـ ـس من القول إنّه الضرغام

لهذا أوثر أن أنقل كلامه من دون تعليق، فهو يقول:

«إنَّ أسلم طرق النظر أن نلتمس رجحان الرأي في هذه المسئلة عند الغريزة نفسها، فالأشبه بالصواب أنَّ دواعي الحاجة المادّية أسبق إلى الإنسان، حين لم يكن شبّ عن فطرته في مهده الأول من دواعي الإحساس الروحي، ولكن لا ريب أنَّ هذا الإحساس صحبه في هذا المهد. فمدار النظر إذًا هذا السؤال: بماذا نطق الإنسان أول ما نطق؟ هل كان أول كلامه تعبيرًا عمّا يجده من لذّة وألم أو كان صوتًا ساذجًا يحاول أن يعبّر به عن حاجته المادّية؟ وكأنك تقدر أن تقول من غير تحرّز، إنَّ احتيال هذا الكائن الجديد للتعبير عن حاجته إلى وقاء يصرف عنه مخاوف الطبيعة وينجّيه من ثورتها شغلَه وهو في مهده الأول عن أن يهزج ويترنّم. غير أنه لا ريب أنَّ فترات من اللذّة والمرح كانت تعتاده أبدًا كما كانت لا تفتر عنه بواعث البكاء والحزن ونحوهما من المفزعات، فإذا ترجّح أنَّ الإنسان أرسل الكلام إرسالاً قبل أن يشدو به لحنًا، فهي قبلية الطروء لا قبلية التكوين. أمّا الشعر المخمّر الذي تخرجه

الصنعة وترسخه عزيمة التفكير، ثمَّ لا تزال تزخرفه فطنة الصانع حتّى يصير فنًّا من فنون الجمال الصناعي، فلا جدال متأخّر عن النثر مسافة تأخّر الحضارة الإنسانية عن طفولة الإنسان. ومثله النثر الذي وضع الإنسان فيه يديه. والشعر بعد ذلك ضرب من كلام الناس، وهو كذلك في ظهارته التي تحوكها الألسنة من خيوط الألفاظ. أمّا هو في بطانته التي تحوكها القلوب من خيوطها، فشيء لا يصدّق في تسميته من يسمّيه كلامًا فقط وكيف لهذه التسمية أن تصحّ وهو لا يزال يتقلّب في بطانته على ألوان شتّى، فهو تارة تنغيم وتشجية أو تنعيم وتطرية، وحينًا قلوب واجبة[1] وعيون دامعة، وآنًا أكباد ذائبة ونياط متقطّعة، وربّما لصفَ ورق فيما هو عاتٍ متمرّد، وربّما صفا وراق وهو الرعد القاصف والسيل الجارف. وصاحبه الذي يشدّ أوتار قلبه لنصب في كلّ قلب ما يوائمه هو هذا الشاعر الذي يغنّي لنفسه فيجد عنده كلّ أحد ما يغنّي به على ليلاه». اهـ

هذه أنموذجات من جمل هذا الكتاب الممتع يقاس عليها غيرها، وبالجملة فهو كتاب يوصي بنفسه بمجرّد مطالعته ولا يحتاج إلى من ينوّه به، والشيء العالي لا يحتاج إلى من يصف علوّه وإنّما وصفه مجرّد النظر إليه. ولعمري عندما تحدّث الأستاذ الههياوي عن الشعر تحدّث بشعر، بل بشعر من الطبقة الأولى، فإن كثيرًا من عباراته، وإن كانت في الصورة نثرًا هي من الشعر المحض الذي تتمنّى الأوزان أن تتحلّى بمثله وتتحسّر القوافي على قصورها عن شأوه. وفي هذا الكتاب من الشواهد الشعرية لا سيّما في باب الغزل ما تذوب له القلوب، وكلّ ما يذوب فإنّه يذيب، وإنّما جاء بها للدلالة على أنَّ الشعر طبع لا صنعة. فإنّك تقرأ البيت فتجد كلّ حرف منه صادرًا عن القلب أو تجده كلّه صادرًا عن كلّ ثنية من ثنايا القلب، وترى اللفظ على قدر المعنى، لا يشتكى قصر منه ولا طول إذ كانت يد الصنعة لم تعمل هناك شيئًا. ولنورد بعض الأمثلة:

وبي من جوى الأحزان والبعد لوعة	يكاد لها قلب الشفيق يذوب
وما عجبٌ موت المحبّين في الهوى	ولكن بقاء العاشقين عجيب

يقول: «فلوعته بين جوانحه لا بين شفتيه، وهي بعد ذلك لوعة تدنيه من أجله وهو لا يرى من العجب أن تفيض عليها نفسه فيموت بهواه. ولكن العجب عنده أن لا يموت بمثل هذا الهوى كلّ عاشق ملتاع، وهو يقول ذلك فيخبر به عن يقين يملأ قلبه لأنه يخبر

(١) واجبة: واجفة خائفة.

عن حبّ الفطرة في شعر الفطرة». ويقول في منزلة أخرى من منازل الحبّ:

فيا واشيَيْ عفراء ويحكما بمن ... وما وإلى من جئتما تشيان
بمن لو أراه عانيًا لفديتُه ... ومن لو رآني عانيًا لفداني

قال: «وحديث هذين الواشيين أنهما سعيا بها عنده لعلّ الوشاية تصرفه عنها فيبرأ. ولكنّه يلقاهما أول الردّ بدعوة الهلاك ثمَّ يسألهما بمن يشيان؟ وما الذي يشيانه ممّا يحفظه عليها؟ وإلى من أتيا بهذه الوشاية؟ ثمَّ لا يكلّفهما ردّ الجواب لأنه يعرف منه ما لا يعرفان. أمّا الجواب فهو أنَّ الخيبة كلّ ما ينالانه عنده فقد مزج الحبّ قلبه وقلب عفراء حتّى تفاديا فهو بنفسه يفديها وهي بنفسها تفديه. وهذا كلام سهل يعطيك معنًى سهلاً، ولو أنك وزنت معناه بين المعاني الضخمة لما عدلها إلاّ كما تعدل الهباءة ضخامة الجبل. ولكنّه أيضًا معنى تخف القلوب لتستقبله على الآذان وتلتفت له الأرواح قبل أن تعرضه العقول على ما عنده من وزن وكيل وهو كذلك لأنه معنى اقتضته الفطرة فتحدّث عنه بلغتها» اهـ.

قلنا من الشعر عواطف، ومنه خواطر فما كان منه باب العواطف فهو شعر الفطرة الذي يتحدّث عنه الههياوي، وما كان منه من باب الخواطر فهو الشعر الذي تألفه الصنعة وقد يغلب عليه التعمّل. والضرب الأول هو الذي يلتاط[1] بالقلب ويريد بعضهم أن يحصر فيه الشعر، والضرب الثاني هو الذي يلذّ العقل وكثيرًا ما تترنّح له الأعطاف لسموّ معانيه ودقّة إشاراته، فكلّ منهما واد يهيم فيه روّاده. ويظهر أنَّ الأستاذ الههياوي لا يرى هذا الضرب الثاني من الشعر فتراه يقول في صفحة ٥٠ من كتابه: «ولا أحسب بعد ذلك أنَّ للفلسفة ـ على اعتبارها حقائق تقريرية ـ صلة بالشعر في أية حالة». ثمَّ يرى نفسه قد بالغ في السلب فيستدرك على نفسه بهذه العبارات: «ولكنّها تعود وثيقة الاتّصال به إذا ذهبت مذهب النظر في هذه الحقائق من وجوهها المعنوية أو إذا ذهبت مذاهب التفكير في حقائق الوجود، حيث إنّها مظاهر جمال وروعة لهذا الكون العظيم، فحينئذٍ يتّصل الشعر معها بالفطرة أو هي تتّصل بها معه فيصبح أثرًا من آثارها. فالذين يعالجون بجبروت العقل أقضية المسائل الرياضية ويستقرون جزئياتها، ويسبرون بواطنها ويقدّرون ما ينتهي إليه ظاهر اليقين من براهين الثبوت أو الانتفاء، هؤلاء، لا تأنس بالشعر فطرهم ولا تنتحيه وإذا طلبت على هذا شهادة الواقع فستجدها في حال الفارابي وابن سينا وأضرابهما من أصحاب

(١) يلتاط: يلتصق.

هذا المنحى في كلّ جيل وكلّ عصر، فهؤلاء أقصى غايتهم من الشعر أن يقولوا كما قال الفارابي:

بزجاجتين قطعت عمري — وعليهما عوَّلت أمري
فزجاجةٌ ملئت بحبرٍ — وزجاجة ملئت بخمرِ
فبذي أدوّن حكمتي — وبذي أزيل هموم صدري

قلنا إنَّ هناك مثلاً سائرًا يقول: الفتوى على قدر النص، ونحن نرى الأخ الأستاذ انتخب أوهى نصّ في القضيّة وأفتى به. أفلا استشهد من شعر الفارابي بقوله:

لمّا رأيت الزمان نكسًا — وليس بالصحبة انتفاع
كلّ رئيس بهِ ملالٌ — وكلّ رأس بهِ صداع
لزمت بيتي وصنت عرضًا — لهُ من العزّة امتناع
أشرب ممّا اقتنيت راحًا — لها على راحتي شعاع
لي من قواريرها ندامى — ومن قراقيرها سماع
واجتني من حديث قوم — قد أقفرت منهم البقاع

فلو كان أتى بهذا الشاهد لكان أبرز الفارابي بغير الحلّة التي أبرزه بها، ولسلّم أرباب النقد أنَّ الفارابي من شعراء الفلاسفة وفلاسفة الشعراء، وإن كان شعره على كلّ حال ليس بشعر الفطرة. ثمَّ قال: «أو كابن سينا في قصيدته التي لم يشُع له شعر سواها والتي يقول في مطلعها:

هبطت إليك من المحلّ الأرفع — ورقاء ذات تعزّزٍ وتمنّع

فحظّ الفارابي من الشعر في أبياته ـ التي أوردها الأستاذ لا التي أوردتها أنا ـ لا يختلف عن حظّ المغنّي المزكوم من حسن الصوت وجودة الغناء، وابن سيناء لم يأته الشعر في قصيدته آنسًا إليه حفيًّا به، ولكنّه هو الذي استذلّه بالقسر والإكراه ليلغز شيئًا في خاطره وليجعله رمزًا للنفس التي قيل إنّه يريدها. والسبب في أنَّ الشعر لا يتّسق لطبع هؤلاء أنَّ الفلسفة التقريرية لا تزن الأشياء بميزان الخيال ولا تراها ببصيرة القلب، ولكنّها تزنها بميزان الحقيقة الواقعية. فأصحاب هذه الفلسفة يتناولون الأشياء من مادّتها الصلبة وجوهرها

اليابس لا بالتخيّل والوجدان الذي يفكّر به المثال في قطعة الحجر بين يديه ليرى كيف يتّخذ منه تمثاله، بل بالذهن المقتحم المصمّم الذي يفلّق به من ينقّب على الركاز جوانب الأرض ليكشف خبيئتها. فإذا انطبق وصف الفلسفة على تفكير المتأمّلين من مرتادي الحقّ والجمال فهنالك يأتي فلاسفة التأمّل الإحساسيون، أولئك الذين يمتزج فيهم صفاء العقل ونقاء الحسّ ويتقابل في فطرتهم أمن الطريق وسلامة الغاية. فإن كان للشعر في هذه الفطرة ينبوعه سكبوه على الإنسانية هدى من ور[1] الأرواح وأفاضوه ريًّا من قطرات القلوب.

ولقائل أن يقول: أردت أن تصف كتاب الههياوي فما زدت على نقل كلامه بعينه. قلت: ماذا أصنع إذا كان منقولي خيرًا من مقولي. ثمَّ ماذا أصنع إذا كان لا يزاد على كلامه شيء ترانا نأخذ الشاهد بحذافيره تلذّذًا أو متاعًا للقارئ بأسلوبه البديع، وكذلك عجزًا عن تخليصه إذ كان قد بلغ من البلاغة أمدًا امتنع فيه عن التلخيص وعلا على التحصيل.

ولنقف بالقارئ عند هذا الحدّ ولنحله على الكتاب نفسه، فإنّه أصدق عن نفسه خبرًا وقد قيل إنَّ الحواشي مخّ المتون، والزيت مخّ الزيتون. ولكن كتاب "الطبع والصنعة في الشعر" لم يدع مجالاً للحواشي فهو مخّ من أصله. وبالاختصار لا نزاع في أنّ الشعر الحقيقي هو الطبع ولا مشاحة في أنَّ الشعر الذي هو والشعور من مقطع واحد لا يمكن أن يكون في أصل انبعاثه إلاّ طبعًا وسليقة وموهبة فطرية وزيادة في شفوف الطبع البشري وأمدًا بعيدًا في رهافة الإحساس إلى أن يرى الشاعر بمرآة نفسه ما لا يقدر أن يرى سائر الناس بمرائي أنفسهم، وإلى أن يشعر بكثير ممّا يمرّ به سائر الناس فلا يثير من هؤلاء ساكنًا ولا يستفزّ خاطرًا، وإنّما هو يثير منه سواكن ويبعث كوامن ويجعل إنسانية الشاعر مضاعفة أضعافًا. هذا وعلى قدر ما يكون الطبع شفّافًا، وتكون النفس صافية قابلة لارتسام المرئيات فيها وانتقاش المؤثّرات على صفحتها، يكون صاحب ذلك الطبع وتلك النفس شاعرًا مطبوعًا مجيدًا وربّما كان عبقريًّا، إلاّ أنه لا يكفي ليكون الشاعر مطبوعًا مبدعًا ولا سيّما ليكون عبقريًّا أن يرقّ فيه الشعور ويرهف الإحساس وتشتدّ قوّة التصوير ويتضاعف الخيال دون أن يفاض على تلك العواطف التي تهتف بها فطرة الشاعر، وهاتيك الخوالج التي أوتيها بالنحيزة ملابس من البيان، تملك على السامع مشاعره تأتي فيها اللغة تجرّر أذيالها ويفيض من مختلف نواحيها الأدب طاميًا تيّاره، فإنَّ الشعور مهما رهف والخيال

(١) ور: وردت هذه الكلمة هكذا مع العلم أنّ الور هو الخصب، وهو مرادف لا يماشي المعنى المراد كثيرًا ولكنّنا اقتضينا الأمانة فأوردناها كما هي.

مهما جسم والمعنى مهما دقّ، إن لم تكن ثمّة لغة مجيبة ولهجة ملبّية من دون كلفة وعبارة ألقت عليها الفصاحة رواءها ومدّت رواقها، خرج الكلام غثًّا باردًا لم تنهض بركاكة قالبه متانة لبّه، ولا عاضت قوّة معناه من ضعف لفظه، فلم يبلغ فيه قائله المراد وربّما كان اللفظ في وادٍ والمعنى في وادٍ. ولا ينفع بعد فوت اللغة رقّة عاطفة ولا بهاء صورة ولا صحّة فكر ولا سداد حكم. كما لا يجري عند فقد الفطرة الشاعرة والطبع الشفّاف صياغة قالب رشيق ولا متانة تركيب أنيق ولا قوّة لغة منقّحة ولا عذوبة عبارة مهذّبة، وكم من ناظم تودّ أن تخاطبه بمثل قول القائل:

فقل أنا وزّانٌ وما أنا شاعرُ

إذًا لا بدّ للشاعر الذي يحكم الناس له بالشاعرية لا بمجرّد مراعاة الوزن والقافية أن يستكمل في نفسه موهبتين عظيمتين لا تتمّ أدواته إلاّ بهما: الأولى، روح الشاعرية الفطرية التي من أجلها قيل: فلان شاعر مطبوع والتي كان القدماء من العرب يعبّرون عنها بشيطان الشعر، فقد جعلوا لكلّ شاعر شيطانًا انتزعوه من نفسه وأطلقوا عليه اسمًا خاصًّا حتّى كأنه غيره وهو عينه. وكان الإفرنج يسمّونه بإله الشعر Muse أو بألاهة الشعر ويجعلون لكلّ شاعر ألاهة توحي إليه، والمعنى واحد. والثانية، ملكة الإبانة عن النفس بأحسن الأساليب وهي المملكة التي من فقدها لم يكن أن يكون شاعرًا، إذ الأمر كما جاء المثل: ليس لمنقوص البيان بها ولو حكَّ بيافوخه روق السماء. وكما قال الشاعر الناقد الفرنسي بوالو: مهما كان القائل عالي الطبقة إنْ فاتته اللغة كان كلامه رذلاً. فمتى اجتمعت للإنسان هاتان الموهبتان كان الشاعر حقًّا وكان من مواهب الله تعالى على الأرض، وليست الصنعة ممّا ينافي الفطرة وليس التعمّل بمانع للتأمّل، ولكن الأصل الذي يبدأ به الشعر ومنه يجري ينبوعه هو الفطرة. وتحت هذه القاعدة معارف لا تسعها هذه السطور، وعلى كلّ حال لم تظفر يدي بكتاب في هذا الموضوع أجمع ولا أوعى ولا أبلغ في النفس ولا أشرح للصدر ولا أعلى من حيث الإنشاء، ولا أبين لدقائق الأشياء من كتاب «الطبع والصنعة في الشعر» للجهبذ الكبير الأستاذ محمَّد الههياوي، رفع الله به راية الأدب، وزيّن بكلماته مواسم العرب، فهو في هذا الفنّ تأليف طريف نسيج وحده بصحّة قواعده وعذوبة شواهده (ذلك الفضل من الله).

جنيف ـ سويسرا

شكيب أرسلان

الثقافة العربية والثقافة الفرنسية بأفريقيا الشمالية*

اطّلعت في الأطلس على ترجمة بحث أصدره في إحدى المجلاّت الفرنسية المسيو شارل بلجران من أعضاء المجلس الكبير بتونس، في موضوع المفاضلة بين الثقافة العربية والثقافة الفرنجية، وأيهما هي الفضلى، وعلى أيهما يجب أن يعتمد المغاربة؟ وقد وعد مترجم هذا البحث حفظه الله للأدب وللعرب بأن يأتي عليه بردّ في العدد التالي من الأطلس.

فأحببت أنا إلقاء دلوي في الدلاء، وإرسال كلمة إلى الأطلس في هذا الموضوع، وإن كنت على يقين بأنّ الردّ الذي وعد به المترجم لن يبقي حاجة في نفس يعقوب.

قال الإمام الغزالي فيما أتذكّر: إنّه لا وجه للمفاضلة إلاّ بين شيئين يكونان من جنس واحد، فلا يقال مثلاً: الطعام أفضل أم اللباس؟ وذلك لأنّ كلاً منهما غير الآخر في جنسه، وكلاً منهما له ضرورة قائمة بذاتها لا يغنى الآخر فيها عنه. إذًا المناظرة بينهما عبث، بل يقال الطعام الفلاني هو أفضل من الطعام الفلاني، واللباس الشرقي أفضل من اللباس الغربي مثلاً.

فكلام بلجران: أية الثقافتين أفضل العربية أم الفرنسية ليس بوارد. والجواب عليه أنّ كلّ ثقافة لأهلها أفضل وأنه لا يوجد شعب إلاّ وله لغة وثقافة لا يتأتّى رقبه إلاّ ضمن دائرتها. فالعرب لهم ثقافة ولهم لغة لا يقدرون أن يتبدّلوا بهما حتّى يتبدّلوا بأنفسهم شعبًا آخر لا يكون عربيًّا ويسبكوا في قالب جديد ليس فيه شيء من القالب الذي أفرغتهم فيه ألوف من السنين، والفرنسيس أيضًا لهم لغة ولهم ثقافة لا يمكنهم أن يعدلوا عنها إلاّ إذا عدلوا عن أنفسهم. نعم كلّ من الثقافتين العربية والفرنسية تحتملان كثيرًا من الإصلاح والتعديل والإرهاف والتحسين وترك ما لا ينفع إلى ما ينفع، واختصار المسافات وتقديم الضروري على ما ليس بضروري، وغير ذلك ولكن سداد هذا العوز يكون في داخل الثقافة نفسها بحيث تبقى أصولها وأركانها كما كانت.

---

* بقلم الأمير شكيب أرسلان ـ الأطلس (الرباط) العدد ١٤ (٢١ أيار سنة ١٩٣٧) ص٣ والعدد ١٥ (٤ حزيران سنة ١٩٣٧) ص٢.

فأمّا أن يقال لأمّة من الأمم: إنَّ ثقافة الأمّة الفلانية أعلى أو أكمل من ثقافتك، فلذلك يجب عليك أن تنسلخي من ثقافتك التي ولدت فيها، وتتّخذي لنفسك ثقافة تلك الأمّة التي تفضُل ثقافتك، فهذا غير معقول ولا مقبول ولا رضي به أحد في الدنيا، حتّى يرضى به العرب الذين كانت لغتهم أفصح اللغات وثقافتهم مضرب الأمثال، بينما سلف الفرنج ليس عندهم شيء يقال له ثقافة، وبينما أهل الثقاف منهم مضطرّون أن يتعلّموا لغة الدولة الرومانية، وقد كانت في الأصل غريبة عنهم.

إنَّ الثقافة ليست ممّا يرتجل ولا ممّا يجيء ويذهب بمجرّد الأمر والنهي، بل هي مقتضى غرائز ومنزع طبائع ونتيجة عوامل تعاقب عليها أدوار وأعصر متطاولة من تأثير إقليم واستعداد فطرة، وتكون مشرب وحصول ذوق ورسوخ عقيدة وتسلسل تاريخ وتوارث عقلية معيّنة، فإذا حاول محاول أن يقتلع من إحدى الأمم هذه المقوّمات كلّها، ليحلّ محلّها مقوّمات جديدة يكون قد حاول محالاً وعالج فتحًا لا يتأتّى له بوجه من الوجوه، وليس في الدنيا شيء أشدّ وأعقم من الفتوحات العقلية.

لو تأمّلت الأمم كلّها لوجدت كلاًّ منها حتّى أصغر الأمم وأقلّها شأنًا مستمسكة بعروة ثقافتها لا ترضى منها بديلاً. انظر إلى الأمم الكبرى في أوربة الإنكليز والألمان والفرنسيس والطليان والصقالبة على اختلافهم، تجد كلاًّ منها تنادي: لغتي وثقافتي قبل كلّ شيء وقد تصبأ الواحدة منها عن معتقدها الديني ولا تصبأ عن منزعها اللغوي والأدبي. وهذا ليس بعجب نظرًا لأهمّية هذه الأمم وسعة ملكها وما آتاها الله من بسطة في المادّة والمعنى، ولكنّك تجد أممًا مثل أمم السويد والنورفيج والدانمرك والبرتقال والإسبانيول واليونان والبلغار والمجر والتشيك والفنلانديين والإستونيين والليتونيين والليتوانيين والبولونيين والفلاخيين والكرجيين، وغيرها، كلّ واحدة منها تأبى أن تتكلّم بلغة وطنية غير لغتها، وأن تعرّج في معارج المدنية بواسطة ثقافة غير ثقافتها. وما تقوله عن أوربة تقوله عن سائر القارّات، وما اتّفقت أمم الكرة الأرضية على تقديس كلّ منها للغتها وثقافتها بمجرّد تصادف، بل لذلك أركان وأسباب متّصلة بالخلقة البشرية. إذًا بعد أن تقرّر هذا فلا وجه للقول بأنَّ مسلمي شمالي أفريقية يجدر بهم أن ينبذوا اللغة العربية الفصحى التي لا يفوقها، بل لا يماثلها، بل لا يدانيها لغة أوربية مهما جلت في سعة عطنها[1] وتعدّد مناحي التعبير فيها وكثرة مقرّراتها

(١) سعة عطنها: سعة انتشارها.

وضبط قواعدها وكون ما في اللغات الأوربية الكبرى من نحو وصرف يكاد يكون أضحوكة بالقياس إلى نحوها وصرفها، إلى غير ذلك من المزايا التي ليس هنا موضع استيفائها وأن يتبدّلوا بها لغة أخرى بعيدة عن منازعهم ومشاربهم وحلوقهم وجرس حلاقيمهم واستعداد خلقتهم واقتضاء بيئتهم، بحجّة أنَّ هذه اللغة يعوزها ثقافة عصرية ليس لها حظّ منها، وأنه ليس فيها علم إلاّ العلم الذي يتّصل بالدين. إلى غير ذلك من السفسطة التي هي في وادٍ وحقائق الأشياء الثابتة في وادٍ.

فلنقل إنَّ اللغة العربية لغة قديمة قد كملت ثقافتها في القرون الوسطى، وإنَّ الزمن الحاضر قد تجدّدت فيه أوضاع تقتضي ألفاظًا جديدة. فاللغة العربية مستعدّة بفصاحتها الطبيعية وبسعة مذاهب التعبير فيها لتأدية جميع ما يخطر بالبال من المعاني المتجدّدة، والأوضاع العصرية التي لم تكن من قبل. ويا ليت شعري ما الفرق في ذلك بينها وبين اللغة الأوربية؟ هل نزلت من السماء قوالب التعبير العصرية على اللغة الفرنسية أو على اللغة الإنكليزية أو على اللغة الألمانية؟ وهل وجدت فيها هذه الألفاظ قبل أن توجد معانيها؟ وهل كتبت فيها هذه المباحث قبل أن توجد موضوعاتها؟ كلاّ. شأن اللغات المذكورة مع العلوم العصرية شأن اللغة العربية بعينه؛ فقد كانت اللغات الأوربية خالية ممّا تخلو منه اللغة العربية اليوم، فصار الأوربيون كلّما جدّ عندهم معنى يصوغون له لفظًا، ولشدّة فقر لغاتهم يلجأون إلى اللغة اليونانية ليشقّوا[1] عنها ما يعوزهم لعدم وجوده عندهم؛ وهكذا أكملوا لغاتهم وثقّفوها وجعلوها صالحة للمقاصد العصرية وافية بالمعاني الجديدة، وبالرغم من هذا فلا تزال عندهم نواقص كثيرة لا سيّما اللغة الفرنسية التي كثير من أبنائها يقولون بحقّ: إنَّ تسليح رجل اليوم يقتضي العدول عن الثقافة القديمة، وعدم إضاعة الوقت في درس اللغة اللاتينية التي صارت لغة ميّتة، والتبدّل منها بالعلوم الحديثة التي يكون التوسّع في معرفتها أنفع لرجل اليوم من التعمّق في اللاتيني واليوناني والبحث عن أمور قد مضت وانقضت. أفليس في فرنسة اليوم مذهبان مختلفان أحدهما ينزع إلى حفظ الثقافة اللاتينية التي يجد أصحاب هذا المذهب أنها ضرورية لحفظ الروح الفرنسية وتوطيد مقاومتها، والثاني يميل إلى تعلّم ما هو أعظم نفعًا وأمسّ حاجة وأشدّ ضرورة وأشدّ اتّصالاً بأنحاء الحياة العصرية وأجدر بأن يكون سلاحًا للرجل الحاضر؟

---

(1) ليشقّوا: ليشتقّوا.

إذًا اللغة الفرنسية نفسها فيها معترك حامي الوطيس بين القديم والجديد، وأهلها مع ذلك قد هيّأوها بالبحث والتنقيب لتكون لغة عصرية صالحة وافية بحاجات أهلها. وما يقال فيها يقال في سائر اللغات الأروبية حتّى أنك ترى الأمم التي هي من الدرجة الثانية والثالثة كالمجر والتشيك والفنلنديين والبلغاريين واللتوانيين وغيرها، تأبى تعلّم العلوم العصرية بغير لغاتها القومية، ولقد توفّقت بطول البحث وكثرة العناية إلى جعل لغاتها القومية لغات عصرية علمية فنّية يجول فيها المتعلّم كيف شاء فيجد لمقاصده ما يفي بها. أفكلّ هذه اللغات تقدر أن تكون لغات عصرية علمية فنّية، واللغة العربية وحدها هي اللغة التي تعجز عن ذلك؟ وهي هي اللغة التي ليس في لغات الأرض ما يماثلها في ضبط القواعد وغزارة المادّة وتسلسل الاشتقاق والاتّصال بالطبيعة البشرية من أقرب الطرق. لا نعلم لهذا سببًا إلاّ السبب السياسي الذي يتجلّى لنا كلّ يوم في شكل، ومن جملة هذه الأشكال قضيّة اللغة والثقافة.

ولعمري أنَّ المحدّثين من أدباء العربية قد قاموا بتعريب جميع المصطلحات العصرية، تشهد بذلك المجلاّت العلمية العربية والكتب العلمية الحديثة المؤلفة باللسان العربي والمترجمة إليه ولم يضق ذرع العربية عن شيء ممّا يجب تأديته من المعاني الجديدة. أمّا أنه يوجد في اللغة الأوربية مباحث أوسع في العلوم العصرية ممّا يوجد في اللغة العربية، فليس ذلك راجعًا إلى قصور العربية نفسها، بل هو راجع إلى أنَّ الثقافة العصرية من حيث هي قد اتّسعت في أوربا اتّساعًا لا يوجد مثله في آسيا وأفريقيا في الوقت الحاضر، لأنه ممّا لا جدال فيه أنَّ الأوربيين سبقونا في هذا الميدان بسبب ما طرأ على العرب والشرقيين من الانحطاط في الحقب الأخيرة. ولكن إن كنّا نقول إنّهم سبقونا في هذا الميدان، فلا يستلزم ذلك منطقًا أن يكونوا هم السابقين إلى الأبد، ولا يقتضي أننا لن ندركهم فيه، فقد كان الأوربيون سبقوا اليابانيين كما سبقونا نحن، ثمَّ عاد اليابانيون من خمسين أو ستّين سنة لا غير فجدّوا واجتهدوا وأدركوا الأوربيين وربّما سبقوهم. ومن دقّق النظر في كلامنا هذا، يفهم أنَّ اتّساع المعارف العصرية في اللغات الأوربية زيادة على ما هي عليه في اللغة العربية ليس ناشئًا عن قصور العربية نفسها، ولا عن جمود الثقافة الإسلامية بذاتها، بل هو ناشئ عن نتائج الانحطاط الذي طرأ على هذه الأمّة في الأعصر الأخيرة فأخّرها إلى الوراء كما أخّر أممًا كثيرة غيرها بعد أن كانت متقدّمة (وتلك الأيام نداولها بين الناس) والمسلمون اليوم

هم أيضًا في دور انتهاض سيمضون فيه بلا مراء إلى أن يبلغوا الغاية التي بلغها غيرهم.

أمّا ما قاله بلجران هذا من أنَّ الشيوخ من المسلمين يقولون إنَّ الإسلام يحتاج إلى إصلاح وإنَّ القرآن لم يفرّط في شيء؛ ثمَّ يحاول بعد ذلك نقض هذا القول بإثبات احتياج الإسلام إلى الإصلاح وإظهار كون القرآن لم يحِط بكلّ شيء، فهذا من السفسطة الباردة التي يمجّها الطبع والتي لا تليق برجل عالم حقًّا.

إنَّ علماء الإسلام عندما يقولون إنَّ الإسلام لا يحتاج إلى إصلاح إنّما يعنون بذلك قواعد الإسلام الأهلية التي هي قواعد خالدة؛ ولكن لم يقل أحد إنَّ الإسلام يجب أن يقابل العصر الحاضر بالأعتدة المادّية والمعنوية التي كانت في القرون الوسطى، ولا يجوز له أن يتزحزح عنها؛ بل علماء الإسلام يجدون طلب العلم فريضة على كلّ مسلم ومسلمة، وليس العلم هو الديني فقط، بل العلم شامل للعلوم الكونية بأسرها؛ وقد استوفينا الكلام على هذه المسئلة في غير هذا المقام، وأتينا على ذلك بالنصوص القرآنية الصريحة؛ والحكمة في الإسلام ضالة المؤمن ينشدها أين وجدها؛ فأين هذا من دعوة هذا المدّعى الذي يريد تجاهل قواعد الإسلام الشهيرة عمدًا. وأمّا أنَّ القرآن لم يفرّط في شيء، فليس معناه أنه يجب أن يوجد فيه الكلّي والجزئي بالتفصيل، وأن يدخل في كلّ علم وفي كلّ صناعة وفي كلّ فنّ وفي كلّ فرع، وإن لم يكن كذلك كان ناقصًا؛ فأي عاقل يقول هذا؟ وإنّما لم يفرّط القرآن في المبادي الأساسية الخالدة التي وضعها وترك للناس تدبّرها والاستنتاج منها والبناء عليها والاستقاء من ينابيعها؛ فهذا هو المقصود به عدم التفريط في شيء؛ ولسنا الآن في حاجة إلى إيراد الآيات الكريمة التي ترفع من شأن العلم على الإطلاق وتقدّس العلم والحكمة وتجعل أصحابها في أعلى الدرجات، فإنَّ ذلك غني عن البيان، وقد قيل "إنَّ إيضاح الواضحات من الفاضحات".

وبعد أن تقرّر أنَّ الإسلام هو شرع دين ودنيا وأنه يأمر بإعداد كلّ ما يستطيعه المسلم من قوّة مادّية ومعنوية فلا يبقى وجه للقول "بأنَّ تعليم الكتاتيب والجامعات الإسلامية لا يمكنه أن يقوم بما تطلبه حياة العصر في الصناعة والتجارة والفلاحة والوظائف الإدارية؛ إذ إنّه إن وجد في هذه الكتاتيب والجامعات قصور فلا يكون هذا منبعثًا لا عن الدين الإسلامي ولا عن اللغة العربية.

ثمَّ نجد هذا الرجل يدعو إلى اللغة العربية العامّية وهو مذهب قديم عند من يريدون

أن يلعبوا بالعرب ويشقّوا الأمّة بعضها عن بعض، وعند من يرى الوحدة القرآنية جبلاً على صدورهم؛ فلذلك تراهم يتوسّلون إلى صدع هذه الوحدة بجميع الوسائل.

ونحن نسأل هؤلاء: إنَّ اللغات الأوربية واللغة الفرنسية نفسها فيها عامّي كما في اللغة العربية؛ فلماذا يلزمون الناس ترك العامّي منها والأخذ بالفصيح وحده؟

وإنّنا نسأله أيضًا سؤالاً آخر: أإذا كان الشرع الإسلامي غير واسع الصدر للمدنية الحديثة وكانت اللغة العربية غير قادرة على القيام بثقافة عصرية وكنّا نريد أن نجعل ثقافة المسلمين في شمالي أفريقيا باللغة الإنجليزية مثلاً، وهي التي لا يقدر بلجران أن يزعم، كون اللغة الفرنسية لغة علمية أكثر منها؛ أو نجعلها باللغة الألمانية أو اللغة الطليانية؟ أيشير بذلك بلجران؟

لا جرم أنَّ الجواب يكون سلبًا.

إذًا المسألة مسألة سياسة لا مسألة علم.

شكيب أرسلان

تأبين شيخ العروبة
أحمد زكي باشا★

ليس بتأبين وإنّما هو دَين على الأمّة العربية بأجمعها
لا يجوز أن تلوي به
لعطوفة أمير البيان الأمير شكيب أرسلان

كان أحمد زكي باشا، رحمه الله، يقظة في إغفاءة الشرق، وهبة في غفلة العالم الإسلامي، وحياة في وسط ذلك المحيط الهامد، ونضارة زاهية في وسط ذلك الهشيم اليابس. وكان إذا رآه العالم الأوروبي بمكانه من الحياة والحركة والنشاط والعلم والإحاطة وثقوب الذهن وسموّ الفكر، وملكة التحقيق في كلّ شيء، وبُعد الهمّة وكرم النفس وغير ذلك من أوصافه العبقرية، حكم بأنَّ العالم الإسلامي الذي ينجب مثل هذا لا بدّ له من النهوض السريع، وأنَّ الأمل بدوام الاستيلاء الأجنبي عليه ضرب من المحال.

كان أول معرفتي بهذا الفقيد العظيم (في سنة ١٨٩٠ مسيحية) في دار المرحوم سعد زغلول بعابدين، حيث كنّا نجتمع بالأستاذ الإمام الشيخ محمَّد عبده، (رحمه الله) ورهطه، وكنت أنا أحدثَهم سنًّا. وكان الفقيد فيما أحسب أكبر منّي بثلاث سنوات. وقد ظهر لي منذ وقع نظري عليه، ثمَّ سمعت كلامه، أنه ليس كغيره من الشبّان المشغولين بسفاسف الأمور المنصرفين عن معاليها، بل كان شابًّا جادًّا منصرفًا إلى العلم مشغوفًا بالمجد، آخذًا من الكرم والخلق بأوفر نصيب. فكنت منذ ذلك الوقت أتفاءل خيرًا وجوده في مصر وأعدّه من مفاخر مصر. ثمَّ لم تمض سنوات قلائل حتّى سمعت أنَّ الحكومة المصرية أرسلته بمهمّة علمية إلى إسبانية، ثمَّ عاد من تلك البلاد ونشر عن رحلته كتابًا قيّمًا كتب بعده كثير عن الأندلس.

ولم أجد مع ذلك كتابًا فاقه في موضوعه، بل لا أزال إلى اليوم برغم كلّ ما حقّقته عن الأندلس أجد في كتاب أحمد زكي باشا هذا ما لا أجده في غيره. ولقد أشرت إلى رحلة

★ الجهاد ١٨ شباط ١٩٣٥ص٩.

الفقيد هذه في بلاد الأندلس منذ خمس وثلاثين سنة في كتابي "تاريخ الأندلس" الذي قرنت به ترجمة الرواية المعروفة بآخر بني سراج للكونت "شاتو بريان"، وكنت بعد ذلك أرعى حركات أحمد زكي باشا من بعيد فأجدها كلّها علمًا وفضلاً ونبالة وسراوة. وصار بعد ذلك سكرتيرًا لمجلس النظّار، فكانت تلك المهمّة التي تقلّدها وسيلة لازدياد شهرته ولمعانه وكان أحقّ بها وأهلها. ثمَّ إنّي سنة ١٩١١ في أثناء مروري بمصر ذاهبًا للجهاد في برقة تلاقيت مع صديقي القديم أحمد زكي باشا وخرجنا معًا نتنزّه في نواحي الأهرام، ومنها ذهبنا إلى عزبة له غير بعيدة من هناك ولا أزال بمزيد اللذّة، أتذكّر تلك النزهة التي زادتني علمًا بمكارم أخلاق أحمد زكي باشا. ثمَّ إنّني ذهبت إلى برقة وتغيّبت فيها سبعة أو ثمانية أشهر وعدت إلى مصر قاصدًا الآستانة فتلاقيت في هذه النوبة أيضًا بأحمد زكي باشا في المكتبة الملوكية، وأظنّه كان يومئذٍ ناظرًا لها ولا أظنّ على وجه الأرض وظيفة كانت تصلح له وكان يصلح، لها مثل نظارة هذه المكتبة العامرة التي هي أمّ المكاتب الشرقية في هذا العصر. واجتمعنا في تلك النوبة مرارًا، وكانت أحاديث الفقيد كلّها فوائد، فلا ينفق دقيقة من دقائق عمره فيما لا طائل تحته، وكان يرى العمر أثمن ويرى النفس أنفس من أن يضيّع المرء دقيقة من عمره في ما لا فائدة منه لقومه أو للإنسانية. وعبثًا حاولت أن أجد أبعد شوطًا من أحمد زكي باشا في ميدان الجدّ، فلم أجد والسابق السابق في هذا المضمار هو الذي يدانيه، وما هم إلاّ أفذاذ في العالم كلّه. فلا يبحث المرء في علم من العلوم إلاّ وجد أحمد زكي باشا إمّا مفيدًا أو مستفيدًا، إمّا أستاذًا يلقى عليك ما لا تعلمه، وإمّا طالبًا ينشد عندك ما لا يعلمه. وعلى كلّ حال فلا يخرج مجلسه عن دائرة العلم والعرفان، ولكنّه يزيّن تلك الصفة العلمية التي هي صفته الغالبة وسجيّته الباهرة بكرم أخلاق لا تجده إلاّ عند الأمراء، فإذا قيل فيه إنّه أمير العلماء وعالم الأمراء، فإنّه بذلك قمين[1]. وأي إنسان من أهل العلم والأدب لاح في خاطره ذكرى مصر ولم يذكر أحمد زكي باشا؟ فإذا قيل إنَّ هذا الرجل كان بنفسه من مشخّصات مصر الكبرى ومزاياها العليا لم يكن مبالغًا. ولقد يوجد من العلماء من يمتاز بالتحقيق ويدرك المدى المتطاول والأمد البعيد في التدقيق، ولكنّه يكتفي من العلم بمجرّد العلم، وإن قرن العلم بالعمل [فلأيام] وليس فقيدنا اليوم من هذه الفئة السلبية، بل إن كان إنشاء في الدنيا فهو ملكته، وإن كان عمل فهو مزيته، وكأنه لم يكن يرى العلم علمًا إلاّ إذا انعقد عملاً وامتزج بالنفس خلقًا، ولذلك لم تكن معارفه الكثيرة واطّلاعاته

(١) قمين: جدير.

الواسعة وتحقيقاته البديعة إلاّ لتزيد رحمته على قومه ونصرته لأمّته ولتضاعف إعجابه بوطنه. فإذا قيل إنَّ أحمد زكي باشا كان من أعظم علماء الشرق فلا بدّ أن نردف ذلك بقولنا إنّه كان من أعظم حُماة الشرق، وأنه لم يكن مهملاً لميدان السياسة، بل كان يجول فيه جولانه الرائع في ميدان العلم مع الفرق بينه وبين غيره من رجال السياسة. إنّه كان إذا تكلّم في السياسة تكلّم عن علم راسخ واطّلاع راهن، وإذا تكلّم في العلم لم يغفل عن أنَّ في كثير من نواحيه شيئًا يقال له السياسة، وأنه لا بدّ للعالم المحقّق من أن يستخلص هذا من هذا. نعم كان أحمد زكي باشا أنموذجًا في الحياة الفاضلة يقتدى به الشرقيون أحقابًا طوالاً وربّما لا يجدون أمثل منه. كان الناظر يرى فيه العالِم النحرير والفيلسوف النقريس واللغوي المدقّق والجغرافي المحقّق والمؤرّخ المتعمّق والخطيب المصقع والكاتب البارع والشهم النزيه والبطل الصائل، والركن الركين الذي يفزع الناس إليه في المشكلات، والسيِّد الغطريف الذي استجمع أدوات الرئاسة وتحلّى بجميع حلى الكياسة، فلا يفوته منها الدقيق ولا الجليل، وكانت إذا ماتت الهمم بأجمعها وخمدت العزائم بأسرها لا تني له همّة ولا تخمد له عزيمة، فتلك النفس العالية عالية أبدًا لا يعرف الاستخذاء لها سبيلاً. ولا شكّ أنَّ الشمم كان في خنزروانة[1] أنفه من أصل فطرته، ولكنَّ العلم زاده صقلاً، وأية مكرمة في مصر أو في الشرق لم ينهض لها أحمد زكي باشا في مقدّمة الناهضين؟ وأية مأثرة تحمّدها الألسن وتقرّ بها الأعين لم تكن له يد في وشي حبيرها؟ ولعمري إنَّ تأبين هذا الرجل ليعجز الكاتب والشاعر والخطيب ويغلب القرائح مهما توقّدت وذلك بما ازدحم من مآثره التي ملأت الآفاق وما اتّصل من هممه التي كنت تسمع عنها في العشى والإشراق. فالحياة الحقيقية في الدنيا هي حياة مثله، وحياة الأكثرين من غير أمثاله ليس لها من الحياة إلاّ الاسم. ولو أنَّ في الشرق عشرات من نمط أحمد زكي باشا لما تأخّر عن الغرب في قليل ولا كثير، بل ربّما فاق العرب وكفّ غربه عن الشرق. ولهذا قلت يجدر بالشرقيين أن يتّخذوه قدوة وأن يحمّلوا ناشئهم على أن يفروا فريَهُ، فإنَّ حياته هي المثال الكامل وأنه لمثلها فليعمل العامل. وإذا كابرني أحد في هذا القول فليلتفت يمنة ولينظر يسرة، فهل يجد في الشرق من يسدّ مسدّ شيخ العروبة أو من يقال فيه إنّه أعلى درجة من أحمد زكي فيما نبغ فيه من علم وعمل وكرم وشمم؟

لم تكن مراسلاتي مع الفقيد متّصلة لما كنت أعلم من ضيق وقته بالمطالعة والتحقيق

(١) خنزروانة: الكِبر.

وما كان يعلم من كثرة أشغالي. ولكننا كنّا نتكاتب في الأحايين، وإذا كتب الواحد منّا إلى الآخر أفاض بكلّ ما في قلبه وأمضى بأعمق ذات صدره وكأنما يخاطب روحه ويشفي بذلك الخطاب تباريحه.

وكان الواحد منّا يغار على الآخر غيرته على نفسه، فإذا قيل في أحمد زكي باشا السوء شعرت بالطعنة في صميم فؤادي، وإذا حاول كاشحٌ نيلاً منّي لم أجد أسرع من هذا الأخ غضبًا لي ومراماة عن حوض ينقلب بكلّيته كالقنفد في وجه من أراد أن ينال منّي. فكان الذمام وحفظ العهد من جملة ما تحلّت به تلك الذات العبقرية. وطالما كنت أداعبه من جهة السنّ وقد تمتدّ المداعبة بيننا إلى الجرائد، فكان يخاطبني بالأخ الأكبر ذهابًا مع الدعاية وإشارة إلى أني أسنّ منه، والحقيقة أنه كان أكبر منّي سنًّا وقدرًا، وأنَّ قدره في نظري كان الذروة العليا التي ينحدر عنها السيل. وكنت مرّة في برلين فجاءني من جزيرة العرب أخبار أرمصتني وخشيت أن يقع بين الإمامين بتأثير المفسدين ما عاد فوقع فيما بعد، ثمَّ زال بحكمة الإمامين ولله الحمد والمنّة، فكتبت إلى شيخ العروبة أقول له: إنّها قضيّة ليس لها غيرك فبادر بالتشمير وحثّ الركّاب إلى اليمن والحجاز وتلافَ الأمر الذي يخشى أن يفرط فيعزّ التلافي فيما بعد. فما وصل كتابي إليه (رحمه الله) حتّى صمّم على السفر على رأس جماعة تخلّفوا عنه فيما بعد، ولم يبقَ مهمّ إلاّ الأخ نبيه بك العظمة، فركبا البحر وخرجا إلى الحُديدة ومنها قصدا صنعاء، وقابلا جلالة الإمام وأبديا وأعادا، قيل: أنفسهما لأجله، وكان من نتائج ذلك المسعى أن سكنت الأمور وأسأ[1] الله أجل السلم. ثمَّ أتيا إلى الحجاز فشاهدا جلالة الملك العزيز، وعرضا لديه أماني الناس في وجوب الاتّحاد مع أخيه وجاره واتّسق الأمر يومئذٍ على الوجه الذي يسرّ جميع العرب والمسلمين وقفل المرحوم غانمًا الثناء والدعاء. وهذه المرّة عندما نشبت بين الإمامين الحرب الزائلة بفضل الله ثمَّ بفضلهما وتداعينا إلى السفر لكشف هذه الغماء دعونا الفقيد أن يكون في مقدّمتنا، فما تأخّر عن ذلك عن فتور في الهمّة، ولكنّه قال إنَّ في الأربعة الذين يتألّف منهم وفد السلام كفاية عن غيرهم، ولكنّي حاضر أن التحق بكم بأدنى إشارة. ثمَّ ودّعنا إلى مرفأ السويس وذلك الوجه الزاهد يتدفّق نورًا ويتهلّل سرورًا وهو يقول: أنا رهين إشارتكم إذا مسّت الحاجة. وأي نزلاء لم يكن حاضرًا لينهض بها؟ وكنّا من الحجاز ثمَّ من اليمن نطالعه بما يعنّ لنا ويبرق إليه ببشائر الصلح. وكنّا في إيابنا أول ما نفكّر فيه ونتهلّل سرورًا مقدّمًا من أجله

(١) أسا: سوّى وعالج.

تصوّرنا لقاء أحمد زكي باشا عين الأعيان وأوحد الإخوان وأحد أفذاذ هذا الزمان، وما زال أمل هذا اللقاء مع الفقيد يزيدني سرورًا كلّما تقدّمت الباخرة نحو البلاد المصرية حتّى وصلت إلى ميناء السويس فما ألقت الباخرة بمرساتها حتّى صعد إليها من أخبرني بتلك الفاجعة التي صكّت وجهي، وأفاضت دمعي، ودعتني مدّة من الزمن أشبه بالسكران لا أعي ولا أعرف سوى الحوقلة، وبعد أن ثاب إلى عقلي قلت لمن حوالي: لم يبقَ غيري من تلك العصابة التي كانت تسمر في دار سعد زغلول في عابدين، وقد مضى أقرب رفيق إلى قلبي من الرفاق الذين طويت وإيّاهم زهاء أربعين سنة ونحن على عهد مقيم وذمام غير ذميم ولا حول ولا قوّة إلاّ بالله العليّ العظيم.

وكان الفقيد (رحمه الله) قد كتب إليَّ، إذ أنا في صنعاء بتاريخ ٩ ربيع الأول وفق ٢١ يونيو يذكر لي فيه مساعيه في السماح لي بالمرور على مصر، وذلك بشرح طويل لا حاجة إلى إعادته هنا، وفي آخر كتابه يقول لي ما يلي: "سأذهب غدًا إلى بور سعيد لاختيار دار للمصيف، فإن لم تعجبني فسأذهب إلى ضاحية الرمل لطلب الراحة وتبديل الهواء. وعلى كلّ حال فأنت نازل في بيتك الحقير عند أخيك الصغير، سواء كان في الجيزة أم بور سعيد أم الإسكندرية ولا تقطع الأمل بوجودك حرًّا طليقًا في أرض مصر أمنية الأمّة كلّها كما تعلم وكما تشعر. سلامي وإجلالي إلى مولانا الإمام وإلى الحاجّ أمين وهاشم بك ورشدي بك، وكان من معك ومن تراه في المرآة ـ أحمد زكي".

ولقد وصلني هذا الكتاب بعد وفاته (رحمه الله)، ولا أظنّ أنَّ بين تاريخه وبين وفاته غير أيام قلائل، وقد ضممت هذا الكتاب إلى ما عندي من كتبه الثمينة الجديرة بأن تعتقد مع الأعلاق النفائس التي سيكون لها قيمة تاريخية في مستقبل الأيام، وسيقرؤها الناشئة بعد انصرام الحقب والقرون ليطالعوا نفثات أقلام أعلام الشرق الذين يستضاء بهم وسار على أثرهم. ولقد كنت هممت أن أكتب في تأبين الفقيد ما هو أطول من هذا، ولكنّني تريّثت عن ذلك حتّى يكون أول ما أكتبه عنه ممّا يتلى في حفلة تأبينه.

ولن أقنع بما كتبته هنا ولن يشفي صدري إلاّ مقالات متتابعة في ترجمة حال شيخ العروبة فسيِّد المروءة والوفاء وعلامة العصر، الجامع بين معارف الشرق والغرب والمالئ الدلو إلى عقد الكرب. وأسأل الله تعالى الذي لا وجود لأحد إلاّ على شرط وجوده أن يحسن منقلب هذا الفقيد العزيز، ويكرم مثواه، ويجزيه عن مصر والشرق والعروبة

والإسلام خير ما جزى عاملاً في خدمتها ومقلاً عن عثرتها، وأن يجزيه عن أخيه هذا أفضل الجزاء بما له عليه من فضل الذمام وحسن العهد وما كان يشاركني فيه من الإحساس في سرّائي وضرّائي وأن يجمع بين أرواحنا في الدار الأخرى كما جمع بيننا في الحياة الدنيا، فالأرواح جنود مجنّده ما تعارف منها ائتلف، وما تناكر منها اختلف، وما تعارفت روحي مع روح أحد كان أبرّ بي من أحمد زكي باشا ولا أعطف عليّ منه. ففي ذمّة الله أيها الفقيد العظيم والراحل الكريم وعليك رحمته ورضوانه. وإنَّ مصر لتندبك وإنَّ الشرق ليجد عليك عندما لا يجدك وإنَّ الإسلام ليذكرك بدموع منهلّة الأسجام، وإنَّ العروبة لا تنسى شيخها وفتاها ولو بعد ألف عام، وإنّك لن تبرح القلوب ولو كنت طيّ الرغام، وعليك ما ذرّ شارقٌ ألف تحيّة وسلام.

الحزين

جنيف

شكيب أرسلان

مستقبل الصين*

لجناب الأمير شكيب أرسلان

(١)

لا يخفى أنَّ حرب الصين مع اليابان منذ بضع سنوات هي التي خرقت سياج الصين وذهبت بهيبتها وكشفت عوارها للدول الغربية، حتّى طمعنَ منذ ذلك اليوم في الاستيلاء على ممالكها الواسعة، وبعد أن كان هذا الأمر حديثًا في الأنفس وأمنية في الخواطر اندرج في لفّ المقاصد المنوية والعزائم المعقودة، وذلك لما ظهر من كون هذه السلطنة العظمى أشبه جدًّا بالطبل الذي يعظم في العين حجمه، ويدوّي إلى بعيدٍ صوته، حتّى إذا بعجه الإنسان بيده وجده أجوف فارغًا فتقلّص حجمه وانقطع صوته، فتخمّر في رؤوس الأوربيين منذ حرب اليابان إدخال هذه البلاد في جدول الممالك الشرقية التي قضى عليها تأخّرها في الحضارة أن تكون خاضعة لسلطان أوربا وما زال الجهل عبدًا للعلم والمتأخّر تابعًا للمتقدّم.

وإنّما، حال إلى الآن دون مدّ الأيدي إلى جفنة[1] الصين، وتقاسم ما فيها بأصباره منذ خرق ذلك الحجاب السماوي على يد اليابان تناظرُ الدول وتجاذبها الحبل من كلّ جهة والزحام الواقع على حوض ابن السماء العذب كما هي الحال في كثير من الممالك الضعيفة الباقية على ملك أهلها، فجعلت كلّ دولة منهنّ خصوصًا الدولتان الكبيرتان اللتان في يدهما زمام المشرق وإليهما خطام آسية ـ أعني بهما إنكلترا والروسية ـ تجتهد في تخطيط "منطقة نفوذ" لنفسها في بلاد الصين يكون لها مهد مملكة مستقبلة هنالك، وسعى كلّ فريق في التأمّن على نصيب وافٍ وشقص عريضٍ من هذه التركة الكبرى يبرَّد له بطريق القسمة الشرعية بدون أن تدعو العجلة والتهافت فيما بين الورثة إلى هزّ عوامل وتجريد سيوف. وهذا ما طوت الدول أنفسها عليه، ولا يزال مطوي ضمائرها يؤخّر من إبرازه إلى حيّز الوجود سكون الصين واستقامة أمورها وتوفّر أسباب ثباتها وتكثّف أسوار منعتها ويعجّل

---

* المقتطف ج٢٥ (١٩٠٠) ص ١٢٤ ـ ١٣١ و٣٢١ ـ ٣٢٧.
ج٢٦ (١٩٠١) ص ٤٨٩ ـ ٤٩٧.

(١) جفنة: صحن، وهنا الكلام مجاز.

في ظهوره إلى ميدان التحقيق، تتابع فتنها وتفتق رتوقها، وتفتح أبواب المداخلة في أمورها وانهيار جوانب سياجها بعوامل الفتنة، ممّا يطرّق عليها ويستدرج أقدام الأجانب إليها ويمكنهم من أراضيها، وذلك أنه كما كان الميكروب لا يعيش ولا ينمو إلاّ في المباآت الصالحة لسكناه المترشّحة لنزوله من تضاعيف الضعف وتجاويف الهزال، كذلك النفوذ الأوربي لا ينبسط ولا ينتشر إلاّ حيث وجد منتجعًا صالحًا له من ضعف البلاد واختلال الإدارة وسقوط دعائم الأحكام، يشهد بذلك تاريخ دخول الأوربيين في كلّ مملكة دخلوها وصيّروا أعزّة أهلها أذلّة.

ولمّا كان لا بدّ لتلك المملكة الضعيفة التي تمكّن منها النفوذ الأوربي من حركة ردّ فعل على يد الحزب الوطني فيها، كان ذلك فاتحة المداخلة الفعلية فيجيء من باب إجهاز القوم على أنفسهم بأيديهم، وذلك مثل فتنة البوكسر الحالية، وليست هذه بأول ثورة هناك على الأوربيين ولا تكون آخر ثورة، بل إنَّ فتنة التايبينغ التي ابتدأت سنة ١٨٤٨ وانتشرت في تلك المملكة انتشارًا أوشكت أن تسقط به الأمبراطورية المالكة الآن، كانت موجّهة ضدّ الحكومة في الظاهر وضدّ الأجانب في الباطن ومقصدها تخليص الصين من ربقة النفوذ الأجنبي وتجديد شباب دولتها، ولذلك حرصت الدول وقتئذٍ على محو آثار تلك الفئة ونصرت الحكومة عليها نصرًا مؤزرًا لا حبًّا بها، بل بغضًا بتلك الفرقة الإصلاحية، حال كون هؤلاء التايبينغ كانوا متظاهرين بالهوادة الدينية والميل إلى النصرانية وقد جعلوا التوراة في جملة كتبهم الدينية، فلم ترأف دول أوربا بهم لذلك، وآثرن الدنيا على الدين وأيّدن الدولة المنشورية في كرسيها. وما زالت منذ ذلك الحين تنعقد جمعيّات سرّية في الصين وتتألّف عصائب مرماها إماطة نفوذ الأوربيين وكشف سلطتهم عن أطراف تلك المملكة، وكان كلّما زاد نفوذ الدول ورسّخت أقدامها في البلاد واحتلّت من هنا بلدًا واقتطعت من هناك ثغرًا ازدادت كراهية الصينيين لوطأتهم ونفورهم من جوارهم، وما قام قائم البوكسر هذه المرّة إلاّ وقد بلغت أرواح الصينيين الحناجر، ورأوا أنَّ قد أحيط بهم ومالت دعامة ملكهم إلى السقوط وساعدهم في ذلك استعداد الأمبراطورة "تسوهسي" التي حاولت إحياء روح العصبيّة الصينية وزرعت بذار العداوة والبغضاء للأوربيين، فلم تعتم أن استغلّت الفتنة وحُملت على حصد رؤوس الشرّ. وقامت أوربا تدافع عن بنيها المتفرّقين في تلك الأقطار، وهي ترى في هذه الفتنة حركة معنوية مهمّة وتتوجّس من ورائها شرًّا

مستطيرًا، وكانت تهمّ بنجز الموعود وتقضي على الصين قضاءها، لولا ما تخشاه من الوقوع في شرّ أعظم هو تضارب السياسات وتصادم المصالح، وبعد الكون على الصين يدًا واحدة رجوع بعضها لمناصبة بعض تهارش السباع على الفريسة فقامت الدول الغربية مع دولة اليابان الشرقية بعمل مشترك لقمع ثورة البوكسر، ولكن على حذر تامّ بعضها من بعض والكلّ يريدون حلّ المعضلة بالتي هي أحسن.

ولمّا كانت مملكة الصين من أغرب الممالك شكلاً وأوسعها رقعة، بل كانت أكثرها عددًا وأقدمها تاريخًا، وهي أهمّ ما طمحت إليه عين أوربي من الممالك الشرقية. وكان جمّ غفير من المطالعين يحبّون أن يعرفوا هل لأوربا إمكان زائد من رقبة الصين والإحاطة بملكها، أو هو مطلب عنيد وعقبة صعبة لا يرجى صعودها إلى الآن؟ وهل ضعف الصين العسكري كافٍ في انهيار جدارها وانتكاث حبلها، أو لها من ورائه قائمة أخرى ورابطة ثانية تمنع من انحلال هاتيك العصبيّة؟ وهل إذا سقطت حكومة «بكّين» سقط الوطن الصيني بأسره أو بقيت هناك عصبيّة واقفة في وجه السطوة الأوربية، مستقلّة عنها بأسباب راسخة متمكّنة بواشجةِ عروقها ومرونةِ أعطافها مع الثبات ولين ملامسها مع المتانة؟ أو لم تبقَ عصبة ولا عصبية واضمحلّ كلّ هذا. والحاصل هل الصين لقمة سائغة في مزدرد أوربا؟ أو هي عظم سمك في حلقومها؟ فجئت بعجالتي هذه أبحث عن الأسباب التي يبنى عليها افتراض موت هذه المملكة، وتناط بها آمال الأوربيين في الفتح، والأسباب التي بعكس الأولى تمسك من جرف الصين وتسدّ من ثغورها وتحرس على أهلها أجلها، حسبما وصلت إليه بعد التحقيق والتمحيص. والله تعالى من وراء العلم.

إذا اشتدّت العلّة على مريض أخذ الأطبّاء في فحص جسمه خصوصًا الأعضاء الرئيسة منه ليعرفوا سليمها من مصابها، فإن وجدوا أنَّ القلب مصاب بالتقهقر التاجي وأنَّ المعدة لا تفرز عصارتها جيّدًا، ولكنَّ الرئة سليمة والحرارة غير عالية وسائر الأعضاء مؤدّيات وظائفها جيّدًا، أو إنْ رأوا الرئة مصابة والحرارة عالية، ولكنَّ القلب سليم والمعدة جيّدة وما أشبه ذلك ممّا تصرف منه مدّة مقاومة ذلك الجسم للعلّة إلى أن تكون نجعت فيه العقاقير، وازنوا بين دواعي الحياة وبواعث الموت، فإن ربحت الأولى ازدادت آمالهم في نجاة المريض، وإن ربحت الثانية اشتدّ خوفهم عليه. ونحن سنشرح العناصر الحيّة التي في باطن المملكة الصينية، والأسباب التي بمثلها تقوم الدول وتستتبّ الأمم وتستمرّ مريرتها. ونبسُط

العلل التي في جوف الصين موهنة لجسمها مقصّرة لحياتها معجّلة للحكم بزوال أمرها، ولمّا كانت الصناعة من أمّهات العمران وأركان بناء الأمم وما اشتهر به الصينيون من قديم الدهر، فهي من أحيى عناصرهم وأسلم أعضائهم الرئيسة، وأكثرها تأدية لوظيفتها، قدّمناها على غيرها بالذكر، فنقول:

- الصناعة في الصين

من المأثور أنَّ الله قد أنزل الحكمة على أدمغة اليونانيين، والسنّة العرب، وأيدي أهل الصين، وممّا اتّفق عليه الجغرافيون والمؤرّخون والسائحون أنَّ الأمّة الصينية أمّة صنّاع اليد لا تبارى في الصناعة، مرزوقة الحظّ في هذه الجهة، بل ربّما عدّها الكثيرون في مقدّمة الأمم الصناعية شرقًا وغربًا. ومن هذا الفريق ابن بطوطة الذي يقول في رحلته «وأهل الصين أعظم الأمم إحكامًا للصناعات وأشدّهم إتقانًا فيها، وذلك مشهور من حالهم قد وصفه الناس في تصانيفهم فأطنبوا فيه» ووصفهم بمثل ذلك «ماركوبولو» الرحّالة الإيطالي الشهير، ومن شدّة ما أعجب به من صنائعهم وسائر أحوالهم نسبه أهل عصره إلى التعصّب لهم، ورموه بالكذب والمبالغة كما رمى جماعتنا ابن بطوطة، والحال أنَّ الصينيين أيام ابن بطوطة وماركو بولو كانوا بلا شكّ سابقين كلّ الأمم في غايات التمدّن، وإنّما كان الذين لم يألفوا هذا العمران المستبحر معذورين في إنكار ما يسمعونه من غاياته خصوصًا إذا قرأوا مثلاً عن مدينة (هانغتشو) أو (كنساي) أنَّ فيها «مئة ألف برج وستّمائة ألف بيت وثلاثة آلاف حمّام واثني عشر ألف جسر حجر، تمرّ من تحت جميعها المراكب، وعلى كلّ جسر منها حرس عشرة رجال. وأنَّ الصناع والمَهَنة فيها منقسمة إلى اثنتي عشرة فرقة، كلّ فرقة تأوي إلى اثني عشر ألف بيت» وهي التي سمّاها ابن بطوطة (الخنساء). وقال إنَّ مسيرتها ثلاثة أيام، وقال «أودوريك دوبوردنون» إنّها أكبر مدينة في العالم وقد حقّقت الآثار أقوال هؤلاء المؤلّفين وخلصت من شائبة التزيين والمبالغة، ولا عجب بعد وصول العمران إلى هذا الحدّ أن تكون الصناعات هناك زاهرة والأعمال اليدوية باهرة لأنَّ إتقان الصناعة إنّما يكون على قدر استبحار العمران وتأثّل المدنيّة.

وقد سبق الصينيون الناس إلى غايات شتّى منها الصناعة، واكتشفوا كثيرًا من أسرارها منذ قرون، حتّى أنَّ جمًّا من الصنائع والاختراعات التي أطلّ عليها الأوربيون في أواخر

القرون الوسطى وأوائل القرون الحديثة كان معروفًا عند أهل الصين منذ مئين من السنين قبل ذلك العهد، مثال ذلك صناعة الطبع التي ظنّ بعض الأوربيين أنها من اختراعهم، حال كون هذا الظنّ نشأ من جهلهم بأحوال الأقاليم وعدم الوقوف على ما عند غيرهم، إذ قد عثر المحقّقون على آثار في القرن السادس للمسيح تفيد أنَّ الطباعة كانت معروفة عند الصينيين من قبل هذا التاريخ. قال بعض الإفرنج "ولو كان الإفرنج قرأوا تواريخ الفرس لقرأوا عن كيفية الطبع في كتاب رشيد الدين المؤلّف في نواحي سنة ١٣١٠" قلت، ولو أتقن الإفرنج معرفة تاريخ العرب كلّه لعرفوا أنَّ الطبع انتقل من الصين إلى فارس ومنها ظهر في الأندلس القطعة العريقة في كلّ صناعة من بين بلاد الإسلام. وقد قال صاحب "الإحاطة في أخبار غرناطة" في ترجمة أبي بكر القلوسي "ورفع للوزير الحكيم كتابًا في الخواص وصنعة الأمدّة وآلة طبع الكتاب". وجاء في كتاب "الحلّة السيراء" لابن الابار القضاعيّ البلنسيّ عن بدر مولى الأمير عبد الله أنه "كان يكتب السجلاّت في داره ثمَّ يبعثها للمطبع فتطبع وتخرج إليه فتبعث في العمّال". وكانوا يحفرون الخشب للطبع، ومن آثار ذلك طابع كان تجّار المرية يرسمون به البضائع في نواحي سنة ٧٥٠ للهجرة. وأمّا الصينيون فكانوا قد عرفوا الحفر في الخشب والحجر والنحاس والطبع بقطعها، وفي أواسط القرن الحادي عشر للمسيح اخترع أحدهم الحروف المعروفة اليوم من خزف. ولكن، لمّا كانت كتابة الصين كثيرة الإشارات والحركات كان من الصعب استعمال هذه الحروف النقّالة إلاّ في الكتب العاميّة والجرائد التي تكفي في إملائها الحركات اليسيرة، ومع هذا فقد اجتهد بعض الطبّاعين في طباعة كتب مهمّة بالحروف النقّالة وأفلحوا فجاءت غاية في الإتقان. ولّما عزم الأمبراطور (كنغي) على طبع الستّة آلاف كتاب التي طبعها أمر فحفر لطبعها ٢٥٠ ألف مثال من النحاس، وكذلك الحروف التي في المطبعة السلطانية الآن يسمّونها هناك لحسنها "الدرر المتناسقة".

وطالما كانت الصنائع في الصين لجًّا زاخرًا والمدنيّة فيها منبسطة الأطراف، ولا علم لأهل أوربا بشيء من هذا حتّى كشفه لهم بعض السيّاح، ولكن لم تصلهم الأخبار الموثوقة عن الصين وصنائعهم وسائر أحوالهم إلاّ في أواخر القرن السابع عشر للمسيح، بواسطة دعاة الديانة النصرانية وبترجمة بعض الكتب التي ترجمها عن الصيني ستانسلاس جوليان وغيره. وقد وهب الله الصينيين حذقًا فطريًا في العمل، وأنزل الحكمة على أيديهم، والدقّة على أناملهم، واللباقة على معاصمهم، وآتاهم سرعة الفهم وقيامًا على العمل، فجاؤوا

صنّاعًا ماهرين وعملة حاذقين. وساعدهم على إتقان أعمالهم عدم تقسيمها عندهم كما هي مقسّمة في أوربا، فكلّ صورة أو قطعة أو آلة هي عندهم عمل صانع واحد يعمل جميع ما يلزم لها، فالصانع هناك هو المصوّر والمركّب والمرصّع والملوّن والأعمال أكثرها إفرادية، ولذلك التزموا جميعًا دقّة النظر، وطاوعتهم أناملهم في أكثر الصناعات، وأنك لتجد في كثير من ولايات الصين الفلاّحين صنع الأيدي، يغزلون بأيديهم أقطانهم ويحوكون أقمشتهم ويخيّطون ثيابهم، وهلمّ جرًّا، وإنّما كانت لهم البراعة الفائقة في عمل السلال والجؤن وضفر القصب على الإطلاق حتّى من سلالهم ما يصبّ فيه السائل ويفرغ فيه الماء فيكون كقعبان الخشب أو كآنية النحاس، فتأمّل.

وممّا امتاز به الصينيون تحليل مركبات النحاس والرصاص والتوتيا والقصدير والزرنيخ والفضّة والذهب، ويسبكون منها ما شاؤوا آتين فيها بالفنون العجيبة، وأنَّ الآنية التي يصنعونها لا تنظّر في لونها ولمعانها ومائها، وقد تصل بعض آنيتهم من الملاسة والسلاسة والصفاء والماء إلى درجة تعجز سائر صنّاع الأرض، ولا يزالون يطرقونها حتّى يكسبوها رنّة لا توجد في سواها. ولهم مهارة غريبة في التطريق فتجد خمسة قيون يطرقون جميعًا على دائرة واحدة طرقًا متناسبًا في القوّة والإيقاع حتّى لا تفرّق ذلك عن الموسيقى أصلاً.

وممّا فاقوا به أيضًا ترصيع الخشب والعاج والحجارة الصلبة ممّا يسمّى بالتنزيل، فلهم في ذلك الدقائق المدهشة. كذلك صنعة الورق التي اخترعوها هم، فإنّهم سبقوا فيها الجميع وهم يعملون الكاغد أنواعًا، ومن هذه الأنواع ما لا يعرف في أوربا ومع هذا فقد يؤثِر الأوربيون الورق الياباني أو الكوري. أمّا الأصباغ فقد انحصرت الرئاسة فيها بالصينيين وكذلك لمزاولتهم استعمالها وتفنّنهم فيها ووجودِ أشجار في بلادهم لا توجد في سواها، يعتصرون منها لهذه الأصباغ والألوان ما يجعل لها المزية على غيرها. وقد يتحلّب من عصارات بعض هذه الأشجار مواد سامّة قتّالة تجعل الخطر على الماهنين في تعاطيها، بل في اشتمام روائحها، فيلتزمون استعمالها بغاية الدقّة والحذر. وبالإجمال فإنَّ كثيرًا من سرّ هذه الأصباغ لا يزال مجهولاً عند الغربيين.

أمّا كيفيّة استخراجهم للحديد وقَيْنه عندهم فقريب من طريقة أهل أوربا، وأمّا الفولاذ (الصلب) فالصينيّ منه يفضّل على الإنكليزيّ، ولكنّهم لم يباروا الأوربيين إلى

الآن في استخراج الفحم الحجري، مع أنّ بلاد الصين من أغنى بلاد الله بمعادنه ولا يظنّ وجود معدن للفحم الحجري في الدنيا أيسر تناولاً من معدن شانسي. وقد قال (فون ريشتوفن) إنّ في جنوبي شانسي من الفحم ما يكفي العالم آلافًا من السنين، غير أنّ طريقة استخراجه لا تزال صينية محضة، إلاّ ما كان في معادن فرموزا ومنشوريا وبشيشلي، فقد اتبعت فيه الأصول الأوربية الجديدة.

والسبب في تجافي الصينيين غالبًا عن استعمال الطرق الأوربية هو عجبهم بصنائعهم وبأوهم بأنفسهم وكونهم لا يقرّون للغربيين بالتقدّم عليهم، والحال أنّ تقدّم العلم والصناعة في أوربا إلى الحدّ الذي وصلا إليه لم يبقَ محلاً لكبرياء الصين وخيلائها إلاّ في قليل من الصناعات، بل الصينيون أنفسهم صاروا يحتذون أمثلة الأوربيين في كثير من الأشغال. وأهل (كنتون) في عمل الأدوات والمواعين والساعات وأسباب الرياش والفراش إنّما نسخوا عن الأوربيين والأميركيين فضلاً عن كون الغربيين هم أساتذة الآلات البخارية والمناسج. ومهما شدّد الصينيون في حفظ أصولهم القديمة في العمل فلا غنى لهم عن تقليد الإفرنجة في كثير من الأشياء، نعم عندهم صناعات قديمة تستحيل فيها القوالب الجديدة لأنهم اخترعوا لها طرقًا هي من البساطة والسهولة بحيث لا يمكن أن تزداد تسهيلاً ومنها ما لم يقع عليه تغيير منذ أربعة آلاف سنة. قال «بول شابيون» في كتاب الصنائع القديمة والجديدة في الصين «ربّما دثرت بعض هذه الصنائع القديمة بالمرّة ولم يمكن تغيير أوضاعها وكيفيّات عملها» وقد درست صنائع في الصين ولم يبقَ في إمكان الصينيين ولا الإفرنج تجديدها، إذ كيف يتأتّى تجديد صنعة الآنية المرصّعة والخزف الشهير بالصيني المعروف في ديار الشام والمتنافس فيه بين الأقوام؟ قد جرّب عمل ذلك كثير من صنّاع الغرب والشرق فغمض سرّه عليهم ولم يفلحوا.

وممّا أتقنه الصينيون فنّ التصوير ولهم فيه سرعة خاطر زائدة، وقد أشار إلى ذلك ابن بطوطة منذ نحو خمسة قرون فقال: «وأمّا التصوير فلا يجاريهم أحد في أحكامه من الروم ولا من سواهم، فإنّ لهم فيه اقتدارًا عظيمًا ومن عجيب ما شاهدت لهم من ذلك، أني ما دخلت قطّ مدينة من مدنهم ثمّ عدت إليها إلاّ ورأيت صورتي وصور أصحابي منقوشة في الحيطان والكواغد، موضوعة في الأسواق. ولقد دخلت إلى مدينة السلطان فمررت على سوق النقّاشين ووصلت إلى قصر السلطان مع أصحابي ونحن على زيّ العراقيين، فلمّا

عدت من القصر عشيًّا مررت بالسوق المذكورة فرأيت صورتي وصورة أصحابي منقوشة في كاغد قد ألصقوه بالحائط، فجعل كلّ واحد منّا ينظر إلى صورة صاحبه وهي لا تخطئ شيئًا من شبهه. وذكر لي أنَّ السلطان أمرهم بذلك وأنهم أتوا إلى القصر ونحن فيه، فجعلوا ينظرون إلينا ويصوّرون صورنا ونحن لم نشعر بذلك، وتلك عادة لهم في تصوير كلّ من يمرّ بهم، وتنتهي حالهم في ذلك إلى أنَّ الغريب إذا فعل ما يوجب فراره عنهم إلى بلاد أخرى بعثوا صورته إلى تلك البلاد وبحثوا عنه فحيثما وجد شَبَه تلك الصورة «أُخذ».

ولهم ملكة راسخة أيضًا في الوشي والرقم وهي صناعة (كنتون) التي هي من أمّهات مدنهم وأحفلها بالأعمال، أهلها ينسجون الحرير ويصقلون المنسوجات ويحفرون وينحتون ويرصّعون وينزّلون في الخشب والعاج وغيرهما ويصنعون الزجاج والورق والسكّر. قال (جوليان روشتوار) في كتابه «باكين وداخل الصين» أنه سواء بزهو الألوان أو ببهاء النقوش أو بدقّة الشغل ليس لصناعات كنتون مثيل في الدنيا.

وفي مدينة (هانغتيشو) وهي خنساء ابن بطوطة ستّون ألف عامل بالحرير فقط وفي مدينتَي (هوتيشو) و(كياهين) مئة ألف عامل بهذا الصنف وحده والعَمَلة عندهم يرضون بالأجرة القليلة، فيوميّة الفاعل في باكين وشنغاي وكنتون من ٥٠ سنتيمًا إلى فرنك واحد، وعَمَلة الحرير أوفر العَملة أجرة، ولكنّها ليست بشيء بالقياس إلى أجرة العامل الغربي. نعم إنَّ الطعام في الصين أرخص منه في أوربا، ولكن قلّما تجد فاعلاً أجرته تكفيه وفي أكثر المقاطعات. غذاؤهم الأرز فقط، ومع سوء غذائهم وصفرة ألوانهم ونحول أجسامهم لهم قوّة عضلية مهمّة، وعندهم صبر عجيب وإذا جاؤا لجرّ الأثقال لم يكن الإنكليز أوثق قدمًا منهم، بل في أواسط المملكة حيث تندر الأنهر والبحيرات والطبوع (الأنهر المحفورة) تجد جميع الأحمال على ظهور الرجال فتراهم صاعدين نازلين بأوقار[1] يضعف الأوربي أن يحملها في السهل.

ولهذه المزايا في فَعَلة الصين صعبت مزاحمتهم، وكاد يستحيل نجاح العامل الأوربي بجانب العامل الصيني في حرفة واحدة، وقد اجتمعا مرارًا والأوربي يأخذ أضعاف الصيني، فأثرى الصيني من القليل ولم يكفِ الأوربي الكثير والتزم الفرار، ولهذا تضايق أهل أميركا وأستراليا من مهاجري الصين وكرهوهم، وأخيرًا وضعوا الموانع في طريق مهاجرتهم،

(١) أوقار: صخور محفورة تمسك الماء.

وثقلوا عليهم الضرائب. ولمّا لم يمنعهم ذلك عدلوا إلى إعناتهم وإهانتهم وربّما ثاروا عليهم وذبحوهم وما زالوا يدافعونهم عن بلادهم وهم يندفقون عليها ويزاحمون فقراءها، حتّى اضطرّت حكومة الولايات المتّحدة أن تعقد وفاقًا مع حكومة الصين بمنع استقرار الصينيين في تلك الولايات وفي جزائر الفيليبين، وضيّقت عليهم حكومة هولنده في الجاوي فهي لا تأذن لهم في الإقامة إلاّ في محال معيّنة، ولا تعاملهم إلاّ بالعنف، ومع كونهم سدّوا خللاً كثيرًا وجعلوا مرفقًا كبيرًا في غربي أستراليا وفي مستعمرة سنقافورة الإنكليزية، فتجد القوم يكرهون جوارهم ويسعون في جلائهم، وما ذاك إلاّ من صعوبة مباراتهم وأنْ ليس للغربيين صبرهم ولا ثباتهم ولا قناعتهم ولا رضاهم من العيش بالأدنى. ولرجال العمل عندهم جمعيّات ونقباء كما في أوربا، بل أكثر ممّا في أوربا، ولهم خضوع تامّ لنقبائهم ممّا يسهّل عليهم طرق النجاح، والحاصل إنَّ الصينيين، وإن أعوزهم الإقدام وعلوّ الهمم، فعندهم الثبات والبصر بالصنائع وهم أمّة صناعية فطرةً وجبلةً ويبعد أن يغلبهم الأوربيون في هذه الشؤون أو أن ينالوا معهم سبقًا. كنت أتحادث في هذا الأمر مع حضرة عبّاس أفندي البهائي رئيس الفرقة البابية وهو من العقل والعلم وسموّ المدارك بالمقام الذي لا يخفى فقال لي: إنَّ أخذ الأوربيين للصين بالسيف أمر غير صعب المنال، وإنّما كان مقصد الأوربيين في التملّك خارج بلادهم الكسب والتجارة والعمل، والكسب مع أمّة كالصين صعب، إذ لا يمضي مدّة بعد أخذ الأوربيين للصين حتّى يأخذ الصينيون جميع ما بأيدي الأجانب من الصنائع.

مستقبل الصين*

لجناب الأمير شكيب أرسلان

(٢)

- الزراعة في الصين

العضو الثاني من الأعضاء الرئيسة الممتلئة سلامةً وحياةً من جسم هذه المملكة هو الزراعة، ولعمري مهما علا كعب الصينيين في الصناعة، وفضّلوا فيها سواهم وإطاعتهم أياديهم في تذليل الجماد لخواطرهم وتسخيرهم المعادن لتصوّراتهم، فإنَّ أياديهم في حراثة الأرض أطول وملكتهم في الزراعة لا تقلّ رسوخًا عن ملكتهم الصناعية. وبالإجمال، فإن لم تتجاوز الزراعة عندهم شأو الصناعة، فإنّهما في وزن واحد من الإتقان وتقدير واحد من الإيفاء وعليهما معوّلٌ سكّان هاتيك المملكة في معايشهم وبهما قوام وجودهم. والزراعة محترمة جدًّا عند الصينيين يشوبها لديهم شيء من التقديس ويمازج إكرامها عندهم ذروٌ من الاعتقاد، اجتهادًا بأنَّ الزارع عندهم هو الذي يغذّي الناس ويكفل لهم أقواتهم، حتّى أنَّ السلطان نفسه ليسمّونه بالزارع الأكبر لأنه هو العائل الأعظم للمملكة والمملكة معوّلة به. وكان من جملة عوائدهم التي نسخت أن يحرث الأرض بيده ثلاثة أيام متوالية في أواخر شهر آذار وهو مرتدٍ ثوب أكّار، وكفى بذلك حرمة مقام الزراعة وإكبارًا لقدرها في أعينهم.

وما زالت تروى في هذا الموضوع عن سلاطينهم النكات، حتّى لقد تناقل الخلَف عن السلف منهم أنه في جوار مدينة (نينغبو) حذاء الجبال المسمّاة بالجبال الزرق في سهل أفيح هناك كان السلطان (تشين) منذ أربعين قرنًا ماسكًا بسكّة حراثة يحرث الأرض على فيل.

ومّما فرضه القانون الصيني قيام صاحب الملك دائبًا بحراثة أرضه وإصلاحها، فإذا أهملها مدّة ثلاث سنين فقط حقّ للحكومة نزعها من يده وتسليمها لآخر. وأغرب من

* المقتطف ج٢٥ (أكتوبر ١٩٠٠)
وج٢٦ السنة ١٩٠١ص ٢٦٨ ص ٤٠١.

ذلك أنَّ شيخ القرية ولقراهم شيوخ كما في سائر البلاد مسؤول هو نفسه عن أراضي قريته مطالب بتطبيقها بالعمل، فإذا وجدت مهملة أو وُجد بعضها مهملاً جوزي الشيخ علي ذلك بجلده مائة سوط، وبالجملة فإهمال الأرض عندهم حوبٌ[1] كبير وهو منكر في جميع البلدان، إلاّ أنَّ ربط هذا الإنكار في الصين بمادّة قانونية وتحقيقه بجزاء لمّا يدلّ على غلوّ تلك الأمّة بحبّ الزراعة وأنهم يقدّرونها قدرها ويعرفون مكانها من عمارة البلاد، وما غلت أمّة احتاطت بالقوانين لتوثيق أسباب المعيشة وتأمين دعائم العمران.

وقد ساعد الصينيين في إتقان زراعتهم فضلاً عن قوانينهم ومشرب حكومتهم خلقُهم المشهور في الصبر وسجيّتهم المعروفة في الثبات مع بصرهم النافذ بهذا الفنّ وممارستهم الطويلة له، وإن كان الصبر رائد كلّ نجاح وطليعة كلّ نصر فهو لهذا الأمر ألزم وبه أخلق والصيني يسقي أشجاره وبُقوله بيده كما يسقي البستاني حديقة قصر ويدلّل أزاهر روض وهو يحنو على أغراسه ونبات أرضه حنو الظئر على الفطيم. ومع الثبات وطول الأناة وتكرّر التجربة صار الصيني يستثمر من أرضه أضعاف ما يستثمر سواه، ويستدرّ من أضراعها ما لا يستدرّه الفلاّح الأوربي لو قام مقامه، وناهيك أنهم بلغوا من درجة الاستثمار أنَّ العشرين شخصًا من الصينيين يعيشون طول السنة بمحصول هكتار واحد من الأرض في بعض الأماكن، كذا رواه الثقات من سيّاح الإفرنج، فكأنَّ الفدّان الواحد يقوم بمؤونة ثمانية أشخاص تقريبًا وهذا شأوٌ متناهٍ. وقد روى أبو القاسم بن حوقل في المسالك والممالك عن عمارة صقع بخارًا: إنَّ الرجل ربّما قام على الجريب الواحد فيكون منه معاشه. وقد اختلف في الجريب فعلى رواية هو أربعة أقفزة، والقفيز ستّة عشر رطلاً. وعلى رواية هو عشرة أقفزة وربّما وقع الاختلاف باختلاف البلدان كما هو في سائر المكاييل والمقاييس، لكن ذكر قدامة في كتاب الخراج أنَّ الأسهل إذا ضرب في مثله فهو الجريب والأسهل طول ستّين ذراعًا، فإذا ضربنا ستّين في ستّين حصل معنا ثلاثة آلاف وستّمائة ذراع. هذا هو الأصحّ في الجريب وهو منقول عن المكيال وكيف كان الأمر، فما ذكر عن الصين أبلغ لأنَّ ما ذكره ابن حوقل عن الجريب البخاريّ، وإن كان غاية في العمارة فهو دون ما يرويه بعض جغرافيي الإفرنجة عن بعض أراضي شنغاي مثلاً، كما ترى من نسبة الجريب إلى الفدّان ونسبة الواحد إلى الثمانية.

نعم إنَّ الفلاّح الصيني لا يعرف تحليل الأرض كيماويًا معرفة الفلاّح الأوربي، ولم

(١) حوب: إثم.

يأخذ علم خواص الأتربة عن كتب الفنّ، ولكنَّ التجربة كفته مؤونة النظريّات، فصار يعرف خاصّة كلّ تربة وماذا يجب أن يعاقب على أرضه من الزروع وأصناف البذور وماذا يلزمها من السماد وهو بيده يحرثها ويكروها ويزرعها وينقّيها من الأعشاب، وبيده يفتّت ما غلظ وما تلع من التراب وله معرفة بتربية الحيوانات وتدجينها تأنيس شواردها وتذليلها لخدمته وله مسكة أيضًا في تربية الطير. ومن غريب ما يحكى من عناية الصينيين بذلك أنهم يضعون بين أجنحة الحمام صفّارة صغيرة من قشر البامبو في لطافة الورقة بحيث تحتملها الحمائم بين ريشها فتقيها بصفيرها من انقضاض الجوارح عليها، وأنهم يعلّمون بعض الطيور الصياح في ساعات معيّنات من النهار، فإذا شاءوا أغناهم الطائر عن الساعة المعلّقة. وقد بلغ من شدّة حذقهم وحيلتهم أنهم يصيدون أحيانًا بأيديهم الأسماك التي تعصى على الشباك والخطاطيف. ومن كانت هذه حالهم في الصبر على الطبيعة فلا غرو إذا جاؤا زرّاعًا ماهرين وأكرة حاذقين.

وقلّ أن يوجد في الصين أراضٍ غفلاً من وسم الزراعة، فإنَّ الأرض عندهم محروثة مغروسة مذلّلة للسكك غورًا ونجدًا، حتّى أنك لتجد الغراس والحرث فيها على علوّ ثلاثة آلاف متر من سطح البحر، وهذا نادرٌ أو غير معهود في غير بلادهم، ولذلك قامت تلك البلاد بميرة أربعمائة مليون من الآدميين وأحسّت بفضلة، فإن قيل إنَّ مساحتها متّسعة فهي وإن اتّسعت ضيّقة بهذه الأعداد الهائلة، ولولا حسن استثمار الأرض ما كفتهم مؤونتهم، بل كانت المساغب والمجاعات عندهم أكثر مرارًا ممّا هي الآن، وأغرب من كون محاصيلهم كافية لهم وأنهم لا يجلبون إلاّ ما ندر من الخارج. إنَّ الفاضل فوق كفايتهم قد يبنى عليه تجارة مهمّة مع الغريب، وأهمّ زراعة عندهم هي زراعة الأرز، فالأرز سيِّد طعامهم والأرض المزروعة أرزًّا هي ثمن مجموع أراضي الصين على الإطلاق.

ومن أهمّ محاصيل الصين الشاي والقطن وقصب السكّر والقنّب، وعندهم أنواع من الفاكهة، وقد دخلت بلادهم الذرة والبطاطة، ومحصول الحرير من الصين يزيد على نصف محصول الدنيا بأسرها.

وأقوم أهل الصين على الزراعة والصناعة هم سكّان ايالات ساتشوان وفوكين، كما أنَّ أقدرهم على التجارة هم أهل شانسي.

ـ التجارة في الصين

أمّا التجارة في الصين فهي غير متناسبة مع الزراعة والصناعة، وشأنها عند الصينيين دون شأنهما، وقد اتّسعت مؤخّرًا بدخول الأجانب ولكنّها لا تزال دون جسامة هاتيك المملكة، وقد عدّلت قيمة البضائع التي تدخل وتخرج في مواني الصين سنويًا وذلك منذ سنوات فبلغت ثلاثة مليارات من الفرنكات والزيادة واقعة سنة فسنة. وقد كانت واردات كانتون سنة ١٨٧٩ نحو ٦٣٩٥١٠٠٠ فرنكًا وصادراتها ١٢١٣١٥٩٧٥ فرنكًا، فبلغت الواردات والصادرات سنة ١٨٨٢ نحو ٢٤٨٠٠٠٠٠٠ فرنك وهي زيادة ثلاث سنوات فقط[١].

وأهمّ تجارة الصين إلى الخارج بصنف الشاي، لكن المقطوع من الشاي في داخل الصين أكثر منه في سائر المعمور، وقد أدخل الأوربيون سلعهم وبضائعهم في الصين رغمًا عن أهلها وقسروهم على التجارة معهم قسرًا واعتسارًا فزادوهم بذلك كراهية لهم ونفورًا منهم، مع أنَّ الصينيين لم يكونوا يكرهون الغريب في بادئ الأمر، وقد أقرّ مؤرّخو الإفرنج أنه لمّا دخل العرب والهنود إلى الصين في أوائل ظهور الإسلام بقصد التجارة تلقّاهم الصينيون بالترحاب ولم يروهم أدنى شيء يريبهم، كذلك البرتغال في أوائل سلطانهم في البحار لم يلاقوا أقلّ جفاءٍ من الصينيين، وما زال الأمر كذلك حتّى ازدحم الأوربيون من كلّ الأصناف على أبواب المملكة الوسطى وجاءوها بالمدافع والأسلحة والمحرقات وقامت المنازعات فيما بينهم فنظر إليهم الصينيون نظرهم إلى قوم برابرة سفّاكين للدماء، ثمَّ إنّهم داخلوهم في بعض المتاجر والمجالب خصوصًا الأفيون، فلم يقبلوا بدخولها فغمزوا قناتهم أو يستقيموا معهم على قبول الأفيون فشهرت إنكلترا عليهم حرب الأفيون سنة ١٨٤١، ووضعت الحرب أوزارها عن فتح خمس مواني للتجارة وهي كانتون وأمواي وفوتشو ونينغبو وشنغاي.

ثمَّ اختلّت المعاهدة فجرت حرب ثانية اشتركت فيها إنكلترا وفرنسا، وذلك سنة ١٨٥٧ واحتلّ الأوربيون كانتون وعقدت السلم، ثمَّ انتكثت عقدتها وتجدّدت الحرب ثالثة سنة ١٨٦٠، ودخل الإنكليز والفرنسيس باكين عاصمة الصين في بضعة عشر ألفًا وانتهبوا قصر الصيف الشهير واحتووا على ما فيه، وفي هيعة ذلك ثار ثائر (التايبينغ) فاضطرّت

(١) (المقتطف). وبلغت قيمة كلّ الواردات والصادرات سنة ١٨٩٨ نحو ١٣٠٠ من الفرنكات.

الحكومة الصينية أن تستعين بالأجانب على الثوّار، ثمَّ ما زالت تتفتّح الثغور للتجارة والصينيون ينفرون من هتك هذه الحجب والدول تتمادى في الأمر شيئًا فشيئًا، حتّى اصطلت الحرب بين الصين واليابان فافتضح نقص الدولة الصينية وظهر عجزها ظهورًا بيّنًا هفا إليها بالأطماع وأمال نحوها الرقاب، وقيل لها حينئذٍ «الباب المفتوح» فتسارعت الدول الغربية للولوج منه وخشية أن يبعث الفتوح بالسيف بينها إلى النزاع عمدت إلى طريقة استئجار الأراضي على مدات طويلة وتهافت القوم على البلاد من كلّ جهة، فكانت الثورة الحالية المعروفة بثورة (البوكسر) وظهر أنَّ للأمبراطورة الكافلة يدًا فيها.

وأعظم التجارة في الصين هي طبعًا بيد الإنكليز من الأجانب ثمَّ الأميركان ثمَّ الألمان فالفرنسيس فاليابان، إلاّ أنَّ اليابانيين في السنين الأخيرة قد سبقوا الفرنسيس، كما أنَّ الصينيين منذ دخول الأجانب قد اقتدوا بهم في حبّ التجارة وأخذوا يزاحمونهم مزاحمة الفائز خصوصًا وأنَّ الصيني غير موصوف بالشره ورغابة البطن، بل هو قانع راض بما قسم له، والقناعة مع الثبات أجمع من الإقدام مع المخاطرة. وقد ذكر بعض كتّاب الإفرنجة أنَّ التاجر الصيني أعظم أمانة وأشدّ محافظة على القول من التاجر الأوربي وعنده من الرويّة وطول الأناة في الاشتغال ما ليس عند هذا، ولذلك كان الأجانب قد أفادوا الصين في إدخال التجارة بينهم لأنَّ عدد التجّار منهم قد ازداد جدًّا بعد قدوم الغربيين ديارهم حتّى لم يبقَ في بعض المواني تجارة إلاّ في أيدي الصينيين.

وبسبب مزاحمة الأجانب التجارية ازدادت عناية الصين بالملاحة وبناء السفن البخارية وأنت أدرى أنَّ الصينيين يرجعون في هذا الأمر إلى نصاب صدق وأنهم هم الذين اخترعوا إبرة المغنطيس (البوصلة) لهداية السفن، بعد أن كانت تهتدي بنجوم السماء، وقد شاهد السيّاح الذين دخلوا إلى الصين في القرون الوسطى من احتفالهم بالملاحة ما أدهشهم. قال السائح الشهير ماركو بولو: «إنَّ في مياه كيان من الصين في نهر واحد من السفن والمراكب الحاملة للمتاجر والبضائع أكثر ممّا يخفق في بحار وأنهار النصرانية مجتمعة». ولم يزل هذا النهر مرسى ومجالاً للألوف من السفن والزوارق إلى يومنا هذا. وفي سنة ١٨٥٠ حدث حريق هائل في ثغر أو تشانغ، فأتلف سبعمائة سفينة كبيرة وبضعة آلاف من الزوارق دفعة واحدة، فهلك خمسون ألف نواتيّ بين الحرق والغرق، وأنَّ تاجرًا فردًا من أهل البلدة أوصى بعمل عشرة آلاف تابوت من ماله الخاص يومئذٍ وورد في جغرافية إليزه ركلوس

الفرنسوي قوله: "فكان في حريق ميناء واحد من مواني الصين قد هلك من النواتية أكثر ممّن يوجد من النواتية في مواني فرنسا كلّها".

إلاّ أنَّ هناك عائقًا مهمًّا في طريق تقدّم التجارة إلى الغاية التي بلغتها في بلاد الغرب ألا وهو إعواز السكك الحديدية التي لا تزال في الصين نادرة مع وجود الطرق العادية خربة والمواصلات صعبة. نعم في الصين ٢١ طريقًا سلطانيًّا من بقايا الأولين قد تأنّقوا فيها وحفروا لها الأنفاق في بطون الأنجاد، وعقدوا الحنايا بين الوهاد واشتقّوا لها المخالص من مكان إلى آخر ورصفوها بالبلاط ونظموا بلبّاتها الأشجار وجعلوها في عرض كافٍ من ٢٠ إلى ٢٥ مترًا وأقاموا عند نهاية كلّ خمسة آلاف مترًا أبراجًا للإشارات. وبنوا فنادق للنزول والتعريس وحياضًا للورود ومخافر للجند تأمينًا لأبناء السبيل وتسهيلاً للسفر. فكانت الطرق عندهم آمَنُ ممّا هي في سائر البلاد، والصينيون لهم الحرّية التامّة يسافرون في كلّ أنحاء المملكة بدون حرج ولا تذاكر للجواز عندهم، ويحترفون بكلّ حرفة بدون رسم تمتّع. ولّما دخل ابن بطوطة الصين رأى من الأمنة في السوابل وراحة المسافر ما قضى بعجبه، كذلك سيّاح الإفرنج من أهل القرون الماضية قالوا مثل قوله، وممّا تحدّثوا به عن اقتدار الصين، ولا يزال إلى الآن قائمًا جسر في (شاوهينغ) بناه الصينيون منذ نحو ألف سنة، طوله مائة وأربعة وأربعون كيلومترًا ممتدّ فوق منخفضات من الأرض ومسايل مياه وفيه أربعون ألف عقد وعرضه متر ونصف متر وله رصيف، وهو جسر لم يبن بِطوله الأوربيون إلى الآن. إلاّ أنَّ أكثر تلك الطرق قد تعطّل ولم يتجدّد مكانه، فقصر الصينيون عن شأو آبائهم ولم يشاءوا الاقتداء بالأوربيين، فكانت طرقهم الحديثة صعبة السلوك وأضرّ ذلك بتقدّم التجارة. ويقال إنَّ الصينيين يدركون فوائد السكك، ولكنّهم آثروا بقاءها على حالها من الخراب ونفروا من مدّ قضبان الحديد في بلادهم فرارًا من نفوذ الأوربيين وقصرًا من مداخلتهم فزاد ذلك في أسباب ضعفهم ولم يجدهم في دفع الأجانب فتيلاً، وإذا سألت رجال الحكومة عن إغفالها هذا الأمر الجليل أجابوك أنه رحمة بالفقراء من المكارين، والصحيح ما قدّمناه لك.

بقي علينا أن نتكلّم في باب التجارة عن تجارة الأفيون التي هي من أهمّ ما يرد إلى الصين والتي لأجلها صارت الحرب، فقد كانت واردات الأفيون من الهند على الصين منذ سنوات من ١٥٠ مليونًا إلى ٢٠٠ مليون. ولا شكّ أنَّ الأفيون هذا مضرّ جدًّا بأهل الصين،

لكنَّ الناس يبالغون في درجة مضرّته بهم وينسبون كلّ تأخّر في أحوالهم وقعود في عزائمهم إلى تأثيره فيتجاوزون بذلك حدود الحقائق وليس كلّ ما يقولونه صحيحًا، وذلك لأنَّ الأذكياء والمتعلّمين من أهل الصين لا يتناولون منه إلاّ قليلاً، ولا يظهر أنه يؤثّر في حالتهم العقلية كما يقال، والتأثير إنّما هو في المدمنين وهؤلاء ليسوا من الزرّاع ولا من الصنّاع الذين منهم سواد الأمّة. وأكثر الذين يتعاطون الأفيون يأخذون منه نتفًا وفي الأحايين. ومن الغريب أنَّ الولاية التي يمتاز أهلها بشرب الأفيون وهي ولاية (ستشوان) تجد أهاليها أحدّ أذهانًا وأعظم إقدامًا من أهالي سائر البلاد، وإذا وزّعت الحشيشة على الأهالي لم يصب الواحد أكثر من ٢٠ غرامًا طول السنة والبلدي من الأفيون أقلّ فعلاً من الهندي، والتبغ هناك على رواية له نتائج ليست نتائج الأفيون بأعظم منها، ويقال إنَّ اليسوعيين هم الذين علّموا أهل الصين فتَّهُ، ثمَّ قال بعض علماء الإفرنج أمّا السِّكر الذي يسكره الأوربيون بالخمر ويضيعون به رشدهم فهو غير معروف في الصين، قلّما تجد هناك رجلاً سكران.

مستقبل الصين *

ديانة الصينيين

(٣)

يدين الصينيون بمذاهب مختلفة وعقائد متفرّقة، ولكنَّها في الواقع ترجع عندهم إلى ثلاث ديانات: الديانة الطاوية والديانة البوذية ومذهب كنفوشيوس حكيم الصين الأكبر. وتنفرد أديانهم عن غيرها بأنّ كل دين في الأرض ينفي سواه ولا يقبل المشاركة وإذا دخل قلب امرئٍ طرد كلّ اعتقاد خارج عنه فلا يلتقي في قلب مؤمنٍ ساكنان. وإنّ أديان أهل الصين لا يطرد بعضها بعضًا ولا ينقص أخيرٌ أول، بل تراها تمتزج وتتّحد وتتساكن في قلوب مؤمنيها فيمكن أن يكون الإنسان طاويًّا وبوذيًّا وتابعًا لكنفوشيوس في آنٍ واحد. وكأنها في هذا تحتمل شبهًا من أمر الطرق وللطرق المثل الأعلى، فقد يعهد أن يكون الرجل شاذليًّا ثمَّ يأخذ طريقةً قادريةً أو رفاعية أو نقشبندية أو غير ذلك، ولا ينفي ذلك بعضه بعضًا لأنّ جميعها ضمن دائرة الشريعة تؤدّي إلى مرامٍ واحد ومرمًى واحد وهو الإخلاص في ذات الله.

على أنّ الغالب على عقول أهل الصين الاعتقاد بمظاهر الكون ومجالي الطبيعة وهو أساس دينهم، فهم يرون في جميع الحركات الطبيعية من عواصف وزلازل وأمطار ورياح ونوافح برد ولوافح قيظ اختلاجات أرواح كامنة في الطبيعة كمون الماء في العود أو النار في الجلمود. وعندهم أنّ كلّ ما يقع عليه نظرك من شجر وحجر وسهل وجبل وبحر ونهر وغير ذلك إنَّما هو تجاويف وأحناءٌ استجنَّت بها أرواح واستكنَّت فيها جِنَّان تتحرّك ضمنها. فكلّ مادة تحرّكت فإنّما اختلج في داخلها الجنّ الكامن فيها. زعموا وأنَّ فوق هذا العالم الأدنى عالمًا عُلويًّا من الجان والروح يملأ الفضاء ذاهبًا جائيًا، وأنّ الإنسان نفسه فيه جزءٌ من الأُلهانيّة ولكن بدرجة منحطّة ونصيب يسير منها فاحتاج لضعفه أن يتّقي غضب الأرواح الإلهيّة بما يقدّمه من القرابين والضحايا، وأن يدَّرِئ من دون نقمتها بدخان البخور

* المقتطف ج٢٦ (١٩٠١) ص ٤٨٩-٤٩٧.

وريح القُتار لأنّ هذه الأرواح على قسمين، منها ما هو صالح ومنها ما هو شرّير وكلّ من الفريقين يعمل على شاكلته.

وقد أمعن الصينيون في القول بالأرواح المستكنّة والجنّان المستجنّة حتّى رتّبوها عوالم وفصّلوها أفخاذًا وقبائل وجعلوها طبقات متفاوتة، فقيل أنّ «تيان» أي السماء هو المحيط بالأرض والمنبثّ روحه في جميع أجزاء الطبيعة ينيرها بأشعته ويمدّ عليها جناح حرارته. وهو الإله الأكبر وشيخ الجماعة ويسمّى شانْغتي، وقد بحث كثيرٌ من علماء الإفرنجة في أصل هذه الكلمة فعلموا أنّ أصل معناها «النهار» واجتهد بعضهم في إظهار نسبة بينها وبين لفظ الجلالة عندنا توصُّلاً إلى إثبات الوحدة في الأصل. وذهب بعض مرسلي الدين المسيحيّ في الصين إلى أنّ شانغتي هذا هو الإله المعبود عند الساميين. وقيل أنّ بعض الباحثين عثر في كتب الصين على جميع العقائد النصرانية، وزعم هابيل ريموزا أنه وجد اسم «يهوه» في كتاب «السلوك والفضيلة» من كتب الصين وردَّ غيرهم هذه المزاعم قائلاً إنّها أشبه بالخرافات وإنّها بعيدة التأويل صعبة المسلك، وإنّ هؤلاء لا يتبعون إلاّ الظنّ وإنّ ديانة الصينيين مستقلّة بذاتها نبتت ونمت في عقول الصينيين ومخيَّلاتهم.

ومن مزاعم علماء الصين أنّ للوجود علّتين يدبّران حركاته أولاهما «يانغ» وهي العلّة المذكورة وتمثّلها الشمس وأيام ولايتها فصول القيظ من السنة وهي علّة الخير والمير وبها حياة الزرع والضرع والإنسان والنبات وكلّ نامٍ. والثانية «يين» وهي العلّة المؤنّثة ويمثّلها القمر وأيام إدارتها للأرض فصول البرد. فالعلّتانً تتعاقبان على تخت الولاية وهذه الثانية هي علّة الشر وأثرها بريد الشؤم ورائد الهلاك. فالحرارة عندهم هي الحياة والبرودة هي الموت. وما أقرب ذلك للطب، بل وللّغة العربية فإنّهم قالوا برَد الرجل يبرد بردًا مات، قال صاحب اللسان وهو صحيح في الاشتقاق لأنه عدم حرارة الروح. وفي حديث عمر فهبَرهُ بالسيف حتّى برد أي مات. قال الصينيون وبامتزاج هذين العنصرين الشمس والقمر يلد كلّ شيء وينمو كلّ شيء.

ومن ظنونهم أنّ أرواح الموتى هائمة في الفضاء تطوف ببيوت الأحياء ولا تزال تؤثّر في أحوالهم المعاشيّة وتعمل في مصاير أمورهم. ويقولون بثلاث أنفس في الإنسان الواحد الروح العقليّة ومركزها الدماغ، والروح الحسّية ومقرّها الصدر، والروح الماديّة ومحلّها البطن. فإذا مات الإنسان أو على رأيهم برد سكنت الروح الأولى مواطن التذكار وسكنت

الثانية القبر وأفلتت الثالثة بلا قيد فكانت ذات خطر جسيم وشرٌّ مستوبَل. وربما حاولت المجاز إلى أجسام أُخر وربما تهافتت على إستار الأجساد تهدّدها بالاختراق. وإذا قصر أهل هذه الروح في العبادة كانت عليهم وبالاً، وأشدّ الأرواح خطراً أرواح الأطفال لأنها كانت ناقصة عند الإنفصال والغالب عليها الطيش، كما لا يخفى، فجدير أن لا تؤمن غوائلها ولا يُسترسل إلى نواحيها. ولهذا جرت الحاجة بإيقاد العود عند مداخل البيوت حجابًا على الأبواب من دون هذه الأرواح.

ومما يهمُّ الصينيّ كثيرًا اختيار مدفنه والتحري في أمر المقابر فإنّ روح الميْت بزعمهم أن كانت متأثّرة من شيءٍ انتقمت من أهلها ولو كانوا أبرارًا فجرت لهم النكبات والمصائب لم يشفع لهم برّهم ولا نفعتهم تقواهم. ألا وإنّ الأرواح ترفرف مثل الغمام المتولّي وتذهب مثل الضباب المولّي، فلأجل تسهيل طروق أخيارها وسدّ الطرق والثنيّات على أشرارها، لزم التأنّق في بناء القبور والبيوت، وإتقان فتح السكك وحفر الترع ونحت المعادن وإمهاء الآبار. وإذا حصلت بعد هذا كلّه عظائم وأمور أُنحي باللوائم على معلّمي الديانة ومرشدي سبلها الذين لو يعلموا جيّدًا أسباب التدارك ووسائل الإتّقاء، وهم معذورون في هذا العجز لأنّ التعنُّت ظاهر من حركاتها. وكثيرًا ما تضطر الحكومة إلى ردم آبار وحفر لأنّ الأهالي شكت من أضرارها بالمزروعات لكونها أصبحت مأوى للأرواح الخبيثة وأفسدت بذلك الزرع والضرع. بل ربما قامت الدعاوى وتكوّنت الخصومات بين الجيران بسبب تغييرٍ وقعَ في هيئة الأرض فحدث منه مسرب للأرواح لم يكن من قبل، إذ قلّما تظهر حفرة في أرضٍ إلاّ جاءت روح واندسّت فيها فصارت رصدًا على ما حواليها. وعليه يلزم أن يكون هناك ربّان سماويٌّ ماهرٌ يدير سكان تلك السفينة الجويّة حسبما تقتضيه المصلحة ويتّقي عواصف أهوائها بصنوف الحيل ويسيرها ما أمكن نحو الخير، ولذلك قد يبنون الأبراج ويغرسون الأشجار وقاية من الأرواح الخبيثة فكم جنّة هي جُنة وكم بستان هو صوّان.

وريح الشمال هي الهابّة بالأرواح الشرّيرة حال كون الريح الجنوبيّة هي ريح الصالحين فاليمين أفضل من الشمال في كلّ الدنيا. ثمَّ أنّ لطيف المنحنيات والألواء والمنعطفات المتعرّجة تدريجًا والأودية والأنهار كلّها منازل الأرواح الصالحة بخلاف المنعرجات البتراء والأشكال المنقطعة والخطوط المستقيمة الذاهبة صدًّا فإنّها ملجأٌ لأرواح

ليس عندها شيءٌ من الاستقامة. واليُمن كلّ اليُمن في الحركات الملتوية ليًّا خفيفًا كحركة الريح أوالماء. ويُقال لهذا المذهب «فنغ شوي» أي الماء والهواء وأصحابه يُعنَون باستعطاف الأرواح المائيّة والهوائيّة. وفي الحقّ أنه مذهب هوائيّ وإن عليه رقّة الماء غير أنه ينطبق على قوانين الصحّة فأهله يحمدون رأي الأطباء من الإنكليز في الولوع بغرس الأشجار تنقيةً للهواء واستدرارًا لاخلاف السحاب وفي مقابلة ذلك يكرهون المهندسين عَمَلة الخطوط وحَفَرة الحفائر. وكان من جملة أسباب منع السكك الحديديّة في الصين تخوُّف الأهالي من خطوطها وهذه الخرافات حالة كونها ليست بديانة الصين الرسمية فإنّ لها عند عامّة الصين شأنًا عظيمًا يفوق الرسميّ والشبيه بالرسميّ. وهذا غير عجيب لأنه لا يوجد بقعة على وجه الأرض إلاّ وعامّة أهلها متمسّكون من الدين بالخرافات ومهملون اللباب. فإنّ العامّة لا عقل لهم ودين المرء على قدر عقله. ومن المرويّ عنه صلّى الله عليه وسلّم «الدين العقل فمن لا عقل له لا دين له». ولقد تمسّك الصينيون بهذه الأباطيل وهذه المضحكات ونبذوا أقوال لاوتز مؤسّس ديانتهم على ما فيها من التوجّه إلى الحقيقة وإنكار هذه الأرواح الهائمة في الفضاء الحائمة فوق رؤوس الأحياء. وعنده إنّ الكون المنظور ليس سوى مظهر العلّة السامية التي تدرِك ولا تدرَك واسمها «طاو» أي طريق النجاة.

ثمَّ أفسد الكهنة هذه الديانة كما أفسد غيرهم غيرها وخلطوها بالسحر والطلمسات ونزلوا بها إلى حضيض الفتيشيّة وقالوا بالموائد الدائرة والأرواح النجسة والتنجيم والعرّافة والكهانة وما أشبه ذلك من سفاسف الأقوال. وعضّوا على هذه الأمور بالنواجذ. فالحكومة لا تزال تحترم هذا المذهب محافظة على رضى العامّة العمياء. وهي تجري على رئيسه الذي يزعم أنه من سلالة لاوتز رزقًا سنويًا وهو يوزّع في الآفاق الصينية نوعًا من الثمائم والتعاويذ في قراطيس خضر وحمر لأجل أن يتّقي بها الناس الشرور والآفات.

وحيث كما قدّمنا غلب على ظنّ الصينيين أنهم محفوفون من كلّ الجهات بالأرواح والجنّان، كانوا يسعون أبدًا في اتّقاء غضبهم، وصرف صواعق نقمهم بقضبان القرابين وبالصلوات والنذور. وجرت العادة أن يقوم بذلك عندهم رئيس العشيرة أو العترة أو شيخ البلد أو مقدَّم القوم فهو ينوب في هذا الأمر عن الباقين. ولا يفيد هذا وجود واسطة عندهم بين العابد والمعبود، وأنّ هناك فئة من الكهنة لهم وحدهم حقّ التقديس، كلاً وإنّما اعتقدوا كون الآلهة أنفسها طبقات بعضها فوق بعض. ولأجل مراعاة النظير جعلوا الأمّة طبقات

أيضًا وناطوا بكلّ طبقة من الأمّة معاملة طبقة من الآلهة، فالكبير عامل للكبير والأوسط للأوسط والأصغر للأصغر، وللسلطان الإمتياز بتقديم القربان للاله "السماء" وللأرض والجبال التسعة والأنهار الصينية العظمى، ولا حقّ لأمراء الصين التطالُ إلى مخاطبة هذه الطبقة، فقد اختصّت بها المخاطبات السلطانية وإنّما يقرّبون لطبقة أدنى من تلك وللجانّ الساكن في المحل، كما أنّ العامّة يعكفون على الحجر والشجر والحشائش وسائر الخسائس. ولمّا كانت الديانة عندهم من جملة دوائر الحكومة، فالحكومة هي التي ترتّب هذه المراتب وتسنّ قوانين للتديُّن وسائر الشعائر.

ولقد عُهِدَت في الصين الضحايا البشرية من جملة القربات لكن غالب هذا الاصطلاح كان عند أمّة المغول وكان كثير من أتباع الملوك يدفنون أنفسهم مع الملك المتوفّي، ولمّا مات "هوانغتي" قبل المسيح بنحو قرنين نزل معه إلى القبر كثير من نسائه وحرسه ودفن عشرة آلاف رجل من الأحياء حول ضريحه. وكان لم يزل أثر لهذه العادة الباطلة في بعض الأقصاع النائية من الصين وكثير من النساء يلقين بأطفالهنَّ في الأنهر قربةً وزلفى للآلهة، فبلغ أحد الولاة عن بعض الآباء والأمهات أنّهم يفعلون هذا الفعل الفظيع، فأمر بإلقائهم جميعًا في نهر الكيانغ فكان جزاؤه من جنس عملهم. وقد عزي الفضل لكنفوشيوس ومريديه في إبطال هذه المنازع الذميمة في العبادة. ولكن لا شكّ أنها كانت قد ضعفت من قبل كنفوشيوس وإنّما هو نسخها تمامًا، على أنّ الحكيم شديد الاستمساك بالعوائد الدينية القديمة، ما عدا هذه العادة، بل الدين كلّه عنده عبارة عن حفظ القديم. ولم يكن لخوارق الطبيعة والمعجزات والوحي شأن عند كنفوشيوس، بل هو بعيد عنها كلّها، ومن جملة أقواله "كيف يمكننا أن نعلم ما يجري في السماء ونحن نجهل حقيقة ما هو واقع على الأرض" ويروي أنه قال لأحد تلاميذه وقد سأله عن الآخرة "أنت لم تعلم إلى الآن كيف تعيش في هذه الدنيا فكيف تسأل عمّا تصير إليه بعد موتك". وما كانت مقالة كنفوشيوس إلاّ عبارة عن واجبات الإنسان نحو آبائه وأبنائه وبني جلدته ودولته، وأنّ الديانة يجب أن تهمّه من جهة كونها من جملة أوضاع الدولة. وكان من أهل الاعتدال في أفكاره والقصد في مشيه والحشمة في سلوكه والسذاجة في أحواله الخاصّة حتّى استحقّ من محابّ قومه وحرماتهم ما صيّره أول إنسان عندهم. ولو سألت عن دين كنفوشيوس لم تجده سوى محبّة أتباعه له، فكأنّ أتباعه ينظرون إلى قوم الإمام عليّ رضيَ الله عنه "محبّة العلماء دينٌ يُدان به".

ومع شدّة شغف القوم "بكنفوشيوس" وإجلالهم لقدره وتواتر القرون بعد القرون على ذكرٍ مقدّس وأحدوثةٍ فائقة وحبّ زائد وجلالة مؤثّلة لم يرفعوه إلى صفّ الآلهة ولا نسبوا إليه معجزة ولا خارقًا لطبيعة. وكان مضى على وفاته أربعمائة سنة عندما أطلقوا عليه لقب كونغ بمثابة دوق عند الإفرنج، ثمّ مضت أربعة قرون أخرى حتّى لقّب بالمقدّس الأول، ولم يُعلن عندهم أنه أقدس وأحكم وأفضل شارع على وجه الأرض إلاّ في دولة مينغ المتأخرة.

وترى في جميع بلاد الصين مشاهد لكنفوشيوس ينتابها الذين لا تتهيأ لهم زيارة قبره الحقيقي فيقال إنّ له ألفًا وستّ مئة هيكل. ولمّا أمر الإمبراطور هوانغتي بحرق كتب الأولين حسدًا وبغيًا وكان من جملتها كتاب الشوكينغ الذي جمعه "كنفوشيوس" بلغ عدد الذين أحرقوا أنفسهم وراء هذا الكتاب أربعمائة وستين رجلاً. فليتأمّل البشر في عقول البشر.

ومن الأديان السائدة في الصين الديانة البوذية، ولم تبعد هذه عن أصلها بمقدار الديانة الطاوية، ولكنها بالنظر لكونها بدأت في الصين غريبةً لم تخلُ من كونها اختلطت بكثير من عقائد الصينيين مثل قضايا الأرواح والجنّان والأصداء والهام. لقد لقيت البوذية لدن أول دخولها من كهنة الطاوية وأتباع الحكيم مقاومة شديدة، فتسامح لهم دعاتها من الهنود بكثير من عقائدهم ورضخوا لهم على إدخال ذلك في البوذية، فكثرت أتباع هذه الديانة وعرفها سلطان الصين بعد دخولها إلى تلك البلاد بثلاثة قرون. وكيفيّة ما تساهل به البوذيون مع الصينيين أنهم جعلوا لهم أرواح الرياح والمياه وأعاظم الرجال وغير ذلك من جملة مقامات بوذا فأوجدوا في مذهبهم ما يفي بأغراض الجميع. فأهل العلم والعرفان يعجبهم من مذهب بوذا مناهجه العقلية والعامّة، يميلون إليه لما فيه من الاحتفالات والزيارات والطواف، وما يمنّيهم إيّاه من انتهاء شقائهم في الدار الآخرة. والكتب المتداولة من مذهب بوذا في الصين ليست هي الكتب الشائعة عند المغول وعند أهل التبّت، بل الكتب الملائمة لذوق الصينيين المنطبقة على مشاربهم.

وسبحان الله فكأنّ الدين يتلوّن بلون البلاد التي يدخلها تلوّن الشراب بلون الإناء. وأحب كتب بوذا إلى الصينيين كتاب "النيلوفر الأبيض" وهو مجموع مواعظ وتعازي وجمل رقيقة. وأحب فرق البوذية عندهم فرقة (كوانين) وهي إمرأة كانت من تلاميذ بوذا لم يكن فيهم إمرأة غيرها، وقد آل أمرها في الآخر إلى أن صارت إلهة الرحمة وهي ملجأ الأمهات

العقم وموئل النواتية الذين تثور عليهم العواصف. وهم يصوّرونها والطفل بين ذراعيها.

وكان معظم استفحال مذهب بوذا بين القرن السادس والقرن الحادي عشر للمسيح وفي هذه البرهة بلغ التحمُّس بهذه الديانة مبلغه، وترجم من السنسكريت إلى الصينيّ لا أقل من ١٥٠٠ كتاب، وبنيت لبوذا الهياكل والأبراج في كلّ ديار الصين. وهياكلهم طبقات خمس أو سبع أو تسع أو إحدى عشرة أو ثلاث عشرة لأنّ أديان الشرق كأديان الغرب تؤثر العدد بالمفرد على الزوج ولهذه الهياكل الأجراس والنواقيس كما للكنائس. وفي الغالب يوجّهون أبوابها إلى الجنوب إلاّ إذا كان ثمّة جبل أو نهر فتوجّه نحو الجبل أو النهر. والشعائر الدينية هي القرابين والأناشيد والركوع والسجود والطواف وإذا طافوا أنشدوا على التوالي أومى توفوأي بوذا.

على أنّ هذا التحمّس بمذهب بوذا قد خمدت جذوته في ديار الصين وتداعى أكثر تلك الهياكل إلى الخراب، فهي خاوية على عروشها وقد زهدت الحكومة الصينية فيه وصرفت أنظار الناس عنه بقدر ما استطاعت، ولكنّه لا يزال ذا تبع كثير تحت تلك السماء وقد يجمعونه كما قلنا إلى مذهب طاو وإلى طريقة كنفوشيوس لأنّ كثيرين من أهل الصين يقولون "الأديان الثلاثة دينٌ واحد". وطالما اشترك كهنة المذاهب الثلاثة في إقامة الشعائر الدينية كأنّهم خدمة دين واحد، وهم يقولون أنّ مذهب كنفوشيوس يتكفّل لهم بعلم آدابهم ومذهب "طاو" بحفظ كيانهم ومذهب بوذا بإعلاء درجة أفكارهم.

وإنّما كان مركز الديانة البوذية ومضرب عسلتها بلاد التبت فإنّ "لاسا" قاعدة هذه البلاد هي "رومة" البوذية وقبلة جميع أتباع بوذا من جميع آفاق الصين، وإليها يحجّ وفودهم وإليها تهوي أفئدتهم ويسمّونها "كرسيّ الله" والمغول يقولون "الحرم المؤبّد" وفيها المحل المسمّى بجبل بوذا وفيها عشرون ألف راهب ومعظم شغل سكّانها العبادة، فمتى مالت الشمس للمغيب ترك الناس جميع ما هم فيه وتجمّعوا على السطوح وفي الساحات والجواد جماهير يصلّون ويسجون، فارتفعت لذلك الأصوات من جميع أنحاء المدينة.

ومن جملة الأديان المعروفة في الصين الديانة اليهودية وأتباعها قليلون وكثير من الصينيين يظنونهم فرقة من أهل الإسلام ويسمّونهم المسلمين الزرق، لأنّ أحبارهم يلبسون قلانس زرقاء ويحتذون نعالاً زرقاء ويُقال لهم أيضًا "مقطعو العروق" بسبب عادتهم ذبح

الشياه لأجل طعامهم. وكانوا في الماضي أوفر عددًا من اليوم فكان منهم في باكين ونانكين ونينغبو فلم يبقَ منهم إلاّ شرذمة في كيفون قاعدة هونان. والسبب في ذلك أنّ الجمّ الغفير منهم دخلوا في الإسلام ومنهم من صبا إلى ديانات الصينيين، والباقون منهم على الموسوية لا يتكلّمون إلاّ بالصيني وأحبارهم أصبحوا لا يعرفون من العبريّ إلاّ قليلاً وهم يزعمون أنهم طرقوا الصين من قبل المسيح بقرنين إلى ما بعده بقرنين، أمّا سيّاح الأوربيين فيظنّون جلاءَهم إلى هناك على أثر خراب البيت المقدّس وانقراض ملكها فيه. ولمّا دخل اليهود الأوربيون بينهم بقصد تعليمهم وجدوهم جاهلين بالمرّة أصلهم ولغتهم، بل وجدوهم كما قال أحد سيّاح الإنكليز في تقرير للجمعية اليهودية الإنكليزيّة سنة ١٨٧٩ "قد ولّوا وجوههم شطري مكّة والمدينة".

ومن الأديان التي عرفها أهل الصين من عهد بعيد الديانة النصرانية، فقد كان في بلاد الصين من النساطرة أمم لا تكاد تحصى كثرةً، تشهد بذلك التواريخ وتنطق الآثار وسنة ١٦٢٨ عُثر على حجر بقرب "سنغان فو" عليه كتابة تفيد أنّ داعيًا سوريًّا اسمه أولبون دخل بلاد الصين سنة ٦٣٥ ومعه التصاوير والكتب المقدّسة، ولثلاث سنوات من وصوله حصل على الإذن ببناء كنيسة في سنغان، ثمّ انتشرت هذه الديانة وصار لها أتباع في جميع الولايات ونُكب أهلها خصوصًا في القرن السابع ولم يمنع ذلك ازديادهم. ولمّا دخل ماركو بولو السائح الإيطاليّ وجد منهم طوائف وافرة خصوصًا في الجهات الشماليّة. وقال إبن بطّوطة عند ذكر مدينة الخنساء العظمى وكونها ست مدن كبار "إنّ المدينة الثانية منها مسكن اليهود والنصارى والترك" ومن هنا تعلم وجود النصارى هناك وفي ذلك العهد.

ولا يخفى أنّ النصرانية دخلت في دولة جنكيز خان أمير الإيغور والخطا والمغول. وجنكيز نفسه وإن لم يتنصّر فقد كان محبًّا للنصارى مكرّمًا لهم. وقال أبو الفرج الملطيّ في مختصر الدول: وكان بمقام الأتابكيّة لكيوك خان أمير كبير اسمه قداق وكان معمَّدًا مؤمنًا بالمسيح وشاركه في ذلك أمير آخر اسمه جنيقاي فهذان أحسنا النظر إلى النصارى، وحسّنا يقين كيوك خان ووالدته وأهل بيته بالمطارنة والأساقفة والرهابين فصارت الدولة مسيحيّة، وارتفع شأن الطوائف المنتمية إلى هذا المذهب من الفرنج والروس والسريان والأرمن والتزم الخاص والعام من المغول أن يقولوا في السلام (برخُمر) وهو لفظ سرياني معناه بارك مالكي.

ثمّ تلاشت النسطورية من الصين ودخل جميع أتباعها من اويغور وتتر وطوائف أخرى في الإسلام. ومؤرّخو الأوربيين يظنّون وقوع ذلك لعهد «تمرلنك» قال «اليزه ركلوس» ونظن أنّ ذريّة هؤلاء النساطرة هم الدونغان المسلمون الذين كانوا يسقطون عرش مملكة الصين في ثورتهم الأخيرة. على أنه ما غاب مذهب نسطور من هناك حتّى تجدّد للنصارى على يد الكثلكة شأن في الصين ففي القرن الثالث عشر صار «مونتكورڤينو» مطرانًا على باكين وشاد هناك الكنائس. وسنة ١٥٨١ دخل راهب يسوعي اسمه «روغجيرو» وتبعه دعاة أُخر واستمالوا بجهدهم وحسن مدخلهم كثيرين من رجال الدولة والكبراء إلى الديانة المسيحية. قال بعضهم إنّ هؤلاء بحسن سياستهم تنكّبوا طريق الطعن في أديان الصين القديمة خشية تنفير الناس منهم، فجاء الرهبان الدومينيكيون في القرن السابع عشر وخطّأُوا الأولين في سياستهم، فنشأت عن ذلك مناظرة في الدعوة وجاءت براءة من البابا اكليمنضوس الحادي عشر سنة ١٧١٥ مؤيّدة لطريقة الدومينيكيين. هذا ما رواه بعضهم والعهدة فيه على راويهِ. ولمّا جرى منع النصارى الجدد من ممارسة شعائر الصين القديمة ضعف شأن التنصير بالنسبة إلى الأول وسنة ١٨٧٦ كان دعاة الكاثوليكية نحو ثلاثمائة ومعهم جمٌّ من نصارى الصينيين أنفسهم، وقُدّر أتباعهم لذلك العهد بخمسمائة ألف نسمة وأنّ عدد المتنصرة يزداد كلّ عامٍ نحو ألفين وأكثر ما يقع التنصير في المجاعات فإنّ الدعاة يأخذون مئات من الأطفال ويربّونهم في حجر الدين المسيحيّ فينشأُون نصارى.

وأمّا الدعوة البروتستانية فجاءت متأخّرة إذ لم تكن معروفة قبل سنة ١٨٤٢ وانحصرت أعمالها في المواني الخمسة التي فتحتها للتجارة معاهدة نانكين. ومن سنة ١٨٦٠ فصاعدًا وصلت الدعوة إلى سائر الجهات ما عدا التبت والتركستان الشرقيّ وقد وطىءَ دعاة المذهب البروتستاني بلاد المغو ل ومندشوريا وبنوا عشرين بيمارستانًا وثلاثمائة وخمسين مدرسة فيها سبعة آلاف وخمسمائة طالب. وكان عدد بروتستان الصين منذ نحو عشرين سنة خمسين ألف نسمة وقد ازدادوا الآن زيادة مهمّة، ولكن يقول بعض السيّاح إنّ حرب الأفيون أضرّت بنجاح الدعوة لأنّ أكثر مرسلي هذه الفرقة هم من الإنكليز، وحرب الأفيون كرّهت الإنكليز إلى الصينيين.

وبالإجمال تجد تجّار الأوربيين يضرّون بفوز ديانة الأوربيين ولذلك يحترز الدعاة من مخالطة أبناء جلدتهم لمتنصّرة الصينيين، حرصًا على أخلاقهم وللتباين الواقع بين قواعد

الدين المسيحيّ وأفعال الجالية إلى هناك من أهله. وإذا أردت أن تعرف ذلك فانظر إلى الأمر الإمبراطوريّ الصادر مرّة في جريدة باكين الرسمية بشأن الأوربيين وهو «أنّ فئتين من الأجانب تدّعيان إصلاح أمور الصين، إحداهما تأمرنا بمحبّة القريب كأنفسنا والثانية تعلّمنا كيفيّة قتله من مسافة بعيدة بدون حرج علينا، وتبيعنا بنادقها المتقنة لكيفيّة القتل».

هذا وقد زعم بعضهم أنّ منشأ فتنة البوكسر الأخيرة التي آلت إلى الحرب الحاضرة هو من إمعان المرسلين في بثّ دعوتهم، وقد شوهد أنّ الذين اهتضموا ونُكبوا في هذه الفتنة أكثر من الجميع هم الصينيون المتنصّرون، والصحيح أنّ هذا هو من جملة أسباب الثورة وليس كلّها. هذا ما عنَّ لنا ذكره بشأن الأديان المختلفة في الصين على وجه الاختصار، وقد أبقينا الكلام على الإسلام إلى المرّة الآتية.

شكيب أرسلان

النقد التاريخي*

وعروبة آل معروف

بقلم الأمير شكيب أرسلان

نقل المؤرِّخ الأستاذ فيليب حتّي في كتابه عن الدروز جميع ما خلط الخالطون من إفرنج وغيرهم من أصل هذه الفرقة، وجرى هو نفسه مجرى بعض مؤرّخي الإفرنج، ولم يردّ تعليلاتهم الكثيرة التي لا تزيدها كثرتها إلاّ فراغًا والتي سِمتها الكبرى وعلامتها الفارقة أن يجتهد المؤرّخ بكلّ قدرته في الإتيان برأيٍ طريف لم يكن موجودًا، والإطلال على عالم العلم بنظريّة جديدة غير مسبوقة.

ولعمري حسنٌ جدًّا أن يدقّق المؤرِّخ في كلّ رأي يطّلع عليه وأن لا يقبله بالغًا ما بلغ من الشهرة إلاّ بعد تمحيص تطمئنّ به نفسه، وتحقيق يصل به إلى برد اليقين. ولكن قبيحٌ جدًّا ومضرٌّ بالعلم جدًّا ومغرّر بالمتعلّمين أن تدور جميع اجتهادات الباحث حول نقطة الإتيان ببدع، والسّبق إلى رأي لم يقل به أحد، أو تقوية رأي ضعيف.

مخالف لشروط العلم على الإطلاق أن يتعمّد الباحث المستطلع مخالفة الرأي المشهور لأنّه مشهور، ومحاولة كسب الشهرة بإحداث رأي جديد يقوم مقام القديم. قد تقع هذه الأمور موقع القبول في الأزياءِ والألبسة والمساكن والمطاعم والمشارب وغيرها من ضروب المعيشة، وترتاح الأنفس إلى التغيير وتتلذّذ بالمعاقبة والمداولة وتملّ من الشكل الواحد بدون انقطاع وتسأم لذوق الواحد بلا تنوّع ولا تصرّف، وكل هذا معقول ومقبول وطبيعي وبشري ولكنّه لا يجوز في الحقائق العلمية. حقيقةٌ من الحقائق التاريخية مثلاً تكون مقرَّرة على وجهٍ من الوجوه بعد استيفاء شرائط البحث فيها، وانطباقها على المتواتر بين النّاس والمنقول من الخلَف عن السلف، والمأثور في الكتب المعهود بأصحابها الاطّلاع وتأيدها بالقرائن القوية كالسحَن والأخلاق والعادات والمذاهب والمشارب، ونأتي فنتعمّد نقضها تعمّدًا أو نحاول أن ننقصها من أطرافها تحكُّمًا لمجرّد مللنا من تواتر القول بها وتبرّمنا

* مجلة المجمع العلمي العربي عدد ١١ (تموز - آب ١٩٣١) ص ٤٤٩ - ٤٦٧.

بتوالي الخلق على نقلها، أو لأجل الاتصاف بسلامة الاختراع وإحراز شهرة الإبتداع. هذا خُلق لا يجوز في العلماء ولا يحسن أن يفشوَ في دوائر العلم. فالاختراع جميل في الطبيعيات والكيمياء والعلوم المادية. والتسابق في ميدان التغيير والتنويع والتنافس في الإتيان بالشيء الذي لم يعهده الناس من قبل كلّ هذا لذيذ ومفيد، وقد يكون ضروريًا لأجل المجتمع الإنساني. ولكن اختراع الآراء التاريخية حبًّا بجدّة الآراء والبحث عن خبر جديد نأتي به ولو لم يركب في عقل ولا نقل ولا نؤيده ولو كان متداعيًا بمجرّد اللمح، كلّ هذا ولعًا منّا بالإطراف والإبداع، هذا جنايةٌ على العلم.

ولستُ أقصد بهذا الوصف كتاب الأستاذ حتّي الذي ليس له فيه شيءٌ من هذه الآماد البعيدة في حبّ الطرافة. وإنّما أقصد بعض الشرقيين الذين أُولعوا بهذا المشرب السقيم، زاعمين أنّه منزع تحقيق سار عليه علماء الإفرنج وإنهم إنما يقلّدونهم فيه. وأنا أُحذّر الدكتور حتّي من أن يسلك هذا الشِعب السحيق الذي يجلّ عن مثله. فمنزع التحقيق هو منزع التحقيق وافق الرأي القديم أم خالفه لا يبالي بما يجيء في طريقه. وإنّما الذي نحذّر الناس من التهافت عليه هو منزع الإغراب حبًّا بالشهرة وتعمّدًا لمخالفة الجمهور وجعل «التحقيق» مرادفًا «للإغراب»، والحال أنّه ليس التحقيق إغرابًا ولا الإغراب تحقيقًا. فإنّ الإغراب هو أن يأتي الإنسان بأمرٍ غريب قد يكون صحيحًا في نفسه وقد يكون خطأ أو كذبًا. وإنّ التحقيق هو أن ينصح الإنسان جهد طاقته وينتهي في البحث إلى الغاية فإما أن يصل إلى تأييد ما كان مقرّرًا سابقًا، وإما أن يصل إلى نقضه، وإما أن لا تطمئن نفسه إلى القديم ولكنّه لا يجد من الأدلّة ما يكفي لهدمه فيختار الوقوف. وليس الوقوف بعيبٍ إذا لم تتوافر الأدلّة ولم تُفد القطع وإنما العيب هو القول بلا علم والجزم بدون جازم والهجوم بدون سلاح.

وأمّا أنَّ الإفرنج إجمالاً يحبّون هذا المشرب الشاذ فليس بصحيح. فالإفرنج كالشرقيين فيهم المحقّق الممحّص الذي إذا استوفى البحث شروط الصحّة جديدًا كان الحقّ أم قديمًا، أخذ به وعوّل عليه. وفيهم المولع بالإبداع والإطراف ولو كان إبداعه واهيًا وإطرافه سخيفًا. ولقد اتسعت مدنيتهم وتشعّبت ثقافتهم إلى حدّ أن كثرت عندهم الغرائب وفشا الشذوذ وملّوا النظريات القديمة بصرف النظر عن صحّتها وعدم صحّتها. ولكن العلماء المحقّقين منهم لا يزالون يميّزون بين الصحيح والفاسد من المباحث، وإذا جاء مؤلّف أو مؤلّفون فكتبوا ما ينفي وجود المسيح مثلاً لم يتلقّوا أدلّتهم بالتسليم لمجرّد أنّهم أتوا بأدلّة وقرائن

وأمائر وإشارات تجعل لهذا القول وجهًا، بل وازَنوا بينها وبين الأدلّة والقرائن والنصوص الواردة على مجيء المسيح عيسى بن مريم عليه السلام فوجدوا أدلّة الإيجاب أمتن جدًّا من أدلّة النفي وحكموا بأنّ مجيءَ المسيح حقيقة، وعلموا أنّه إذا كان الحكم للمرجوح على الراجح بطل التاريخ وارتفع العلم من الأرض.

فأما ما يكثر فيه خلط الإفرنج إلى الحدّ الذي لا يتصوّره العقل أحيانًا، وما يبلغون منه الدرجة التي تضحك وقد تبكي وقد تثير الغضب، ومن أي الجهات جاءها الإنسان وجدها مصيبة من المصائب ـ فهو كلام الإفرنج عن الشرقيين: ولا أقول إنّي قرأت كلّ ما كتب الأوربيون عن الشرق والشرقيين وأحطت بهذه المسألة علمًا، ولا أحد يقدر أن يدّعي هذه الإحاطة.

ولكنّي قرأت بدون شكّ في هذا الباب ما ينذُر أن يكون تيسّر مثله لغيري وصار لي الحق في أن أُدلي برأيي في هذه المسألة. فأقول إنّ خلط الغربيين في كلامهم عن الشرقيين زائد جدًّا، ويكاد يكون عامًّا لمؤلفيهم إلى أنّه صار الاسترسال إلى أقوالهم في أحوال الشرق والشرقيين عبثًا. ولقائل أن يقول: إنّي أراك مبالغًا أو جائرًا في الحكم أفهؤلاءِ العلماء المنقّبون الذين فتحوا مغلقات الألسن الشرقية القديمة وحلّوا طلسمات الآثار العتيقة التي كان الشرقيون لا يعرفون منها شيئًا وأفاضوا أشعة تحقيقاتهم على التاريخ القديم، سواءً عن مصر أو عن فلسطين أو عن فينيقية أو عن جزيرة العرب أو عن بابل ونينوى إلى غير ذلك، حتّى جلوا منه تلك الصفحات التي لم يكن شرقيٌّ يعرفها من قبلهم ـ تعدُّهم أنت من الخلاّطين الذين لا يؤخذ بكلامهم ولا يوثق بسبيل أقلامهم! فأُجيب على ذلك: حاشا أن أقصد ذلك فيما يتعلّق بالتواريخ القديمة والخطوط اليروغليفيّة والمسماريّة والآثار الحفريّة التي صارت فنًّا من الفنون، أتقنه الإفرنج وكشفوا به مخبآت عظيمة وأضاءوا به ظلمات من التاريخ الشرقي لا شبهة فيها، ولكني أقصد ذلك فيما يتعلّق بتواريخنا العصرية وأحوالنا الاجتماعية وما نعرفه نحن جيّدًا ونقدر أن نميّز به الصحيح من الفاسد وما هو واقع تحت حواسنا أو متواتر خبره عندنا. ففي هذه الأمور نجد خلط المؤلفين الأوربيين بحرًا عبابًا وعجبًا عجابًا ونجد المعصوم منهم أقلّهم خلطًا وأندرهم خبطًا. ولعلهم يخبطون أيضًا في مباحثهم عن اللغات والخطوط الشرقية القديمة، ويخطئون في نتائج تنقيباتهم عن الآثار الحفرية والاركيولوجية في كثير من الأمور، إلاّ أنّنا في هذه قلّ من يقدر منّا أن يجاذبهم الحبل

ويقنعهم بخطإهم لأنها علوم قديمة عادية دهريّة استوى أمامها الشرقي والغربي وصارت بعيدة عن الجميع لنأيها في ظلمات القدم فلم يزد الشرقي بها علمًا كون تلك الآثار هي في بلاده إذ كانت من آلافٍ من السنين وعلاقتها بالحاضر كادت تكون معدومة. فصار الأوربيون أعرف بها من الشرقيين ولو كان هؤلاء جيرانها لأنّ مدنيّتهم صارت أرقى من مدنيّة الشرقيين. ولو كانت المدنيّة تقضي البحث والاستطلاع كانوا هم أجدَّ وأنهض للبحث وأرغب في التنقيب وأملك لوسائله. فعلى كلّ حال أصبحنا لا نقدر أن نجاريهم في هذا المضمار، وإن وجِد منّا من يعرف هذه العلوم فيكون قد أخذها عنهم وتخرج فيها عليهم.

ولكن ليس الشأن كذلك في التاريخ الإسلامي مثلاً لأنّنا نملك من وسائل معرفته تواترًا ونقلاً وخطوطًا ونقوشًا وآثارًا ما لا نحتاج فيه إليهم، بل ما لا يملكونه هم، ثمّ لأنّنا عائشون في تتمّته مندمجون في ضمنه نقدر أن نفهم منه ما لا يفهمه الغرباء عنّا مهما اجتهدوا في تفهُّم تاريخنا. وليس الشأن كذلك في أمورنا الاجتماعية وخططنا الجغرافية وأحوالنا الإحصائية التي نحن بها أدرى من الغريب، لأنّنا نشاهدها كل يوم ونعرف منها ما لا يعرفه الأوربي وإن علا كعبه في العلم. فإذا ضلَّ الأوربي في ظلمات الشرق القديم فلا نحسن أن نردّه إلى الصواب كما إذا ضلَّ في تاريخ الحِقب التي بعد الإسلام أو إذا أخطأ في أوصاف الحالات التي نحن عليها الآن.

ففي هذه نحن نملك من أسباب العلم ما يحصل لنا به بردّ اليقين ونقدر أن نبيّن الحقّ من الباطل ونفرّق بين الحالي والعاطل. ومن جرّاء هذا نقضي العجب العجاب من شطط أكثر الأوربيين الذين يتكلّمون عنّا ومن تعسّفهم الطرق ومن بنائهم على التخيّلات والتخرّصات ومن تعلّقهم بأسباب واهية يخرجون منها إلى إطلاقات عجيبة غريبة ومن أخذهم بمقدّمات غير ثابتة ومن إقصائهم منها إلى نتائج فظيعة. وقد ثبت لنا بهذا أنَّ الراقي في العلم لا يمكنه أن يكون راقيًا في كلٍّ علم، وإنّ الاعتقاد بإحاطته ضرب من الجنون.

ويجوز أن يكون الأوربي اليوم في ثقافته أرقى من الشرقي على وجه الإجمال، لكن هذا لا يستلزم أن يكون أعلم من الشرقي في كلّ شيء ولا أن يكون أعلم من الشرقي نفسه. ومن هنا جاء خطأ بعض الشرقيين الفظيع في تقديس معارف الغربي في كلّ شيء وتلقي كلّ ما يحكم به قضايا مسلمة حتّى فيما هو نفسه لا يدّعي فيه العصمة وحتّى فيما هو نفسه يدعو الناس إلى أن يصحّحوا كلامه. فتجدهم يكابرون أنفسهم فيما هو واقع تحت

حواسهم نظرًا لكون أحد مؤلفي الإفرنجة قال خلاف ذلك.

وبعد هذه المقدّمة أقول إنّ كثيرين من كتّاب الإفرنج هم منشئون أو ممن تسهل عليهم الكتابة في موضوع اجتماعي أو سياسي أو في رحلة إلى بلدٍ من البلدان يصف بها الإفرنجي ما رآه وما ارتسم في مخيّلته. ولكن ليس كلّ كاتب منهم عالمًا ولا محققًا ولا متخصّصًا في الفن الذي يكتب فيه. والحال أننا نحن الشرقيين قد تلقّينا كلّ إفرنجي تقريبًا عالمًا وصرنا نستشهد بأقواله. ثمّ تلقّينا كلّ عالم منهم متخصّصًا حتى لو كان مقتصرًا على مجرّد المشاركة في الفن الذي استشهدنا فيه بكلامه. ثم تلقّينا كلّ متخصّص منهم معصومًا وقلنا لاسمه السجود. فهذا كلّه عبث وغير لائق بالعلم، بل ضلال وإضلال لا يغتفران. فالناس يجب أن ينظروا إلى القول لا إلى القائل، وماذا يهمني القائل إذا كان إفرنجيًا وأنا أرى خبصَه بعيني وألمس خلطه بيدي؟ أأجعل كلّ كاتب من الإفرنج عالمًا وكلّ عالم عبارة عن انسيكلوبيديا وسعت كل شيءٍ علمًا وكلّ انسيكلوبيديا معصومة من الخطأ تنزيلاً من حكيم حميد؟ لقد قرأنا الانسيكلوبيديا الإسلامية ـ التي لم تتمّ ـ ووجدناها من أنفع الكتب وهي محرّرة بأقلام نخبة من المستشرقين الذين هم أعرف الإفرنج بأمور الشرق والعالم الإسلامي لكنّنا عندما عرجنا فيها على الموضوعات التي نقدر أن نفرّق فيها بين الحق والباطل رأينا فيها خطأً كثيرًا.

وإذا جئنا نستشهد على خطإهم في الكلام علينا وعلى الشرق أجمع حفيت الأقلام وضاقت بالشواهد الأجلاد الضخام. ولا يسلم من هذا العثار في أمور الشرق أحد من مؤلفيهم ولو بلغ من العلم أرفع الدرجات. وقد يقال لي: أفترى الشرقيين في أمور الشرق أسدّ[1] منهم رأيًا وأصحّ معلومات؟ فأجاوب:

أولاً إنّ غلط الشرقي سهل تداركه لأنك بمجرّد ما تقول للشرقي القارئ إنّ فلانًا الشرقيّ المؤلف أخطأ في كذا تلقّى كلامك بالقبول أو بالميل إلى القبول، وذلك لأنّه متهافت بطبيعته على تصديق ما يعزى من الخطإ إلى ابن وطنه أو جلدته. فأما إذا قلت له أنّ المؤلّف الإفرنجي فلانًا أخطأ لم يمكنك أن تقنعه بسهولة. وإن كان الإفرنجي المؤلف مشهورًا لم تجرَّ الشرقي إلى التسليم بخطإه لا بحبال ولا برجال. وما هذا إلاّ لما وقر في صدور الشرقيين من تقديس علو الإفرنج، والمبالغة في تنزيههم عن الخطإ حتى في الأمور التي نحن أدرى

(١) أسدّ: أقوَم.

منهم بها فعلاً. وأقول ثانيًا إنّ الشرقيين في تاريخ الشرق بعد الإسلام أدرى، وزَكُنٌ[1] من الغربيين بلا نزاع.

كثير من المؤلفين الأوربيين إذا عثر على حادثة واحدة جرَّد منها قاعدة! فإذا اتّسق له العثور على حادثتين أو ثلاث ظنّ أنّه اختزن الحقائق كلّها في جيبه. والحال أنّ الجزئيات لا بدَّ من أن تبلغ عددًا لا يكاد يحصى حتّى تتجرّد منها قاعدة كليّة. فإذا تساوت الجزئيّات في السلب والإيجاب لم يمكن تجريد قاعدة كليّة منها وتحتّم الوقوف حتّى نبرز الحقيقة بوجه من الوجوه إذ يكاد يكون من المستحيل خفاء الحقيقة إلى الأبد. وعلى كل حال الواقعةُ الواحدة والاثنتان والثلاث لا يبنى عليها حكم ولا يستنبط منها من العلم الاّ بقدرها. وهذا ما لا يريد الإفرنجي أن يفهمه إذا خاض في معامع البحث عن الشرق. فهو كلما وقع على حدث حاول أن يستخرج وأن يستنتج وسبح في بحر الخيال. وصل إلى نتائج ما أنزل الله بها من سلطان.

وعند الأولاد لعبة يسمّونها "الغمَّيضاء" يعصبون عيني أحدهم ويتخبأُون كل واحد في زاوية ويدور هو والعصابة على عينيه فيبحث عنهم بيده ويتلمّس من هنا ومن هناك حتى يعثر على أحدهم. وكثيرًا ما تقع يده على حجر أو شجر أو متاع من الأمتعة أو حيوان مربوط فيظن أنّه أمسك واحدًا من رفاقه المتخبئين ويهتف صائحًا: هوذا أنا قد أمسكتك! ولا يكون أمسك أحدًا. وهذا النفر من الإفرنج يبحث عن قضية لا تتجلّى له فإذا لاحت له لائحة مهما كانت ضعيفة ظنَّ أنّه قبض على مفتاح السرّ فيها وهتف: قد انكشف لي المغلق. أو كلما رأى شعبًا من الشعاب أعتقد أنّه هو الطريق المؤدية إلى المقصد وصاح: هذه هي المحجّة!

وكم مؤلّف منهم بني تاريخًا طويلاً عريضًا على لفظة. وقد تكون محرقّة أو مصحّفة أو مصادفة. فهل يبني العاقل تاريخًا على مجرّد كلمة؟ يأتي إفرنجيّ فيقول مثلاً أنّ الدروز هم من بقايا الصليبيين وأنّ اسمهم مشتق من اسم الكونت "درو" Dreux الذي كان من غزاة الصليبيين، ونحن ننشر هذه السخافة ونرفع هذا الرأي إلى درجة الآراء ولا نبالي بإضاعة وقت الناس في إقرائهم سخافات كهذه ... ويا ليت شعري ماذا وجد في الدروز مما يشبه الإفرنج الصليبيين أسحانهم أم ألوانهم أم تركيب رؤوسهم أم أخلاقهم أم

(١) زَكِن ج زَكِنون: من يصدُق في فراسته وحدسه.

عاداتهم أم لفظهم بالعربي الفصيح الذي لا يساويهم فيه أحد من جميع سكان سورية؟ وكيف أمكن أن يتحوّلوا هذا التحوّل العظيم من إفرنج صليبيين إلى عرب أقحاح؟ ومتى وقع هذا التحوّل وأين وأنّى[١] وهل كان الدروز موضوعين في علبة أو في صندوق محكم الإقفال حتّى تحوّلوا من إفرنج إلى عرب وهم بهذه السواحل الشاميّة وعرضة للتفتيش والبحث والنظر، ولم يشعر بذلك أحد من سكان هذه السواحل لا من مسلمين ولا من نصارى ولا من يهود. والدروز مع ذلك مختلطون بجميع هذه الطوائف ومساكنون لهم لا تقع عندهم صغيرة ولا كبيرة إلاّ كان خبرها عند جيرانهم والمقيمين من هاتيك الطوائف بين أظهرهم. ومما لا مريّة فيه أن تحوّل قوم من الأقوام عن جنسيتهم ولغتهم وعاداتهم وأخلاقهم واندماجهم في أمّة أخرى يقتضي أوقاتًا وآمادًا متطاولة ولا يحصل في زمن قصير، فكيف جرى هذا الحادث العجيب الذي لا يتم إلاّ في القرون بدون أن يشير إليه مؤرّخو الإسلام ولا مؤرّخو الإفرنج أنفسهم ولا مؤرّخو الموارنة الذين هم أكثر الطوائف اللبنانية اختلاطًا بالدروز. فلا ابن الأثير ولا ابن خلدون ولا ياقوت الحموي ولا أبو الفداء ولا ابن عساكر ولا الذهبي ولا أبو شامة صاحب الروضتين ولا ابن شدّاد ولا ابن العديم ولا ابن خلكان ولا ابن قاضي شهبة ولا العمري ولا شمس الدين ابن طولون ولا الصلاح الصفدي ولا النجم الغزي، ولا شيخ الربوة ولا المحبي، ولا أحد ممن كتبوا عن سورية أشار إلى حادث كهذا مع أنّهم نقّبوا عمّا هو أصغر منها كثيرًا. وأغرب من هذا أنّ مؤرّخي لبنان الذي فيه الدروز لم يشموا أدنى رائحة لأمر كهذا فلا السمعاني ولا الحاقلاني ولا جبرائيل القلاعي ولا الدويهي ولا ابن اسباط ولا صالح بن يحيى ولا الصفدي مؤرّخ الأمير فخر الدين بن معن ولا طنّوس الشدياق ولا بطرس البستاني ولا غيرهم ذكر أنّ الدروز هم من بقايا الصليبيين أو أنّهم منسوبون إلى الكونت درو[٢] .

---

(١) وأنّى: ومن أين.

(٢) الكونت درو: من عادتي أني إذا عرّبت عن الإفرنجية كلمة فيها eu كلفظة Dreux مثلاً أُعرّبها بالواو وأضع فوق الواو ألفًا صغيرة لأنها بالإفرجية واو مائلة إلى الفتح. وإذا كانت لفظة فيها u كلفظة Rhur مثلاً أو Ziurich أُعرّبها بالواو وأضع فوق هذه الواو ياءً صغيرة لأنها واو مشوبة بياءٍ كما يعرف ذلك من يعلم اللغات الأوربية. وإن كانت لفظة فيها واو شديدة الضم أي هكذا ou كما لو قلت Atnfou أو oulonT مثلاً أكتبها هكذا «طوُلون» مع واو صغيرة فوق الواو. وأمّا الواو التي في مثل Rome و Lausanne مثلاً فأُعرّبها بالواو المعتادة هكذا «رومة» و «لوزان» وهذا التفريق بين الواوات الإفرنجية مهم لأنها أربعة أشكال كلّ منها يلفظه الإفرنج بشكل خاص فواو طولون الأولى غير واو رومة. وواو لوزان غير واو مونترو. وواو زوريخ غير واو مونترو وغير واو لوزان. وعليه لزم أن يجعل لها فوارق في العربي حتّى تلفظ بالعربي كما تلفظ بالإفرنجي.

فإذا كانت المشابهة في لفظة واحدة تجعلنا نقلب التاريخ رأساً على عقب ونضرب صفحًا عن جميع تلك الأدلّة المحسوسة فماذا أبقينا للعوام من الشرقيين والجهلاء من الحشوة الذين يقولون لك أنّ اسم حلب الشهباء أصله أنّ ابراهيم الخليل كانت له بقرة شهباء يحلبها ويجود بلبنها على الفقراء فيجتمعون عليه وإذا حلبها قالوا: حلب الشهباء. فمن هنا جاء اسم حلب الشهباء! أو أنّ طبرية أصلها من أنّ ملكًا كان عنده إبنة اسمها «ريّا» وكانت عليلة فأرسلها تستحم في الماء السخن الذي على شاطئ بحيرة الجليل فنالت الشفاء فقالوا: طابت ريّا. ومن هناك جاء اسم طبرية! أو أنّ حاصبيا أصلها من أنّ فتاة رأت أباها قد حار في أمره فأخذت تعول وتقول: حاص أبيًّا. فصارت حاصبيا وهلم جرًّا. ولم ينحصر هذا البناء على مجرّد المشابهة في اللفظ في العوام وحدهم، بل تجد منه عند الخواص أيضًا أو عند من يصح أن يقال لهم «عوام الخواص» لأنّ في الخواص عوام أيضًا.

ففي جبل لبنان يروون أنّ اسم «الشوف» مشتقّ من كلمة «شُفْ» فعل أمر من «شاف» أي رأى بحسب لغة العامّة. وذلك بزعمهم أنّ الجدّ الأعلى للأمراء المعنيين عندما قدم إلى جبل لبنان يريد أن ينتجع منه محلاً لنزوله كانت الجهات التي تسمّى اليوم بالشوف الحيطي والشوف السويجاني ـ وأصلها الشويزاني ـ خرابًا فجاء الأمير المعني إلى عبيه من ناحية غرب لبنان نزيلاً على الأمير التنوخي، واستشاره في المكان الذي يوافق نزوله فيه فيقال أنّ الأمير التنوخي صعد به إلى الجبل الذي فوق عبيه الذي يقال له «المطيَّر» والذي منه تظهر من الجهة الشرقية بعقلين ونواحيها، ودلَّه بإصبعه قائلاً له «شُفْ» فصارت «شوف».

وما أرى شيئًا من هذا وإنّما أرى اللّفظة آرامية أو فينقية معناها «الأجرد» لأنّ جميع صرود [1] لبنان يقال لها «الجُرد» بضم الجيم جمع أجرد. ويجوز أن تكون هكذا بالعربية أيضًا لأن فعل «شاف» معناه بالعربي جلا وصقل و «الشَّوْف» بفتح أوّله هو الجلو والصقل، وكلّه يتضمن معنى «الجَرْد» بفتح أوّله. فالجَرد في العربي هو قشر العود أو نزع الشعر ومكان جَرد لا نبات فيه. وكذلك المكان الجَرِد بفتح أوله وكسر ثانيه الذي لا نبات فيه. وأيضًا المكان الأجرد الذي لا نبات فيه وجمعه «الجُرد» بضم أوّله كما يتلفّظ به أهل كسروان والمتن والغرب والشوف جميعًا. والجرَّاد هو الذي يجلو آنيّة النحاس أي المعروف عند العامّة «بالمبيّض» فأنت ترى أنّ الجرد والصقل والجلوّ كلّه بمعنى واحد ولذلك يكون

(١) صرود: مكان مرتفع في الجبال.

"الشوف" بمعنى "الجرد" وإذا رأى الإنسان من بعيد رؤوس تلك الجبال وأسنادها وجدها جرداء صلعاء كأنّها مجلوّة. وهذا هو الأقرب في أصل هذه اللفظة. وفي الإفرنسية لفظة Chauve "شوف" هي بهذا المعنى أيضًا أي أصلع.

ومن هذا الضرب ما يقولون في مدينة حماه عن محلّة اسمها "الحاضر" فيها مساكن الأشراف بني الكيلاني. فيروون أنّه لمّا قدم جدُّهم من العراق مختارًا الإقامة بحماه أشار عليه ملك تلك البلدة بالنزول في المكان الذي يقال له "الحاضر" في الوقت الحاضر وقال له "هذا الحاضر" أي اسم فاعل من حضر ضدّ غاب. أي أنزل بهذا المكان فهذا الذي يحضرنا الآن وفيما بعد نفكر. وهذا كلام عامّي، والأصح أنّ الحاضر كان من قديم الزّمان محلّة عامرة بحماة وهو اسم فاعل من الحضارة لا من الحضور. والحاضر في اللّغة الحيّ العظيم. وقال الجوهري: هو جمع كما يقال سامر للسمَّار وحاج للحجّاج ومنه "كان ينام خارجًا عن حاضره وكان الحاضر إذا أتاهم الفزع صاحوا".

وفي حلب حاضر أيضًا كما في حماه. ولكن حاضر حلب قد صار اليوم خرابًا. وأما حاضر حماه فقد قال فيه ياقوت الحموي: "وبظاهر السور حاضر كبير جدًا فيه أسواق كثيرة وجامع مفرد مشرف على نهرها المعروف بالعاصي" إلى أن يقول: "ويقال لهذا الحاضر السوق الأسفل لأنه منحطّ عن المدينة ويسمون المسوّر بالسوق الأعلى".

ومن هذا القبيل تأويل عامي رأيته في "صبح الاعشى" مع فضل صاحبه وسعة اطّلاعه ولكنّ علماءَنا في الأغلب لا يخرجون عن دائرة العربية فكل مغلق يفسّرونه بها. وهذا التأويل الغريب في صبح الاعشى هو قوله انّ لفظة "تركمان" أصلها "ترك إيمان" لأنّ الترك تركوا دينهم القديم وأسلم منهم مائتا ألف في يومٍ واحد. فجعل لفظة "ترك" من فعل "ترك" العربي وهو غريب جدًّا. وجعل لفظة "مان" محرّفة عن "إيمان" وهو لا يقلّ عنه غرابة، ولم يفكّر في أنّ تلك الأمّة لها لغتها القديمة ولها ألفاظها وأنّ ألفاظها لا تؤوَّل بالعربية وإنّ معنى "مان" Mann باللغات الآرية هو رجل وإنّ هذا الاسم "تركمان" أي رجل تركي قد يكون أطلق عليهم في فارس ولا يوجد مزلقة مدحاض [1] في العلم أكثر من تشابه الألفاظ، لأنها تتشابه كثيرًا بين لغات مختلفة وفي وسط اللّغة الواحدة. فإذا أردنا أن نستخرج من تشابه كل لفظتين تاريخًا لم نعرف إلى أيّة سخافة بعيدة يؤدي بنا ذلك.

(١) مدحاض: من دحضَ أيّ ردَّ وأبطل.

وقد سمعت أنّ أديبًا تركيًا نشر في الآستانة مقالة يزعم فيها أنّ التورانيين أي الأتراك كانوا من قديم الدهر في سورية وفي فينيقية واستدلّ على ذلك بلفظة «ارواد» اسم هذه الجزيرة التي هي قصد طرابلس. وقال: هذه محرّفة عن «أرواد» وأرواد محرّفة عن «اورَت» أو «عورَت» وهي «المرأة» بالتركي. ومن هنا تحقّق أنّ هذه البلدان كانت تركية! حقًا إنّ هذه من أعاجيب العصر. وهي لا تقلّ في الغرابة عن كون الدروز أصلهم من الإفرنج الصليبيين بدليل أنّه وجد في الصليبيين من اسمه «دور».

ومن أهم واجبات العالم أن لا يتهافت على الأخذ بأوّل دليل، والحكم بموجبه فقد يضلّ ضلالاً بعيدًا ويندم أو يصبح سخرة ومضغة في الأفواه. وهذا مما يقع فيه مؤلّفو الإفرنج كثيرًا عندما يتكلّمون عن العرب والشرقيين. وسترى أنّهم خلطوا بين تنوخ وتنوخ من جراء اتحاد الاسم. وتابعهم في ذلك الأستاذ حتّي. وظنّوا جميعًا أنّ الأمراء التنوخيين أمراء الدروز في لبنان هم من تنوخ القبيلة المؤلفة من ثلاث قبائل التي يقال إنّها تحالفت على المقام بمكان بالشام أو على «التنّخ» وهو الإقامة بالمكان فجاء من ذلك اسمها «تنوخ» وقد قيل فيها إنّها نزار وأسد وغطفان. وقيل، بل هي الضجاعمة ودوس الذين تتنخوا بالبحرين. وذهب أبو الفداء إلى أنّهم من جرم واسمه علاف بن زيّان بن حلوان بن عمران بن الحاف بن قضاعة من العرب القحطانية. ونقل علي ظريف الأعظمي البغدادي في كتابه «تاريخ ملوك الحيرة» أنّ تنوخ فرع من قضاعة من القحطانيين هاجروا من اليمن مع من هاجر من اليمانيين بعد انفجار سد مأرب، مما سمّوه سيل العرم، وذلك في أوائل القرن الثاني للميلاد ونزلوا البحرين وزعيمهم يومئذٍ مالك بن فهم بن تيم الله بن أسد بن وبرة بن تغلب ابن حلوان بن عمران بن الحاف بن قضاعة. قال: ولما نزل بنو قضاعة بالبحرين نزل معهم الأزد مهاجرين أيضًا، وزعيمهم مالك بن فهم بن غانم والتفّت حولهم القبائل اليمانية من بطون نمارة بن لخم وغيرهم من بني قحطان. ووافق خروج هذه القبائل اليمانية خروج قبائل من ولد اسماعيل، فرّقتهم الحروب فلجأُوا إلى البحرين وانضمّوا إلى اليمانيين. ولما اجتمعوا بالبحرين اتّفق الزعيمان زعيم قضاعة وزعيم الأزد على التعاضد والتناصر وتحالفوا على التنّوخ أي المقام، فسمّوا تنوخًا من ذلك الحين إلى آخر ما قال.

والحاصل أنّ مؤرّخينا اتّفقوا على قصّة «التنّوخ» هذه مما يطول بنا استقصاء رواياته

واتفقوا أيضًا إلى أنّ قضاعة من قبائل تنوخ هاجرت من البحرين إلى العراق، وذكروا أنّ مالك بن فهم زعيم قضاعة صار ملكًا على العراق، وتسمّت دولته بدولة آل تنوخ واستمرّت نحو ١٣٠ سنة واستفحل شأنها كثيرًا في زمن جذيمة بن مالك بن فهم الملقّب بجذيمة الوضّاح، عدوّ الزباء ابنة عمرو بن الظرب بن حسان العمليقي ملك الجزيرة ومشارف الشام. وأنه بعد أن غدرت الزبّاء بجذيمة وقتلته أخذًا بثأر أبيها انتقل ملك الحيرة من آل تنوخ إلى آل لخم، لأنّ جذيمة لم يعقب ولدًا فورثه في الملك ابن أخته عمرو بن عدي اللخمي وكانت لاعقابه دولة من أعظم دول العرب اسمها دولة المناذرة. وعظمت الحيرة في زمانها كثيرًا. وقد انقرضت هذه الدولة بظهور الاسلام وفتح خالد بن الوليد للحيرة. وجملة ملوك الحيرة ٢٤ ملكًا منهم ثلاثة من التنّوخيين وستة عشر من اللخميين وخمسة من الدخلاء الذين كان يوليهم الأكاسرة من وقت إلى آخر في أثناء غضبهم على اللخميين ومدّة الجميع ٤٩٤ سنة.

وقد ثبت أنه بعد زوال ملك المناذرة هاجرت أفخاذ من تنوخ ولخم إلى الشام وأوطنت الجهات الشماليّة من سورية كالمعرّة وقنسرين واللاذقية وكان الغالب عليهم النصرانية. ثمّ أخذوا يدخلون في الإسلام. وجاء في «فتوح البلدان» للبلاذري وهو من أوثق ما أُلّف في فتوحات الإسلام يروي عن ثقات حديثي العهد بالفتح أنّ أبا عبيدة بن الجراح بعد فراغه من أرض اليرموك سار إلى حمص فاستقرّ بها. ثمّ إلى قنسرين وعلى مقدّمته خالد بن الوليد فقاتله أهل مدينة قنسرين ثمّ لجأُوا إلى حصنهم وطلبوا الصلح فصالحهم أبو عبيدة على مثل صلح حمص وغلب المسلمون على أرضها وقراها وكان حاضر قنسرين (أي المدينة) لتنوخ منذ أوّل ما تنخوا بالشام، نزلوه وهم في خيم الشعر ثمّ ابتنوا به المنازل. فدعاهم أبو عبيدة إلى الإسلام فأسلم بعضهم، وأقام على النصرانية بنو سليح بن حلوان بن عمران بن الحاف بن قضاعة. فحدّثني بعض ولد يزيد بن حنين الطائي الانطاكي من أشياخهم أنّ جماعة من أهل ذلك الحاضر أسلموا في خلافة أمير المؤمنين المهدي (خلافة المهدي من ١٥٨ إلى ١٦٩) فكتب على أيديهم بالخضرة قنسرين.

ثمّ ذكر البلاذري نقلاً عن هشام بن عمّار الدمشقي، عن يحيى بن حمزة عن أبي عبد العزيز عن عبادة بن نسي، عن عبد الرحمن بن غنم إنّ هذا قال إنّهم رابطوا مدينة قنسرين مع السمط أو قال شرحبيل بن السمط، فلمّا فتحها أصاب فيها غنمًا وبقرًا فقسمها

فيهم وجعل بقيّتها في المغنم، وكان حاضر طيء قديمًا نزلوه بعد حرب الفساد التي كانت بينهم حين نزلوا الجبلين (أظنّه يريد أجأ وسلمى جبلي طيء) من نزل منهم وتفرّق باقوهم في البلاد فلما ورد أبو عبيدة عليهم أسلم بعضهم وصالح كثير منهم على الجزية. ثمّ أسلموا بعد ذلك بيسير إلاّ من شذّ عن جماعتهم. وكان بقرب مدينة حلب (وهذا الذي سبق لنا الكلام عليه) حاضر يدعى حاضر حلب تجمع أصنافًا من العرب من تنوخ وغيرهم فصالحهم أبو عبيدة على الجزية، ثمّ إنّهم أسلموا بعد ذلك فكانوا مقيمين وأعقابهم به إلى بعيد وفاة أمير المؤمنين الرشيد (مات الرشيد في ثالث جمادى الآخرة سنة ١٩٣) ومن تنوخ هؤلاء أبو العلاء المعرّي الضرير الفيلسوف الكبير والشاعر الشهير والمفكّر المنقطع النظير، وهو أحمد بن عبد الله بن سليمان بن محمَّد بن سليمان بن أحمد بن سليمان بن داود بن المطهّر بن زياد بن ربيعة بن الحارث بن ربيعة بن أنور بن اسحم بن أرقم بن النعمان بن عدي بن غطفان بن عمرو بن بريح بن جذيمة بن تيم الله بن أسد بن وبرة بن تغلب بن حلوان بن عمران بن الحاف بن قضاعة.

ومنهم أمراء اللاذقيّة ممدوحو أبي الطيّب المتنبّي. ومنهم سراة وأعيان وعلماء وفقهاء لا يأخذهم الإحصاء في المشرق والمغرب وليس هنا موضع هذا البحث.

وأمّا الأمراء التنوخيون الذين كانوا في بيروت وغرب لبنان فليسوا منهم. وإنّما اتحاد اسم تنوخ هو الذي غبّى على الأستاذ حتّي وعلى من أخذ عنهم من الإفرنج حقيقة الأمر. فالتنّوخيون اللبنانيّون[1] ليس لهم نسب إلى تنوخ قضاعة. وإنّما هم بحسب ما ينسبهم الناس وما ينسبون أنفسهم من لخم لا من تنوخ الذين كانوا نصارى وأسلمت منهم جماعات في عهد الخلفاء الراشدين ثمّ في عهد العباسيين. وصالح بن يحيى المؤرّخ أحدهم الذي عاش في أوساط القرن التاسع للهجرة يسمّيهم «أمراء بني الغرب» نسبة إلى الغرب المقاطعة التي كانوا يسكنونها من لبنان، وهي مقاطعة الإرسلانيين أيضًا كانت مقسّمة بين الفريقين. وما قيل لهم تنوخ إلاّ نسبة لأحد أجدادهم تنوخ بن قحطان بن عوف بن كندة بن جندب بن مذحج بن سعد بن لحي بن تميم بن نعمان بن المنذر بن ماء السماء. وهي ماوية بنت عمرو لقّبت بماء السماء لجمالها. والمنذر بن ماء السماء المذكور هو ابن امريء القيس بن النعمان الأعور بن امرئ القيس المحرق بن عمرو بن امرئ القيس الأول بن

(١) هذه الدراسة نُشرت بالكامل في كتاب «السجلّ الأرسلاني – النسب» للأمير شكيب أرسلان الصادر عن الدار التقدّمية (٢٠٠٩)، ص ١٠١.

عمرو بن عدي بن ربيعة بن الحارث بن مالك بن غنم بن نمارة بن لخم بن عدي بن الحارث بن مرّة بن أدد بن زيد ابن يشجب بن عريب بن زيد بن كهلان بن سبأ بن يشجب بن يعرب بن قحطان. هكذا كما جاء في تاريخ صالح بن يحيى ونقله عنه ابن سباط العاليهي ونقل عن هذا الأمير حيدر الشهابي والشيخ طنّوس الشدياق وغيرهم. وإذا كان الأستاذ حتّي لا يسلّم بهذه النسبة الواردة في تاريخ صالح بن يحيى وغيره من تواريخ لبنان ولا يجدها دليلاً كافيًا فليس لدينا دليل آخر يثبت عكسها ولا حجّة على أنّ الأمراء التّوخيين اللبنانيين هم من تنوخ قضاعة. والتواريخ لا تبنى على الظنون ولا على الخرص والحدس. وغاية ما يقال إنّ في تاريخ صالح بن يحيى أغلاطًا. وربما لم تكن هذه النسبة كلّها ثابتة بالتسلسل الذي هي عليه فإنّ هذه السلاسل القديمة، وإن كانت متواترة فإنّه قد تواتر الخلاف أيضًا في كثير من رجالها. حتّى إنّ النبيّ عليه الصلاة والسلام لمّا وصلت سلسلة النسب العدناني إلى درجة معيّنة وقف وقال: كذب النّسابون.

وسنسوق إلى القارئ نسبة ملوك المناذرة كما هي واردة في تاريخ أبي الفداء، وفي تاريخ جرجي زيدان، وفي تاريخ علي ظريف الأعظمي، وفي تاريخ صالح بن يحيى التنوخي وفي سجل نسبنا الأرسلاني، ونقابل بينها لنظهر ما بينها من الفروق التي وجودها لا ينفي صحّة النسب من حيث الجملة. فإنّ الاختلاف في بعض التفاصيل مع الاتفاق من حيث المجموع يزيد الثقة بدلاً من أن ينقضها أو ينقصها.

كنت أرسلت إلى الأخ المؤرّخ المحقّق سليمان بك أبي عز الدين المقابلة في سلسلة المناذرة بين سجل النسب الأرسلاني وتاريخ صالح بن يحيى التنوخي وتاريخ ملوك الحيرة لعلي ظريف الأعظمي البغدادي. فأرسل هو بالجدول الآتي. فوجدت مفيدًا أن أنقله:

- ملوك الحيرة اللخميين

(أبو الفداء)	(جرجي زيدان)	(علي ظريف الأعظمي)
عمرو بن عدي	عمرو بن عدي	عمرو بن عدي
امرؤ القيس بن عمرو	امرؤ القيس بن عمرو	امرؤ القيس الأول بن عمرو
عمرو بن امرئ القيس	عمرو بن امرئ القيس	عمرو بن امرئ القيس
أوس بن قلام العمليقي	أوس بن قلام	أوس بن قلام

ملك آخر من العماليق	لم يذكره زيدان	ولا الأعظمي
امرؤ القيس المحرق بن عمرو	امرؤ القيس المحرق بن عمرو	امرؤ القيس المحرق بن عمرو
النعمان الأعور بن امرئ القيس	النعمان الأعور بن امرئ القيس	النعمان الأعور بن امرئ القيس
المنذر بن النعمان	المنذر بن النعمان	المنذر بن النعمان
الأسود بن المنذر	الأسود بن المنذر	الأسود بن المنذر
المنذر بن المنذر	المنذر بن المنذر	المنذر بن المنذر
لم يذكر أحدًا	النعمان بن الأسود	النعمان بن الأسود
علقمة الذميلي (لخمي)	علقمة أبو يعفر	علقمة بن مالك الذميلي
امرؤ القيس بن النعمان	امرؤ القيس بن النعمان	امرؤ القيس بن النعمان
المنذر بن امرئ القيس	المنذر بن امرئ القيس	المنذر بن امرئ القيس
الحارث بن عمرو بن حجر الكندي	الحارث بن عمرو بن حجر الكندي	الحارث بن عمرو بن حجر الكندي
عمرو بن هند	عمرو بن هند	عمرو بن هند
قابوس بن المنذر	قابوس بن المنذر	قابوس بن المنذر
لم يذكر	فيشهرت أو زيد	فيشهرت أو زيد
المنذر بن المنذر	المنذر بن المنذر	المنذر بن المنذر
النعمان بن المنذر	النعمان بن المنذر	النعمان بن المنذر
إياس بن قبيصة الطائي	إياس بن قبيصة الطائي	إياس بن قبيصة الطائي
زادويه بن ماهان الهمذاني	زادويه بن ماهان الهمذاني	زادية أو زاودويه بن ماهان الهمذاني
المنذر بن النعمان بن المنذر المغرور	المنذر بن النعمان المغرور	المنذر بن النعمان

هذه سلسلة الملوك اللخميين مع ذكر الذين تولّوا خلال بعض فترات بأمر الأكاسرة من غير أبناء البيت المالك. أما نسب الملوك اللخميين بحسب الأب والجد فينبغي أن يكون هكذا:

المنذر المغرور وهو المنذر الخامس	من سنة ٦٢٨ إلى سنة ٦٣٢
ابن النعمان أبي قابوس وهو النعمان الثالث	من سنة ٥٨٥ إلى سنة ٦١٣
ابن المنذر الرابع	من سنة ٥٨٢ إلى سنة ٥٨٥
ابن المنذر الثالث الذي أُمه ماء السماء	من سنة ٥١٤ إلى سنة ٥٦٣
ابن امرئ القيس الثالث	من سنة ٥٠٧ إلى سنة ٥١٤
ابن النعمان الثاني	من سنة ٥٠٠ إلى سنة ٥٠٤
ابن الأسود (واما المنذر الثاني فهو أخوه)	من سنة ٤٧٣ إلى سنة ٤٩٣
ابن المنذر الأول	من سنة ٤٣١ إلى سنة ٤٧٣
ابن النعمان الأول الأعور	من سنة ٤٠٣ إلى سنة ٤٣١
ابن امرئ القيس الثاني	من سنة ٣٨٢ إلى سنة ٤٠٣
ابن عمرو الثاني	من سنة ٣٢٨ إلى سنة ٣٧٧
ابن امرئ القيس الأول المحرق	من سنة ٢٨٨ إلى سنة ٣٢٨
ابن عمرو الأول بن عدي اللخمي	من سنة ٢٦٨ إلى سنة ٢٨٨

فإذا نظرنا إلى تاريخ صالح بن يحيى التنوخي نجده يذكر نسبهم الذي تقدّم لنا سرده على أنّ جدّهم تنوخ هو ابن قحطان بن عوف بن كندة بن جندب بن مذحج بن سعد بن لحي بن تميم.

ابن النعمان

ابن المنذر الذي أُمه ماء السماء

ابن امرئ القيس

ابن النعمان الأعور

ابن امرئ القيس المحرق

ابن عمرو

ابن امرئ القيس الأول

ابن عمرو بن عدي اللخمي

فهكذا يكون نقص من السلسلة المنذر الرابع الذي يأتي قبل المنذر الثالث الذي أُمه ماء السماء. ويكون النعمان الأعور هو النعمان الثاني ابن امرئ القيس مع أنّه بحسب التواريخ الأخرى هو النعمان الأول. ويكون نقص امرؤ القيس الثاني وعمرو الثاني. ويكون نقص أيضًا الأسود بن المنذر الأول. أي أربعة أجداد.

وأما في سجل النسب الأرسلاني فالترتيب هو هكذا: أرسلان بن مالك بن بركات ابن المنذر بن مسعود بن عون.

ابن المنذر المغرور (هو هنا الثالث لا الخامس)

ابن النعمان أبي قابوس (هو الثالث)

ابن المنذر (هو هنا الثاني)

ابن المنذر الذي أمه ماء السماء (هو هنا الأول)

ابن امرئ القيس (الثالث)

ابن النعمان الأعور (الثاني)

ابن امرئ القيس (الثاني)

ابن النعمان (الأول)

ابن عمرو (الثاني)

ابن امرئ القيس (الأول)

ابن عمرو بن عدي اللخمي (الأول)

وهذه السلسلة تنقص اثنين عن سلسلة الأعظمي ليس فيها الأسود بن المنذر الأول ولا المنذر الأول ولكنَّها تجعل النعمان الأعور هو الثاني لا الأول كما هو في سلسلة الأعظمي. فهي من هذه الجهة متّفقة مع سلسلة صالح بن يحيى. ولكنَّها تختلف عنها في أنّ سلسلة صالح بن يحيى ليس فيها إلاّ منذر واحد، وهو خطأ فظيع، إذ لو لم يكونوا أكثر من واحد واثنين ما قيل لهم "المناذرة". وأمّا في سلسلة الأعظمي فالمناذرة خمسة منهم المنذر الثاني أخ للأسود بن المنذر الأول فيكون المناذرة الذين على عمود النسب أربعة. وأمّا في سلسلة

السجل الأرسلاني فالمناذرة الذين على عمود النسب هم ثلاثة فقط. أمّا المنذر بن مسعود بن عون فهو ليس من ملوك الحيرة، بل من أعقابهم الذين كانوا في الشام. وفي سلسلة صالح بن يحيى لا يوجد إلاّ اثنان ممن اسمه النعمان أحدهما أبو قابوس والآخر الأعور، وأمّا في السجل الأرسلاني فهم ثلاثة أبو قابوس، فالنعمان الثاني الأعور، فالنعمان الثالث، وهذا كما في سلسلة الأعظمي والسلاسل الأخرى. وفي نسب عائلتنا أنّ النعمان الأعور تزهّد وترك الملك وهو كما في تاريخ أبي الفدا وتاريخ الأعظمي. وفي سلسلة صالح بن يحيى ثلاثة اسمهم امرؤ القيس. وفي سجل نسبنا كذلك وفي تاريخ أبي الفدا وتاريخ الأعظمي كذلك. وفي الجميع اثنان اسمهما عمرو. وهناك اختلاف في نسب ماء السماء أم المنذر الثالث التي لقبت بذلك لحسنها وجمالها واسمها الأصلي ماوية. ففي تاريخ أبي الفداء إنّها بنت عوف بن جشم. والأعظمي يقول إنّها بنت عوف بن جشم بن النمير بن قاسط. وصالح ابن يحيى يقول: "لقّبت بذلك لجمالها واسمها ماوية بنت عمرو" ولا يرفع أكثر من ذلك وفي سجل نسبنا: "ماء السماء ماوية بنت ربيعة التغلبي أخت كليب والمهلهل لقّبت بذلك لصفاء نسبها أو لنقاء لونها" فهنا أيضًا اختلافات في الرواية لكنَّها لا تبطل النسبة من حيث العموم وأنت لا تكاد تقرأ سلسلة آباء وأجداد خصوصًا قبل الإسلام الاّ وجدت الروايات فيها متباينة إمّا بكثير وإمّا بقليل. ويظهر من كلام صالح بن يحيى الذي ينقله عن شيوخ أهله أنّهم أي الأمراء التنّوخيون ينتسبون إلى تميم بن النعمان أبي قابوس بن المنذر. ولكنَّه لا يذكر شيئًا عن كيفية مجيئهم من الحيرة إلى غرب لبنان، ولا شيئًا من خبر تميم هذا ابن النعمان. ولم نجد في الكتب المشهورة ذكرًا لولد من أولاد النعمان أبي قابوس اسمه تميم غير أنّ هذا لا يمنع صحّة الخبر لأنّ الكتب المشهورة من كتب التاريخ لا تذكر كل شيء. وكثيرًا ما تُغفل أسماء أولاد ملوك كانوا في زمانهم أعظم من النعمان بن المنذر. وقرأت في سجل نسبنا أنه مرَّ بسواحل الشام محمَّد بن أحمد بن أبي يعقوب بن هارون الرشيد العباسي. وأنه نزل عند أحد أجدادنا الأمير النعمان بن الأمير عامر بن الأمير هاني الأرسلاني وأنه كان معه زوجه وبنوه. فأقام عنده زمنًا غير قليل. وكان محدّثًا عالمًا فروى عنه جماعة من الأمراء وغيرهم. ثمَّ خطب منه النعمان ابنته السيّدة كلثوم لولده الأمير المنذر فأزوجه منها، وأقامت معه زمنًا طويلاً، وهي أم ولده الأمير تميم. وهذه الحادثة في سنة ثلاثمائة واثنتي عشرة. ولمّا لم يكن لي عهد بذكر أحد من أولاد هارون الرشيد اسمه أبو يعقوب تحيّرت مدةً في هذه الرواية، وما زلت متحيّرًا إلى أن اطلعت على كتاب اسمه

تاريخ الملوك يذكر أولاد هارون الرشيد كلّهم ومن جملتهم أبو يعقوب. ثمَّ رأيت ذلك في تاريخ أبي الفداء. إذًا عدم اطلاعنا على اسم أحد أولاد الملوك في تاريخ ابن الأثير أو ابن خلدون أو الطبري أو المسعودي لا ينفي أنه وجد. بل قد يغفل كثير من المؤرّخين الكبار عن حوادث من أهم الحوادث وكثير من مترجمي الرجال عن تراجم أناس من أحرى الناس بالترجمة. أفلا ترى كيف غفل ابن خلكان في «وفيّات الأعيان» وهو رأس في هذا الفن عن ترجمة أناس من أشهر الرجال الذين يستحقون الترجمة، وذلك إمّا ذهولاً منه أو لأنه لم يقع لديه من الأخبار ما يعوّل عليه. فقام محمَّد بن شاكر الكتبي وألّف كتابًا في تراجم من غفل عنهم ابن خلكان وسمّاه «فوات الوفيّات».

على أنّ الأعظمي يقول ـ ولا أعلم مصدر نقله ـ إنّه «لمّا قتل النعمان الثالث ـ أبو قابوس قتله كسرى أبرويز أو مات في حبسه ـ سار أحد أولاده بجملة من قبائل العرب ونزل بهم في سفح جبل لبنان وسكنوه مدةً، وثبتت الإمارة لأولاد النعمان وتوارثوها منهم الأمير ظهير الدين الذي ولاّه السلطان نور الدين ملك مصر والشام على سفح الجبل المذكور سنة ٥٥٦ الموافقة لسنة ١١٦٠، وضمّ إليه القنيطرة وبرج صيدا والدامور ووضع عنده فرسانًا رتّب لهم راتبًا وجعلهم لقتال الإفرنج، ومنهم الأمير بدر الدين محمَّد المتوفي سنة ٧٩٨ وكلهم من نسل النعمان الثالث».

وعليه يكون للنعمان الثالث أبي قابوس أولاد غير قابوس وغير المنذر المغرور. ولم يذكر المؤرّخون منهم غير هذين لأنهما اشتهرا في زمن النعمان فلمّا انقرضت دولة المناذرة بظهور الإسلام وذهب منهم ملك الحيرة لم يُعْن المؤرّخون بذكر أولادهم. فكما أنّ التنّوخيين ينتسبون إلى تميم بن النعمان بن المنذر، ينتسب الأرسلانيون إلى عون بن المنذر المغرور بن النعمان ابن المنذر. ومن هنا جاء التواتر الذي في جبل لبنان بأنّ هذين الفخذين هما من أصل واحد، ويزيد ذلك تأكيدًا تجاور العائلتين في السكنى وتقاسمهما الإقطاعات من قرى ومزارع وأرضين، وكثيرًا ما وقعت بينهما الفتن والعداوات بسبب المقاطعات. وقرأت في بعض مخطوطات لبنان القديمة ذكر الأرسلانيين والتنّوخيين، وأنّ منهما بيوتًا في عرمون وأنهما «على السيف» وإذا قرأت تاريخ صالح بن يحيى التنوخي تجد أنه يطعن في الأرسلانيين في مواضع كثيرة بذكر مناصبتهم العداء للتنوخيين. وإذا ذكر أحدًا منهم بخير يقول مثلاً: «وفي ذلك الوقت قتل عماد الدين موسى بن حسان بن رسلان ـ كل من اسمه

أرسلان فالعامّة تخفّفه وتقول رسلان وهذا في كلّ محل ـ وكان المذكور خيرًا من سلفه وأجود منهم في حقّ البيت» فمقياس الجودة عند صالح بن يحيى هو حب البيت التنوخي. ومنشأ هذه الاختلافات كلّها هو الإقطاعات والمنافسات على الإمارة. وإذا قرأت تاريخ صالح بن يحيى وجدت شدّة التشابك والتداخل بين إقطاعات التنوخيين والأرسلانيين. فكلام الأستاذ حتّي صحيح من جهة أنّ الإمارة على الدروز لعهد الصليبيين كانت في يدي هاتين العائلتين. ولقد كانت هذه الإمارة في غرب لبنان، وبيروت من قبل ذلك التاريخ بكثير.

شكيب أرسلان

الرحّالة جورج شو ينفورت*

ذكريات شخصيّة وشؤون أخرى

قرأت في المقتطف جزء نوفمبر الماضي ترجمة هذا الرحّالة الشهير الأستاذ النباتي المحقّق جورج شو ينفورت، الذي توفي في الأيّام الأخيرة مناهزًا التسعين من العمر.

ولمّا كنت قد عرفت هذا الرجل عِرفة شخصيّة منذ بضع سنوات أحببت أن أضم إلى هذه الترجمة الكلمات الآتية.

سنة ١٩١٨ وهي آخر سني الحرب العامّة كنت ببرلين بمأمورية تتعلّق بإزالة بعض الخلافات بين الدولة العثمانية والدولة الألمانية. فأقمت أشهرًا إلى أن انتهت الحرب بما انتهت به. وفي أثناء إقامتي ببرلين عرفت أناسًا كثيرين من رجال الألمان، ولا سيّما العلماء والأدباء والصحفيين والأخباريين. ومن جملة هؤلاء رجل من يهود ألمانية اسمه "روتايت" كان محررًا في جريدة "الفوسيشتي تسايتونغ" التي صاحبها "جورج برنار" وهو من معارفي أيضًا. وكان روتايت هذا يتردّد إلى إخواننا المهاجرين المصريين الذين كانوا هناك: الأستاذ العلاّمة الشيخ عبد العزيز جاويش، والأستاذ عبد الملك حمزة، ورفاقهما، فتعرّفت به عندهم. ودعانا مرّة إلى الشاي فوجدت في تلك الدعوة رهطًا من أهل الفضل منهم سيّدة أديبة ألمانية قالت لي عندما قدّموني لمعرفتها: أي نعم، أنا أعرف بلادكم ولي خلطة تامّة بعائلة ثريًا بك. فقلت لها: وأيَّ ثريًا بك؟ فقالت لي: ثريًا بك أفلا تعرفه؟ فإنّه من بلادكم. فخطر ببالي مثَل: «فاطمة في سوق الغزل» وقلت لها: أتدرين لو سألتك قائلاً: ألا تعرفين الهر ماكس من ألمانية؟ فقولك ثريًا بك في المملكة العثمانية كما لو قلنا الهر ماكس أو الهر كونراد في ألمانية. وبعد الاستيضاح علمنا أنها تريد ثريًا بك الأرناؤوطي أخا فريد باشا الصدر الأعظم، وأنها تعرف البانية وتحسب أنّ البانية وسورية وأزمير والآستانة ومصر ومكّة وربّما الهند وفارس كلّها بلاد واحدة بينها من الفروق ما بين برلين ومونيخ مثلاً. وجرى معي من هذا القبيل أنّ كونتًا أو على قول العرب كندًا ألمانيًا اقترح عليَّ هدية تنباك

* المقتطف ج٦٨ (١٩٢٦) ص ٤٠ ـ ٤٤.

من الشرق، وأخبرني أنه تعوَّد التدخين بالنارجيلة في بلادنا. فظننت أنه وجد مرّة في طرابلس الشام أو في بيروت فقلت له: وفي أيّ بلدة من بلادنا كنت؟ قال لي: كنت في الهرسك وهناك تعلّمت شرب النارجيلة. مع أنّ الهرسك هي في الواقع أقرب إلى ألمانية ممّا هي إلى سورية. ولكنّ الأوربي أينما وجد المسلم عدَّ المكان شرقًا. هذه عقلية القوم استطردتُ إلى ذكرها لأنها ممّا يجب على الشرقيين عمله. ونعود إلى موضوعنا وهو أنني تعرّفت عند روتايت بالأستاذ النباتي الكبير شو ينفورت ورأيته شيخًا ماجًّا لا أقدر أن أقول شيءٌ مائل أو لعاب سائل بالتمام، ولكنّه كان يختلج دائمًا ويتكلّم بنغمة من قد شبع من السنين وكان مع هذا حافظًا قواهُ العقلية. وممّا أتذكّره عنه أنه لم يعمل الرحلة في باطن أفريقية فحسب، بل ساح في بلاد اليمن وحقق هناك نباتات وتعاشيب كانت مجهولة. وقال لي روتايت أمامه أنّ تآليفهُ في النبات مدرسيّة وأنها لا تدرّس في ألمانية فقط، بل هي مترجمة إلى الإنكليزية والإفرنسية وغيرهما، وأنها تدرّس في لندن وباريز كما تدرّس في ألمانية. وكان في سكوت الأستاذ شوينفورت على كلام روتايت هذا علامة التصديق. فغبطت هذا الرجل على هذه الشهرة العظيمة وهذا الإخصاء الذي جعل كتبه تدرّس في بلاد الأجانب الراقية وهو لا يزال حيًّا. وذلك أشبه بالإمام الغزالي الذي عندما جاء إلى دمشق واعتكف في صومعة من الجامع الأموي متنكّرًا كان يمرّ بحلقات الدروس ويسمع بأذنه: قال الإمام الغزالي. قال الإمام الغزالي. وما أحد يعلم أنه هو الإمام الغزالي. أنا أقول، هذا منتهى السعادة في الدنيا أو على الأقل منتهى سعادة العالِم في العالَم.

وممّا أتذكّره من آثار جلستنا مع البروفسور شو ينفورت أو شڤينفورت أنه كان يخلع جلباب شيخوخته وتأخذه هزّة الطرب كالشباب عندما يتحدّث بدخول الألمان إلى ريغا. وكان الألمان قد استولوا في ذلك الوقت على بلاد البلطيك كلّها ومن جملتها ريغا مسقط رأس الأستاذ فكان يقول لي: الآن أموت مستريحًا لأنّ ريغا دخلت في حوزة ألمانية. فكنت أقضي العجب من كون شيخ بلغ هذه الدرجة من السن يطرب هذا الطرب كلّه، كأنّه شاب ابن ١٦ سنة لأخذ أبناء جلدته البلدة التي ولد فيها. ولكن الوطنية أمرٌ عظيم. ولا شيء أعلق بقلب الإنسان من حب الأرض التي أول ما مسّ جلده ترابها. ولمّا زرت موسكو سنة ١٩٢١ ذهبت بحرًا إلى بلدة "ريڤال" عاصمة "أستونية" وركبنا من ريڤال بقطار الحديد إلى بتروغراد إلى موسكو وقفلت من موسكو برًّا عن طريق "ليتونية" بالقطار فكنت أرى البلاد روسية الوسم حتّى دخلت ريغا، وشاهدت ما شاهدت من انتظامها ونظافتها وسعة

شوارعها ورونق فنادقها وحسن حدائقها فخلت أني في قلب ألمانية. ومع أنّ أهل ريغا ليس أكثرهم من الجنس الألماني فإنّ اللغة الألمانية فيها هي الغالبة وكل شيء هناك مسحته ألمانية. وعندها تذكّرت شغف الأستاذ شفينفورت باندماج ريغا في الوحدة الجرمانية.

على أني أحسب عمر الأستاذ المشار إليه أكثر ممّا ورد في الجرائد فإن كانت لم تخنّي ذاكرتي أقول أنّ الذي سمعته من روتايت عن عمره كان ٨٦ أو ٨٧ سنة وهذا سنة ١٩١٨ فيكون عمره يوم ذهب إلى ربه ٩٣ سنة بالأقل. ولو لم يكن كذلك لما كان سكت على قول روتايت عن عمره، وكان بادر إلى تصحيحه أو كان قال له: بالغت. نعم، إنّ الرجال أسمح في هذا الموضوع من النساء. وبعض السيّدات يضمرن أشدّ الحقد لمن يقول الحقيقة عن عمرهنَّ فضلاً عمن يزيد فيه. شاهدت سيّدة في إحدى مدن سويسرة أغرت الحكومة بسيّدة أخرى وكانت سبب طردها من تلك المدينة فسألتها: ما سبب تلك العداوة؟ فقالت لي وصلت الأمور معها إلى أن زعمت أنّ عمري ٤٠ سنة مع أنّ عمري ٢٨. فلا شكّ أنّ الرجال أيضًا لا يريدون أن يُعَدّوا شيوخًا فانين ولا يوجد أحد يحبّ أن يزاد في عمره أو إذا زيد له فيه سكت عن الاعتراض. وحسبك أنّ سيّدنا أحمد بن حنبل رضي الله عنه سئل فيما أتذكّر عن عمره فظهر الامتعاض في وجهه وقال للسائل: لا تسأل عمّا لا يعنيك.

نعم، أنا كنت أعتقد أنّ الأستاذ شفينفورت مناهز الرابعة والتسعين وهيئته يوم شاهدته واختلاج شفتيه، واضطراب جسمه، وعدم تبيُّن جميع ألفاظه، كلّ ذلك كان يخبر عن التسعين أو ما قاربها لكنني علمت بعد ذلك أنه لم يتجاوز التاسعة والثمانين.

بقي علينا أنّ رحلة هذا الأستاذ في قلب أفريقية نقلت إلى لغات عديدة من جملتها التركية، وكاتب ترجمة شوينفورت في المقتطف يقول: إنّها نقلت إلى التركية بعنوان «سياحتنامه سى دوقتور شو ينفورتك أفريقا» وما أعلم لماذا لم يقل كاتب الترجمة الأديب أنّ رحلة الأستاذ ترجمت إلى التركية بعنوان «سياحة الدكتور أو الدوقتور شوينفورت في أفريقية»، بل التزم أن ينقل العنوان بالأصل التركي على زعمه، فجاء به مقلوبًا فهذه العبارة حقّها أن تكون هكذا «دوقتور شوينفورتك افريقاده سياحتنامه سي» أو «سياحتنامه دوقتور شوينفورت افريقاده» وما لنا وما للتركي الآن.

برلين ١٥ نوفمبر

شكيب أرسلان

ـ استطراد *

نشكر الأمير الجليل على ما أتحف المقتطف به. وبعد فقد ذكرت مجلّة ناتشر شوينفورت في السابع من نوفمبر فقالت ما ترجمتُه:

جورج أوغسط شوينفورت ولد في ريغا من والدين ألمانيَّين في ٢٩ دسمبر سنة ١٨٣٦ وتوفي في برلين في ٢٠ سبتمبر الماضي. وقد كان من علماء الطبيعة الذين امتازوا برحلاتهم ومستكشفاتهم في الجانب الشرقي من أواسط أفريقية. نشأ نباتيًا مدرّبًا فاختير وهو في السابعة والعشرين من عمره لكي يرتّب مجاميع النباتات التي أحضرها بارنم وهرتمن من السودان. وأقام من سنة ١٨٦٣ إلى ١٨٦٦ يبحث في نباتات مصر والبلاد المجاورة لها من الإسكندرية إلى الخرطوم وأسناد البحر الأحمر، ومن جبال الحبشة إلى البحر الأزرق، ثمَّ إلى بحر الغزال. وهذه الرحلة التي دامت ثلاث سنوات كانت أكثر الرحلات الأفريقية ثمرةً. فقد كان غرضه الأول فيها البحث في نباتات البلاد لكنّه لم يقتصر على ذلك، بل بحث أيضًا في حيواناتها وجبالها، وأوضح ما يتعلّق بأنهارها ممّا كان أمره غامضًا فإنّه عبَر النيل واتّجه غربًا فكشف نهر ول [1] وحسب أنه يصبّ في بحيرة شاد ونال باكتشافه هذا وسام مؤسس الجمعية الجغرافية الملكية ببلاد الإنكليز. ودرس أحوال السكان وهو أول من وصف قبائل الدوير والدنكا والبنجو والأزندا أو النيام نيام آكلي لحوم الناس، وقد كشف أيضًا أقزام الاكّا فأثبت وجود الأقزام في قلب أفريقية، بعد أن كان وجودهم في معرض الشك.

أمّا في علم الحيوان فأهم ما كشفه نوع متنقّل من الشمبانزي، كشفه في بلاد الأزندا ووجود الشمبانزي في وادي النيل لم يكن معروفًا هناك. وكشف أيضًا الببغاء الرمادي وغيره في تلك الجهات. أمّا في علم النبات فكان عمله واسع النطاق، فإنّه كشف أنّ الحراج الكبيرة التي في قلب أفريقية تمتدّ شرقًا ووصف انتساق أشجارها وصفًا شعريًا، وشبّهها بالأعمدة في الهياكل المصرية، ونشر ذلك في كتاب سمّاه قلب أفريقية طبع أولاً سنة ١٨٧٣ مزدانًا بكثير من الصور التي رسمها بيده، لأنه كان رسّامًا ماهرًا كما كان كاتبًا بليغًا فوق

---

* المقتطف ج٦٨ (١٩٢٦) ص ٤٠ ـ ٤٤.

(١) ول: نهر كبير في قلب إفريقية يخرج من بلاد المنبتو ويجري غربًا إلى الدرجة ١٩ من الطول الشرقي يميل جنوبًا ويصبّ في نهر الكنغو وقد ظنّ شوينفورت لمّا كشفه أنه يتّصل بنهر شاري ويصبّ في بحيرة شاد فأخطأ في ظنّه.

ما اشتهر به من شدّة الانتباه والملاحظة. وإذا اعتبرنا ما في هذا الكتاب من بلاغة الإنشاء والاستيعاب في وصف البلاد وسكانها وما فيها من نبات وحيوان، وأضفنا إلى ذلك أنّ الزمن الذي كان فيه كانت النخاسة في أوجها وتطلُب العاج على أشدّه وجدنا كتابه "قلب أفريقية" قلّما فاقه كتاب آخر من كتب روّاد أفريقية.

بعد ذلك لم يعد إلى قلب أفريقية، بل رحل رحلات أخرى إلى جهات أخرى، فمن سنة ١٨٧٣ إلى سنة ١٨٧٤ كان في صحراء ليبية مع رولفس وبين سنة ١٨٧٦ و١٨٨٨ ذهب مرارًا إلى الجنوب الغربي من جزيرة العرب، وكان في غضون ذلك يقيم في القاهرة وأسّس فيها الجمعية الجغرافية سنة ١٨٧٥ تحت رعاية الخديوي اسمعيل، وكان يبحث في نبات الجانب الأسفل من وادي النيل وجيولوجيّته. وسنة ١٨٨٦ جعل إقامته في برلين ولم يغادرها إلاّ حينما كان يذهب إلى إرتريا بين سنة ١٨٩١ و١٨٩٤. وطبع طبعة جديدة من كتابه في قلب أفريقية سنة ١٩١٨ بعد أن أضاف إليه إضافات كثيرة. ومجموعتاه النباتية والجيولوجية معروضتان الآن في متحف برلين. انتهى.

أمّا نحن فقد لقينا شوينفورت مرّة في بيت الدكتور غرانت بك بالقاهرة وكانت مسألة وادي الريّان وجعله خزّانًا شاغلة الأفكار، وكان كوب هوَيْتهوس يحاول إقناعنا بصحّة مشروعه حتّى يؤيده المقطم والمهندس برَوْن من وزارة الأشغال يحاول إقناعنا بفساده، فسألنا شوينفورت عن رأيه في ذلك من باب جيولوجي، فقال إنّه لا يشير بجعل وادي الريّان خزّانًا لأنه يحتمل أن يكون في الحاجز الذي بينه وبين الفيّوم شقوق أو نقط ضعيفة فإذا زاد ضغط الماء في الوادي تحلّب إلى الفيّوم وأغرقها. ومنذ عهد قريب كنّا نكلّم سري باشا وزير الأشغال في هذا الموضوع فرأيناه يرى ما رآه شوينفورت. أمّا نحن فبلغنا أنّ كوب هويتهوس والسر وليم ولككس يقولان أنّ في وادي الريّان آثار زراعة فإذا كان الأمر كذلك فالماء كان فيه ولم يغرّق الفيّوم حينئذٍ فجعله خزّانًا أسلم عاقبة من جعل الخزّانات في أعالي النيل ومفتاحها ليس في يد مصر. والذي فهمناه من سري باشا أنه يحسب الفاصل الذي بين وادي الريّان والفيّوم غير كافٍ لمقاومة ضغط الماء إذا ملئ وادي الريّان وهذا لم يقل به "شوينفورت" ولا "السر وليم ولككس" ولذلك فالمسألة تستحق البحث ثانية حتّى إذا وجدت آثار زراعة في وادي الريّان كما قال كوب هويتهوس انتفى كل محذور.

الجملة القرآنية*

ما وراء الأكمّة!

حضرة الأستاذ العبقريّ، نابغة الأدب، وحجّة العرب، السيّد مصطفى صادق الرافعي، نفّع الله به.

أراك قد استغربت قول إحدى الجرائد العربية الصادرة في أميركا أنك لو تركت «الجملة القرآنية» والحديث الشريف لكنت الآن المرجع الذي لا ينازع، ولبذَّ مذهبك في البلاغة المذاهب كلّها من قديم وحديث.

ويحقّ لك ولغيرك وأيمَ الله أن يستغربوا هذا التمنّي الدالّ على مرضٍ روحيّ عند بعض الناس لأنه قد يجوز أنّ إنسانًا لا يعتقد بتنزيل القرآن، ولكن لا يوجد عربي سليم الذوق لا يعتقد ببلاغة القرآن وحديث الرسول (ص). ولعمري أنّ الأمر لكَما قال ذلك الذي سأله سائل: هل يقال "فأذاقها الله لباس الجوع" فأجابه: ويحك، هَبْكَ تتهم محمَّدًا أنه لم يكن نبيًّا اتتهمه أنه لم يكن عربيًّا؟

ولكنك لم تلبث أن فهمت مغزى هذه النزعة الغربية، وعبّرت عمّا ظهر لك في تلك الجملة الموجزة من المرامي والمقاصد البعيدة، فقلت، وأنت سيّد القائلين، "فظهر لي في نور هذه الكلمة ما لم أكن أراه من قبل حتّى لكأنها (المكرسكوب) وما يجهر به من بعض الجراثيم ممّا يكون خفيًّا فيستعلن ودقيقًا فيستعظم وما يكون كأنه لا شيء ومع ذلك لا تعرف العلل الكبرى إلاّ به".

نعم، إنّ وراء الأكمّة ما وراءها وإنّ هناك دسائس خفيّة تظهر بعض أطرافها في هذه الجملة. ولكن دعني أقول لك إنّه ليس مرادهم العدول إلى الركاكة ولا مناصبة القرآن العداوة لمجرّد كونه فصيحًا. وليس الأمر من قبيل ما ذكره أحمد فارس في (الفارياق) من أنّ بعض خَدَمة الدين ممن كان يتكلّم عنهم يتبرّكون بالركيك من القول ويستوحشون من العربي الجزل البليغ. ولا هو من نمط ما رواه في (كشف المخبا عن فنون أوربا) من أنه كان

* الزهراء ج١ (١١ آذار ١٩٢٥ ـ ١٥ شعبان ١٣٤٣ هـ) ص ٥٨١ ـ ٥٨٨. بحث في القديم والجديد.

يعرب التوراة وهو في إنكلترة فكان يقف على الترجمة العربية قسيس إنكليزي شدا شيئًا من العربية، فكان كلّما رأى لأحمد فارس جملة شمَّ منها رائحة الفصاحة مسخها واستبدل بها جملة ركيكة. فكان الشدياق يعجب من أمره وقد نقل عنه من هذا النسق جملاً يستغرب لها الإنسان من الضحك، إذ يرى كيف كان ذلك القسيس يتعمّد قلب العالي بالساقط والجيّد بالرذل تعمّدًا ويتهافت على الركيك تهافت الذباب على الحلواء ويصرّح بأنه إنّما يتوخّى بذلك أبعاد الكلام عن شبه القرآن.

كلا يا أيّها الأخ، إنّ هذه الفئة لا تمجُّ الفصاحة من حيث هي، ولا تدين بالركاكة التي كان يدين بها قسوس أحمد فارس فيسخر بهم ما يسخر، ولا تحارب اللغة العربية نفسها، ولكنَّها تحارب منها القرآن...

إنّ هذه الفئة تحارب القرآن والحديث وجميع الآثار الإسلامية. وتريد أن تتبدّل بها كلام الجاهلية وكلام فصحاء العرب حتّى من المخضرمين والمولدين وكل كلام لا يكون عليه مسحة دينية. وهذه الفئة قد تعدّدت غاياتها في هذا المنزع ولكن قد اتفقت في الوسائل. فمنها من لا يجهل بلاغة القرآن وجزالته وكونه من العربية بمنزلة القطب من الرحى، ولكنّه يدسّ الدسائس من طرف خفيّ لإقصائه عن دائرة الأدب العربي وتزهيد الناشئة فيه بحجّة كونه قديمًا وإنّ كلّ قديمٍ هو بالٍ. حتّى إذا تمّ لهم ما يبتغون من غض مكانة القرآن في صدور الناس يكونون قد طعنوا الإسلام طعنة سياسية في أحشائه .... على حين هم يزعمون أنّ الموضوع موضوع أدبي لغويّ لا مدخل للسياسة فيه فيزلقون بهذه الدعوى المدحاض كثيرين ممّن لو تفطّنوا لما وراء هذه الدعاية البارزة في زيّ لغويّ أدبيّ من المآرب السياسية الخبيثة لكانوا منها على حذر، بل لانقلبوا عليها وصاروا قرآنيين. ولكن مع الأسف نقول إنّ الحوادث الأخيرة، لا سيّما ما جرى قبيل الحرب الكبرى إلى ما بعدها أثبتت أنه ما زالت هناك فئة تلعب بفئة وتسوقها إلى حيث تريد فلا تستفيق هذه من سكرتها إلاّ وقد قضي الأمر الذي فيه تستفتيان ... وهذه الدسيسة التي ظهر لكم مكنونها من جملة واحدة إنْ هي إلاّ حلقة لغويّة من سلسلة دسائس مقصود منها الإسلام لا القرآن، من حيث كونه قرآنًا ولا الفصاحة من حيث كونها فصاحة.

ولقد أشرتم إلى ذلك في مقالكم الجليل فقلتم « لا أعرف من السبب في ضعف الأساليب الكتابية والنزول باللغة دون منزلتها إلاّ واحدًا من ثلاثة: فأمّا مستعمرون يهدمون

الأمّة في لغتها وآدابها لتتحول عن أساس تاريخها الذي هي أمّة به ولن تكون أمّة إلاّ به؛ وأمّا النشأة في الأدب على مثل نهج الترجمة في الجملة الإنجيلية والانطباع عليها وتعويج اللسان بها، وإمّا الجهل من حيث هو الجهل أو من حيث هو الضعف».

فأنا أقول إنّ الوجوه الثلاثة متوفّرة في السبب، ولكن الوجه الأول هو أقواها. وأصحاب هذا الوجه منهم من يريدون هدم الأمّة في لغتها وآدابها خدمةً لمبادئ الاستعمار الأوروبي، ومنهم من يشير باستعمال اللغة العاميّة بحجّة أنها أقرب إلى الأفهام، ولكن منهم من لا يحاول هدم الأمّة في لغتها وآدابها لا حبًّا باللغة وبالآداب، ولكن علمًا باستحالة تنصُّل العرب من لغتهم وآدابهم. ولذلك ترى هؤلاء دعاةً إلى اللغة والآداب على شرط أن لا يكون ثمّة قرآن ولا حديث وأن تكون الصبغة لا دينيّة؛ وحجّتهم في ذلك حبّ التجدّد، وكون القرآن والحديث وكلمات السلف كلّها من القديم الذي لا يتلاءم مع الروح العصرية في شيء. وآخرون حجّتهم في ذلك النزعة القوميّة التي بزعمهم تناقض النزعة الدينيّة، وأصحاب النزعة القوميّة هؤلاء يقولون إنّها من باب التجدّد وإنّ روح القوميّة هي السائدة في هذا العصر. فالدين والمعاصرة نقيضان لا يجتمعان. فأمّا إذا سألهم سائل قائلاً: إنّكم وأنتم من دعاة التجدّد ومن قرّاء الآداب الأوربية لا تنكرون أنّ كتّاب أوربا اليوم من فرنسيس وألمان وإنكليز وطليان واسبانيول وروس إلخ إلخ. إنّما آدابهم كلّها مأخوذة من اللغات القديمة كاليونانية واللاتينية وإنّ آيات التوراة والإنجيل تدور على ألسنتهم وأقلامهم جارية فيها مجرى الأمثال، لا يكاد يخلو منها خطاب ولا كتاب. حتّى أنّ المنفضّين منهم من العقيدة يتكلّمون بلغة الإنجيل والتوراة وهذا «كلمنسو» الذي لا يوجد حرب على الدين أشدّ منه كان يجاوب بعض من اعترض عليه من أجل بعض نقاط في معاهدة فرساي قائلاً: أدخلوا في فرح المعاهدة تجدوها كما تريدون. ومعلومٌ أنّ جملة «دخل في الفرح» هي آية إنجيلية «أدخل في فرح سيّدك». وهذا شيء لا يمكن أن يحصى إلاّ إذا أحصيت رمال يبرين. وإنّما نريد أن نثبت به كون التجدّد والمعاصرة لم يمنعا بقاء لغات أوربا وآدابها على صبغتها القديمة ومآخذها من التوراة والإنجيل، ومن شعراء يونان وخطباء رومة، وإنّ أدباء أوربا في هذا العصر يستهجنون اختراع إنشاء جديد وأسلوب غير مألوف ويحسبونه مخالفًا للذوق ويتمثّلون بمعانٍ غابرة لم يبقَ لها أثر. أنظر هل بقي أثر للقوس والنشاب في أوربا وهل يوجد أعرق في القدمة من القوس والنشاب وإلى هذا اليوم يقولون: Il fait fléche de

tout bois وترجمتها: يأخذ نشابًا من كلّ خشب. ومرادهم بها أنه يستعين بأيّ قوّة حصلت في يده. أفتراهم وقد أرادوا مراعاة الأحوال العصرية يقولون: يعمل بندقية من كلّ حديد. أو: يصنع قنبلة من كلّ ديناميت. كلاّ لا يقولون ذلك ولا يرون الخلط بين العلوم والآداب ولا يجدون التجدّد في الفنون والصناعات داعيًا إلى تغيير أسلوب الكتابة بحجّة أنّ هذه التعابير كانت يوم لم يكن تلغراف ولا تليفون ولا أشعّة رونتجن. أفرأيت كاتبًا أوربيًا يقول: حلّقت بمنطاد الفكر في سماء الموضوع، كلاّ ولا ما أشبه ذلك. ولا ينكر أنه قد جدّت في أوربا فرائد وجمل لم تكن مألوفة في الأعصر السابقة كما جدَّت أيضًا اصطلاحات في كلّ عصر من أعصر اللغة العربية، فليس جميع ما اصطلح عليه الناس في أيام العباسيين كان معروفًا في صدر الإسلام أو في الجاهلية، ولكن كلّ ما يتجدّد هنا أو هناك لا بدَّ من أن يرجع إلى نصاب اللغة وينزل على حكمها ولن تترك اللغة فوضى لا في شرق ولا في غرب.

طالما ترنّحت الأعطاف عند ذكر الكاتب الفرنسي العظيم «أناتول فرانس»[1] الذي توفي منذ بضعة أشهر، وكان هذا الكاتب هو الصدر المقدّم في الإنشاء عند قومه لا يرون أحدًا في منزلته بعد «رنان»[2] وكان مما تميّز به النزوع إلى المذاهب الاجتماعية الجديدة والغلو في كره العقائد الدينية والعادات القديمة والنفور من النصرانية بأجمعها، حتّى لقد صفّه كثيرون مع الشيوعيين. وبالرغم من هذا فقد اتّفق جميع من ترجموه لدن وفاته حتّى من أدباء الفئة الاشتراكية والشيوعية على أنه كان في إنشائه أصوليًّا أستاذيًا مقلّدًا يحذو حذو راسين الشاعر الذي عاش قبل هذا العهد بمائتي سنة، وأنه حافظ على الطريقة الكتابية الأصولية المسماة عندهم «كلاسيك» أي الطريقة المدارسية. وقيل للكاتب «المشهور موريس» باريس ـ وكان من أنصار الديانة والكثلكة ـ أفلا ترى مبادئ أناتول فرانس وغلوّه في الإشتراكية إلخ، فأجابهم: قولوا فيه من هذه الجهة ما شئتم إلاّ أنه حفظ اللغة. وهي جملة شهيرة يحفظها الجميع عن باريس.

نعم، يقدر العربي أن لا يكون صحيح العقيدة ولا مسلمًا، ويكون نصاب اللغة عنده القرآن والحديث وكلام السلف؛ لأنها هي الطبقة العليا التي تصحّ أن تكون مثالاً. ولكن ليس هذا مراد هذه الفئة التي تريد حربًا وتوري بغيرها، تبغى نقض قواعد القرآن ـ التي هي السدّ الأمنع الحائل دون الاستعمار والثقافة الإفرنجية بفروعها ـ وتأتّى ذلك من طريق

(١) أناتول فرانس: (١٨٤٤ ـ ١٩٢٤) روائي وناقد فرنسي. حاز جائزة نوبل عام ١٩٢١.
(٢) إرنست رينان: (١٨٢٣ ـ ١٨٩٢) أديب فرنسي درس اللغات السامية وتاريخ الديانات.

نبذ القديم والبالي والأخذ بالجديد والحالي. ولا يوجد مع الأسف كثيرون ممن ينتبهون لهذه السفسطة ويعلمون مرمى هذه الدعاية، بل أنّ كثيرًا من ناشئتنا ومن عامتنا هم من فخٍّ إلى فخ ... ومن جملة هذه الأشراك أنّ القرآن حائل دون القوميّة العربية لا يفسح لها مجالاً فتراهم ينصبون له العداوة، وأمراض العقول كثيرة كأمراض الأبدان، ولكن أمراض القلوب هي التي لا حيلة فيها ... هذا وأنّ بعضًا من أدعياء الجديد ـ لا دعاة الجديد ـ لا يحاربون القرآن ولا الشرع عن بحث وتدقيق ومقايسة ومقابلة يتبعون المعقول قديمًا كان أو جديدًا ويرتادون المفيد معرقًا كان أو محدثًا. كلاّ، بل هم قد اختاروا مذهبهم من قبل فرجّحوا كلّ جديد كيف كان وبدون محاكمة، وذلك ليقال أنهم رقاة عصريون، أمّا نظرية أخذ الأحسن من كلّ شيء واختيار الأوفق من أيّ جهة جاء فهذه ليسوا منها بسبيل. وإنّما يؤثرون الشيء إذا علموا أنّ بعض أمم الإفرنجة أخذت به. ولمّا وافقت هذه الفئة في تركيا على منع المسكرات، لم يكن السبب في هذه الموافقة ضرر المسكرات أو النهي الشرعي، بل حرّموا الخمور لمجرّد كون أميركا حرّمتها.

وخذ لك هذا المثال:

كنّا في مجلس المبعوثين في الآستانة وكان من زملائنا زهراب أفندي الأرمني الشهير ولم يكن علمه وذكاؤه بأقل من شهرته، وكان يصعب على مبعوث مهما كان قوي العارضة قاطع الحجّة أن يخاصم زهراب لا سيّما في التشريع. فاتّفق أنّ بعض مبعوثي الترك من المولعين بالجديد ـ لمجرّد ادّعاء الرقيّ العصري ـ اختلفوا مع زهراب في سَنّ مادّة قانونية، فعقدوا لها مجلسًا خاصًا وانبرى لزهراب اثنان من هؤلاء العصريين يجادلانه ويحاولان أن يحملاه على رأيهما، فبعد حوار طويل تغلّب زهراب عليهما وألزمهما الحجّة ولم يبقَ أمامهما إلاّ السكوت. إلاّ أنّ زهراب أخطأ في شيء وهو عدم معرفته عقلية هذه الفئة فبعد أن أخرسهما في الجدال عاد فقال لهما: وهذا أيضًا وفق أحكام شريعتكم (الإسلامية) التي تقول كذا وكذا. حدّثنا الأستاذ الفلكي الرياضي فطين أفندي مدير مرصد الآستانة: أنه لمّا قال لهما زهراب هذا القول عادا فنبرا بغتةً قائلين: إذا كان الأمر كذلك فلا نقبل هذا الرأي. ومن بعد تلك الفلتة لم يعد زهراب قادرًا أن يقنعهما بوجهٍ من الوجوه، فليس صواب الشيء وعدمه هو الحاكم عند هذه الفئة، بل هو مصدر الشيء بدون نظر إلى أي اعتبار آخر، فإن علموا كونه آتيًا من طريق الدين أو ملائمًا لحكم وارد في الشرع استمرّوا مذاقه

قبل أن يذوقوه. وليس هذا منحصرًا في الترك وفي الفئة التورانية منهم، بل عندنا نحن من هذا النخل فسيْل في مصر والشام وغيرهما.

ويا ليتك ترى هذه الفرقة على شيء من التحقّق بالجديد فيما يلزم فيه الأخذ بالجديد من علم نافع أو فنٍّ مفيد أو صناعة دارَّة. فإنّ العلم لا يجب أن يكون فيه قديم وجديد، بل هو أصل يتفرّع منه فروع، كلّ يوم يتحتّم على الإنسان أن يتتبّعها كلّها، ناظرًا إلى حقيقتها وصدق تجربتها وفائدتها للاجتماع.

كلاّ يا سيّدي قلّما رأيت من هذه الفرقة إلاّ الادّعاء الفارغ والنزوع إلى الثورة على ما يسمّونه بالقديم، وهم ينسون أنّ هناك مبادئ ثابتة وبديهيّات ليس فيها قديم وجديد وأنّ الاثنين والاثنين أربعة من مائة ألف سنة، فلا نقدر أن نعمل على ذلك ثورة وأنّ المقولات العشر ممّا لا تتناوله الثورة، وإنّ الثورة أنّما هي واجبة على الجهل والوهم لا على الحق والعلم. وإنّ العلم لا يكون قديمًا وإنّ الأدب لا بدَّ أن يراعى فيه ذوق الأمّة وتاريخها وعادتها وعرفها، وإنّه ليس بتجربة كيماوية.

هذا يا أخي هو المرمى الصحيح ممن أخذ عليك « الجملة القرآنية » فأمّا الفِئام الأخرى ممن عجز عن الفصيح فأبغضه، وممن يستأنس بالركيك لأنه هو الشيء الوحيد الذي يقدر عليه، فهذه خطبُها يسير وقلعتها أوهَى من أن يحمل مثل قلمك عليها.

لوزان ٨ فبراير

شكيب أرسلان

القديم والجديد*

ما من مترادف بدون وجه، وإنّما هو تأكيد في المعنى وتأثير على السامع

نسوق إلى منكري المترادف، وجاحدي فضله في الابانة وضرورته في تبليغ المعنى حدَّه، هذا المثل الآتي من مقدّمة نهج البلاغة، نأخذه على وجه التصادف.

حكى أبو حامد محمَّد بن محمَّد الأسفرايني الفقيه الشافعي قال: كنت يومًا عند فخر الملك أبي غالب محمَّد بن خلف وزير بهاء الدولة وابنه سلطان الدولة، فدخل عليه الرضيّ (الشريف الرضيّ) أبو الحسن فأعظمه، وأجلّ مكانه، ورفع من منزلته، وخلّى ما كان بيده من القصص والرقاع، وأقبل عليه يحادثه إلى أن انصرف.

ثمَّ دخل بعد ذلك المرتضى أبو القاسم (أخو الشريف الرضي) فلم يعظّمه ذلك التعظيم ولا أكرمه ذلك الإكرام، وتشاغل عنه برقاع يقرأها، فجلس قليلاً ثمَّ سأله أمرًا فقضاه ثمَّ انصرف.

قال أبو حامد فقلت: أصلح الله الوزير هذا المرتضى هو الفقيه المتكلّم صاحب الفنون وهو الأمثل والأفضل منهما، وإنّما أبو الحسن شاعر. قال فقال لي: إذا انصرف الناس وخلا المجلس أجبتك على هذه المسألة. قال: وكنت مجمعًا على الانصراف فعرض من الأمر ما لم يكن في الحساب فدعت الضرورة إلى ملازمة المجلس حتّى تقوَّض الناس. وبعد أن انصرف عنه أكثر غلمانه ولم يبقَ عنده غيري قال لخادم عنده: هات الكتابين اللذين دفعتهما إليك منذ أيام وأمرتك بوضعهما في السَفَط الفلاني. فأحضرهما فقال: هذا كتاب الرضيّ اتصل بي أنه قد ولد له ولد فأنفذت إليه ألف دينار وقلت: هذه للقابلة فقد جرت العادة أن يحمل الأصدقاء إلى ذوي مودّتهم مثل هذا في مثل هذه الحال. فردَّها وكتب إليَّ هذا الكتاب فاقرأه. فقرأته فإذا هو اعتذار عن الرد وفي جملته: أننا أهل بيت لا يطّلع على أحوالنا قابلة غريبة، وإنّما عجائزنا يتولّين هذا الأمر من نسائنا، ولسن ممن يأخذن أجرة ولا يقبلنَ صلة. قال: فهذا هذا.

* الزهراء ج١ (١٢ نيسان ١٩٢٥ ـ ١٥ رمضان ١٣٤٣ هـ) ص ٥٤٧ ـ ٥٥٤.

وأمّا المرتضى فأنّا كنّا وزعنا وقسّطنا على الأملاك ببعض النواحي تقسيطًا نصرفه في حفر فوهة النهر المعروف بنهر عيسى، فأصاب ملكًا للشريف المرتضى بالناحية المعروفة بالداهرية من التقسيط عشرون درهمًا ثمنها دينار واحد، وقد كتب إليّ منذ أيام في هذا المعنى هذا الكتاب فاقرأه. فقرأته وهو أكثر من مائة سطر يتضمن من الخشوع والخضوع والاستمالة والهزّ والطلب والسؤال في إسقاط هذه الدراهم المذكورة ما يطول شرحه. قال فخر الملك: فأيهما ترى أولى بالتعظيم والتبجيل، هذا العالم المتكلّم الفقيه الأوحد ونفسه هذه النفس، أم ذلك الذي لم يشهر إلاّ بالشعر خاصةً ونفسه تلك النفس؟ فقلت: وفّق الله سيّدنا الوزير، والله ما وضع الأمر إلاّ في موضعه، ولا أحلّه إلاّ في محلّه ... إلخ.

ففي هذه القصّة قوله أعظمه وأجلّ مكانه ورفع من منزلته. وكلّها جمل في معنى واحد يظنّ القارئ أنّ بعضها يغني عن بعض، والحقيقة أنّ بعضها لا يغني عن بعض أصلاً وأنه لو كان قد قال: دخل عليه الرضيّ فأجلّ مكانه. واكتفى بهذه الجملة لم يكن من التأثير على القارئ في وصف درجة تلك التجلّة ما يوجد في قوله: فأعظمه وأجلّ مكانه ورفع من منزلته. كلاّ، بين ذاك وذا فرق لا يقدر أن يكابر فيه مكابر. ولو اختار الكاتب الاجتزاء بجملة واحدة من الجمل الثلاث هذه لنقص في المعنى بمقدار ما نقص من اللفظ، ولفهم القارئ أنّ الشريف الرضيّ دخل على الوزير فقابله مقابلة حسنة فحسب. فلمّا قال: «فأعظمه وأجلّ مكانه ورفع من منزلته» تمثّل القارئ أو السامع حالة فوق حالةً الإكرام المعتاد، وتجسّم أمام عينيه ما كان من حركة الوزير من الهِزَّة إلى لقاء الشريف، والاحتفال بمقدمه والانصراف عن غيره له، وبلغت العبارة من نفس القارئ الحدّ الذي أراده الكاتب والذي لم تكن تبلغه لولا تكرار هذه الجمل الثلاث. وليس ذلك في شيء من الأسلوب القديم ولا في ملازمة طريقة العرب التي خلت، والتي صار ينبغي العدول عنها بمقتضى «التطوُّر» العصري وما أشبه ذلك من الألفاظ. بل هو في فطرة المرء التي فطره الله عليها والتي لا تفارقه ما دام مركّبًا هذا التركيب الفسيولوجي الذي هو عليه الآن، بحيث أنه لو نطق في القديم أو الحديث أو في الزمن المتوسط، وباللغة العربية أو بلغة أخرى شرقية أو غربية، في آسية أو في أميركا، لم يمكنه أبدًا أن يبلغ من نفس السامع بقوله: دخل الشريف الرضيّ فأعظمه. مثلما لو قال: فأعظمه وأجلّ مكانه ورفع من منزلته. فإنّ الكلام بمنزلة الأرقام فلا تزيد رقمًا إلاّ زدت عددًا وضاعفت كميّة، وكذلك فلا تزيد لفظة إلاّ زدت معنى

وصوّرت كيفية. وليس ذلك في شيء مما يصادم قاعدة "خير الكلام ما قلّ ودل" أو "الإيجاز فيه البلاغة"، بل هذا وادٍ وذاك وادٍ آخر وكلاهما يلاقي الآخر. ومفصل البلاغة ليس الإقلال ولا الإكثار وإنّما هو وضع الشيء في محلّه. وكما أنّ الثرثرة والتكرار من غير طائل هجنة، فالاسترسال والإطناب في المقام الذي يجب فيه التأكيد ويُتوخّى فيه الإشباع والتروية، هما من مقتضى الغرائز البشرية. فلا تجد لغةً من لغات البشر خالية من هذا الأسلوب.

ثمَّ إنّه يقول في أثناء سرد هذه القصّة: فلم يعظّمه ذلك التعظيم ولا أكرّمه ذلك الإكرام. وهو من الباب نفسه لا يغني فيه القليل عن الكثير ما دام المقصود هو الإمعان والاستقصاء. فإنّ قولك "أمثال لا تُعدّ ولا تحصى" هو أدلّ وأوقع من قولك "أمثالٌ لا تُعَدّ" فقط ثمَّ يقول "الأمثل والأفضل منها" ويقول "إذا انصرف الناس وخلا المجلس" وأنظر إلى قوله "من الخشوع والخضوع والاستمالة والهزّ والطلب والسؤال" فإنّه كلّه يقصد به وصف حالة نفس الشريف المرتضى من أنواع التذلُّل وضروب الرجاء ليرفع عنه تلك الدراهم الزهيدة، ممّا يسقط منزلته مهما كان عالمًا فقيهًا متكلّمًا ويعطي الوزير فخر الملك الحقّ في عدم المبالاة به أو عدم مساواته له مع أخيه. وهذا الوصف لحالة الشريف المرتضى هذه التي أنزلت منزلته في عين الوزير لا يتم إلاّ بتكرار كلمات الخشوع والخضوع والهزّ والسؤال ... إلخ.

ولقد أدرك المعترضون على هذا المذهب استفاضته في العربية بأسرها، ولحظوا كون الاعتراض عليه اعتراضًا على اللغة نفسها، فرجعوا إلى القول بمسيس الحاجة إلى تطوُّر اللغة بحسب روح العصر الجديد الذي هو عصر الاختصار، والذي لغته لغة التلغرافات بزعمهم. وكأنهم يريدون أن يقولوا: نعم إنّ الكلام العربي حافل بهذه الطريقة، بل المترادف فيه أكثر من حصى البطحاء ورمال الدهناء ولا يخلو منه كلام أحد من البلغاء ولا الفصحاء ولا الكتّاب ولا الشعراء، ولكن هذا مذهب قد آن أن يصبأ الناس عنه ويستبدلوا به، وأنّ الوقت قد صار من الضيق بحيث لا يساعد على إطالة الشرح، وتكرار الصيغ الموضوعة لمقامات معلومة، إلى غير ذلك من العلل. فخرجوا من انتقاد المترادف إلى انتقاد ما عليه العربية إلى يومنا هذا.

والحقيقة أنّ هذا الذي يعنونَه من تكرار صيغ معلومة ومقدّمات جرى الناس عليها ـ لا سيّما العامّة وأشباه العامّة من الخاصّة ـ هو من باب الحشو ومن الإطالة بدون طائل ممّا لا نزاع فيه وممّا لم يختص بعصرٍ دون عصر، بل فضل الإيجاز قد عرفه الأولون كما عرفه الآخرون وأكثر، والإطالة التي يجري عليها الأوربيون سادة العصر في كتاباتهم، والإسهاب الذي يسبح في عبابه منشئوهم وفصحاؤهم، وإشباع المعنى بتكراره بصور مختلفة وألوان متنوّعة، وأحيانًا بدون اختلاف كثير في الصور ولا بألوان فيها جديد ذو جداء، هذه طرق قد غلبت على «عصر التلغراف» الذي يقولون إنّه أهل للاختصار، وإنّ الوقت فيه غير متندح لما يسمّونه بالإسهاب.

ومن قرأ مؤلّفات الإفرنج في أيّ لغة من لغاتهم العديدة عرف أنهم لم يكتبوا بلغة التلغرافات إلاّ التلغرافات. وذلك لأنّ الفصاحة هي المطابقة لمقتضى الحال، فكما أنه من السخف أن يحرّر الإنسان التلغراف بلغة الكتاب، فمن السخف أيضًا أن يجري جميع ما يكتبه مجرى التلغراف، ويقول أنا مضطر إلى الإيجاز في كلّ ما أقوله لكوننا نحن اليوم في عصر التلغراف. تصوّر كاتبًا يتوخّى إيجاز القصر في كلّ كتاب فيضطر الناس إلى تفسير أقواله كما يفسّرون الوحي، أو خطيبًا يجتمع الناس لسماع محاضرته فيجود عليهم ببعض جمل قليلة اللفظ كثيرة المعنى قائلاً لهم: ألا لا تعجبوا من قصر خطابي، فإنّ خير الكلام ما قلَّ ودل ... فينصرفون وقد خابت آمالهم وندموا على مجيئهم. إذًا هؤلاء الخطباء الذين يتكلّمون ساعة وساعتين وثلاثًا في المجالس النيابية في موضوع واحد لا يتعدّونه وقضيّة واحدة يهاجمونها أو يدافعون عنها، هم ليسوا على شيء من البلاغة ولا الفصاحة لأنّ بين خطبهم والتلغرافات فرقًا بعيدًا ... إذًا المسيو بريان عندما قام يناضل عن علاقة فرنسا بالڤاتيكان بما ملأ عدّة أنهار من الصحف الفرنسية إنّما كان مكثارًا أو ثرثارًا، وكان يكفيه من البيان أن يقول: للڤاتيكان كلمة في الدنيا مسموعة، ولفرنسا مصلحة أن تستفيد من تلك الكلمة، فلا بدَّ لفرنسا من أن تكون ذات علاقة مع الڤاتيكان. أفليس الإيجاز فيه البلاغة؟ كلاّ يا أخواننا تطوّر اللغة لم يكن في تغيير مبادئ الفصاحة والبلاغة، لأنّ هذه المبادئ إنّما هي مأخوذة عن الغريزة البشرية، ومنسوخة عن صورة الإنسان كما صوّره باريه. وبحكم هذه السليقة نفسها الإيجاز له مقام والإشباع له مقام؛ وكلّ منهما إنْ حلّ محل الآخر كان عيبًا ظاهرًا. والعرب كانوا أسلم أذواقًا وأصفى قرائح وأبصر بمفاصل القول، من أن تأتوا

أتم وتهجّنوا ما كانوا يرونه حسنًا وتزيّنوا ما كانوا يرونه معيبًا. كلاّ لا تزال هذه الطبقة من العرب هي المثل الأعلى في البيان والقدوة التي يقتدى بها في الإنشاء، لأنّ الإنشاء قائمٌ في الصدور منبعثٌ عن حالة خاصّة في الفطرة، وليس ممّا ينشأ عن الاكتشافات العلمية حتّى يفوق فيه الآخر الأول. وإنّما كان العلم بالحقائق العلمية ممّا يزيد رونق البلاغة ولا يوجدها. فكما أنّ المصوّر يُخلَق مصوّرًا وإنّما يزيده المران ومشاهدة مناظر الكون إتقانًا فكذلك البليغ يخلق بليغًا، وإنّما يزيده العلم والاطّلاع كمالاً ويكسبانه صقلاً لا غير.

فتطوّر اللغة ليس في أن نعدل بها من الأعلى إلى الأدنى، ولا في أن نفسد ملكتها وندخل الفوضى فيها ونقول: هذه ثورة مباركة! كلاّ لا يثور المرء على الذوق السليم، ولا ينزع عن الجيّد إلى الردئ ولا يحاول مخالفة مقتضى النحيزة[1] البشرية ليقال أنه عصريّ جديد النزعة ... إنّ راسين وبوالو وبوسوية وفولتير وشكسبير وغوتة وشيلر وغيرهم ليس منهم رجل عاش في عصر الاختراعات والاكتشافات هذا، بل كلّهم قد درجوا منذ قرن وقرنين كما لا يخفي فهم بالنسبة إلى هذا العصر معدودون في القديم البالي، ومع هذا فالسعيد السعيد في فصحاء هذا العصر هو الذي يقدر أن يتحدّى واحدًا منهم. وأنّى لكاتب فرنسي معاصر أن يطاول فولتير، أو لشاعر إنجليزي في هذا الزمن أن يساوي شكسبير. وكم ألمانيّ اليوم يتمنّى لو يقدر أن يأتي بلغة كلغة غوته ولو مات من بعدها.

أنّ تطوّر اللغة إنّما يكون بإدخال المعاني الجديدة فيها ونقل ما في سائر اللغات من الفنون الأدبية والعلمية إليها، على شرط أن تبرز تلك المعاني في حلل اللغة الأصلية ولا تخرج بها إلى الركاكة والسماجة، فتتحوّل إلى لغةٍ ثانية متنكرة عن أهلها ليس لها من مزية في باب التجدّد سوى مجرّد الثورة، وهذا لا يقول به عاقل، إلاّ من أراد التغيير لأجل التغيير ولأجل أن يخالف فيعرف، وليقال إنّه عصري راقي الفكر لا شيء آخر. وما أسمج الأعمال إذا كانت رئاءً وسمعة ...

ومن الغريب أنّ هؤلاء الذين يريدون أن يحدّثوا لغة عربية جديدة بحجّة التطوّر العصري الذي لا بدَّ منه، تجدهم هم أنفسهم يقتدون بلغة السلف ويجدّون كلّ الجدّ في محاكاتهم ولا يخلو كلامهم من المترادف الذي يعيبونه وكان عليهم ـ وقد صارت منشآت هذه اللغة قديمة بالية في نظرهم ـ أن يأتونا بمثال من لغتهم هذه العصرية التي يريدون أن

[1] النحيزة: الطبيعة.

يتبدّلوا بها اللغة القديمة لغة القرءان[1] والحديث ونهج البلاغة ولغة الجاحظ والهمذاني والخوارزمي ولغة أبي نوّاس وبشار وأبي تمّام وهلمّ جرًّا، فكنّا نعرف ما هو التطوّر الذي يعنونه إن كان مرادهم من بالتطوّر هو تلوُّن اللغة بعض الشيء بلون العصر الذي يجدّ عليها، فقد مضى على العربية أدوار عديدة وازدادت فيها معانيَ بازدياد المعارف والحوادث والاحتكاك بالغريب، وهذا كلّه معلوم عند علماء اللغة وامتلأ العصر العبّاسي بتعريب فلسفات العجم ويونان[2] والهند وازدادت اصطلاحات في التعبير العربي لا تحصى، ولكن كلّ هذا التعريب وهذه الاصطلاحات لم تخرِج اللغة قيد شعرة عن أسلوبها الأصلي الأصيل، ولا اختلَّت بها قاعدة ولا تحوّلت منها سحنة، وبقيت فيها أقوال السلف المشار إليهم هي معيار الفصاحة ومثال البلاغة وهي الينبوع الذي يستقي منه محرّرو التراجم العلمية. كما أنّ فصاحة يونان والرومان هي الينبوع الذي يمتح[3] منه كتّاب أوربا لهذا العهد. يريدون أن يجعلوا قديمًا وجديدًا وما ثمَّة قديم وجديد وإنّما ثمَّة لغة عربية ولغة غير عربية. وما نراهم هم في أثناء دعوتهم إلى ما يسمّونه بالجديد إلاّ محافظين على القديم لأنني ما رأيت بأيّ شيءٍ يفترق نسق كلامهم عن نسق الآخرين.

لا يوجد في العالم قومٌ بنوا أصول اجتماعهم على القواعد العلمية الحديثة بدون اعتبار لسواها مثل الألمان، ومهما طمعنا أن نرقى الآن فلا نطمع في الحياة العلمية أن نفوتهم ومع هذا فلغتهم هي اللغة التي تكلّم بها غوته منذ أكثر من قرن، لا بل اللغة التي ترجم بها لوثير التوراة منذ أربعة قرون. وبالجملة فإنّنا نرجو ثائري لغتنا هؤلاء وفوضويّة الإنشاء العربي أن لا يخلطوا الفنون والصناعات بالآداب والأذواق وأن يجعلوا الثورة على الخرافات والسخافات حيث جميعنا ثوّار لا نحتاج فيها إلى دلالتهم فلا يمدّوا ثورتهم إلى الذوق السليم والرأي القويم فتخمد حالاً بسيف المنطق.

مرسين: ٢٥ مارس سنة ١٩٢٥

شكيب أرسلان

(١) القرءان: كذا وردت.
(٢) يونان: وردت غير معرّفة.
(٣) يمتح: يملأ.

الأعلام العربية باللغات الأجنبية*

لجناب الأديب الأمير شكيب أرسلان

نعمًّا ما ارتآه المستشرق نلّينو (راجع المشرق ص ٨١١) معلّم العربية في مدرسة اللغات الشرقية في نابولي من جهة وضع معجم لأسماء البلاد، استدراكًا لآفة التحريف والتشويه الفاشية في نقل أسماء الأماكن. وذلك أنّ بعض هذه الأسماء خصوصًا ما لم يشتهر منها إذا كتبها الفرنجة بلغاتهم وضعوها على شكل يبعد عن أصله، لعدم تهيّؤ الأحرف الإفرنجية لاستيعاب جميع صور اللفظ العربي. ثمَّ قد لا يُتاح للكاتب معرفة أصل هذه الأسماء بالعربية لعدم اطّلاعه عليها في كتب العرب أو عدم مشافهته جيران تلك المسمّيات فيلتزم أخذها عن كتب الإفرنج ويردّها إلى العربي حسبما يظن أنه أصلها، أو الأقرب لأن يكون أصلها. فإذا أصاب المرمى مرّة أخطأ مرارًا وإذا جاء ببعض الأسماء المترجمة موافقة لأصلها جاء بالبعض الآخر بينه وبين الأصل مسافة ما بين المشرق والمغرب كما في "وادي حَمد" و"وادي الحَمْض" و "قلعة بيشة" و "قلعة بجا" وغير ذلك.

وقلّما سلم من الوقوع في هذا الغلط أحد ممن عانى صناعة التعريب، فهو مزلّة أقدام المعرّبين خصوصًا الذين يشتغلون منهم بالتاريخ والجغرافية في هذه الأيام، فإنّهم مضطرّون إلى مراجعة كتب الإفرنج ولو كان فيما يبحث عن أحوال العرب صِرفًا وذلك استزادةً من التمحيص ومبالغةً في التدقيق، وتعويلاً على اكتشافات القوم التي عمَّت الأقاصي والأداني. فيعثرون على أسماء أماكن وأشخاص مكتوبة بالإفرنجية إن لم يساعدهم على معرفة أصلها، تبحُّرٌ عندهم في لغة العرب وسعة اطّلاع لهم على تاريخهم وجغرافيّتهم جاءُوا بترجمتها مقلوبة بعيدة عن أصلها نائية عن حقيقتها، ممّا قد يندمج في طور الرقاعة وينقلب أحيانًا إلى الضحك إذا كان المترجم قليل الاطّلاع. فقد عرفت من الدارسين اللهمَّ الذين لا خَلاق [1] لهم من العربية من كان يترجم (Averroes) بأفرّويز ويقول الفيلسوف العربي أفرّويز. ولو كان ذا أقلّ إلمامًا لعلم أنهم يريدون بهذا اللفظ ابن رشد. ومثل ذلك ما ورد

* المشرق ج١ (١٨٩٨) ص ٨٧١ ـ ٨٧٣.

(١) خَلاق: نصيب وافر.

في ترجمة تاريخ للصليبية وهو (سلادينوس) أي صلاح الدين. والظاهر أنّ الحامل للمترجم على هذه الترجمة كونه قرأ اسم صلاح الدين مكتوبًا (Saladin) حسبما يلفظه الإفرنج فتوهَّم أنّ هذا من الأسماء التي تُختَم بحرفَي (وس) اتّباعًا للقاعدة اللاتينية، وهو فيما يظهر أملسَ (١) من علم التاريخ الإسلاميّ فظنَّ أنّ الأصل في (سلادين) هو (سلادينوس).

ولم ينحصر هذا الوهم فيمن قلَّ اطّلاعه كصاحب (سلادينوس)، بل ربّما وقع فيه أرباب الاطّلاع والمعروفون بطول الباع ومنشأ ذلك عدم وصولهم إلى أصول تلك الأسماء وغيبة حقائقها عنهم. ولقد عاينت من هذه الأسماء شدَّة في رواية "آخر بني سراج" وذيلها لكثرة ما تتناوح الأعلام الأندلسية هناك بين العربية والاسبانية فوفّقني الله بعد الإمعان الطويل إلى تحقيق أكثرها، ولكنني لا أزال في ريبة ممّا لم أجد ما يقاربه في العربي ممّا تنطبق عليه علامته الجغرافية، لا سيّما بعد أن تأمّلت كثيرًا من الأسماء التي حقَّقتُ أنها هي هي على ما بين لفظيها العربيّ والإفرنجي من البون البعيد.

ولقد عرفت دخول هذا الوهم على بعض ذوي القدم الراسخ في الأدب، مثل الوزير الفاضل المرحوم ضياء باشا الشاعر المشهور الذي دلّت تآليفه على وفرة علمه وغزارة فضله. فممّا جاء في تاريخه للأندلس قوله محلّة "البيضائين" عن محلّة "البيازين" إحدى محالّ غرناطة. ومنه خلطه بين "غادس" و "غوادس" فإنّ الأولى ترجمة "قادس" محلّ مشهور والثاني ترجمة "وادي آش" المسمّى أيضًا وادي الأشات فظنَّ الإثنين شيئًا واحدًا. وأخذ يترجم وادي آش بقادس فانقلب المعنى وفُهِم من كلامه أنّ قادس ذهبت من اليد قبل غرناطة بقليل وأنها كانت كرسيًا لأبي عبد الله الزغل لعهد السقوط. والحال خلاف ذلك. وإنّما التي ذهبت قبل غرناطة بقليل وكانت مركزًا للسلطان المذكور هي وادي آش. وله (رحمه الله) عدا ذلك أغلاط أُخر وقد أوردنا هاتين على سبيل التمثيل.

وأنجع علاج لهذا الداء تأليف معجم للأعلام يجمع أكثر ما يمكن جمعه من اسم رجل ومدينة وجبل ونهر وغير ذلك مشارًا إلى كلّه بعلامته في محلّه، لئلاّ يقع الوهم فيه والخلط بينه وبين غيره. ولا يستغني مع ذلك الكاتب أو المترجم عن علم العربية ومعرفة التاريخ فقد يخلط في ضعفه بين العَلَم والصفة كما رأيته في أحد التواريخ الحديثة وهو الذي

(١) أملسَ: أفلت وتخلّص.

كتبه صاحبه بلغتين وترجم فيه ألقاب أحد السلاطين التي منها "قسيم أمير المؤمنين" فظنّه من أسماء السلطان المشار إليه وحسب أنّ اسمه "قاسم" كما يظهر ذلك من الترجمة الإفرنجية.

وأفضل الاعتماد في هذا الأمر بعد الكتب على مشافهة أهل الحيّ والبلاد الجاري البحث عن مسمَّياتها فهم أعلم بأسماء بلادهم. وقد كنت في أوائل عهد المعاناة عرَّبت تاريخًا لبلاد الجزائر وأخبار المرحوم الأمير عبد القادر، فوجدتُ فيه كثيرًا من الأعلام من أسماء قبائل وأماكن لم أدرِ تمامًا ما حقيقة أصلها، فقيَّدتها كلَّها في فهرس معي وعرضته على حضرة العلاَّمة الشريف السيّد محمَّد مرتضى الحسني الجزائريّ ابن أخي المرحوم الأمير عبد القادر وأحد علماء المغرب في المشرق. فحقَّق لي ألفاظها وهكذا أمكنني ردّها إلى أصلها، لأنه إن أمكنت معرفة الأعلام الشهيرة مثل (أوران) بأنها (وهران) فكيف تمكّن بدون موقف معرفة (أين مدهي) بأنها (عين ماضي) وهلمَّ جرًّا.

تمسّ الحاجة إذًا إلى معجم تلك صفته ضنًّا بشأن العلم والعلماء ووفاءً مع الكتابة والكتَّاب وتخلّصًا من أخذ أسمائنا عن لسان الإفرنجيّ، الذي انتفى منه الحاء والخاء والقاف والعين، وتمكّنت العداوة بينه وبين كثير من الحروف.

الفصل الثاني

مقالات غلب عليها الذكريات الشخصية

نبذة عن سيرة الأستاذ الإمام
محمَّد عبده في بيروت*

بقلم تلميذه ومريده أمير
البيان الأمير شكيب أرسلان

منذ حداثة سنِّي كنت أقرأ الجرائد. ولمّا حدثت الحادثة العرابية سنة ١٨٨٢ بمصر كنت ابن اثنتي عشرة سنة فكنت أتتبّع وقائعها، وأتحرّق عند ضرب الإنكليز للإسكندرية ونزولهم وتقدّمهم في القطر المصري، وأحسب حساب بقائهم فيه. وعندما انتهت الفتنة وشرعوا في محاكمة الذين حاكموهم ونفوهم إلى خارج القِطر، قرأت في أخبار المحاكمات نصّ يمينٍ قيل إنّها من إنشاء الشيخ محمَّد عبده. وكانت هذه أول مرّة سمعتُ فيها هذا الاسم، أمّا نص اليمين فرأيتُ فيه أسلوبًا عاليًا غير الذي كنت أعهده، ولم أكن يومئذٍ بالذي يقدر أن يعرف مزايا الإنشاء، ولكني كنت أميّز منها العالي من النازل بمحض الشعور، فوقع في نفسي شيء من هذا اليمين، ورأيتُ أنّ منشئها الشيخ محمَّد عبده ليس كغيره من المنشئين الذين نعرفهم. ثمّ نُفِي العرابيّون إلى خارج القطر سنة ١٨٨٣ فورد منهم بيروت الشيخ محمَّد عبده وابراهيم أفندي اللقاني، وعدد من ضباط الجيش المصري أحفظ من أسمائهم مصطفى بك عبد الرحيم وأحمد بك عبد الغفّار وحسن بك جاد ومحمَّد بك الزمر وخضر بك، وغابت عنِّي أسماء الباقين، وكلّهم بين أميرالاي وقائمقام وقائد ألف. وكنت في ذلك الوقت أحصّل العلم في مدرسة الحكمة. ولمّا دخلتُ في سنة ١٨٨٥ قرأتُ في مجلّة «الطبيب» التي كان ينشئها الشيخ ابراهيم اليازجي والدكتوران بشارة زلزل وخليل سعادة خبر صدور جريدة في باريس اسمها «العروة الوثقى» من قلم السيّد جمال الدين الأفغاني والشيخ محمَّد عبده. وكنت بدأت أسمع بأسم الأفغاني. وكانوا يقولون إنّ أديب اسحاق هو ممن أخذوا عنه، وفي هاتيك السنة توفيَ أديب اسحاق واهتزَّ عالم الأدب لموته، وكنّا أصبحنا يومئذٍ في المدرسة مغرمين بأخبار الكتّاب والشعراء

* ينظر رضا، محمَّد رشيد. تاريخ الأستاذ الإمام. القاهرة: مطبعة المنار ١٩٣١ ص ٣٩٩ ـ ٤١٥.

والأدباء لا يهمّنا شيء أكثر من هذا، فكنّا نرى الدنيا كلّها نظمًا ونثرًا، وكان كلّ ما خرج عن الإنشاء والشعر والأدب لا نكاد نقيم له وزنًا. فلمّا سمعنا أنّ أديب اسحاق كان يغترف من بحر الأفغاني صرنا في شوقٍ زائد إلى معرفة الأفغاني نفسه وإلى معرفة تلميذه ورفيقه الشيخ محمَّد عبده.

ـ أول عهد الإمام محمّد عبده بالأمير شكيب

ولم تمضِ أشهر حتّى سمعنا أنّ الشيخ محمَّد عبده عاد من باريز إلى بيروت. وكان أهل الفضل في سورية بدأوا يعرفون قدره، وكثر تردّد الناس عليه ولهجهم بذكره، ومرّة زارنا في المدرسة الأستاذ الشيخ سعيد الشرتوني صاحب «أقرب الموارد» فسألته عنه فقال لي: هذا الرجل إذا تكلّم يخرج النور من فيهِ. فازداد تشوّقنا إلى معرفته. وفي أواخر سنة ١٨٨٦ جرت حفلة بمدرسة الحكمة كان الأستاذ الشيخ محمَّد عبده من جملة المدعوّين إليها. فهذه أول مرّة شاهدته فيها، وبعد ذلك شاهدته في احتفال آخر السنة بالمدرسة الكلّية الأمريكانية، وكان معه الشيخ عبد القادر أفندي القبّاني صاحب جريدة «ثمرات الفنون» وأحد أعيان بيروت المشار إليهم بالبنان، وكان صديقًا للأستاذ الإمام، وكنتُ أعرفه فقدّمني إلى الأستاذ وسلّمتُ عليه فظهر لي أنه كان يعرف اسمي لأني أنا لذلك العهد كنتُ أنظم وأنثر، وصارت لي قصائد منشورة في الجرائد، فأتذكّر أنه قال لي: «أنتَ ستكون من أحسن الشعراء». فأخذنا من ذلك الوقت نزور الشيخ إلى منزله. وكان يسكن في حيّ زقاق البلاط قريبًا من منازل آل حمادة وآل القبّاني، ويسمر كلّ ليلة في دار الحاج محيي الدين حمادة رئيس البلدية وعميد بيروت في وقته، فكنّا نحن وكثيرون نقصد السمر هناك لسماع أحاديث الأستاذ. وقد انطوى أكثر من كانوا ينتابون ذلك المجلس من الأعيان والفضلاء، ولم يبقَ منهم إلى اليوم فيما أعلم سوى الوجيه الكبير الفاضل الجليل الشيخ عبد القادر أفندي القبّاني، والفاضل الأديب الشيخ محمَّد اللبابيدي. وزارنا المرحوم الأستاذ في منزلنا بالجبل وتعرّف إلى والدي (رحمه الله) وسرَّ والدي كثيرًا بمعرفته، وقدره قدره، وصار لا ينزل مرّة إلى بيروت إلاّ يزوره. وكان الشيخ أيضًا يجلّ والدي كثيرًا وقال للأستاذ الشرتوني عنه: إنّه أعقل من رأيت من أمراء الجبل. ولمّا توفيَ والدي إلى رحمة ربّه في أواخر سنة ١٨٨٧ كان الشيخ من أشدّ الناس عليه حزنًا ولنا مؤاساة ومؤازرة.

- فوائد أهل سورية من وجود الأستاذ الإمام فيهم

وكان الشيخ (رحمه الله) يقرأ التوحيد والفقه في المدرسة السلطانية في بيروت فحضرتُ عليه أنا والمرحوم أخي نسيب درس مجلّة الأحكام العدلية، وأمّا تلاميذه في التوحيد فأذكر منهم أخاه حموده عبده الذي كان نبيهًا، وكان الشيخ يتوسّم فيه الخير، والسيّد عبد الباسط فتح الله الذي هو من أنبغ خرّيجي الأستاذ الإمام وأجل من أخرجته بيروت في هذا العصر، وكلّ منهما قد لقيَ ربّه.

وكانت فائدة مقام الشيخ ببيروت عظيمة لأهل سورية فإنّه ما مضت مدّة إلاّ وقد أصبح منزله بصورة دائمة تقريبًا غاصًا بالزائرين الذين كانوا يقصدون إلى حضرته لمجرّد الاستفادة من محاضرته، والالتقاط من درره، وصار للناس ولوع به، فكنت تراهم يحفظون من كلامه ويقلّدونه في لفظه، ويتابعونه في رأيه، وإنّ كثيرًا من الأفكار والمبادئ والألفاظ والجمل السائدة الآن في برّ الشام هي من بقايا آثار مجالس الشيخ محمَّد عبده، لا شك في ذلك، وإن كان الآن قد خفيَ أصلها، وانطوت نسبتها[1] .

- مجالس الإمام ببيروت مع رؤساء الملل والنّحَل وإفحامه للملاحِدة

وأجمع السوريون على إجلاله والولوع به إجماعًا لم يقع مثله لأحد، فكنت ترى جميع الفرق والنّحل والطوائف بدون استثناء تزدحم حول ذلك المنهل العذب، وكان هو بسعة عقله وعلو إدراكه وإحاطة نظره يتفاهم مع كلّ قبيل منهم، كأنه نشأ فيهم ولم يعرف سواهم، ونظرًا لكثرة تردّدي عليه أقول إنّي أعلم من هذا الأمر ما لا يعلمه غيري، فطالما لقيت بمجلس الأستاذ أصناف الملل والنحل وهي تفهم منه وهو يفهم منها، وتجلّت لي هذه المسئلة (عظمة الفلسفة) بين العلوم وكيف أنها تسهّل فهم كلّ شيء، ومزية الأدمغة التي حشوها الحكمة وطرازها التصوّف، وظهرت لي محاسن الأنظار الشاملة التي أفقها أوسع وأعلى من سائر الآفاق. فقد كان يجتمع بحضرته علماء السنّة ومجتهدو الشيعة وعقال

(١) يقول محمّد رشيد رضا: ممّا يدلّ على قول الأمير شكيب هذا ما حدّثني به الأستاذ الإمام قال: ألقيت مرّة خطابًا في حفلة عامّة جعلت موضوعه (العلم للإسعاد كلمة الله للإيجاد) فجاءني بعد زمن قسّيس سوري من المعلمين في إحدى المدارس بمقالة لخّص فيها ذلك الخطاب وقال أرجو أن تصحّح لي هذه المقالة فإنني أريد نشرها فصحّحتها له وحذفت منها عنوانها الذي هو (العلم للإسعاد كلمة الله للإيجاد) وقلت له اختر لنفسك عنوانًا غير هذا، قال هذا عنوان عظيم لا يمكن تغييره، قلت إذًا لا آذن لك بنشر المقالة فإنّها كلّها من كلامي وقد صحّحت لك ما أخطأت فيه من نقله، واستبقيت لنفسي هذه الكلمة فلم تطب نفسي بالسماح لك بها فإن لم ترضَ بذلك فما أنا بالذي يسمح لك بشيء من المقالة، قال رضيت.

الدروز، وإلى جانبهم أساقفة النصارى وأحبارهم من كلّ فريق منهم، وكانوا يرون التردّد عليه أمرًا طبيعيًّا، ويجدون فيه مرجعًا عامًّا.

ثمَّ إنّه لم تكن تلك المجالس تخلو من المباحثات الدينية، ومن الخوض في أمور كلّ هؤلاء الناس مختلفون فيها، وكان الشيخ يجول فيها، ويأخذ ويعطي ويشرح ويوضح على عادته، وينتهي الأمر بأنّ الجميع يكونون على وفاق، وأنّ كلّ فئة منهم ترى أنّ الشيخ قد فهم ما أرادت، وأنها هي قد فهمت ما أراد.

وأغرب من هذا أنّ ذلك المجلس لم يكن يخلو من الملاحدة والمعطلة الذين كانوا يقصدون إلى مجلس الأستاذ ليسمعوا أقواله في الإلهيات والأديان، ويروا ما عنده في الخالق والمخلوق وأشباه هذه المباحث، فكان الأستاذ يناظرهم بكلّ تؤدة، ويحل لهم المشكلات التي كانوا إذا سألوا عنها غيره من العلماء أعجزهم الجواب عنها، فكنت تراهم منصتين إليه حيارى أمامه، لا يدرون ماذا يقولون، مع أنهم يكونون قبل حضورهم في مجلسه قد آلوا أنهم يعجزونه كما أعجزوا غيره. وبالاختصار لم أعلم أحدًا تمكن من أن يبدي أمامه في باب الجحود أكثر من اعتراض أو اعتراضين، ثمَّ لم يلبث أن وقف حماره في العقبة، وخرج من حضرة الشيخ إمّا راجعًا إلى الإيمان بالغيب، أو باقيًا على جحوده مع الإعتراف بالعجز عن الأخذ والردّ مع هذا الربّاني المنقطع النظير.

ومن أسرار عبقرية الشيخ في العلم والأدب أنه كان يتجنّب كلّ التجنّب انتقاص مذهب من المذاهب أو عقيدة من العقائد التي أصحابها من عمار مجلسه وإن كانوا مخالفين له في العقيدة، وكان من الكياسة وحسن المخالقة بحيث لا يسمع منه أحد من هؤلاء كلمة واحدة تسوءه أو تشير إلى تخطئة مذهبه، أو إظهار ما في الإسلام أو ما في مذهب أهل السنّة والجماعة من الفضل عليه. ولكنه من المحقق أنّ جميع عمار ذلك المجلس كانوا لا يخرجون منه إلاّ وفي أنفسهم إمّا ميل أكيد للإسلام، وإمّا تقدير عظيم لمزايا الدين الإسلامي - برغم الاعتقاد بغيره.

- أسلوبه في إعلاء شأن الإسلام عند النصارى وغيرهم

وقد طال عجبي من هذا الأمر حتّى لم أملك نفسي أن كاشفت الأستاذ مرّة بما لحظته من هذا التأثير، فضحك (رحمه الله) كثيرًا إلى أن بدت نواجذه، وعلم أني أدركت هذا

السر وقال لي: نعم وأنا أيضًا أشعر بما تشعر به، فقد قلتُ له: مالي أرى كثيرين من المسيحيين الذين أعرفهم معجبين أشدّ العجب بملّتهم، محتقرين للإسلام في أنفسهم، قد عادوا بعد أن عاشروك يذكرون الإسلام بإجلال لم يكونوا يذكرونه به من قبل، ومنهم من أخاله قد تحوّل مسلمًا في ضميره ولو لم يعلن ذلك؟ [1]

فالشيخ قدّس الله روحه لم يكن يتعمّد لا تصريحًا ولا تلويحًا أن يُظهر لغير المسلمين من زوّاره وسماره شيئًا من فضائل الإسلام أو من خصائص القرآن [2]، بل كان يتنكّب طريق الجدل معهم، والتعرّض لأي شيء يؤخذ منه الردّ عليهم، وإنّما كان يقول ما يعلم من القضايا التي يسئل عنها، ويفيض في شرح الغوامض وحلّ المشكلات بالطريقة التي لم يعهدوا مثلها والتي عمدتها الفلسفة الإسلامية، فكان مجموع كلامه يؤثّر فيهم، ويعلي مقام الإسلام في نظرهم، ويريهم أنهم لم يكونوا يعرفون عن الإسلام شيئًا تقريبًا،والحقيقة أنهم كانوا يتصوّرون الإسلام بالصورة التي تركتها في أذهانهم كتب الإفرنج من تأليف الفئة المتعصّبة، وهي الكتب التي لم يكونوا يقرءون غيرها في مدارسهم في هذا الموضوع، وكانوا إذا اختلطوا مع المسلمين لم يجدوا منهم إلاّ عاميًّا جاهلاً، أو شيخًا جامدًا لا يعرف من الاسلام إلاّ قشوره، فكانوا يظنّون أنّ الإسلام هو هذا، ويقيسونه على الذين تمثّل فيهم ممن لم يعرفوا سواهم ولم يحتكّوا بغيرهم.

- حال علماء المسلمين في سورية عند قدومه إليها وحاله معهم

وربّما وجد في البلاد فقهاء وعلماء أجلّة من المسلمين ولكنّه كان يغلب عليهم الجمود أحيانًا، وكان منهم من يخشى العامّة فلا يتجرّأ على تخطئة خرافات الحشوية علنًا، وأكثرهم لم يكن له اختلاط بالمسيحيين ولا وقوف على أحوالهم، وإذا راجعه أحد من هؤلاء في شيء لم يكن إلاّ لاستفتائه في مسألة من مسائل الحقوق أو المعاملات الدنيوية. فالعشرة بين الفريقين كانت محدودة جدًا، ودائرة الاختلاط كانت ضيّقة، والجمود كان غالبًا على علماء الإسلام هؤلاء، والمبادئ الحشوية كانت مستفيضة فيهم.

على مثل هذه الحالة قدم الشيخ محمَّد عبده إلى بيروت وظهر فضله وسطعت شمسه، فاختلط به أدباء المسيحيين وعلماؤهم ورؤساؤهم فرأوا منه غير من عرفوا إلى

(١) أظنّ أنا أنّ من هؤلاء الشيخ سعيد الشرتوني وسأنشر من مكتوباته ما يشعر بذلك ولا سيّما تقريظه لرسالة التوحيد.

(٢) بل كان يتعمّد الاّ يظهره وهو يقصده.

ذلك العهد، وبعد أن كانوا يرون في الإسلام شيخًا معمّمًا قصير أمد الفكر، أو بالكثير فقيهًا جامدًا متورعًا، صاروا يرون فيه بحسب تمثيل الأستاذ الإمام إيّاه فقيهًا نيّرًا وفيلسوفًا كبيرًا واجتماعيًا محنّكًا، وهناك شاهدوا الإسلام كما كان عليه مثل الغزالي، أو كما كان عليه ابن رشد، وكما كانت عليه تلك الطبقة العليا.

وكما أنّ المسيحيين في سورية شاهدوا من الشيخ عالمًا مسلمًا لم يعهدوا نظيره، كذلك المسلمون أنفسهم على اختلاف طبقاتهم كانوا مقرّين بفضله، موفرين لقدره، وكان ناشئتهم معترفين بأنّ هذا الأسلوب أسلوب لم يعرفوه من قبل. وقد كان الأستاذ يجلّ من علماء سورية بنوعٍ خاص الأستاذ الشيخ حسين الجسر الطرابلسي، رحمه الله، لأنه كان عالمًا مفكّرًا واسع النظر مهتمًا بالجمع بين الشريعة والأوضاع العصرية، وطالما سمعت من فمه الثناء على الأستاذ الجسر كما أنّ الأستاذ الجسر كان معجبًا جدًا بالشيخ محمَّد عبده معترفًا بعبقريته. وقد ذكر لي ذلك إحدى المرار، ولم يأخذ عليه إلاّ شيئًا من حدّة المزاج. فقد كان الشيخ يومئذٍ لم يتجاوز الثامنة والثلاثين من العمر، وكان من أصله عصبي المزاج، سريع الانفعال، مرهف الإحساس، فربّما جرى لسانه بسائق التأثير بما لم يكن يجري به لو لم يكن متأثّرًا.

وفي سنة ١٨٨٩ ذهبتُ إلى دمشق وكنت في السنة التاسعة عشرة من العمر فحضرت مجلس مفتي الشام العلاّمة الشيخ محمَّد المنيني ففي أثناء الكلام جرى ذكر الشيخ محمَّد عبده وكان المفتي يعرفه فأثنى عليه كثيرًا وقال ما معناه أنه مع العلم الوافر متّصف بالكياسة والرقّة، جامع بين أدب النفس وأدب الدرس، يشبه في هذا أكابر علماء الشام واستانبول.

- الانتقاد عليه بحدّة الطبع فقط، وسبب انحراف بعض الناس عنه

وقد زار الشيخ إذ هو في بيروت كثيرًا من حواضر سورية ومدنها كدمشق وطرابلس وبعلبك وصيدا والقدس وغيرها وكان أينما حلّ معزّزًا مبجّلاً محفودًا محفوفًا بالمستفيدين. وكانت أخلاقه تسير جنبًا إلى جنب مع معارفه، فكان مثالاً للعلم مع العمل، ولم يقدر أحد مع كثرة اختلاطه بالناس أن يجد في شيء من أعماله مطعنًا أو مغمزًا، أو يلحظ منه ما يخلّ بالوقار أو الكرامة أو الحشمة، بل كان له من الهيبة والجلالة ما لم يكن إلاّ لكبار الشيوخ من المعمّرين مع أنه كان شابًا. ولم تكن هذه الجلالة التي فيه ناشئة عن

سعة علمه فقط، بل كانت أثر مجموع خصاله الباهرة من العلم المقرون بالطهارة، ومن الذكاء المزدان بالعفّة، ومن الفصاحة المتحلّية بالاحتشام والورع، فكان التناسب في خصاله تامًا، وكان عظيمًا من كلّ جهة. ولقد كان المختلطون به بصورة دائمة عددًا لا يكاد لا يحصى من كلّ الطوائف، ولم أعلم أحدًا من جميعهم قدِر أن يقول فيه كلمة سوء، أو أن ينتقد منه قولاً أو عملاً يخلّ بالكمال، وهو لا يكاد يوجد وحده إلاّ في وقت النوم. فأمّا في سائر أوقاته فقد كان محاطًا بالزائرين. فالذين طعنوا فيه إن كانوا طعنوا عن جهالة بدون عمد أو عن نبأ لم يتبيّنوه فسامحهم الله، وإن كانوا طعنوا عن حسد أو شنآن حملهم على القول بغير علم أو بما لا يعتقدون فحسبهم الله.

وقد سمعتُ في تلك الأيام بعض أناس يجهرون بعداوتهم للشيخ لكنّهم لم يكونوا يطعنون في أخلاقه ولا في دينه ولا في أدبه، وغاية ما كان ينسب إلى الشيخ من العيوب، وجلّ من لا عيب فيه، هو الحدّة فقط، وهو عيب أستاذه السيّد جمال الدين فقط. وقد كان تأهل من بيروت وأهله هي كريمة الحاج سعد حماده أخي الحاج محيي الدين حماده، فكانت صلته بهذا البيت تحمله في المنافسات والمخاصمات السياسية المحليّة على الذبّ عنهم بفصاحته وقوة حجّته، مع اعتقاده التامّ بنزاهة مقصده، فكان يتحمّل بسبب هذه النصرة لهم شطرًا من إصر العداوة وتوابعها. وكان بعض الساخطين من أجل ذلك يقولون ما للشيخ وللتدخل في هذه الأمور التي لا تعنينا إلاّ نحن أهل بيروت فكان الأولى به أن يبقى فوق هذه الأحزاب؟ ولم يكن أحد يزيد في انتقاده على كلمة أنه حاد المزاج، وكان والدي يقول لي إنّه لم يجد فيه إلاّ عيبًا واحدًا وهو أنّ لسانه حرّيف إذا غلب عليه الانفعال.

- مهابته وشممه وتواضعه ومحاضرته واعتدال معيشته في سخائه

ومن غرائب مزاياه أنه كان مع تلك المهابة التي فيه، وذلك الشمم الذي يتجلّى من جميع نواحيه، من أرق خلق الله طبعًا، وأعظمهم وداعةً وتواضعًا، وأحلامهم عشرة، وأحبّهم للفكاهة، وأطربهم للنكتة، وكان للنكات والنوادر من مجلسه نصيبٌ وافر. وكان للطرائف واللطائف من محاضرته حظٌّ سافر، ولكنّه لم يكن يشوب تلك الفكاهات كلمة بذيئة ولا لفظة ينبو عنها المجلس، ولا قصّة يشمئز ذو تربية حسنة من سماعها. فقد كان جلال الأستاذ لا يفارق مجلسه أبدًا، وكان وقاره يرفرف على أحاديثه دائمًا. فهو نادٍ زاهر

إن عرف النكتة أو النادرة فلم يعرف قط اللغو ولا اللهو. وكان أحد أصدقائه الأجلاّء من أعيان بيروت قد تعوّد أن يتلفّظ بالسوءات كما هي ولا يذهب فيها مذاهب التورية فكنت أرى الشيخ يتقزّز من سماع ذلك ومرارًا صرّح أمامي باشمئزازه من هذه العادة السيئة، التي تغلب على بعض الألسنة. فكان في هذا الأمر كثير الاستحسان لطريقة الدروز الذين كان العلاّمة كرنيلوس فانديك الأمريكاني الكبير يقول عنهم: تعاشر الواحد منهم خمسين سنة فلا تسمع منه ولا مرّة لفظَ سوءةً، ولا قصّة فيها شيء من الخلاعة. وكان المرحوم الأستاذ يستحسن جدًّا هذه المزية فيهم، ويُعجب بآدابهم في مجالسهم حتّى آداب العوام منهم[(١)].

ـ كياسته في تكريم زائريه وزيارة معارفه وإنزال الناس منازلهم

وكان الشيخ بسيط نوع المعيشة يكره السرف والترف إلاّ أنه كان سخيّ النفس كثير البرّ، ينفق ما بيده ولا يعرف للمال قيمة. وكان يمدّ سماط الأكل في محل الاستقبال ويدعو أي من حضر إليه، وكان يحب السخاء الدائم والسماحة الفطرية بدون تأنّق ولا تصنّع. وكان والده يرسل إليه ما يلزم لمعيشته فلم يحتج في أثناء وجوده في بيروت إلى شيء، ولا ضاقت ذات يده ولا مرّة، وكان يوازن موازنة تامّة بيت الراتب الذي يأتيه من أبيه وبين نفقاته فلا تجد بودجة أحسن انتظامًا من بودجته، ولذلك لم تكن تجده عائلاً أبدًا[(٢)] وكان يتصدّق على الفقراء ولا يردّ سائلاً، ومن مزاياه أنه كان لا يقبل من أحد شيئًا من شدَة أنفته، إلاّ الهدايا التافهة من خلصاء أصحابه لا غير.

وكان من السياسة والكياسة بالمقام الأعلى فلا تجد زائره ولا عشيره إلاّ راضيًا، ولم تكن تحمله شدّة الإلفة على إطراح التكلّف فقد كان يقوم حتّى لتلاميذه ومريديه، ودخلت عليه مرّة وكان عنده المرحوم منح بك الصلح فتمثّل واقفًا لي فقال منح بك: ما ظننت الشيخ يقف لك. فقال له: أنا لست ممن يقول إذا وقعت الإلفة، ارتفعت الكلفة.

ولم يكن يطرأ على بيروت أحد من معارفه أو من الأعيان المشهورين إلاّ وقام بسنة السلام عليه. وقد يجلّه ويحتفي به ولو كان مخالفًا له في العقيدة، ولم أجده احتفل بأحد

(١) ذكرتُ (أي: رضا) في حاشية قريبة أنه غلط في الإنكار على محمود كحيل من تلاميذ المدرسة أن رأى معه ديوان شعر فيه بيت في وصف الرِّدف وألقاه بعيدًا كالقذر.

(٢) ذكر لي رحمه الله أنّ أحد أصحابه المصريين توفي والده في بيروت فجاءه يقول إنّه ليس معه ما يجهّزه به بما يليق بكرامته وكان مع الأستاذ راتبه الشهري كلّه فبذله له كلّه. ولكنّه ما عتم أن جاءته حوالة برقية بمبلغ من المال أكثر منه كان دينًا له على بعض أصحابه قبل النفي وكان يمطل به ويسّوف.

أكثر من احتفاله بعبّاس أفندي البهاء رئيس البابيّة مع أنّ الطريقة البابيّة هي غير ما يعتقد الشيخ وهي الطريقة التي ردَّ عليها أستاذه السيّد جمال الدين ردًّا شديدًا، ولكنّه كان يكرّم في عبّاس أفندي العلم والفضل والنبل والأخلاق العالية[١] وكان عبّاس أفندي يقابله بالمثل، وكان ينصف الناس كثيرًا ولا يبخس أحدًا شيئًا من أشيائه، حتّى إنه ذكر لي مرّة ما يجده في نفسه من إنصاف غيره حتّى من أعدائه وقال لي: إني لأحسد نفسي على هذا الإنصاف.

ـ فراسته في الأمير شكيب وتربيته له

ومن بعد أن صرت من مريديه لم أسمع منه كلمة تقريظ لشيء من أعمالي أو أقوالي، بل كان إذا استحسن يسكت، وإذا استهجن ينبّه ويوقظ. وكان الواحد منّا يتجنّب أقلّ التسامح مع نفسه خوفًا من توبيخه لشدّة ما كنّا نوقره ونهابه.

وكان من أصدقائه الدكتور ابراهيم صافي وهذا لم يكن طبيبًا شهيرًا فحسب، بل كان فاضلاً صدوقًا حسن العشرة، فكان الأستاذ يزوره في الأحايين وكنت أصحبه في هذه الزيارات، ففي إحدى المرار سأله صافي عن أدباء العصر ومن الجملة عن أديب اسحاق. فقال له عن أديب: هو كاتب لا بأس به، فقال له صافي: والشيخ ابراهيم اليازجي؟ فقال الشيخ: هو أكتب من أديب بكثير، بل هو أكتب المعاصرين فيما أرى، ثمَّ التفت صافي نحوي مبتسمًا وقال للشيخ: والأمير شكيب؟ فقال له: سيصير في المستقبل، فقال له صافي: أتراه سيكون مثل الشيخ ابراهيم اليازجي؟ فقال له الشيخ: لا، قال له صافي: ألا يقدر أن يكون مثل ابراهيم اليازجي؟ فتبسّم الشيخ وقال: مرادي أنه سيصير أحسن ، أحسن. وهذه هي المرّة الوحيدة التي صرّح أمامي بتفاؤله بحقّي.

وقد نقلت هذه الجملة لأنها من كلماته لا ادعاء بأني جئت مصداقها، وكان في غالب الأحيان يبصّرني عيوبي وينبّهني إلى تلافي قصوري شأن الأب مع أبنائه.

ولم يكن يرغّبني في الشعر، وقد مدحته بقصائد هي في ديواني الأول المسمّى «بالباكورة» وقدّمت الباكورة نفسها له، وصدّرتها بقصيدة تقدمةً له[٢] ولم يُظهر لي الإهتمام بشيء من ذلك، ولم يستمطر عارضي في الشعر إلاّ مرّة واحدة وهي أنه كان

---

(١) قد علمت من الأستاذ الإمام أنه يعتقد أنّ عبّاس أفندي مسلم محب للإصلاح كما كان يظهر له عملاً بقاعدة التقيّة ولا سيّما عند أمثاله الباطنية. وكان عبّاس أفندي يصلّي مع الأستاذ الجمعة والجماعة وسأفصّل هذا في موضعه من هذا التاريخ.

(٢) سأنشر بعض هذه القصائد أو كلّها في الجزء الرابع المتمّم لهذا التاريخ إن شاء الله.

صديقًا للمرحوم عبد الله باشا فكري، وكان عبد الله شاعرًا ناثرًا، فأشار إليّ بأن أهديه الباكورة وأصحبها بأبيات بمديح عبد الله باشا، فنظّمت أبياتًا رائية بعثتُ بها إليه مع الديوان، فأجابني عليها من البحر والقافية بقصيدة رنّانة مثبتة في ديوانه.

وكان يقول: لا أقول الشعر، وإنما كان يعترف بالقصيدة الهائية التي قالها وهو في السجن على أثر الحادثة العرابية وأنا أحفظ منها:

مجدي بمجد بلادي كنت أطلبه   وشيمة الحرّ تأبى خفض أهليه

ومنها:

أحاول الصعب في رأيي فأدركه   ولا حسام ولا رمح أروّيه
وإنّما الفكر يغني نفس صاحبه   عن الجيوش إذا صحّت مباديه

- فهمه له للشعر وذوقه فيه وطربه بمطربه

ولم تكن رغبته عن نظم الشعر بالتي تمنعه من الاهتزاز لجيّد الشعر والافتتان بغُرر القريض. فقد كان يكاد يسكر من قراءة هذه الطبقة العالية من الشعر لا سيّما الشعر الجاهلي، وقرأ ديوان الحماسة في أثناء مقامه ببيروت فحفظ منه الكثير، وكان يبلغ من شفوف حسّه ورقّة شعوره أنه يعيد البيت الواحد مرارًا متعدّدة وهو يترنّم به ولا يرتوي منه، وأحسبه قد فعل في نفسه سحر البيان ما تفعله الألحان في السامع، أو بنت الحان في الكارع[1] ولشدّ ما كان يعجبه:

إذا هزَّه في عظم قرنٍ تهلّلت   نواجذُ أفواهِ المنايا الضواحك

---

(١) يقول محمَّد رشيد رضا: أمّا دقّة فهمه وذوقه للشعر فهو من دقّة فهمه للعربية وإتقانه لآدابها. وأمّا تأثيره في نفسه فهو من رقّة شعورها وصحّة وجدانها. وكنت في بعض المناسبات أذكر له بعض الشعر المؤثّر في النفس فلم أره اهتزّ لشيء هزّته لقول بثينة إذ نعى إليها جميل. ذلك أنّ جميلاً لمّا حضره الموت أعطى رجلاً حلة له وأمره بأن يسافر إلى ربع بثينة ويقف عند بيتها وينشد:

صرح النعيُّ وما كنى بجميل   وثوى بمصر ثواه غير قفول

فلمّا سمعته بثينة لم تملك نفسها أن خرجت حاسرة وقالت له: يا هذا إن كنت كاذبًا فقد فضحتني، وإن كنت صادقًا فقد قتلتني. فأخرج لها الحلة فانصرفت وهي تقول:

وإن سلوي عن جميل لساعة   من الدهر لا حانت ولا حان حينها
سواء علينا يا جميل بن معمر   إذا مت بأساء الحياة ولينها

فاهتزّ الأستاذ لسماع هذا النثر والنظم وتغيّر وجهه ثمّ صار يردّد البيت الثاني مرارًا وفاقًا لما روى الأمير عنه.

وقوله:

فخالطَ ملسُ الصخرِ لم يكدحِ الصّفا ... به كدحةً والموتُ خزيانُ ينظرُ

وكان يعجبه في التشبيب قوله:

وقربن أسباب الهوى لمتيّم ... يقيس ذراعًا كلّما قسن أصبعا

وقوله:

أحقًّا عباد الله أن لست ذاهبًا ... ولا جائيًا إلاّ على رقيب

- دقّة فهمه للشعر البليغ وسلامة ذوقه له

وكان يفضّل محمود سامي البارودي على جميع الشعراء المعاصرين ويقرنه إلى كبار المتقدّمين. وهو الذي دلّنا على شعره وعرّفنا بمقامه وأطلعنا على «الوسيلة الأدبية» للمرصفي فحفظنا ما فيها من قصائد محمود سامي باشا البارودي. وأمّا مراسلاتي الشعرية مع محمود سامي فيما بعد أيّام كان منفيًّا بسيلان، ثمَّ بعد العفو عنه وإيابه إلى مصر فقد كانت بعد أن برح الأستاذ بيروت وعاد إلى مصر. وكان محمود سامي من أحب الناس إلى قلب الشيخ[1] فلم أعلم أنه كان يذكر أحدًا من أقرانه بعاطفة حبّ كما كان يذكر محمود سامي رحمهما الله وكان يتأوّه على غربته ونكبته ما لا يتأوّهه على أحد. ومرّة كنّا راجعين من إحدى السهرات في القاهرة وذلك سنة ١٨٩٠ عندما زرته إلى مصر فمررنا أمام دار فيحاء فوقف ونظر إليها وقال لي: هذا بيت صاحبنا، وتنهّد عند هذه الكلمة تنهّدًا عميقًا فسألته: دار مَن هي؟ فقال: محمود سامي. وكأنه تنهّد لا على غربة محمود سامي فقط، بل على غربة مصر كلّها واحتلال الأجنبي لها.

وكان أيضًا شديد الحب لعبد الله باشا فكري لا يفتأ يذكر محامده ومتانة دينه ورقّة أخلاقه ويحفظ من شعره ويعجبه منه قوله خطابًا للخديو توفيق:

ولو شئت كانت لي زروع وأنعم ... ومال به الآمال أقتادها قسرًا

ولكنّها نفس فدتك أبيّة ... تعاف الدنايا أن تمر بها مرّا

(١) والحديث عن محمَّد عبده.

وكان يروي أنّ محمود سامي وعبد الله فكري كانا يتساجلان في إحدى السهرات فكان أحدهما يقول شطرًا والآخر يقول الثاني فقال أحدهما:

«وترى المجرّة في السماء كأنّها»،

فقال الآخر: «رزٌّ تبعثر في طريق المحجر»

ـ تحسّره على فساد طريقة التعليم الإسلامي في الأزهر وغيره

وطريق المحجر طريق واسعة معروفة بمصر. وكان يروي لنا نوادر كثيرة عن مصر وأدبائها وعلمائها ورجالاتها حتّى صرنا كأننا في مصر ونحن بعد لم نعرف مصر. وممن كان الشيخ يجلّهم كثيرًا الأستاذ الشيخ محمَّد المهدي العبّاسي شيخ الأزهر فقد كان ينوّه باستقامته وعدم محاباته في الدين. وكان يجلّ الشيخ حسونة النواوي والشيخ حسن الطويل ولكنّه بالإجمال كان يكره طريقة التعليم بالأزهر ويذكر مساويها ويتأوّه من اشتغال الطلبة هناك بما يسمّونه «بعلم الكرّاس» وما أكثره في وجوه الاحتمالات، وفي تأويل العبارات، ممّا أضاع أوقات الدارسين فيما لا فائدة فيه. وبقي ينوح على حالة التعليم في الأزهر ويندب جمود العلماء الذين فيه وعقم طريقتهم إلى أن صار هو صاحب نفوذ في مشيخة الجامع فأصلح من ذلك بقدر استطاعته.

ولمّا زرته في مصر سنة ١٨٩٠ قال لرفيقه وخليله الأستاذ الشيخ عبد الكريم سلمان بأن يذهب معي إلى كبار مشايخ الأزهر كالشيخ العبّاسي والشيخ الإنبابي والشيخ عبد القادر الرافعي حتّى أتعرّف إليهم فلمّا زرنا الشيخ الإنبابي وجدنا عنده عالمًا اسمه الشيخ الظواهري. فلمّا ذكرالشيخ عبد الكريم اسمي وقال إنّي من جبل لبنان قال هذا الشيخ المسمّى بالظواهري: وأين جبل لبنان هذا؟ أفي الغرب؟

فأجابه الشيخ عبد الكريم: بل في سورية. فأمّا أنا فكدت أصعق من الدهشة لجهل هذا الشيخ إلى هذا الحدّ معرفة البلدان. ولمّا رجعنا إلى البيت أخبرنا الأستاذ بما وقع فقال لنا: نعم وهذا الشيخ الظواهري الذي يجهل أين جبل لبنان هو من علماء الطبقة الأولى.

وهذا وأشباهه كان من أسباب نعي الشيخ على جمود العلماء الأزهريين ونفورهم من العلوم العصرية وحصرهم جميع قواهم العقليّة في دروس معلومة يجهلون كلّ شيء

سواها حتّى أصبحوا كأنهم ليسوا من أهل هذا العصر، بل ليسوا من أهل هذه الدنيا، وممّا جعله يتأوّه على فراش موته (رحمه الله) ويقول:

ولست أبالي أن يقال محمَّد	أبلّ أم اكتظّت عليه المآتم
ولكنّه دينٌ أردت صلاحه	أحاذر أن تقضي عليه العمائم

- رأيه في علم الأزهر وسائر المدارس الإسلامية

وكان جاء إلى بيروت الشيخ ابراهيم التادلي من أكابر علماء المغرب أدّى فريضة الحج أولاً ومن الحجاز جاء إلى القدس ثمَّ إلى بيروت حينما كان الأستاذ الإمام فيها، فذهب الأستاذ للسلام عليه وذهبنا معه أنا والأستاذ سعيد الشرتوني. ولم تكن لي ألفة يومئذٍ بلهجة إخواننا المغاربة فقلّما فهمت شيئًا ممّا كان الشيخ التادلي يقوله. وإنّما روى لنا الشيخ بعد انصرافه مآل حديثه، فقال لنا إنّه عالم على الطريقة المعهودة بالأزهر والتي ابتليَ بها العالم الإسلامي كلّه، فالأزهر والأمويّ والزيتونة وجامع القرويين كلّها واحد، ولم يفهم منه شيئًا جديدًا إلاّ أنه أعجبه من كلامه شيء واحد وهو أنّ الشيخ سأله: هل في المغرب اليوم مؤلّفون في أصناف العلوم المختلفة؟ فأجابه التادلي: نعم يوجد مؤلّفون في المغرب إلاّ أنّ العلم لا ينتشر بقوّة التأليف وإنّما ينتشر بقوّة التدريس وكثرة المذاكرة الشفويّة. فأستاذنا وجد هذا المعنى صحيحًا وقال لنا: هذا أحسن ما سمعته من كلامه. وثاني يوم قيل لنا إنّ الشيخ التادلي يريد أن يقرأ درسًا في الجامع العمري الكبير فأقبلت الناس لسماع درس هذا الشيخ المغربي الكبير، وذهبنا نحن مع الأستاذ ونحن نرجو أن نسمع شيئًا جديدًا أو بحثًا عائدًا إلى أمراض العالم الإسلامي الحاضر وطرق علاجها ممّا هو مقدّم على كلّ شيء، فإذا بدرس الشيخ التادلي في البسملة وما تضمّنته من العلوم والمعارف والفنون ممّا هو مستفيض في كتب علمائنا رحمهم الله وممّا لا شكّ فيه أنّ الأستاذ التادلي أتقنه إتقانًا تامًا ولكنّه دلّ على أنه غير مطّلع على أحوال زمانه ولا مكانه ولا عارف بما يوجبه الدين والعلم على العالم المسلم في مثل هذه الأحوال.

وكان الشيخ محمَّد عبده يسمّي هذا النوع حفظًا لا علمًا ويقول إنّ العلم الذي لا يمتزج بالنفس ولا يصير جزءًا من أجزائها لا ينبغي أن يسمّى علمًا.

وقد روى عنه الشيخ علي يوسف صاحب «المؤيد» مجلسًا جرى بينه وبين جمال

الدين أفندي شيخ الإسلام في الآستانة من جملة ما ذكر الشيخ فيه أنّ أمثال هؤلاء لا يقال لهم علماء، وإنّما يقال لهم حفّاظ لأنهم يحفظون عن ظهر القلب أصولاً وقواعد لا يطبّقون منها شيئًا على فروعها. وقال أيضًا: إنّه جاء في تعريف بعض السادة المالكيّة للعالم إنّه الخبير بأمور قومه المطّلع على أحوال زمنه. اهـ [انتهى كلام الأمير].

ملاحظة: أرسل إليّ الأمير[1] بعد هذا فصلاً آخر في شؤون الأستاذ الإمام وآرائه وأصدقائه وتلاميذه ولا سيّما سعد زغلول قد استفاد أكثره من زيارته لمصر التي أشار إليها آنفًا وسنذكره في موضعه اللائق به من هذا التاريخ. وموضوعنا في هذا المقصد بيان سيرة الإمام وعمله في سورية.

خاتمة هذا المقصد

(في سعيه[2] لإقناع الدولة العثمانية بالإصلاح وتعميم التعليم الديني مع التربية)

ذكرنا في أول هذا المقصد ما كنّا نشرناه في المنار ـ ثمَّ ما أشار إليه أخونا المرحوم السيّد عبد الباسط في فصله الذي نشرناه بعده ـ من أنّ الأستاذ الإمام كتب إلى شيخ الإسلام في الآستانة لائحة في الإصلاح والتعليم الديني، وأشرنا في الحاشية إلى نشرنا لهذه اللائحة في الجزء الثاني وهو (جزء المنشآت) ومن قرأ هذه اللائحة علم منها أنّ الأستاذ الإمام قد تجدّد له أمل كبير في إصلاح الدولة العثمانية من طريق التربية والتعليم، الذي لا يمكن الإصلاح إلاّ بسلوكه، ورأى أنه وصف لها ما هي مستهدفة له من الخطر على مقام الخلافة، ووحدة الأمّة، وقوّة الدولة، بفشو الجهل في المسلمين وفساد الأخلاق، وسريان شبهات الإلحاد، ثمَّ بنفوذ الأجانب وتأثير المدارس التبشيرية في البلاد، حتّى أنه خصّ المدارس العسكرية بالذكر فقال: (ص ٥٠٨، طبعة ثانية) «ولهذا رأينا كثيرًا ممن قرأوا العلوم في المدارس العسكرية وغيرها خلوا من الدين وجهّالاً بعقائده، منكبّين على الشهوات، وسفاسف الملذّات، لا يخشون الله في سرٍّ ولا في جهر، ولا يراعون له حكمًا في خير ولا في شرّ، وانحطّ بهم ذلك إلى الكلب في الكسب... إلخ».

---

(١) يعني محمَّد رشيد رضا بذلك الأمير شكيب أرسلان.
(٢) الهاء تعود للأستاذ الإمام محمَّد عبده.

إنّ الأستاذ لم يكتب لائحة واحدة في ذلك، بل لائحتين، كانَ سبب الأولى منهما صدور إرادة سلطانية لشيخ الإسلام بأن يؤلّف لجنة تحت رياسته لإصلاح جداول الدروس في المدارس الإسلامية وتقويمها حتّى تكون كافلة لجميع الوسائل الصحيحة لتعليم أولاد المسلمين وتلقينهم ضروريّات الدين الإسلامي وتربيتهم بالآداب والأخلاق الإسلامية على وفق الحقّ المطلوب، فافترض، أحسن الله جزاءه، هذه السانحة لتعليم الدولة ما هي في أشدّ الحاجة إليه من هذا الإصلاح، التي لا يرجى لها بدونه بقاء، فبيّن لشيخ الإسلام ولجنته سوء حال المسلمين في هذا العصر، وما استحوذ عليهم من الفساد والجهل، ووصف سوء حال المكاتب والمدارس الإسلامية في بلاد الدولة، وسوء حال رجال العلم والدين فيها، (...)[1] آخر في بيان حال أهالي ولايتي بيروت وسورية. فتكلّم عن الطوائف النصرانية وميولهم إلى الدول الأوربية، وعن طائفة النصيرية، فالشيعة الإمامية، فدروز حوران، فالمسلمين من أهل السنّة، فأهل البادية من الأعراب المتنقّلة. وبيّن علاقة كلّ منهم بالدولة وما يجب من الإصلاح والتعليم في الجميع الذي تستقر به سلطتها في البلاد وتتّقي غوائل التعليم الأجنبي وما يتبعه من النفوذ السياسي.

ولو أنّ الدولة العثمانية عقلت تلك النصائح واتبعتها لصلحت البلاد، وارتقى العبّاد، وثبت سلطانها فيها، وانتقل نفوذها الديني والسياسي إلى غيرها. ولكن رجال الدين فيها كغيرها لم يكونوا يعقلون معنى لإصلاح مدني يستمدّ من القرآن ومن السنة الصحيحة ومن مراعاة سنن الله تعالى في الاجتماع البشري.

وأمّا رجال السياسة والإدارة فكانوا مفتونين بتقليد الإفرنج في معيشتهم وحربتهم وظواهر نظمهم، وإنّما كانوا يقلّدونهم فيما يسهل فيه التقليد كتقليد الطفل لمن يعظم في عينه من الرجال، وتقليد الأصاغر، لمن فوقهم من الأكابر، كالأزياء والعادات وشكل المدارس والدواوين، وقد ترجموا أكثر القوانين ولم يقيموا شيئًا منها، وأمّا العلوم والفنون والصناعات وطرق الثروة والنظم المالية فلم يتقنوا منها شيئًا. وقد آل الأمر بجهل الفريقين إلى زوال هذه الدولة من الوجود، وانحصار دولة الترك المغرورين في إمارة صغيرة فقيرة ضعيفة.

---

(١) إنّ هذه المقالة تنقصها صفحة هي تتمّة الصفحة الحالية، ولم يتمّ العثور عليها. لذا اقتضت الإشارة إلى ذلك، تماهيًا مع الأمانة الأدبية. (المحقّق)

وكان الأستاذ الإمام (رحمه الله تعالى) يخاف على الدولة هذه العاقبة السوءى[1] ويخاف سوء تأثير زوالها في البلاد الإسلامية، وقد صرّح في بعض مقالات العروة الوثقى بأنّ خروج القطر المصري من حظيرة سيادتها يفضي إلى ذهاب غيره، وأشار في هذه اللائحة إلى الخطر عليها من جهة فساد التربية وإهمال التعليم الديني وحلول التعليم التبشيري محلّه والنفوذ الأجنبي، وقد سألته سنة ١٣١٥ عن رأيه فيها فقال إنّها سياج للمسلمين في الجملة فيجب عليهم أن يعملوا لأنفسهم قبل زوال هذا السياج الضعيف وإلاّ صاروا أسوأ حالاً من اليهود، فإنّ اليهود قد تعوّضوا من فقد الملك والدولة بما أوتوا من الثروة العظيمة... إلخ، وسأعود إلى بيان هذا في الموضع اللائق به من هذا التاريخ.

(١) السوءى: السوءاء.

كوارث سورية في سنوات الحرب★

من تقتيل وتصليب ومخمَصة[1] ونفي مشاهدات ومجاهدات شاهد عيان، هو الأمير شكيب أرسلان

(١)

ـ مقدّمة لمحمّد رشيد رضا صاحب المنار

قد التقينا في أوربة بصديقنا القديم الأمير شكيب أرسلان الشهير بعد افتراق بضع سنين وكثر اجتماعنا به في جنيف (سويسري) بسبب الاشتراك في أعمال المؤتمر السوري الفلسطيني وفي سياحتنا معه في سويسرة وألمانية ـ وفي هذه الأثناء سمعنا منه أخبارًا تفصيلية لفظائع جمال باشا في سورية، وما كان من معارضته له بالحسنى ثمَّ بالمغاضبة، فتمنّينا لو تنشر هذه الوقائع لبيان الحقيقة التاريخية. فإنّ معرفة حقيقة تاريخ الأمّة هو الوسيلة الأولى للنهوض بها والصعود في مراقي الحياة بين الأمم، وضرر الجهل به والكذب فيه كضرر الجهل والكذب في بيان أحوال المريض وأعراض أمراضه للطبيب الذي يعالجه. وقد كانت الحقائق التي سمعناها منه ومن غيره في أوربة مؤيدة لرأينا في جمعيّة «الإتحاد والترقّي» وفي تأثير سياستها في الأمّة التركية والدولة الألمانية، كما سنبيّنه في التعليق على هذا المقال بعد، ولرأينا في الأمير شكيب نفسه أيضًا، وهو ما نبيّنه في هذه المقدّمة:

الأمير شكيب من أشهر كتّاب سورية وأدبائها، بل لا أبالغ إذا قلت إنّه لا يُلزُّ به قرين منهم في مجموع مزاياه كجَولان قلمه في جميع ميادين المنظوم والمنثور، والوقوف على دقائق السياسة وشؤون الاجتماع والعمران ـ وفصاحة اللسان في الخطابة والمناظرة. وله في الكتابة السياسية والاجتماعية أسلوب خاص يشبه أسلوب الحكيم ابن خلدون، وكانت سياسته الوطنية السورية محصورة في وجوب الإخلاص للدولة العثمانية مهما يكن حال سلطانها ورجالها في إدارتها وسياستها لاعتقاده أنه إذا زالت سيادة الدولة عن وطنه الخاص

★ المنار ج٢٣ (١٩٢٢) ص ١٢١ ـ ١٣٤، ٢٠٢ ـ ٢١٢، ٢٩٠ ـ ٢٩٩، ٣٧٣ ـ ٣٨٢، ٤٥٩ ـ ٤٦٦، ٥٤٨ ـ ٥٥٢.

(١) مخمصَة: مجاعة.

(لبنان) وسائر سورية وسقط تحت سلطة دولة أوربية فإنّه يذلّ ويخزى. وكان له خصوم كثيرون في سياسته هذه، أكثرهم من نصارى الجبل المشايعين لبعض الدول الأوربية، ومبغضون آخرون لا مثير لبغضائهم إلاّ الحسد أو التعصّب الديني أو المذهبي. وهو من مريدي أستاذينا موقظَي الشرق الأستاذ الإمام المصري محمَّد عبده والسيّد جمال الدين الأفغاني، وله غيرة على دينه الإسلامي ودفاع عنه لا يطيق صبرًا على من نال منه بلسانه أو قلمه، على أنه لطيف التساهل، فَكِه المعاشرة، وله أصدقاء كثيرون في بلاده السورية وفي مصر الآستانة وأوربة مختلفو الملل والأجناس، ولكنّه حديد المزاج، ألدّ الخصام، فهو كما قال ابن دريد:

سهل إذا لوينتُ لَدْنٌ معطفي ... أَلْوَى إذا خوشنتُ مرهوب الشَّذى

ولهذا يبالغ في ودِّه أصدقاؤه، يغلو في عداوته خصماؤه. وإنّما شذاه في نضال الأعداء، هو ما يعهد في مجادلة الأدباء ومجادلة العلماء، لا يكاد يعدو كلوم الكلام، بوخز أسلات الألسنة وأسنّة الأقلام، فهو أديب متديّن ينفر من الاعتداء على الأنفس والأموال، وشجاع يترفّع عن دنيئة السعاية والإغراء.

وقد كان الكثيرون من الناس يزعمون أنه ليس له مبدأ أو مذهب في السياسة ثابت، وإنّما يدهن للدولة ولكبراء رجالها لأجل المنفعة، وأكثر هؤلاء من حسّاده أو مخالفيه في مذهبه السياسي، وبعضهم ممن كانوا ينكرون عليه مشايعته للحميديين في عهد عبد الحميد الذي كان يطريه بالنظم والنثر، ثمَّ مشايعته للاتحاديين عندما صاروا في الدولة أصحاب النهي والأمر، وأنه لم يكن من طلاّب الإصلاح للدولة في جملتها، ولا لبلاده السورية أو العربية في خاصّتها. وعندي أنّ مثله في هذا كمثل مسلمي مصر والهند وغيرهما من الأقطار البعيدة يريد من مشايعة من بيده زمام الدولة تأييدها على الأجانب، لا الرضى بسوء الإدارة أو السياسة. وقد كنت أنا من هؤلاء المنكرين عليه تشيّعه للاتحاديين ودفاعه عنهم على علمي بما ذكرت من مذهبه السياسي في تفضيل الدولة على جميع الأجانب وإيثارهم عليها مهما تكن حالها، لأنني كنت على هذا المذهب منذ عقلت السياسة ولا أزال عليه مثله. وقد كان سيِّئ الظن بحزب اللامركزية العثماني الذي كنت أحد مؤسّسيه، وطعن في هذا الحزب حتّى نالني من طعنه بالباطل ما نالني، على ما كان يحمد من خدمتي للإسلام وإخلاصي للدولة، حتّى إنّه أطراني بمقال نشره في المؤيد بزعمه أنه إذا اختير من العالم

الإسلامي مئة ثمَّ من المئة عشرة، ومن العشرة واحد، لكنت ذلك الواحد! ولم أردّ عليه لعلمي بالشبهات التي مكّنت ذلك الظن السيّئ في نفسه.

ولمّا علم ما كان من أنباء تنكيل جمال باشا بالسوريين في أثناء الحرب، أشيع أنّ الأمير شكيبًا معه وأنه مساعد له على سياسته الطورانية في سورية، لشبهات روّجها أعداؤه وحسّاده حتّى صدّق التهمة غيرهم، ولمّا علمنا منه أخيرًا أنّ الأمر بضدّ ما قالوا اقترحنا عليه أن يكتب لنا مذكّرة بما سمعناه منه أو مقالاً فيه لننشره في المنار إنصافًا له وللتاريخ، وقطعًا لألسنة المنقولين، فأجاب طلبنا معتذرًا عمّا استلزمه من تزكية المرء لنفسه، وقد نهى الله تعالى عنها، وقد جاء ما كتبه رسالة طويلة فجعلناها عدّة فصول، وضعنا لها عناوين من عندنا واختصرنا قليلاً منها، ومنه اعتذار الكاتب وهضمه لنفسه في فاتحتها، وها نحن أولاء ننشرها تباعًا، قال الكاتب[1]:

١ـ التأليف بين السوريين واستعطاف الدولة على النصارى منهم

عندما نشبت الحرب العامّة وقبل دخول تركيا بها، بل أثناء تأهّبها للدخول كنت في الآستانة وكان قائد الفيلق العثماني في سورية الفريق زكي باشا فأبرق إلى أنور باشا ناظر الحربية يطلب تعجيل مجيئي إلى سورية لاحتياج الحالة إلى وجودي فيها يومئذٍ، فأشار عليّ أنور باشا بسرعة السفر وإفادته ما أراه مناسبًا من التدابير، فسافرت إلى سورية وبعد وصولي بمدّة دخلت الدولة في الحرب وحصل تخوّف عظيم لا سيّما عند إخواننا المسيحيين فتكلّم معي كثير منهم في خطورة مركزهم وما يخالج ضمائرهم فسكنت خواطرهم وأخذت على نفسي أنه لا يصيبهم أدنى سوء ما داموا هم ملازمين السكون والطّاعة للدولة. ثمَّ أخذتُ ألقي المواعظ على المسلمين وعلى غيرهم من الفرق الإسلامية ولا سيّما الدروز بموجب مصافاة المسيحيين وحسن معاملاتهم أكثر ممّا يَجب في كلّ وقت، وأظن أنّ ألوفًا من أهل جبل لبنان من كلّ طائفة يشهدون بذلك. ثمَّ أبرقت إلى أنور باشا بما عليه بطريرك الموارنة من الإخلاص للدولة وما لا يزال ينصح به طائفته من وجوب التمسّك بالتابعية العثمانية ويأمر به كهنته من الدعاء بنصر الجيش العثماني. وبرقيّتي هذه لا بدَّ أن تكون مسجّلة في سجلاّت بيت التلغراف في بيروت، فلا أستشهد بشيء إلاّ وشاهده حاضر لأيّ من أراد التحقيق.

(1) يقصد الأمير شكيب أرسلان.

٢ـ مسألة جمع أسلحة النصارى

استشارني زكي باشا القائد المشار إليه في جمع أسلحة النصارى بقوله إنّ عندهم في لبنان بنادق كثيرة، وربّما تنزل الأعداء عساكر في سواحل سورية فينضم النصارى إليهم. فحذّرته من هذا العمل قائلاً إنّه لا لزوم له ولا يكون له نتيجة سوى قلق الخواطر وسوء الظن بأنّ مقصد الدولة تجريدهم من السلاح لأجل الغدر بهم، فلم يكتفِ بملاحظتي الشفوية التي قلتها له في دمشق، بل أمهلني ريثما ذهبت إلى بيتي في جبل لبنان وحرّر إليّ كتابًا رسميًا طلب منّي فيه إذا كنتُ مصرًّا على عدم جمع سلاح النصارى أن أكفل عدم تحفّزهم لقيام ما على الدولة. فجاوبته بما يؤيّد كلامي له قبلاً وأكّدت له أنني أكفل بنفسي المسيحيين أن لا يأتوا بأدنى حركة على الدولة. ولأجل أن يزداد طمأنينة قلت له في جوابي على سبيل الفرض، إن بدا منهم شيء من هذا القبيل فإنّي أمشي عليهم بالدروز قبل أن يزحف العسكر العثماني. فسكت عن هذه المسئلة من بعد هذا الجواب. وكتابه محفوظ عندي ولا شكّ أنّ جوابي محفوظ في أوراق الحربية العثمانية. ولم أخبر بهذه المسئلة سوى بكر سامي بك الذي كان والي بيروت وقتئذٍ فصوّب رأيي هذا، وكذلك أسررت بها إلى صديقٍ حميم لي وهو الطيّب الذكر المطران باسيليوس الحجّار مطران الكاثوليك في صيدا وأوصيته جدًّا بكتمان هذا السر، لأنه من الأسرار التي يعاقب على إفشائها بأشدّ العقوبة فكتمه بالرغم منه لإقناعي إيّاه بالخطر على حياتي إذا علمت الحكومة العسكرية بأنني أطلعت عليه أحد، وكان يتلهّف إلى ساعة وفاته على كونه لا يقدر أن يخبر النصارى بما كنت أسعى به لأجل المحافظة عليهم، مع أنّ الكثيرين منهم يرمونني بخلاف ذلك تحاملاً وتعصّبًا.

٣ـ حمل جمال باشا على احترام بطرك الموارنة

ولمّا نقلت الدولة زكي باشا من قيادة جيوش سورية وجعلت بدلاً عنه أحمد جمال باشا ورد عليّ بواسطة بكر سامي بك والي بيروت تلغراف رقمي من أنور باشا بأنّ جمال باشا عيّن قائدًا للحملة المصرية، وأنه هو أي أنور أوصاه بي فحضر جمال إلى الشام، وأول ما واجهته قال لي أنه سيستقدم بطريرك الموارنة إلى دمشق ويأمر بإقامته بها، فبقيت يومين أراجعه بكلام يلين الجوامد وأبيّن له مقدار ما يكسر ذلك من خاطر الطائفة المارونية، على حين أنّ هذه الطائفة وسائر المسيحيين لا يريدون شيئًا سوى رضى الدولة عنهم، فنظرًا

لكونه حديث العهد بالمجيء وموصى بي من الآستانة اقتنع بكلامي؛ وقال ماذا يصنع إذًا أفلا يأتي البطريرك للسلام عليّ؟ قلتُ له إنّ البطريرك لا يأبى أن يسلّم عليك لكنّه عدا علوّ سنّه مريض وسيرسل إليك أساقفة ينوبون عنه بالسلام عليك، فقال لا أقبل إلاّ إذا كانوا من الدرجة الأولى. فقلتُ له يأتي أكبر الأساقفة ومتى نقه البطريرك يقدم بنفسه. وهكذا حفظت شرف البطريرك من أن يعرّض للغض[1]، وأخبرت عمّا جرى نجيب باشا ـ الملحة ـ الذي كان يومئذٍ بالشام وكان ذهب معي إلى جمال باشا، ففرح نجيب كثيرًا بهذا الخبر، وقال لي أكتب التلغراف الذي تريده إلى البطريرك لأجل أن أمضيه، فأبرق إلى البطريرك بإرسال المطارين. وبلغني أنه كتب إليه عمّا فعلت من جهة منع استقدامه لأنني بعد عودتي إلى الجبل صرتُ أسمع الثناء والشكر من أكثر من ألقى من الموارنة ومن جملتهم حبيب باشا السعد الذي قال لي: لا ننسى محافظتك على بطركنا والرجل حيّ يرزق. والبطريرك نفسه حي فلست مستشهدًا بغائب ولا بميّت والحمد لله.

ثمَّ إنّ البطريرك وحبيب باشا المشار إليه اقترحا عليّ أن يكون ذهاب وجوه النصارى من لبنان إلى الشام للسلام على جمال باشا وفدًا واحدًا مع وجوه الدروز، هذا إذا وافق ذلك هواي، فاستحسنت ذلك وانتخبوا هم الوفد المسيحي وانتخبتُ أنا الوفد المحمَّدي، وتلاقى الوفدان بدمشق وكان المقصد منّي ومن البطريرك ومن حبيب باشا أن نعلن للحكومة العثمانية اتحادنا في لبنان وأنه ليس بيننا خلاف فلا تمتدّ يدٌ بالتضريب فيما بيننا وما أظن أحدًا يقدر أن ينكر كون مثل هذه السياسة تدلّ على حسن النيّة وحبّ السلام.

٤ـ بدء جمال باشا بمؤاخذة بعض وجهاء لبنان

ثمَّ إنّ جمال باشا استقدم عدّة من وجوه الجبل الذين كان يبلغ الدولة منذ زمن طويل أنهم يحطبون في حبل الأجانب، هذا في حبل الفرنسيين، وذاك في حبل الإنكليز إلخ. وأمر بإقامتهم بدمشق، وكنت يومئذٍ في لبنان أجمع متطوّعين للذهاب إلى حرب الترعة، فلمّا ذهبت بالمتطوّعين إلى دمشق تلاقيت مع حبيب باشا السعد في محطّة البرامكة، فقال لي إنّ جمال باشا أمر بإقامتي بالشام مع غيري وإنّما أذن لي بالذهاب إلى البيت لجلب ثيابي. فذهبتُ توًّا إلى جمال باشا وفتحتُ له هذه المسئلة أمام خلوصي بك الذي كان واليًا بالشام واعترضت بحدّة فأجاب أنه لا يقبل منّي تعرُّضًا لموضوع لم يسألني هو عنه. فقلتُ له إنّما

(١) للغضّ: الانخفاض والانكسار.

تكلّمت لكوني أدري بأمور بلادي وبعد الآن لا أتكلّم بشيء، وخرجت مغاضبًا. وفي اليوم التالي ذهب جمال إلى زحلة لاستعراض الجند فشاهد حبيب باشا فأذن له بالانصراف وعاد إلى الشام، وطيّب خاطري، وأنا سافرت إلى الترعة عن طريق معان، وسافر جمال إلى القدس، وفي أثناء وجوده في القدس أبرق إليه بعض الأساقفة المارونيين يلتمسون إطلاق سراح الذين كانوا مأمورين بالإقامة بدمشق، فغضب من تدخّل الأساقفة فيما لا يعنيهم، وأمر بنقل أولئك الجماعة إلى القدس. ولمّا رجعنا من حملة الترعة أمر جمال بمجيئنا إلى القدس فوجدت الجماعة المذكورين هناك، فرجوته أن يطلقهم مع أنّ بعضهم كانوا من ألد خصومي، فلم يجب سؤلي[1] إلاّ في المرحومين خليل بك الخوري وسليم بك المعوشي، وكانا لم يصلا إلى القدس فأمر برجوعهما، فطفق المفسدون يتقوّلون بكوني أنا الذي أشار بنفي الآخرين.

٥ـ ردّ شبهة عن الكاتب واستبداد جمال باشا

وطالما تشدقوا بهذا الاستدلال في مسائل أخرى قائلين إذا كان الأمير شكيب قد أنقذ فلانًا من النفي وفلانًا من القتل وفلانًا وفلانًا، فهذا أوضح دليل على كون ما وقع من أعمال جمال القاسية هو برأي الأمير شكيب. وكلّ من عنده ذرّة من المنطق يسلّم بأنه إن كان أحد من ذوي النفوذ تمكّن بحظوته لدى حكومة أو حاكم أو قائد أن يخلص فردًا أو أفرادًا من عقوبة فلا يقتضي ذلك أنه كان يقدر أن يخلص كلّ من يراد عقابه وأن يستولي على الدولة، وأن يتصرّف بالأحكام العرفية والمجالس العسكرية، وبإرادة القوّاد والولاة وهم مئات وألوف، ونحن نرى أنّ أمورًا قد يأتيها أحد العمّال خلافًا لرأي رئيسه أو رؤسائه ولا يقدرون على منعه، وأنّ جمال باشا بالتخصيص قد أتى أمورًا لم يكن يوافقه عليها طلعت الذي كان روح السلطنة. ولا أنور الذي كان ناظر الحربية. وأنه لمّا شنق الذين شنقهم ثاني مرّة الزهراوي وشفيق المؤيّد ورفقاءهما كان البرنس سعيد حليم الصدر الأعظم نفسه خاليًا من علم هذه الحادثة فأبرق إليه محتجًّا بشدّة. ويقال إن قتل أولئك الجماعة بدون قرار مجلس النظّار كان سبب استعفاء خيري أفندي الأركوبي شيخ الإسلام. وكان السلطان محمّد رشاد نفسه يبرّئ نفسه من العلم بمقتل أولئك الجماعة. وأغرب من ذلك أنّ شلبي أفندي شيخ المولوية (وهي أكبر طريقة في تركية وكان المرحوم السلطان محمّد رشاد ينتمي

---

(١) سؤلي: سؤالي.

إليها) لمّا ذهب بألوف من مريديه مجاهدًا في سورية رأى من غطرسة جمال ما لم يعجبه فاستأذن في المجيء إلى الآستانة فأذن له جمال على شرط الرجوع. وكان من المقرّبين جدًا إلى السلطان فشكا إليه الأمر وظنَّ أنَّ السلطان يصدر إرادته السنيّة ببقائه في الآستانة، فكان من السلطان أن همس في أذنه همسًا قائلاً له: لا ترجع إلى سورية لكن لا تقل أنني أنا قلت لك ذلك. أفلم يروا كيف أنّ جمالاً شنق في استامبول صالح باشا خير الدين صهر الأسرة السلطانية في دعوى قتل محمود شوكت، وجاءت امرأة صالح باشا وهي ابنة أخي السلطان تشكو إليه وتؤكّد له براءة زوجها فتكلّم السلطان مع جمال في استبقاء صالح باشا في الحياة على الأقل فلم يقبلوا منه وكان التشديد من جمال كما كان يروي ذلك هو عن نفسه. أفبعد هذا يقال لماذا لم يمنعه شكيب أرسلان عن قتل زيد ونفي عمرو؟

ثمَّ إنّه لمّا أراد إعادة الذين كانوا في القدس إلى أوطانهم أبرق إلى رضا باشا قائد لبنان أن يسألني رأيي في إطلاقهم، فأجبته أنه لا يوجد من ذلك أدنى محذور وأنا كفيل لهم (مع أنّ منهم خمسة أشخاص كان مقطوعًا بيني وبينهم حتّى السلام والكلام) وأبرقنا بذلك إلى القدس فأطلق نصفهم ثمَّ قبل إطلاق النصف الآخر ألقوا عليّ السؤال نفسه، فأجبت كأول مرّة وأظن أنّ هذه التلغرافات مقيّدة مسجّلة فلا تصعب مراجعتها.

٦ـ الشفاعة في الثلّة الأولى من ضحايا جمال

عندما قبض جمال باشا على رضا بك الصلح وعبد الكريم الخليل وعدّة من المتّهمين الذين شنق منهم ١١ رجلاً وهي القافلة الأولى، لم أترك وسيلة من الوسائل إلاّ استعملتها لأجل إقناعه بالعفو عنهم وإفهامه ما يترتّب على فتح هذه المسئلة من الضرر للدولة والملّة. وفي إحدى المرار بينما كنت ألحّ عليه في الرجاء وكنّا في صوفر قال لي كنت أحب أن أطلعك على المكاتيب التي من بعضهم إلى بعض بالحث على قتلك (يشير إلى مكاتيب واردة إلى سورية من حقّي بك العظم يحثُّ فيها على ذلك) فقلت له هذه كتابات لا ذنب لهم فيها، ومع هذا فلسنا الآن في ضغائن شخصية. وإنّما أنظر إلى المسئلة من وجهة سياسة الدولة فلا أجد فتح هذا الباب في محلّه. ولكثرة مراجعتي إيّاه كتم عنّي نيّته إلى أن أنْفَذَ فيهم ما أراد، ومن بعد ذلك ابتدأ الخلاف بيني وبينه تدريجيًا بحسب تزايد شدّته ومن جملة من راجعتهم في أمر نصحه بترك هذه الشدّة من ولاة الدولة عزمي بك والي بيروت

خلوصي بك والي الشام، وعزمي بك الآخر والي الشام بعد خلوصي وتحسين بك والي الشام، بعد عزمي وعلي منيف بك متصرّف لبنان وعلي فؤاد بك، رئيس أركان حرب الفيلق الرابع، وكلّهم أحياء لم يمت منهم سوى خلوصي بك.

ولمّا أرسلت الدولة سنة ١٩١٦ وفدًا تركيًا إلى سورية مؤلفًا من بضعة عشر شخصًا من نوّاب الأمّة وأركان الدولة منهم صلاح جيمجوز بك مبعوث الآستانة وعصمت بك مبعوثها أيضًا ووالي الآستانة سابقًا التمست منهم أن يتوسّطوا في أمر الرخصة لي بالذهاب إلى الآستانة لأنه كان يمنعني إلى ذلك اليوم من الذهاب إليها بحجّة احتياج المصلحة إليّ في سورية، والحقيقة ـ وقد صرّح بها أخيرًا ـ أنه كان يعلم أنني لو وصلت إلى الآستانة لأظهرت هناك كلّ ما جرى وحملت على سياسته حملة شديدة ولا يقدر أن يتّهمني هو بسوء النيّة لأنّ الدولة تعلم صداقتي لها ولذلك أخذ هو يتكلّم مع صلاح جيمجوز وعصمت في أسباب الجفاء الذي حصل، وأنه من أجل التدابير الشديدة التي يراها ضرورية لسلامة المملكة مع أني أنا غالبة عليّ صفات الشاعرية ورقّة القلب ويهمّني أن أرضي أبناء وطني وأجيب رجاءهم ولو بخلاف المصلحة حتّى تشفع إليّ لأناس كانوا يعملون لقتله، وكاشفته بذلك فقال: لا تعلم مقدار اللذة التي يجدها الإنسان في استحياء من كان يريد قتله.

٧ـ الشفاعة في الثلّة الثانية من ضحايا جمال

لمّا قبض جمال على الفرقة الثانية العسلي والشمعة وشفيق المؤيّد والزهراوي ورفاقهم واجتمع في عاليه نحو من ٧٠ معتقلاً، أخذنا نستعطف خاطره لأجل إطلاقهم ونبيّن له الفوائد السياسية في العفو عنهم وما تصاب به الدولة من الأضرار بالنكال بهم. وحملنا علي فؤاد بك رئيس أركان الحرب على الكلام معه في هذا الموضوع لما كان له من نفاذ الكلمة لديه، وأكّدنا الرجاء الشفوي بالرجاء كتابة أولاً وثانيًا، فلم تكن تعجبه هذه المساعي منّي ولم تسؤه إلاّ عندما كلّمت عزمي بك والي الشام في ذلك وكان تعيينه لتلك الولاية بدون علمه فاحتجّ على تعيينه وطلب صرفه فاستمهلوه ثلاثة أشهر بعدها عاد عزمي المذكور إلى الآستانة. وقبل سفره من دمشق ذهبت إليه في دار الولاية وطلبت منه مقابلة سرّية وقلت له في مبدإ خطابي إنني مودع هذه الكلمات شرفك، وأرجو أن لا تعيدها إلاّ إلى طلعت بك ناظر الداخلية، وهي إنْ تمادي جمال باشا في إرهاف الحدّ سيكون منه

خطر على سورية وينشأ عنه شقاق طويل بين العرب والترك لا نهاية له. ولمّا كان جمال باشا لا يسمع ما نسمعه نحن أبناء البلاد ولا يجرأ أحد أن يقول له الحقيقة فهو يظنّ أنّ الناس راضون بأعماله. وليس هناك من راضٍ ولا من مستحسن حتّى أنفس الذين يمتدحون لديه أعماله ويملأون مجالسه نظمًا ونثرًا تراهم يتهامسون فيما بينهم بوخامة العاقبة، وأنا صدَقت إلى اليوم مع هذه الدولة واعتدّ عدم تحذيري وإنذاري إيّاكم بما ينفث في روعي من هذه الجهة خيانة وأخشى أن تقولوا في يوم من الأيام لماذا لم تنبه أفكارنا وتجهر بالحقيقة؟ فها أنا ذا آتٍ لأقول لك الحقيقة بكلّ صراحة لتبلّغ طلعت بك ما قلته لك بتمامه. فتأمل قليلاً وقال: لماذا لم تراجع أنت جمال باشا؟ فقلت قد تكلّمت معه مرارًا وكتبت إليه تقارير واستعنت بعلي فؤاد بك ولم أر منه دليلاً على الرضى، وأخاف أن يصيب هذه القافلة الثانية ما أصاب الأولى فتكون المصيبة أطمّ والعاقبة أوخم، فقال لي أنا لا أقدر أن أشافه بذلك طلعت بك كما تريد لأنه كالطعن في سياسة جمال باشا مع أنني أنا أحترم هذا الرجل وإن شئت أقول أنا لجمال باشا نفسه. فلم يسعني إلاّ أن أقول له حسنًا تفعل إذا نصحته بشرط أن تجعل الكلام منك لا منّي. وبعد يومين من هذه الجلسة جاءني أحد الشرطة يدعوني إلى (القرار كاه العمومي) أي محلة القائد العام وذلك بخلاف العادة إلى ذاك الوقت، إذ كان قبلها يدعوني دائمًا بواسطة ياور من قبله فلما ذهبت وجدت لونه متغيّرًا وصكّ الباب وقال لي إنّه لم يحترم إلى الآن أحدًا في سورية نظيري لا لسبب سوى حسن أخلاقي إلخ. ولكن بدأت منذ مدّة أتدخّل بما لا يعنيني وأنتقد أعماله مع أنه هو القائد وهو المسؤول وهو وهو إلخ. فقلت له إنني غير موافق على خطّة إرهاف الحدّ، وأخشى إذا سكتُ أن أكون مسؤولاً تجاه دولتي وملّتي، بل تجاه ضميري، فقال لي قلت لي وكتبت وبيّنت فكرك وأرحت وجدانك وهذا كافٍ ولكنك لا تزال مواصلاً مساعيك غير راجع عن إصرارك حتّى ذهبت تستنجد عزمي بك وتقول له هكذا بالحرف: قل لطلعت بك يكتب إلى هذا الرجل ليخفف من هذه الشدّة. فلم أنكر شيئًا من هذا الحديث، وقلت له نعم لمّا قطعت أملي منك رأسًا ظننت أنني أقدر على استعطاف خاطرك بواسطة طلعت وأنت تعلم أنني شخصيًا ممنون لك وأنك لا تعامل أحدًا في سورية بمثل ما تعاملني به من الرعاية إذًا لا يحمّلني على هذا السعي سبب شخصي، بل مجرّد إخلاصي لدولتي ووطني ولشخصك أنت، لأنني أخشى أن يحملوك في يومٍ من الأيام جميع عبء هذه المسؤولية. فقال: كن مستريحًا من جهتي ولا تظن أنني مقيّد بخاطر طلعت ولا غيره، ثمَّ سكت قليلاً وقال: أتظن

أنني أفعل ما أفعل بدون مشاورة رفقاء لي؟ ثمَّ أنهى كلامه قائلاً إنّني أنذرك بأن لا تتدخّل من بعد في هذه المسائل التي هي منوطة بي وحدي إلخ.

٨ـ خيبة التوسّل بأنور باشا وظهور خوفه من جمال باشا

ولمّا جاء أنور باشا سورية وكان السهم لما ينفذ في القافلة الثانية افترصت زيارته لخلاصهم فحرص جمال جدّ الحرص على منع المخالطة له طول هذه السياحة من الآستانة إلى المدينة المنوّرة، حتّى أنني لمّا طلبت منه الاجتماع في جلسة سريّة في (أوتل بترو) في دمشق، لم أكد أبدأ معه بالحديث حتّى عرف جمال باشا بواسطة أحد عيونه الذين كانوا محيطين بأنور ليلاً نهارًا، فجاء ودخل علينا بغتةً بدون استئذان وقال لأنور: نحن مدعوّون عند فخري باشا أفلم يحن الوقت للذهاب؟ فنظر إليّ أنور وقال: ألا يمكن إرجاء الحديث إلى الغد؟ وكان صباح ذلك الغد موعد سفره فقلت له لي كليمات لا يأخذن إلاّ بضع دقائق. فاصفرّ لون جمال حتّى صار كالكهرباء وخرج وأنا أكملتُ حديثي مع أنور بمعنى العفو عن المعتقلين الذين في (عاليه)، وجعل ذلك العفو إحدى نتائج سياحته بحيث تكون له هذه المنّة على أبناء العرب: على أنه إن كان يرى أنه لا بدّ من الحكم فليكن بالنفي لا بالعدم لأنّ النفي يلحقه العفو وأمّا العدم فهو غير قابل التلافي. فلم يزد أنور في جوابه على قوله سأوصي وأبذل جهدي، ولكن كان كلامه ضعيفًا وكانت عليه علامة الحيرة. فعلمت أنه عاجز عن مقاومة جمال أو أنّ هذا نال من أكثرية الرفاق قرارًا أصبح مبرمًا لا يقدر أنور على نقضه. ثمَّ أسرع أنور بالخروج ليري جمالاً أنّ الجلسة بيننا لم تطل، وكان جمال واقفًا أمام الباب ينتظر عمدًا لكيلا تطول الجلسة. فقال له أنور: يحكي لي شكيب بك في أمر الذخيرة (وهي القمح في عرف الترك) فلم يجاوبه جمال لعلمه أنني ما تكلّمت إلاّ في مسئلة معتقلي عاليه. ورأيت أنا بعيني ساعتئذٍ من ضعف أنور بإزاء جمال مالا أنساه، وما أكّد لي ما كان يقال من أنه كان يبرق إليه كثيرًا من الأحيان قائلاً: أنا حرّ في منطقتي مسؤول عنها وليس لك أن تعترضني بشيء. على أنني لم أكتفِ بهذه الكليمات مع أنور، بل ذهبتُ إلى رئيس رفقائه القائمقام كاظم بك، وأطلت معه القول في العفو عن المعتقلين ليبلّغه إيّاه ثاني يوم حرفيًّا في أثناء الطريق. وقد عرف كثير من أعيان سورية يومئذٍ بما وقع وقالوا لي: قد عملت الذي عليك...

ثمَّ عندما صمّم جمال على شنق الجماعة استدعى إليه شكري بك رئيس الديوان

العرفي في عاليه إلى الشام وأعطاه، على ما علمت من شكري بك نفسه، أسماء ٤٠ شخصًا يجب أن يحكم عليهم بالموت، فراوده شكري بك كثيرًا ودافع كثيرًا فتهدّده بالقتل (بحسب قوله) ولمّا قال له إنّ وجداني لا يرتاح إلى الحكم بالموت إلاّ على ثلاثة وبالكثير على خمسة استحضر جمال باشا أعضاء الديوان، وكلّمهم وهم ضبّاط شبّان لا يخرجون عن أمره فلم يبقَ مع شكري بك إلاّ القائمقام ملحم بك حماده اللبناني البعقليني وهو الذي كاشفني بذلك إذ قلت له مشجّعًا: لا تعبأ بتهديده لا يقدر على قتلك ولا يريده وإنّما يريد إقناعك بالحكم. فقال إنّ الأمر خرج من يدي، وأكثرية المجلس صارت في يده وليس معي إلاّ ابن وطنكم ملحم بك. ولمّا فشلت هذه الرسائل بقيَ أمام ضميري وسيلة مراجعة ألمانيا فذهبت إلى (لوتفيد) قنصل ألمانيا واستحلفته يمينًا بالشرف أن لا يخونني، لأنّ مثل هذا الأمر فيه خطر على الحياة. فأقسم. وأخبرته بما وقع مع شكري بك من أوله إلى آخره وأنه قد ظهر تصميم جمال على القتل، وأنّ هذه المسئلة وإن كانت عثمانية داخلية لا حقَّ لكم في التدخّل بها فإنّها من جهة أخرى تضر ألمانيا ضررًا بليغًا، إذ ممّا ينبغي أن تفهموه أنّ قتل هؤلاء الجماعة سيحدث بين العرب والترك فتنة لا نهاية لها، فتكونون زدتم الدول الائتلافية قوّة أمّة جديدة هي الأمّة العربية. فأبرق القنصل بالأرقام إلى السفارة بكلّ ما قلت له. بعد ذلك بنحو جمعة وقع الشنق، وكان في ليلة السبت وفي نهار الأحد. وزارني القنصل في منزلي وقال لي: قد تحقّق لي الآن أنك كنت على بيّنة ممّا تقول. ولم يرد جواب تلغرافي إلى اليوم. ثمَّ لقيته بعد أيام فقال لي إنّ سفارتنا لم تقدر أن تصنع شيئًا. ولكن الأتراك سيندمون على هذا العمل. وأخذ لوتفيد يظهر أسفه ممّا حصل أمام الكثيرين من أهل الشام ليبرّئوا ألمانية من هذه الحادثة. ولعلّ الحكومة الألمانية بعد رجوع العلاقات الدولية إلى ما كانت عليه تنشر مثل هذه المراسلات فيظهر ما لعلّ المسيو كولمان، السفير الألماني الذي كان سنة ١٩١٧ في الآستانة، قد أخبر به حكومته عمّا كنت قرّرته له من حقيقة هذه المسئلة فقد قال لي: إنّ المسموع أنّ هؤلاء الناس الذين شنقوا في سورية ممالئين لفرنسة على احتلال سورية: فقلت له: لا صحّة لذلك، ربما يوجد في سورية من يتمنّى باطنًا احتلال فرنسة ولكنّ لا الزهراوي ولا شفيق المؤيّد ولا العسلي ولا الشمعة... إلخ، يريد احتلال فرنسة لسورية، بل هم وطنيّون مثلنا ويكرهون احتلال الأجانب لبلادنا كما نكرهه نحن وزيادة، نعم، إنّ هؤلاء قاموا بحركة استقلال إداري داخلي وبطلب حقوق للعرب معلومة مع البقاء ضمن دائرة الدولة العثمانية وليس في ذلك خيانة تستحقّ العقوبة بالقتل، فضلاً عن

الخطأ السياسي العظيم الذي ارتكب في هذه الواقعة والذي أوجد هذا النفور بين العرب والترك. فسكت السفير لكلامي هذا الذي غزّزته بقولي إنني لم أكن على مشرب واحد في السياسة أنا وأكثر من قتلوا، ولكن حاشا أن أقول إنّهم خونة أو إنّهم يبتغون احتلال الأجانب لبلادهم. والمسيو فون كولمان لا يزال حيًّا وهو شهير في ألمانيا يمكن أن يسأله من شاء عن ذلك، وعن سعي آخر لي لديه ولدى خلفه في السفارة (وهو):

٩ـ السعي لجعل الترك والعرب كالنمسة والمجر

لمّا نشبت الثورة الروسية وخلعوا القيصر، وشاع أنه ربما ينعقد الصلح على قاعدة تمتّع الأمم بحريّتها ويعمّ ذلك الجميع، ذهبت إلى المسيو كولمان هذا وأفضت إليه بما يتمنّاه العرب من الحصول على الحرّية التي سيحصل عليها غيرهم، فأجابني: كلّ ما تقوله مفيد وجدير بالإهتمام إلاّ أننا لا نقدر أن نتدخّل في مسائل تركية الداخلية. وبعكس ذلك (الكونت برنستورف) الذي جاء خلفًا لكولمان عندما صار هذا ناظرًا للخارجيّة في برلين، فقد حادثته مرارًا بمسئلة العرب ووجوب تغيير نظام السلطنة بعد الحرب العامّة، بحيث تكون البلاد العربية مع البلاد التركية كما هي البافيار وبروسيا أو المجر وأوستريا. وكان يصرّح لي بكونه هو على هذا الرأي، وأنه فاوض طلعت فيه ووجده قابلاً لهذه الفكرة، وكان يعدني بالصراحة بأنّ ألمانيا ستساعد العرب بعد انتهاء الحرب على تحقيق أمنيتهم هذه، ومرّة اجتمعت مع الكونت برنستورف في برلين قبل انتهاء الحرب ببضعة أشهر، وكنّا نازلين أنا وإيّاه في (أوتل آدلون) الشهير وكذلك طلعت باشا، وكنّا نجتمع كثيرًا لتسوية خلافٍ كان وقع بين الدولة وبين ألمانيا يتعلّق بالقافقاس ومدينة باكو. وبينما كنّا نتحادث مرّة أسرّ إليّ الكونت برنستورف خبرًا قال لي إنّه خبر يسرّك، وهو أنه وقعت مفاوضة بين الأمير فيصل وبين الدولة على الصلح بواسطة القوّاد الذين بسورية، فطلب الأمير فيصل أن يكون مركز العرب في الدولة كمركز البافيار في ألمانيا، قال لي الكونت: قد استشارني طلعت في هذه المسئلة فقلت له: أسرعوا إلى قبول هذا الوجه. وبهذا أراني قد قمت بما طالما وعدتك به. والكونت برنستورف في ألمانيا أشهر من نار على علم، وهو الآن نائب في الرايستاغ فما على المريد إلاّ أن يسأله كيف كان كلامنا معه في المسألة العربية.

ثمَّ إنني كتبت في هذا تقريرًا طويلاً تقدّم إلى نظارة الخارجية الألمانية بواسطة أحد

أصدقائنا الألمان من المشتغلين بالأمور الشرقيّة في أثناء زيارتي لألمانيا سنة ١٩١٧، وملخّصه تشكيل إمارات خمس عربية مستقلّة استقلالاً داخليًا تامًّا، مرتبطة مع الدولة العثمانية في الجيش وفي الأمور الخارجية. وفي كلّ منها مجلس أمّة ومجلس شيوخ، وفي الآستانة مجلس عام للسلطنة. والرجل الذي قدّم هذا التقرير هو أيضًا في قيد الحياة، وهو من أصدقاء الأستاذ صاحب المنار محمَّد رشيد رضا.

(٢)

ثمَّ نعود إلى حوادث سورية التي كنّا في صددها فنقول:

عهدنا بالبيكباشي شكري بك رئيس الديوان العرفي الذي كان في عاليه أنه "حيٌّ يرزق"، وكان قد تقرّر بيننا وبينه أن نفتح بعد نهاية الحرب مسئلة سورية في مجلس المبعوثين في الآستانة ونطلب شهادته وأنه يشهد بكلّ ما جرى معه. على أنّ شكري هذا وإن استظهر جمال عليه بما في ديوان الحرب من مستنطق ومدَّعٍ عمومي. وأكثر الأعضاء قد أمكنه إنقاذ بضعة عشر شخصًا من الموت، لأنّ جمالاً طلب الحكم على أربعين، كما تقدّم، فلمّا بالغ في المعارضة نزل معه جمال إلى عدد ٢٧ ووقف هناك. ولكن شكري بك تمكّن من تخليص ستّة من هؤلاء أيضًا وتقدّم ذكر رأيه فيهم. ولمّا نفّذ الحكم استعفى حالاً وذهب إلى الآستانة مغاضبًا لجمال باشا.

- مسألة نفي السوريين إلى الأناضول

قبل أن أُنفِذَ الحكم بالقتل على الواحد والعشرين رجلاً الذين صلبوا في ساحة المرجة بالشام وساحة البرج في بيروت أخذ جمال ينفي العائلات مئات وألوفًا إلى الأناضول من كلّ مدن سورية. وكان يعتمد في ذلك على جداول يقدّمها له مديرو البوليس وغيرهم من جواسيسه. وشكّل لجنة سمّاها "قومسيون التهجير"[1] تحت رئاسة رجل اسمه نوري بك

(١) المنار: المراد بالتهجير الحمل والإكراه على الهجرة أي الخروج من الوطن إلى غيره وهو استعمال جديد لم تنطق به العرب ولا المولدون لأنّ الإكراه على الخروج من الوطن يسمّى في اللغة إجلاء وجلاء. يقال: أجلاهم وجلاهم ويقال: جلوا أيضًا. وأمّا التهجير في اللغة فهو الخروج في وقت الهجير أي الحرّ. والترك يتصرّفون في أبنية الأفعال العربية بحسب حاجتهم فيخطئون السماع والقياس تارةً ويصيبون تارةً.

كان (مكتوبجيًا) بالشام وكان من أشدّ الناس ضراوة بالضرر والفساد، وكان يكره في الباطن جمالاً وطلعت وكلّ رجال جمعيّة الإتحاد والترقّي، ولكنّه يغري جمالاً بالنفي والتغريب انتقامًا منهم لعلمه أنّ هذه الأعمال ليس وراءها إلاّ الخراب، وقيام الأهالي وقد نبّهنا جمالاً إلى هذا الأمر وحذّرناه من نوري وأحزابه ومن أقوال الجواسيس وأعلمناه أنهم لا يخبرونه إلاّ بما يرون أنه يقرّبهم إليه زلفى من السعايات والوشايات، فلم يكن يعبأ بكلامنا وكان يعتقد أنه لا تخفى عليه خافية، حتّى لو قلت إنّه كان يظن نفسه ملهمًا ومعصومًا من الخطأ لما كنت مبالغًا. ومن جملة من بدأ «بتهجيرهم» أسرة المرحوم الأمير عبد القادر الجزائري، ولمّا راجعته في ذلك قال لي أنّ عنده أدلّة ووثائق خطّية تثبت خيانتهم وخدمتهم لفرنسا في سورية، فقلت له الذي أعلمه أنّ الأمير سعيدًا الجزائري كان لا شغل له إلاّ شتم فرنسا فقال هذا من باب الاحتيال، لأجل أن تسكته فرنسا بالمال، فقلت له مهما يكن من الأمر فإنّ مراعاة هذا البيت واجبة لكون الأمير عبد القادر له منزلة سياسيّة في العالم الإسلامي فأجابني: «بكأنه» ومعناها هنا ماذا ينالني من ذلك.

(المنار) وقد أطال الكاتب[1] هنا في ذكر وقائع جزئيّة (منها) أنه لمّا بلغه أمر جمال باشا بنفي بعض وجهاء لبنان ـ وكان الأمير توفيق أرسلان والأمير فؤاد أرسلان ابنا عمّه منهم ـ كلّمه وكتب إليه محاولاً صرفه عن هذا العزم فلم يأبه له فتوسّل إليه بعزمي بك والي الشام كما ذكر أولاً فغضب وأنذره أن لا يراجعه في شيء من أمر المنفيين، ونشر في الجريدة الرسمية أنه لا يسمح لأحد بالافتيات[2] عليه في ذلك. وقد كاشف رئيس لجنة النفي (قومسيون التهجير) محمّد فوزي باشا العظم بأنّ المراد بإنذار الجريدة هو الأمير شكيب، فنصح له الباشا بأن يقف عند ذلك الحدّ خوفًا على حياته. وعلّل ذلك بأنه يفعل ما يشاء بلا معارض، وهو على علمه بأنّ هذا الكلام حقّ لم ينثنِ عن عزمه.

- براءة الأمير شكيب من أعمال جمال باشا

(ومنها) إنّه على تعرّضه للخطر بهذا السعي لهؤلاء كان بعضهم يتّهمه بأنه هو الذي أغرى جمالاً بهم، ويستدلّون على ذلك بأنه ليس في المنفيين أحد من حزبهم الأرسلاني وأنّ الجواب على ذلك سهل، وهو «أنّ الحزب الأرسلاني معروف قديمًا وحديثًا بأنه الحزب

---

(١) يقصد الأمير شكيب أرسلان.
(٢) الافتيات: المساءلة.

المناوئ للأجانب على الإطلاق، وأنه الحزب العثماني الوحيد في الجبل، وسواء كان ذلك حسنة أو سيّئة فهو حقيقة يعرفها كلّ أحد، فغير معقول أن تعمد الدولة إلى رؤساء هذا الحزب فتنفيهم، مهما بلغ من خرقها.

(ومنها) إنّ جمال باشا كان يعتمد في اختيار من ينفيهم على بلاغات الجواسيس الموظّفين والمتطوّعين، وأنّ علي منيف بك متصرّف لبنان كان معارضًا له في خطّة النفي، وكلّمه في ترك نفي أحد من الجبل فلمّا لم يقبل انتخب له من تواتر عنهم الميل إلى الأجانب ومنهم من وجد في أوراق قنصليّة فرنسة ببيروت وثائق تجرح صداقتهم للدولة ومن تقدّمت عليهم شهادات أخرى. وذكر الكاتب هنا تقارير الشرطة السريّة وعيون الحكومات، وأنه كان للدولة منها بعض ما للمحتلّين في سورية وفلسطين الآن.

(ومنها) إنّه لو كان للكاتب أدنى مشاركة أو مساعدة لجمال باشا على أفعاله لما أمكنه أن يشنّع عليه في الآستانة ويسعى لمحاكمته، ولكان جمال باشا يقول إنّه كان قد أغراني بذلك وحسّنه لي فأخذت بقوله وقول أمثاله لثقتي بعلمهم بحال البلاد.

- نفي حبيب باشا السعد وأسبر أفندي شقير

ثمَّ قال الكاتب:

هذا ولمّا صدر الأمر بنفي حبيب باشا السعد من جملة من صدر الأمر بنفيهم من لبنان، جاء دمشق وزارني في محلّي وقال لي إنّه سمع من إسبر أفندي شقير وغيره عن الجفوة التي جرت بيني وبين جمال باشا من أجل مسئلة النفي والقتل، فهو لذلك لا يكلّفني الكلام معه في أمره، بل الكتابة إلى علي منيف متصرّف الجبل الذي هو صديقي لعلّه يتمكّن عن نفيه، فإن لم يمكن فليكن النفي إلى أطنه لا إلى داخل الأناضول. ثمَّ توجّهت إلى الجبل في صرف جمال باشا عن فكرة النفي فلم يفلح، ولكنّه خلّص أناسًا كثيرين. وأمّا حبيب السعد فقد كتب إلى والي أطنه جودت بك بأن لا يشخصه إلى أبعد منها متى وصل إليها، وهكذا تمَّ. وبقيَ حبيب في أطنه وتحابّ مع جودت بك. ولقد صادف وصولي إلى لبنان بقاء بعض المنفيين على أهبّة السفر مثل رشيد بك نخلة فأقنعت علي منيف بإبقائه لانحراف

صحّته فخلّصه بالرغم من إلحاح جمال باشا بتسفيره، وكان أخي عادل خلّص عدّة أشخاص بحجّة المرض، مثل أمين بك عبد الملك وخليل بك عقل شديد وغيرهما.

وأمّا إسبر أفندي شقير فكان جمال باشا نفاه إلى القدس ثمَّ سمح له بالمجيء إلى الشام وعندما صار في الشام تعبت كثيرًا في إعادته إلى بيته، لأنه كان بيني وبينه جفوة مزمنة وكنت أترقّب فرصة لأجل أن أسدي إليه هذه اليد على ما بيننا من النفور. ولمّا كان جمال علّق له رخصة الرجوع إلى البيت على رضى متصرّف لبنان ووالي بيروت، راجعت بذلك كلاً من علي منيف وعزمي بك، وبالرغم ممّا أبداه عزمي من التصعيب أقنعتهما بالقبول على أن أكون كفيلاً لإسبر أفندي. فلمّا جاء جمال إحدى جيئاته إلى بيروت تكلّم معه الواليان المشار إليهما أمام أناس من بيت سرسق بشأن إسبر شقير، وأنني أنا الذي يلحّ في هذا الأمر فغضب جمال وبدرت منه كلمات بحقّي، وأشاع أبناء سرسق ثاني يوم أنّ جمال باشا غضب عليّ بسبب إسبر أفندي. وخاف عليّ أصحابي، بل جاءني فوزي بك ابن إسبر أفندي ورجاني أن لا أعرّض نفسي للضرر من أجلهم، وأنهم هم قد عرفوا صديقهم من عدوّهم ونجاحي في تخليص والدهم وعدمه لا يقدّمان ولا يؤخّران شيئًا في امتنانهم ممّا جرى. ثمَّ ذهبت بعدها إلى الشام فكان كلام إسبر أفندي معي طبق كلام ولده فوزي. نعم، إنّه تخلّص فيما بعد بقرار حصلنا عليه بمساعدة طلعت بشأنٍ عمَّ جميع المنفيين الذين فوق الستّين، ومع هذا كان يعدّ حسن نيّتي وإخلاصي السعي له جميلاً وينوّه به ويلوم من أساءوا الظنّ بي من المنكوبين ويزيل ما لصق بأذهانهم من الشبهات. على حين كان الذين نفعتهم فعلاً ودفعت عنهم شرورًا عظيمة وعاركت من أجلهم في مواقف عديدة قد نسيَ أكثرهم الجميل وأنكروه، ومنهم من قابلوا الإحسان بالإساءة والود بالشماتة.

ووجدت رجلاً آخر بلغت به الجرأة الأدبية أن دافع عنّي بقلمه بعد الحرب ألا وهو المرحوم سليم بك المعوشي قائمقام جزّين، فقد كنت أيام الصفاء مع جمال لأول الحرب استرجعت أمر جمال بنفيه إلى القدس ثمَّ وجدت أوراقًا في قنصلية فرنسة أوجبت القبض عليه وحبسه في عاليه فتمكّنت بواسطة رئيس الديوان العرفي وأعضائه، بإقناعهم بكون هذه الأوراق لا بال لها وليس فيها خيانة للدولة إنْ أطلق سراحه بدون أن يعلم بذلك جمال، فكان هو الرجل الوحيد الذي نشر عند نهاية الحرب في إحدى الجرائد ما معناه، أنني أعلم أنّ كلامي لا يرضي الكثيرين، ولكن الحقّ أولى أن يُتّبع وهو أنّ الأمير شكيب أرسلان لم

يشترك في شيء من أعمال جمال باشا، بل خاصمه وعانده من أجلها... إلخ.

هذا ولو كانت الحرب انتهت بغير ما انتهت به لم أكن عرضةً الآن لافتراء بعض المفسدين المتملّقين للحلفاء! ويا ليت الواقفين على أقاويلهم اليو م سمعوا نغمة الرؤساء والزعماء في لبنان أيام الحرب وهم يقولون في هذا العاجز على ضعفه وقصوره: هذا أمير البلاد وأبوها وأمّها وإن لم يحافظ عليها هو فمن يا تراه يحافظ عليها؟... إلخ. ولكن لمّا دارت الدائرة على ألمانيا وتركيا انقلبت الحقيقة لديهم وصار الأبيض أسود في نظرهم، إذ أكثر الناس ينظرون من وراء لون الأحوال الحاضرة وكأنّ الحقائق، ويا للأسف، هي أيضًا رهائن الأقوياء موقوفة لخدمتهم...

- حال جمال باشا بعد ثورة الحجاز

هذا ولمّا ثار الشريف بالحجاز وسرت الحركة إلى سورية، خاف جمال العواقب فعدل عن المخاشنة إلى المحاسنة، واستدعاني أنا وكامل بك الأسعد وسليم باشا الأطرش ونسيب بك الأطرش وكنج أبا صالح شيخ مجدل شمس، وغيرنا من الزعماء، وتكلّم معنا في اتحاد العرب والترك وفي مقاصد الدولة العليّة الحقيقية، وأفاض بكلام بعضه صحيح وبعضه سياسة. والتمس منّا السهر على الأمانة للدولة. وأنا وإن كنت لا أصدّق كلامه في البراءة من السياسة الطورانية... لم أخالفه في الطعن بسياسة الشريف من جهة مخالفته لإنكلترة وتصديقه لمعاهدتها... وقلت قبل الحرب وكرّرت في أثناء الحرب وبعد الحرب ولا أزال أقول: إنّ كلّ عربيّ يصدّق أنّ دول الحلفاء يسعين في استقلال العرب لا بل يقبلن باستقلال العرب. يكون في عقله خبال، وأنهن ما أردن إلاّ فصل العرب عن الترك ليتسهّل لهنّ ابتلاع الأمّتين، هذه هي غايتهنّ: ولي بذلك قبل الحرب نظم من جملة قصيدة في سيرة صلاح الدين الأيوبي:

وكيد على الأتراك قيل مدبّر	ولكن لصيد الأمّتين حبائله
إذا غالت الجُلّى أخاك فإنّه	لقد غالك الأمر الذي هو غائله

وطلب منّي جمال أن أرافقه في سياحة إلى حوران وجبل الدروز واستصحب أيضًا المرحوم عبد الرحمن باشا اليوسف وسامي باشا مردم بك وبعض العلماء والمعمّمين، وأراد أن يجلو ما كان أظلم بيني وبينه، فلمّا كنّا في مقعد السويداء بجبل الدروز وكان قبض قبل

ذلك على شكري باشا الأيوبي وعدّة رجال منهم فارس أفندي الخوري، أحد المشار إليهم بالبنان في سورية علمًا وفضلاً، واتّهمهم بمؤامرات سبقت لهم مع الأمير فيصل (فانتهزت تلك الفرصة) وتكلّمت معه بشأن هذه القافلة الثالثة على مسمع من عبد الرحمن باشا اليوسف ووجيه أفندي الأيوبي وحيدر بك ابن سامي باشا مردم بك، وما زلت ألحُّ عليه بشأنهم حتّى وعد بأن يطلعني على أوراق وجدت معهم وأنها تثبت خيانتهم، ولمّا نزلنا الشام قال لي إنّ التحقيقات لم تتمّ فصرنا نراوحه الشفاعة ونغاديه ولا سيّما بفارس أفندي الخوري والشيخ خضر حسين التونسي، الأديب العالم الفاضل، والمرحوم الشيخ صالح الرافعي وأناس من وجوه راشيا، وآخرين من وجوه زحلة أوصلتهم إلى السجن تقريرات شاب طرابلسي، ولعب في هذه المسئلة دورًا مهمًا، المسمّى توفيق بك الذي جعله جمال باشا وكيلاً لولاية الشام فاجتهد هذا التوفيق ـ لا وفّقه الله ـ كلّ الاجتهاد في إثبات أنّ هناك مؤامرة على قتل جمال وخلع طاعة الدولة. وكانوا يضربون الناس ضربًا مبرحًا ويعذّبون الشهود ليقرّروا ما يريدونه هم. وقيل إنّ هذا الجهد البالغ لإثبات وجود المؤامرة هو لأجل إقناع رجال الدولة والرأي العام الذي كان بدأ يقيم النكير على جمال في الآستانة بأنّ جمالاً لم يعتدِ على أحد، وأنه لا تزال المؤامرات وحركات الثورة في سورية متّصلة، ولكن جمالاً اضطرّ في هذه المرّة إلى الاكتفاء بالحبس ولم يتجاوز إلى القتل، فقيل إنّ شريف مكّة أرسل ينذرهم أنهم إن قتلوا في هذه المرّة أحدًا قتل هو جميع الأسرى الذين عنده من الأتراك وفي مقدّمتهم الوالي غالب باشا. وقيل إنّ الآستانة أنذرته هذه النوبة إنذارًا شديدًا بأن يعدل عن خطّته المعهودة لأنه قد طفح الكيل وقد كفى ما جرى، فلذلك رأينا هذه الدعوى أُخرجت في يومٍ من الأيام من يد توفيق وكيل الولاية وتحوّلت إلى ديوان عرفيّ في الشام أخذ ينظر فيها مجدّدًا ويطرح الشهادات المأخوذة بقوّة الضرب والتعذيب ويسلك مسلك العدالة، وأمكننا يومئذٍ إطلاق سبيل أناس من مشايخ راشيا وآخرين من زحلة وواحد من عرمون الغرب. ثمَّ أطلق سبيل الشيخ صالح الرافعي والشيخ محمَّد خضر حسين التونسي اللذين كان ذنبهما أنهما استفتيا في أحد المجالس في جواز الخروج على الدولة فلم يفتيا بذلك، ولكن لم يبادرا بإخبار جمال باشا بوقوع هذا الاستفتاء، ولو كان هذا الاستفتاء مجرّد كلام فارغ من أناس لا شأن لهم. أمّا شكري الأيوبي فكانت قضيّته شديدة لأنه اعترف بالاتصال بفيصل، وكونه اشترك معه في انتقاد الأحوال. وأمّا فارس الخوري فذنبه الوحيد أنه سأله الشاب الطرابلسي رأيه في عمل ثورة فأنكر هذا الأمر ونهاه عن الخوض فيه. لكن جمالاً يقول:

لو كان فارس الخوري أخبرني يومئذٍ بما سئل عنه لعلمت بنيّة فيصل وقبضت عليه ولم أدعه يذهب إلى الحجاز. ولم تكن حصلت ثورة الحجاز ففارس الخوري هو سبب هذه الثورة بسكوته، والحال أنّ فارسًا الخوري قرّر ونحن طالما أكّدنا لجمال باشا أنّ ذهاب فيصل إلى الحجاز كان قبل المسئلة التي سئل عنها فارس أفندي، ومع هذا بقيَ فارس نحو أربعة أشهر بين أربعة حيطان.

(وههنا ذكر الكاتب مجيء وفد الآستانة إلى سورية وقول مبعوثها (صلاح بك جميجوز) الشهير بجرئته إنّ موعد افتتاح المجلس قد حان، ولا يرضون أن يكون أحد المبعوثين محبوسًا، وإنّ هذا كان سببًا لقبول جمال إطلاق فارس الخوري بكفالة الكاتب بشرط استقالته من المجلس).

- مصادرة جمال باشا لغلال سورية

ثمَّ إنّه خطر لجمال باشا خاطر غريب من جهة تأمين الجيش على ميرته، وهو جمع حبوب البلاد كلّها موسم سنة ١٩١٦ وادّخارها في أنبار العسكرية وإعطاء الأهالي والعساكر جميعًا حاجتهم من المنازل والأنابير بموجب وثائق، وقد اقتدح هذا الرأي ولم يجرأ أحد لا من أعيان البلاد ولا من كبار المأمورين أن يبيّن له ضرر هذا التدبير إلاّ أنا، فراودته كثيرًا أن يرجع عن هذا الفكر لأسباب عديدة (منها) أنّ الأهالي ولا سيّما الفلاّحين، لا يمكن أن يقدّموا جميع غلاّت أراضيهم، ويصيروا عالة على المنزل كلّما أرادوا أخذ مقدار من الحبّ لقوت عيالهم وعلف دوابهم، اضطرّ الواحد إلى تقديم وثيقة والانتظار أيامًا ولیالي أمام باب المنزل، فهذا الفلاّح سيطمر في الأرض كلّ ما يقدر عليه من محصوله فيقلّ مجموع الموسم عمّا هو (ومنها) أنه إن كان المقصود هو تأمين الجيش على قوته فيمكنكم عمل حساب ما يلزم الجيش كلّ يوم ومن ثمّة ما يلزمه طول السنة الواحدة وقسم من العام القابل، وبعد معرفة مجموع اللازم طرحه على الولايات والألوية بحسب درجات غلاّتها وإقبال مواسمها وأمّا أخذكم الجميع سواء احتاج الجيش إلى كلّ هذا المقدار أم لا، فإنّه يوهم الناس أنّ مقصودكم إماتتهم جوعًا، والآن يذيع كثير من المفسدين بين العامّة أنكم ترسلون بجانب من الحبوب إلى ألمانيا، وعقول الساذجين تصدّق هذه الفريّة، فلم يقبل النصيحة، وحصل كلّ ما كنت تكهّنت به، لأنّ الذي أعطى جميع حاصلاته احتاج الحبّ فكان يذهب إلى المنزل فلا يأخذ مدّ القمح إلاّ بعد اللتيّا والتي، وأنّ الأكثرين طمروا في

الأرض أكثر حاصلاتهم فتصوّر جمال أنه بإنذاره الأهالي أن من يخفي منهم شيئًا من الحبوب يُجزى بالقتل يخاف الأهالي فيقدّمون كلّ ما عندهم من الغلّة. والحال أنّ هذا الإنذار لم يزدهم إلاّ تكتّمًا في العمل، فصار الواحد يطمر الحب في جوف الليل تحت الأرض ويأخذ منه حاجته لعياله ودوابه، وإذا جاءه أيٌّ كان وطلب منه حفنة من الحب بحجّة أنّ أولاده يموتون جوعًا أنكر أن يكون عنده شيء، خوفًا من أن يكون ذلك الطالب جاسوسًا يقصد استكشاف سرّه أو يذهب فيقول إنّ هذا القمح هو من عند فلان جزاه الله خيرًا، فيصل الخبر إلى الحكومة المحليّة ويجزى بالشنق. وجمال باشا إذا قال فعل. فأصبح أناس يدورون في البراري في طلب القوت ولا يجدونه، وآخرون عندهم أكداس الحب مخبوءة تحت الأرض. ولا أقصد بذلك أنّ هذا هو السبب الأصلي في مجاعة سورية، كلا، بل إنّ هذا التدبير السيّئ المبني على الاستبداد والغرور بالنفس كان من جملة أسباب المجاعة، ولكن السبب الأهم هو الحرب من حيث هي، وقلّة الأيدي العاملة وفقد البذار والأبقار والحصر البحري. وأعظم المسئولية في شدّة المسغبة وموت الألوف جوعًا بسببها تعود على الحلفاء الذين رفضوا إغاثة سورية من جهة البحر وإيصال إعانات أميركا وإسبانيا والبابا، وأحبّوا أن يلصقوا ذنب التجويع بالحكومة العثمانية ظلمًا وزورًا كما سيأتي في كلامنا على المجاعة.

- ثورة الدروز والحورانيين لمصادرة الغلال

على أننا لمّا كنّا نذكر كلاًّ بفعله، نقول إنّ هذا التدبير الذي قرّره جمال باشا لتلافي تخبئة الغلال كان تدبيرًا فائلاً وأتى بعكس المقصود، ومن جملة نتائجه أنّ أهل حوران ثاروا على الحكومة. وذلك أنه فرض على لواء حوران ٨٠ مليون كيلو وجعلها تحت التزام ميشيل ابراهيم سرسق مبعوث بيروت، ووضع تحت طلب ميشيل القوة العسكرية فجمع هذا ٢٠ مليون كيلو ووقف «حمار الشيخ» في العقبة، فأخذوا حينئذٍ بالعسف والتضييق وأحرجوا الأهالي فثاروا وضربوا الجندرمة، فساقوا عليهم العسكر، فتضاربوا والعسكر، وقطعوا أسلاك البرق، وخرّبوا سكّة الحديد واستفحل الأمر. وكان جمال في حلب فخاف أن تمتدّ الفتنة ويشترك فيها العربان والدروز فأبرق إليّ - وكنت في لبنان - أن أذهب إلى حوران، وأن أشترك مع حافظ جمال باشا في تسكين الثورة، فلم أستطع إلاّ الذهاب ولو لم أذهب لم يبعد عليه أن يجعلني مسؤولاً عمّا وقع. ولمّا وصلت إلى درعا (اذرعات) استدعيتُ مشايخ الدروز فحضروا في ألف وخمسمائة فارس وأكّدوا طاعتهم للدولة،

وأبرقت إلى جمال بالخبر فورد إليّ جوابه بالشكر والسرور ثمّ راسلت مسلمي حوران فحضر مشايخهم وقالوا لي نحن كنّا أخبرنا الحكومة أنه لا يقدر على تسكين هذه الثورة إلاّ الأمير شكيب فالحمد لله على قدومك وأنّ أكثر الثائرين مجتمعون في قرية نوى، فبعثت إلى جمال برقية أعرض فيها عليه رأي العفو عن الثائرين وإعادة الأمن إلى نصابه، وإنني أتعهّد في مقابلة ذلك بإدخالهم جميعًا في الطاعة. فأجابني ببرقيّة صريحة بأنّ من أطاع إلى نهاية أربعة أيام وحضر إلى مركز الحكومة فهو معفو عنه. فأسرعت بكتابة خطاب إلى الثائرين المحتشدين في نوى أدعوهم فيه إلى الطاعة وأعظهم، وأبيّن لهم عواقب العصيان فأجابوني إلى ما أردت وطلبوا أن نتلاقى أولاً في قرية الرمثاء.

- غدر جمال باشا بمن أمّنهم

وبينما نريد تعيين يوم للاجتماع هناك إذ ورد إليّ خبر بكون حافظ جمال باشا القائد العسكري في حوران، المأمور بقمع الثورة قد ساق عدّة توابير على نوى فكبسوها بياتًا وضربوها بالمدافع وقتلوا نحو ثمانين نفسًا، فلم أصدّق هذا الخبر، ولم يهضم عقلي أنّ جمال باشا يأذن لي بتأمين الثائرين على نيل العفو ويضرب لي لذلك موعدًا أربعة أيام، وقبل انقضاء الموعد يسوق عليهم العساكر ويضربهم! وإذا بالوالي تحسين بك وبحافظ جمال باشا (وكانوا يقولون له جمال باشا الثالث لأنه كان في سورية أحمد جمال باشا القائد العام وجمال باشا المرسيني الذي صار بعد الحرب العامّة ناظرًا للحربية في الآستانة ونفاه الإنكليز إلى مالطه وجمال باشا هذا) قد حضرا إلى أذرعات وعلمنا أنّ واقعة نوى هذه قد حصلت، فكان بيني وبينهما في دار الحكومة في أذرعات خصام عظيم ارتفعت فيه الأصوات وبلغت الحدّة أقصاها على مسمع الجمهور وإنّما ظهر أنّ جمال باشا الثالث هذا في يده أمر برقيّ بالضرب، خلافًا للأمر الذي بيدي بالتأمين، فعند ذلك أبرقت إلى جمال باشا القائد العام أبيّن له مزيد استغرابي من هذه الواقعة التي وقعت ضمن المدّة التي أعطاني إيّاها لتأمين الثائرين، ومقدار الفظاعة في قتل نحو ٨٠ شخصًا منهم بعض نساء، وهدم بيوت في بلدة الإمام النووي رضي الله عنه. وتلغرافي هذا مسجّل ولا شكّ في بيت التلغراف بأذرعات. فغضب جمال من هذا الخطاب، وزاده غضبًا أنّ الشيخ أسعد شقير الذي كان أرسله مراقبًا له على حركات الجميع في حوران حضر الخصومة بيني وبين الوالي وجمال باشا الثالث (كان ممن اجتهد في كفّ النزاع) ولكنّه ثاني يوم برح حوران إلى عكّا ويقال

إنّه أبرق إلى جمال بما حصل بيني وبين ممثلي الحكومة الملكية والعسكرية وإنني أغلظت لهم القول وقلت إنني لا بدّ أن أفتح هذه المسائل في المجلس بالأستانة وأشرح كلّ ما جرى... إلخ، فأبرق جمال إليّ بالحضور إلى صوفر وكان قدم إليها من حلب، وهناك أرغى وأزبد وأشرق عليّ من سماء عظموته فلم أجاوبه لا نفيًا ولا إقرارًا، وقمت منصرفًا فكأنه وجد في سكوتي دليلاً على إضمار السوء فقام وتبعني وحاول استرضائي، وعدل عن المخاشنة إلى الملاينة وبقيت ساكتًا، وصمّمت أن أذهب إلى الآستانة، وأن لا أعود إلى سورية ما دام جمال فيها...

(٣)

- تشنيع الكاتب على جمال باشا بالآستانة

وما وصلت إلى الآستانة حتّى بدأت بشرح ما جرى في سورية من أفعال الشدّة والقسوة وإرهاف الحدّ، وذكرت ذلك في جميع المراكز بدون استثناء، ولا يوجد تقريبًا واحد من كبار رجال الدولة القدماء أو الجدد إلاّ وهو يعلم أنني كنت منتقدًا إدارة جمال في سورية، مشدّدًا النكير على الدولة في إرخائها العنان لهذا الرجل إلى هذا الحدّ. ويصعب عليّ الآن استقصاء شهودي على ذلك، سواء من الفئة المعارضة للاتحاديين أو الفئة الموافقة لهم فإنّ ذلك يطول جدًّا وإنّما أجتزئ بالاستشهاد بجلالة السلطان وحيد الدين نفسه الذي بقيت بين يديه أكثر من ساعتين أبسط له ما حدث في سورية من الأمور، وأبيّن له وجه الظلم والخطأ فيها، وكذلك بوليّ عهد السلطنة الأمير عبد المجيد أفندي الذي تكلّمت معه في هذا الشأن مرارًا، وكان كلّ منهما يتنفّس الصعداء ويتأوّه ويعِد ببذل جهده بإصلاح الأمور وإيتاء العرب حقوقهم وإنصافهم من ظالميهم، وذلك عندما تضع الحرب أوزارها وينتصب الميزان ويبدأ بالحساب.

وبقيت في الآستانة من أوائل سنة ١٩١٧ وإلى نهاية الحرب واستحضرت عائلتي إليها وتحمّلت نفقات الغربة حتّى لا أعود إلى سورية وجمال باشا فيها، مع إنّني كنت أصرّح أمام الجميع أنني من جهتي الشخصية لا أقدر أن اشتكي منه بشيء، بل يجب عليّ الشكر له لمزيد الرعاية وبالغ العناية اللتين كنت أراهما منه نحوي، وإنّما أشكو بطشه وعنفه وسفكه

للدماء وشدّة استبداده وما يعود بذلك من الضرر بالدولة وبالجامعة العثمانية.

ولمّا حضرت إلى ألمانيا أول مرّة سنة ١٩١٧ سعيت بإقناع الألمان في طلب صرفه عن سورية وكان لهم بذلك يد، وأرسلوا الجنرال (فالنكنهاين) قائدًا لفلسطين وقطعوا علاقة جمال بالجيش المرابط فيها، وما زال نفوذ جمال يقلّ ودائرة اختصاصه تضيق إلى أن طلب هو الرجوع إلى الآستانة، وذلك قبل دخول الإنكليز بقليل. ولمّا جاء إلى الآستانة ووجد النكير عليه عامًّا كان كمن استيقظ من منام، وتبدّل مرارة الحقائق بحلاوة الأحلام، وربّما تذكّر ما كنت أنحله إيّاه من النصيحة وأنهاه به عن الشدّة والبطش، ولا سيّما عن القتل لأنه غير قابل التلافي، وما شعرت يومًا إلاّ وأحد أصحابي وأصحابه يتكلّم معي في الذهاب إلى نظارة البحرية للسلام على جمال باشا ويلحُّ جدًّا بذلك، فقلت ليس بيننا أدنى شيء يوجب النفور شخصيًا، وإنّما كان النفور منبعثًا عن اختلاف في الرأي وإنّه كان يرى الشدّة ضرورية لحفظ سلامة المملكة. وأنا كنت أرى الذي أتاه معجّلاً في تجزئتها. وذهبت وسلّمت عليه وتصالحت معه وعاتبني على حملاتي عليه، وقال لي أنّ رفقاءه كانوا يقولون له أنّ شكيب أرسلان بك هو أيضًا في مقدّمة الناقدين الناقمين، وهو ممن لا شكّ في صدقهم، وأنه هو كان يجاوبهم، نعم إنّه مخلص، ولكنّه رقيق القلب ويريد أخذ الأمور كلّها بالعفو. فدار بيني وبينه جدال طويل، أتذكّر منه أنني قلت له يا مولانا عندما أتيتم بالزهراوي من باريز وجعلتموه في مجلس الأعيان كنت أنا منتقدًا هذا العمل، ولكن بعد أن عفوتم عنه ومضى على ذلك ثلاث سنين، تأخذونه من مجلس الأعيان وتشنقونه! هذا انتقد به أكثر، لأنه خطأ أعظم من الأول، ثمَّ لا يكفي شنق الزهراوي بتلك الصورة حتّى ينفى إلى الأناضول والده البالغ من العمر نحو ٩٠ سنة، فكيف تريد أن لا أنتقد هذه الأعمال؟ وقد دافع عن نفسه ببعض أجوبة لا تخرج عن التدابير العسكرية التي يعملها كلّ قائد في أثناء الحرب.

- الفرق بين فظائع جمال وأمثاله من قوّاد أوربة

وأنا لا أنكر أنّ جمالاً تصرّف تصرُّف أيّ قائد أوربي أودع إليه أمر مستعمرة آسيوية أو أفريقية، وليس في قوّاد فرنسا ولا إنكلترة كثير يقدرون أن يرموا جمالاً بحجر كما يقال، أو أن يعيبوا مظالمه لأنهم جميعًا تقريبًا يسلكون هذا المسلك وأفظع منه. وهذا تاريخ استعمارهم في الهند وفي مصر وفي الجزائر وفي تونس وفي الكونغو... إلخ، أصدق شاهد

على ما نقول. وفي الحرب العامّة قد جرت من فريقي الدول المتحاربة كلّما علت يد فريق على آخر من المناكير والموبقات وغرائب القسوة والوحشية ما يزيد على أعمال جمال، ولكن جمالاً تركيّ عيبه ظاهر. ولا يوجد له ساتر، وأمّا القائد الإنكليزي أو الفرنساوي فهذا مسموح له عند بعض أبناء وطننا بأن يقتل ما يشاء فلا يتعرّض بذلك لانتقاد أحد منهم ولو فات[1] الوحوش في أعماله لأنه كما ورد في المثل العامّي:

«من بيت الفرفور، ذنبه مغفور»

على أنّ وجه انتقادنا على جمال هو كون سورية ليست مستعمرة ولا الدولة العثمانية هي دولة أوربية، فإنّ الدول المعهودة إذا قدّمن عملاً بين يدي العار كان لهنّ من القوّة المادية ومن الثروة ومن البسطة ما يغطّيه[2] وأمّا الدولة فليس عندها من القوّة ما يغطّي عيوبها، ولو فازت ألمانيا وتركيا بهذه الحرب لما وجدت أحدًا انتقد جمالاً من هؤلاء الذين يملأون الدنيا صخبًا عليه اليوم، بل يقحمون في زمرته أناسًا أيديهم طاهرة من جميع ما عمله، ولكانوا اليوم ينوّهون بمتانة جمال وإقدامه وحزمه.

والناس من يلقَ خيرًا قائلون له ... ما يشتهي ولأمّ المخطيء الهبل

ـ مسألة محاولة جعل سورية تركية

قال لي بديع بك المؤيّد مبعوث الشام عقب عودتي إلى الآستانة إنّه يوجد قانونٌ مراد الحكومةِ إلقاؤه إلى المجلس للمناقشة فيه وتصديقه، وهو يتضمّن جواز تبديل أملاك المبعدين بدون تعيين، وإنّه بعد تصديق هذا القانون يمكّن الحكومة نزع أملاك المبعدين من سورية وإعطاؤهم عوضًا عنها في الأناضول. وكان شاع أنّ جمالاً ينوي هذه النيّة وأنه أسّس (قومسيون التهجير) لهذه الغاية، وأخذوا بإحصاء أملاك المبعدين. فذهبت إلى نجم الدين بك مُلاّ رئيس الشعبة الخامسة في مجلس الأمّة، وحكيت له القصّة فلم يعتقد أنّ المراد بهذا القانون منفيّو سورية، ولكنّه أشار عليّ بمذاكرة طلعت، ثمَّ ذهبت إلى الحاج عادل بك رئيس مجلس الأمّة فأشار عليّ بمراجعة الحكومة وصرفها عن هذا المشروع قبل طرحه في المجلس،

(١) فات: سبق.

(٢) المنار: نسي الكاتب هنا الأفك وقلب الحقائق فيما تذيعه البرقيّات والجرائد فهذا لا يغطّي مظالمهم فقط بل يحيل السيّئات حسنات يمنون بها على المظلومين المقهورين.

فصادف أنني مرضت بهاتيك الأمّة[1] ولزمت محلّي فجاءني سعد الله بك الملاّ مبعوث طرابلس وأخبرني أنّ القانون عند حامد بك مبعوث حلب، وقد روجع في تأخيره إلى أن أكون شفيت من وعكتي، وذهبت إلى المجلس فأبى وأنه إن طرح القانون في المجلس خيف تصديقه بالأكثرية، فاضطررت أن أقوم من فراش مرضي وأذهب إلى الباب العالي وكان طلعت تولّى الصدارة جديدًا فلمّا حكيت له القصّة أجابني فورًا: هذا قانون لن يذهب إلى المجلس أبدًا كن مستريحًا. ثمَّ سحبوه وانطوت هذه المسألة التي كنت أنا السبب الوحيد في دفعها كما يعلم كثير من الزملاء، وما كنت لأتعرّض لذكر هذه الخدمة ونشر مكنونات لم يكن في البال إظهارها خوف نسبة التبجّح لولا تشدّق بعض الأعداء بما يتشدّقون به من الافتراء والافتئات، وإذا أراد الله نشر فضيلة طويت أتاح لها ألسنة أمثالهم.

ـ إعادة السوريين المنفيين

كذلك القرار الأول بإعادة منفيي سورية إلى أوطانهم حصلت عليه بواسطة طلعت وخليل ونسيمي وجاويد ولم يكن لي فيه شريك مطلقًا، وقدّمت تقريرًا بواسطة جاويد ـ أقول فيه: إنّه لا يوجد أدنى محذور من إعادة هؤلاء المنفيين إلى سورية، وأنني أكفلهم بنفسي كفالة عامّة، وأقدّم عن كلّ شخص منهم بمفرده كفالة خاصّة من رجل مأمون. فردّ جمال هذا القرار وكان يومئذٍ لم يزل في سورية وكان انكسار الإنكليز عن فلسطين في واقعتي غزّة الأوليين قد كسب جمالاً جمالاً ورونقًا فلم يريدوا أن يكسروا كلمته وقد أنذرهم بالاستعفاء إذا أصرّ مجلس النظّار على هذا القرار، وذهب أنور بنفسه ثاني نوبة إلى سورية، ومدحت شكري ناموس جمعية الاتحاد والترقّي ولم يقدرا على إقناعه فعاد بخفّي حنين، وبلغني الخبر فذهبت إلى طلعت وقلت له صحّ أنّ جمالاً لم يقبل قراركم فرجاني أن أصبر عليه شهرين فقط وأنه بعد ذلك ينفّذه. ثمَّ أخذ يأذن لأناس من المنفيين بالتنقّل من مكان إلى آخر كلّما راجعناه في قضيّة واحد أجاب الطلب. وكذلك أنور صار يتعاهد المنفيين بالإحسان والعطاء. وكانت سنين عسيرة أثناء الحرب كما لا يخفى فأضفت زيادات كثيرة على مرتّبات قسم من المنفيين من جبل لبنان كانوا بأسكيشهر وآخرين من المدينة المنوّرة كانوا بكوتاهية وعشاق وأزمير وغيرها، وكانت هذه العلاوات كلّها من دائرة

(١) كذا في الأصل فهل هو محرّف عن الآونة أم استعمل الكاتب الأمة بمعنى الحين كما قال بعضهم في تفسير قوله تعالى (ولئن أخّرنا عنهم العذاب إلى أمة معدودة) وقوله (وادّ كر بعد أمة) والصواب عندنا في تفسيره ما جرى عليه البيضاوي من أنه بمعنى الطائفة من الزمن فهو استعمال للأمة في غير الأجياء فتفسيرها بالحين تفسير بالمعنى في الجملة لا لغوي، قال الراغب: وحقيقة ذلك أي في الآية الأولى: بعد انقضاء أهل عصر أو أهل دين أ.هـ. ولكن هذا الوجه لا يظهر في الآية الأخرى.

التشكيلات التي كانت تابعة نظارة الحربية. وكنت في آخر كلّ شهر أطالب بها وأرسلها كما أنني كنت أتردّد دائمًا إلى لجنة المهاجرين في الباب العالي استنجز دفع شهريّات المنفيين بأجمعهم، فكانت الدولة تنقدهم كلّ شهر ١٥٠ ألف ليرة. وكنت أقول لرجال الدولة: ما سمعت أنّ دولة في الدنيا تشتري عداوة قسم من تبعتها بمائة وخمسين ألف ليرة شهريًا! أصرفوا هؤلاء الناس إلى أوطانهم يصيروا شاكرين داعين لكم وتوفّروا على خزانة الدولة أكثر من مليون ونصف مليون ليرة في السنة. ولم يكن أحد يهتمّ بأمر المنفيين ويخاطبهم سواي لأنّ الآخرين يخافون مغبّة العلاقة معهم. فكنت أقضي ليلي ونهاري في تحرير الأجوبة والبرقيّات بقضاء حاجاتهم وكانت ترد عليّ منهم مئات من الرسائل ممن بأزمير ومغنيسية وبروسة وباليكسر وقره شهر وأسكيشهر وكوتاهية وعشاق وسيواس وتوقات وكنغري وأدرنه. وما زلنا نكافح بلاءهم، ونخفّف من مرض غربتهم، إلى أن تحوّل جمال من سورية إلى الآستانة فأخذ طلعت بتسريح المنفيين تدريجيًا. وحدث أنّ الحكومة احتاجت إلى أصواتنا (أي مبعوثي العرب) في مسئلة تتعلّق بتجديد مدّة الامتياز لشركة حصر الدخان، فاشترطت أنا والمرحوم فقيد الشام محمَّد باشا العظم أن يطلقوا لنا سراح المنفيين لنعطيهم أصواتنا، وصرنا نعقد بعد ذلك اجتماعات يحضرها جميع مبعوثي سورية وفي إحدى الجلسات قرّر المبعوثون تفويض ثلاثة بمفاوضة الحكومة في شأن المنفيين، وهم المرحوم محمَّد باشا العظم مبعوث الشام، وأبو علي سلام مبعوث بيروت وهذا العاجز.

(٤)

المجاعة في سورية أثناء الحرب

ومن هم المسؤولون الحقيقيّون عنها

لا جرم أنّ من أعظم حوادث هذه الحرب ونتائجها على الإنسانية هي المجاعة التي عضّت بأنيابها كثيرًا من الأمم، وأتلفت مئات ألوف، بل ملايين من النسم، وكان لسوريا منها نصيب وافٍ لم يحدث التاريخ منذ قرون عديدة بأنّ سورية أصيبت بمثله. فقد وصل الأمر إلى أنّ بعض الناس أكلوا الميتة، وبعضهم فتكوا بالأطفال وطعموا من لحمهم، وبعضهم

اختلط عقله فذبح ابنته وأكلها كما حصل لرجل من معلقة الدامور. ولمّا كان وقوع هذه المسغبة في أواخر دور الدولة العثمانية بسورية، كان بديهيًّا أن ينقم الناس أمر هذه المصيبة على هذه الدولة، لأنّ الناس متى حلّت بهم المصائب ينهالون بالقذف والطعن قبل كلّ شيء على حكومتهم الحاضرة. ولأنّ سحر الإنكليز والفرنسيس وغيرهم من الحلفاء كان لا يزال ماشيًا إلى ذلك الوقت على السوريين. وكان لهم في البلاد سُعاة يستثمرون جهالة العامّة وأغراض الخاصّة في تحويل تبعة هذه الفادحة على الدولة العثمانيّة، خاصّة دون سواها... ولمّا كان المصاب كما يقال يغيّب عن الصواب، كان السواد الأعظم من المصابين ميّالين إلى تصديق ذلك الحديث المفترى.

- رمي اللبنانيين الدولة بتعمّد إماتتهم جوعًا

ثمَّ لمّا انتهت الحرب بانتصار الحلفاء وصار الناس في سوريا يتزاحمون بالمناكب في مواكب إجلالهم، ويتسابقون على جياد القرائح في ميدان التزلّف إليهم، كانت في مقدّمة أسباب الزلفى قضيّة هذه المجاعة، يذكرون أهوالها للحلفاء بكرة وأصيلاً، ليفضوا منها إلى التنظير بينهم وبين الأتراك بأنّ هؤلاء أماتوهم جوعًا قصدًا وعمدًا، وقطعوا عنهم الميرة لإتلاف خضرائهم تصوّرًا وتصميمًا، وأنّ الحلفاء جاؤا[1] بعد الفتح والظفر فأغنوهم من فقر، وأسمنوهم من جوع، وآمنوهم من خوف، واندفعت جرائد سورية إلاّ ما ندر، تضرب على هذا الوتر، وانبرى كلّ من أراد إظهار المودّة للحلفاء يسرد قصص المصائب التي صبّها الأتراك على نصارى لبنان نظرًا لتعلّقهم بفرنسا، وكيف أنهم جوّعوهم وأزهقوا من أرواحهم نحوًا من ٢٠٠ ألف نسمة كلّها ذهبت في حبّ فرنسا ولا عجب - فأوله سُقم وآخره قتلُ - وأنه لولا حبّ هذه الفئة لفرنسا لكان الأتراك أشبعوها ولم يهملوها، إذ كان الخير والميرة فائضين لديهم وإنّما قتّروا على اللبنانيين ليستأصلوهم أو لينقصوا عددهم نقصًا عظيمًا يستريحون بعده من وجودهم. وبالاختصار فمائتا ألف شهيد هذه كلّها تكلّلت بالشهادة في حبّ فرنسا لا غير... وقد سرت هذه الأوهام إلى أناس من أنفس الأوربيين ولا سيّما من الفرنسيس، حتّى قرأت لهم في هذا الموضوع كلامًا كثيرًا وردّد صداه مجلس البرلمان الفرنساوي. فاللبناني من هذه الفئة كلّما أراد أن يعتدّ بخدمة لقومه في هذه الحرب قال: ولقد أمات منّا الأتراك ٢٠٠ ألف نسمة أثناء الحرب من أجل استمساكنا بعروة الحلفاء ولا

(١) جاؤا: جاؤوا.

سيّما فرنسا ولعدم انحرافنا عن سبيلها. والفرنساوي كلّما أراد ادّعاء حقّ في سورية وحاول تسويغ احتلاله إيّاها نادى: ولنا نحن الفرنسيس هناك أصدقاء مرتبطون بنا منذ أحقاب متطاولة، وطالما سيموا الخسف والهوان من أجلنا وتحملوا الانتقام والاضطهاد، وناهيك أنه في أثناء هذه الحرب قد أهلك منهم الأتراك مائتي ألف جوعًا من أجل محبّتهم لفرنسا.

ـ تبرئة الترك من محاولة إجاعة لبنان

وهكذا تتواتر هذه الكلمات وتتكرّر وتعاد وتصقل وتخمّس وتشطّر وكلّما جرى ذكر الحرب العامّة وما أصاب السوريين فيها كانت هذه الدعوى ويسمّونها «التجويع» أول ما يُستفتح به الخطاب ويُعتد به من المنن على الحلفاء. حتّى أنّ كثيرين ممن لا يحبّون فرنسا ولا إنكلترا إذ طالبوهما بتحرير سورية وتركها لأهلها وذكّروا سابقة السوريين في خدمتها ومناصحتهم للحلفاء في الحرب العامّة جعلوا من جملة هذه الخدمات الجلّى والمناصحات المثلى هذا «التجويع» الذي أجراه الأتراك على سورية انتقامًا من أهلها.

ـ أسباب المجاعة في سورية ولبنان زمن الحرب

ولقد آن لكلّ إنسان يحترم نفسه ويحاسب وجدانه، ولا يرضى أن يكون ذليلاً للباطل وهو يعلمه، ولا أن يقارّ على البهتان وهو يشهده، أن يثور في وجه هذه الإكذوبة التي طال أمرها وتمادى أجلها، ويعصي سلطة هذه الأغراض مهما كان وراءها من دول وملل، وسيف وقلم، فإنّ القليل بالحقّ كثير، وإنّ العزيز مع الباطل ذليل، وإنّ الحقّ أولى أن يتّبع ولو انهزم أتباعه، وإنّ الضلال لأجدر بأن يتنكّب ولو انتصر أشياعه، ولا سيّما وأنّ صولة الباطل ساعة، وجولة الحقّ إلى قيام الساعة، فإلى متى نداهن الحلفاء بأنّ الأتراك هم الذين أماتونا، وإنّهم هم الذين أحيونا، ونتبصبص إليهم بقولنا أنّ الأتراك كان بوسعهم أن يميرونا، لولا تعمّدهم تنقيص أعدادنا، وتقليل سوادنا، وإنّهم إنّما أماتونا على بيّنة وأهلكونا وهم قادرون على استحيائنا، كلّ ذلك من أجل محبّتنا لفرنسا وإنكلترا. والله لقد أصبحنا أمثولة في العالمين، وأضحوكة في الأولين والآخرين، وجعلنا لسورية في التذلّل والتملّق تاريخًا تضرب به أمثال المتمثّلين، فكفانا يا قوم حربًا لضمائرنا، ومكابرةً لحواسنا. إنّه ليس المقصود هنا الدفاع عن الترك الذين خسروا من الأمور ما هو أهم من عطفنا ومودّتنا، وأصبح لا يهمّهم حبّنا لهم أو كرهنا إيّاهم. وإنّما المقصود هو تقرير حقيقة وتحرير واقع، وإبطال نغمة

ملّتها الأسماع، وعافتها الطباع، لا سيّما مع شدّة إغراقها في الباطل ومحض صدورها عن الهوى، فإنّ المجاعة أثناء الحرب كانت عامّة شاملة طامّة غير خاصّة محلاً دون آخر، وإنّما كانت شدّتها على درجات متفارقة وذلك على مقدار تحمّل البلدان وقابليّتها، وقد عمّت السلطنة العثمانية بأجمعها شرقيها وغربيها، وشماليها وجنوبيها، فلم ينجُ من مخلبها مكان، ولا سلم سكّان، إلاّ أنه ممّا لا مريّة فيه أنّ السهول والبقاع التي تكثر فيها البسائط لزرع الحبوب كانت أوفر تحمّلاً وأقل بلاء من الجبال والبقاع القاحلة، التي هي عيال على البحر من جهة وعلى السهل من جهة أخرى لأجل ميرتها. لذلك لا يمكن أن يتصوّر العقل أنّ بلدة من الشام أو حلب مثلاً تجوع بقدر جبل لبنان الذي كلّ ما ينبت من الحبوب يكفي أهله شهرين من السنة فقط، ويضطر لمؤونة العشرة الأشهر الباقية إلى الجلب من البحر أو من داخل البلاد. أمّا البحر فإنّ دول الحلفاء قد سدّت أبوابه على الأهالي سدًّا محكمًا فلم تسمح حتّى للإعانات الخيرية أن تدخل إلى سورية، لا يقدر أن يكابر في ذلك أحد. وأمّا الداخل فإنّ الحبوب التي عاش منها أهل بيروت ولبنان وسكّان السواحل عمومًا أثناء الحرب، كانت ترد منه وحده، وإن قيل إنّه لم يرد من الداخل إلاّ القليل، ولذلك مات ألوف من أهل السواحل جوعًا فالجواب: من قال لكم أنّ الداخل لم يشتد به الغلاء ولم يُخَف أهله من الموت جوعًا! وأي عقل يصدّق أنّ أهل الداخل يسمحون بحبوبهم أن ترسل إلى السواحل وبغلالهم أن تؤخذ من بين أيديهم ويكونون هم أنفسهم تحت خطر المجاعة؟ فقد عالجنا هذه المسئلة جيّدًا وتعاركنا مع أهل الشام وحماه وحلب مرارًا أثناء الحرب لأجل المقدار الذي نحتاجه من الحبوب من بلادهم، وكانوا دائمًا يعارضون أشدّ المعارضة في فتح الباب على مصراعيه، وبعد اللتيا والتي يسمحون بشاحنتين من الحبوب يوميًا ويرون ذلك كثيرًا، وكم مرّة أصدرت الحكومة التركية الأوامر المشدّدة المؤكّدة بشحن كذا وكذا من الحنطة إلى بيروت ولبنان، وكان مجلس إدارة الشام ومجلس إدارة حلب يملآن الدنيا صراخًا بكون بلادهما لا تتحمّلان إخراج هذه الكميّات منها، وإنّهم لا يرضون أن يجوعوا هم لأجل أن يشبع أهل لبنان وبيروت والمثل يقول: ابدأ بنفسك ثمَّ بأخيك. وكانوا يحتجّون بأنّ البلاد الداخلية قد تلقّت قسمًا عظيمًا من سكّان الجبل والسواحل وآوتهم وأطعمتم، ولم تقصّر في رفدهم.

فنقول إنّ مجالس الشام وحلب وحماه وحمص الإدارية التي هي مركّبة من أعيان البلاد

من مسلمين ومسيحيين ويهود هل كانوا يقصدون "التجويع" وينوون به استئصال نصارى لبنان؟ وهل سكّان السواحل كلّهم نصارى؟ لا، إنّ الإحصاء يثبت أنّ المسلمين في السواحل إذا اعتبرت كلّها منضمّة مع لبنان يزيدون على النصارى في العدد[1] أفنقول إنّ مسلمي الداخل أرادوا إهلاك مسلمي السواحل جوعًا؟ وقد يرد بأنّ أهالي حلب والشام وحماه وحمص لم يكونوا يمانعون إخراج الحبوب وإنّما هم الأتراك الذين كانوا يضعون العوائق. والحقيقة التي لا مريّة فيها أنّ الأتراك كانوا يأمرون بإصدار الحبوب المرّة تلو المرّة وكانت المعارضة تقع من أهل تلك الولايات بحجّة أنّ مواسمها لا تكفيها وأنّ أهلها أولى بها فلا يموتون هم جوعًا لأجل شبع غيرهم. وهو كلام معقول لا غبار عليه. وكم من مرّة ذهب علي منيف بك متصرّف لبنان بنفسه وعزمي بك والي بيروت بذاته وغيرهما إلى الشام وإلى حماه وإلى حلب، وأقاموا الأيام الطوال يتنازعون مع المجالس الإدارية في تلك الجهات، فأحيانًا يظفرون بشيء وأحيانًا يعودون بخفّي حنين. وبلغ الأمر في الآخر أن صاروا يطوفون بأنفسهم على القرى في تلك البلاد ومعهم القوة العسكرية لأخذ ما يجدونه من الحنطة قسرًا، فكان الفلاّحون يطمرونها في الأرض ويخفونها بكلّ وسيلة وينكرون وجودها. وهذا جمال باشا نفسه على ما كان عليه من القسوة والغلظة أصدر أوامر لا تعدّ ولا تحصى بإرسال المقادير اللازمة إلى لبنان، وتولّى هو بنفسه إرسال كميّات عظيمة عدّة مرار، ولكن تشديد الأوامر وصدورها ـ ولو ممن اشتهر بقطّ الرقاب ـ لا يكفيان في إيجاد القمح من العدم، حينما المجاعة تكشّر للجميع عن أنيابها والموت الأبيض واقف على الأبواب.

ومن جملة اعتراضات بعضهم قولهم: يا للعجب كيف أنّ سورية التي كانت تمير أهلها وتصْدر منها حبوب إلى الخارج تعجز فيما بعد عن ميرة أهلها، ويموت منهم الألوف المؤلّفة جوعًا! وهذا الاعتراض يكاد يكون من السخف بحيث لا يستحقّ الجواب. فإنّ الذين يقولون مثل هذا القول ينسون الحرب الكبرى ويغفلون أو يتغافلون عمّا كان من نتائجها في كلّ الدنيا لا في سورية فقط. ولقد أعطت سورية وحدها خمسمائة ألف جندي إلى الدولة، هم لباب الأمّة وقوّتها وأصحاب الأيدي العاملة فيها، وأكثر الباقي كان من

(١) المنار: إنّ قرية القلمون في ساحل لبنان بقرب طرابلس الشام وأهلها كلّهم مسلمون وأكثرهم شرفاء من ذريّة الرسول (ص) وروى لنا الثقات عمن رأى اسمها في در كنار الدولة بالباب العالي إنها سمّيت فيه بسيّدة القرى والمزارع ـ ولقد مات ثلثا أهلها جوعًا ووجد فيها من أكل الجيف وامرأة أكلت من لحم أولادها، على إنّهم كانوا قبل شدّة المجاعة يفيضون على جيران قريتهم النصارى فضل قوتهم.

الشيوخ والنساء والأطفال، وقد يقال إنّ قسمًا كبيرًا من هؤلاء الخمسمائة ألف فرّوا من خدمة الأتراك. والجواب أنّ الفارّين كانوا يختبئون فلا يقدرون أن يظهروا ولا أن يتعاطوا الأشغال الزراعية فلا فائدة منهم. على أنّ الحرث والزرع لا يقومان بالأيدي العاملة فقط. فلا يقال ها قد حضر الزارع فحسب، فإنّ البلاد أعوزها البذر والبقر وكلّ ما به قوام الغلّة، لكون الحرب جرفت أكثر المواشي بما ساقت منها العسكرية لأجل جرّ المدافع وحمل الأثقال ولأجل أكل الجنود على مدّة أربع سنوات واستأصلت حرب "ترعة السويس" وحدها ٣٠ ألف جمل، كنت أراها بنفسي تموت بالعشرات على الطريق وأنا عائد من قلعة النخل إلى معان مع المتطوّعين الذين سرت بهم إلى تلك الحملة. ولماذا نعني أنفسنا بسرد هذه الأسباب التي كلّ أهل سورية يعرفونها ويعرفون أنها هي السبب الأصلي في المجاعة، وأنّ الجوع عمَّ البلاد كلّها فالسهول التي مثل حوران وحمص وحماه وحلب والبقاع والغور ومرج ابن عامر كان الخطب فيها أيسر من الجبال التي كلبنان وجبل القدس ومن المدن التي كبيروت وصيدا... إلخ

- تأثير الجراد في المجاعة

ولا ننس أنّه في سنة ١٩١٥ جاء جراد سدّ الأفاق وعمّ البلاد كلّها وأهلك الزرع والضرع، ولم يبقَ من بعد بذر كافٍ للمستقبل، فكان من أقوى عوامل الجوع في السنين التي بعدها.

إذًا فالجوع الذي أصيبت به سورية لم يكن سببه سوء نيّة الأتراك كما يقولون، بل سببه حالة الحرب العامّة والحصر البحري، وذلك الجراد الذي لم يسبق له مثيل فامتصّ خير البلاد من أول سنة، وأعثرها عثرة صعبت من بعدها إقالتها. ولقد اشتدّ الغلاء في جميع القطر الشامي حتّى في دمشق الشام التي كانت منذ وجدت أرهى بلاد الله عيشًا وأرخصها أسعارًا ومات فيها وفي توابعها ألوف من الجوع ومن الأمراض التي قوّاها سوء الغذاء، ولكن ليس كما حصل في الساحل لأنّ درجات الشدّة كانت بحسب درجات قابلية الأراضي لزرع الحبوب كما قلنا. وقد بلغ ثمن رطل الحنطة في حوران وهي أم الحنطة نحو ١٨ و٢٠ غرشًا ذهبًا، وذلك على البيادر، فماذا تقول في البلاد التي ليست تقاس بحوران في قليل ولا كثير؟

(٥و٦)

ثمَّ لا ينبغي أن ننسى أنّ لجبل لبنان علّة ثانية زادته وبالاً على وبال، وهي ولوع أهله بتربية التوت وترفيههم هذه الشجرة ما استطاعوا إليه سبيلاً. وهم معذورون في ذلك لأنّ الجبل بضيق أراضيه ووعورتها لا يلام أهله في اعتمادهم على التوت الذي منه الحرير. وهذا القليل منه يغني عن الكثير من غيره. ولكن حال الحرب ليست كحال السلم. فلمّا نشبت الحرب العامّة نسوا أنّ البحر سيصبح مسدودًا في وجههم، وأنّ البر من الداخل ستقلّ فيه المزروعات بسبب ذهاب الشبّان كلّهم إلى العسكرية، وأخذ الجيش للبقر والجمال. وربّما لم ينتظروا أن يكون أمد الحرب سنوات متعدّدة، بل ظنّوه بضعة أشهر فلم يعملوا شيئًا من الحيطة لأنفسهم وبقوا يعاملون التوت كالأول، وكما لو لم تكن الحرب، ويأبون أن يزرعوا بين شجره قمحًا أو شعيرًا لئلاّ يلحق من ذلك ضعف بالشجر، وكذلك بين شجر الزيتون وغيره من الأشجار. وظنّوا في أنفسهم أنّ الدولة لا بدّ أن تميرهم من حوران والشام وحلب وغيرها. وكانوا يقولون: إنّ السلطان بلاده واسعة فلا يعجز أن يبعث إلينا بحاجتنا من الحبوب. وفاتهم أنّ أكثر بلاد السلطان بعيدة عنهم، وأنه لا يربطها بهم سوى خط حديدي واحد، لا يقدر أن يقوم بنقل مئات الألوف من العساكر مع مدافعها وأثقالها وبشحن جميع لوازم الأهالي، وأنّ رجال العسكرية في الحرب لا يقدّمون شغلاً على شغل الحرب. غفلوا عن هذه الأمور، وتوهّموا أحوال الحرب كأحوال السلم فقتلهم الجهل. وعندي ألوف من الشهود من أهل الجبل أنني من أول الحرب حتّى من قبل خوض الدولة غمراتها كنت أطوف على اللبنانيين وأعظهم وأبصرهم العواقب، قائلاً لهم إزرعوا جميع أراضيكم ولا تعفّوا ولا على ما يتخلل منها التوت أو الزيتون، فإنّ الأهم يتقدّم على المهم، وإنّي أخشى بشدّة ترفيهكم لأشجاركم أن تموتوا جوعًا، والشجر ليس بأغلى من البشر. فلم يستبينوا النصح إلاّ ثالث سنة عندما مسّتهم اللأولاء ورأوا أنفسهم هالكين إن لم يفعلوا. ولكن كان الضعف يومئذٍ قد استولى على كلّ شيء، ونضبت أكثر موارد الإنفاق فلم يبقَ من قوّة لزرع جميع تلك الأراضي التي لو زرعوها من أول سنة مع ما ينالها من الريّ الوافي لجاءت بغلال تحجب عين الشمس، ولكانت قوّة لهم للسنين الشديدة التي جاءت فيما بعد. فأنت ترى أنّ الجهل بأحوال الحروب وبعواقبها، والاعتقاد بكون الدولة تقدر على كلّ شيء كانا

من أسباب هذه المصيبة الكبرى. وكيف تقدر الدولة أن تطعمهم كفايتهم وقد عجزت في الآخر عن إطعام جيشها، وكان الجوع من أفعل الأسباب في فشل الدولة بالحرب. ولقد علم القاصي والداني كيف كانت الألوف تفرّ من الجيش العثماني في فلسطين من قلّة القوت. وكيف كانوا فيه يقتاتون الحشائش، ويموتون ألوفًا من سوء التغذية، وكيف كان الولاة بأنفسهم يذهبون إلى جبل الدروز، بأيديهم الذهب الرنّان الأصفر يعرضونه على أهله ليأخذوا بدله ما يميرون به العسكر وكثيرًا ما كانوا يخفقون في سعيهم.

- المجاعة في الأناضول والموصل

وبقيت الأقوات مدّة مديدة ترد على جيش فلسطين من قونيه من قلب الأناضول وذلك لخلو سورية ثمّ حلب ثمّ أطنه نفسها ممّا يكفي الجيش والأهالي معًا. فالذي يقصد "التجويع" لا بدّ أن يكون هو شبعان لا جائعًا. وإلّا فلا يكون قصد التجويع، بل يكون أصيب هو بالجوع وعجز عن الميرة. ومن عجز عن كفاية نفسه فهو عن كفاية غيره أعجز. وربّما قيل ما دامت الأناضول فيها أرزاق فلماذا بخلت بها الدولة على أهل سورية، والجواب لم يكن في الأناضول أرزاق تفيض عن حاجة أهلها، بل اشتدّ الغلاء في كثير من ديار الأناضول، ووقعت المجاعة في القسم الشرقي منه ومات مئات ألوف من أهله جوعًا، وكثير من السوريين الذين كانوا منفيين في الأناضول ولا سيّما في جهات سيواس وطوقات يشهدون بذلك. فإن قلنا إنّ الأتراك أماتوا نصارى لبنان تجويعًا لمحبّتهم فرنسا، فقد مات ألوف مؤلّفة من مسلمي سورية من الجوع أو من الأمراض الناشئة من فقد الغذاء والدواء (وأكثر الموت الذي وقع في لبنان هو أيضًا بالأمراض الناشئة عن ذلك ومات بعض بالجوع رأسًا) فهل قتلت الدولة هؤلاء المسلمين أيضًا لحبّهم لفرنسا؟ وإن ردّ بأنها تعمّدت قتل هؤلاء لكونهم عربًا فهل تتعمّد قتل أتراك الأناضول ومهاجري أرضروم ووان وبتليس... إلخ، وهم أتراك وأكراد وجميع ارتكانها هو عليهم؟ وهل كان هؤلاء الأتراك والأكراد إلى تلك الدرجة ذائبين في حب فرنسا!! حتّى قتلتهم الدولة؟ وإذا كانت الموصل التي هي من أخصب بلاد الله وأوفرها زرعًا وأدرّها ضرعًا بلغ من شدّتها أثناء الحرب أكل الناس فيها لحوم البشر، فهل يعجَب الإنسان من أن تمسّ المجاعة أهل جبل لبنان الذي أكثره صخور صمّاء وأتربة جرداء؟ كنّا في الآستانة سنة ١٩١٧ و١٩١٨ وكان كثير من الفقراء فيها يموتون جوعًا، وهي عاصمة الملك وكان الأغنياء يوزّع عليهم الخبز الأسود المجهول الماهية بمقادير قليلة، ولولا فتح ألمانيا وحلفائها

بلاد رومانيا الغنيّة بالحنطة والذرة وجلب الأتراك منها ما نفّس قليلاً من خناق الآستانة لم يكن أحد يعلم ماذا كانت تؤول إليه حالة الإعاشة في نفس العاصمة.

ـ تعمّد منع الحلفاء القوت عن سورية

مع هذا كلّه يوجد كثيرون ممن يقرأون كلامي هذا سيتميّزون من الغيظ لاجتهادي في إثبات كون المجاعة في سورية حصلت في حالة الحرب الطبيعية وبتواليها بضع سنين، وبالحصر البحري المحكم، وإنّ مثلها وأشدّ منها قد أصاب بلادًا أخرى من ممالك الدولة العثمانية ومن غير الممالك العثمانية مثل مكدونية والصرب أو بولونية وروسية. ولولا كثرة الخطوط الحديدية لقلنا النمسا وألمانيا... إلخ، ويقولون لماذا أحاول أن أنفي كون الأتراك جوّعوا أهل لبنان عمدًا وتصميمًا لمجرّد حبّهم لفرنسا ولكون أكثرهم نصارى، فهذه الإشاعة يحبّون أن تبقى سارية ماشية رائجة، وهذا الحجاب يودّون لو يبقى دائمًا على حقيقة الحال مسدولاً كرهًا بالدولة السابقة في سورية وتحببًا وتقربًا إلى الدول المحتلّة.

والجواب إنّ الحقّ يجب أن يعلو ولا يُعلى عليه، وإذا كانوا هم يبغضون الأتراك فليبغضوهم ما شاءوا، ولكن ليحبّوا الحقّ الذي لا يجوز أن يجحد بغضًا بزيد ولا حبًّا بعمرو. والأتراك لهم سيّئات كثيرة وجمال باشا أتى أعمالاً ذكرناها وقبّحناها، ولكن ذنب التجويع هذا هم أبرياء منه. فإن كان لبعض الناس أغراض سياسية في ديمومة هذه الإشاعة، إمّا تزلّفًا إلى الحلفاء وإمّا تمهيدًا للعذر من النفور من كلّ حكومة إسلاميّة... بدعواهم كون الحكومة العثمانية قتلت بالجوع ألوفًا من مسيحيي لبنان... فهذه الأغراض السياسية ليست عندنا، لا بل يجب علينا أن نبيّنها ونشرحها وننبّه إلى خطرها وما يترتّب عليها من مضار التفرقة بين الأمّتين اللتين يجب أن تكونا متّحدتين إن أرادتا عمران هذا الوطن. فقد طالعت مرّة مجلّة "مراسلات الشرق" المحرّرة بالفرنسية التي ينشرها بباريز هذا المسمّى بالسمنة فوجدت من جملة ترهاتها أنّ باخرة مشحونة أرزاقًا جاءت إلى سورية أثناء الحرب فأفرغت مشحونها ووزّعه جمال باشا على المسلمين وحرم النصارى... فالذي تبلّغ به قحّة الإفتراء وهوس التفرقة بين المسلمين والنصارى أن يزعم كون الباخرة التي وردت من أميركا بأرزاق لأهل السواحل، ووقّفها الإنكليز في الإسكندرية، ولم يسمحوا بوصولها إلى بيروت، قد وصلت وأفرغت واستفاد منها المسلمون دون المسيحيين لا عجب أن يكون هو وأضرابه مروّجين

لحديث "التجويع " المقصود ولا غرو أن نكون نحن ممن يتوخّى فضيحة تلك الأضاليل حتّى يزول أثرها السيئ من الأذهان.

- تجويع الحلفاء واتّهام الترك بذنبهم

إنّه سيظهر لك إيّها القارئ ممّا سيأتي بالدليل القاطع والبرهان الساطع أنّه لو شاء الحلفاء لأوصلوا الإعانات إلى سواحل سورية، كما أوصلوها إلى ممالك أخرى عضّها الجوع بنابه أثناء الحرب ولوقوا من الموت أولئك الألوف الذين ماتوا من مسلمين ونصارى. إنّ الحلفاء مع كونهم في حال حرب مع ألمانيا، أمكنهم أن يتّفقوا معها على إعاشة بلجيكا وتعيّنت لذلك لجنة مؤلّفة من متحايدين إسبانيين وهولانديين، كانت تأتي بالحبوب والأرزاق من أميركا وتوزّعها على المعوزين في بلجيكا، وعلى كلّ ما ينقصه شيء فلم يمنع وجودهم محاربين للألمان من أن يتّفقوا معهم على إغاثة أمّة أشفقوا أن يمسّها الجوع. ولقد ثبت أنهم أرسلوا إلى البولونيين بإمدادات وافرة وإلى الصربيين وإلى غيرهم. فلو كانوا يحبّون أهل لبنان كما يدّعون لاتّفقوا مع الدولة العثمانية وقتئذٍ ولأغاثوهم ولو بسداد من عوز، ولأنقذوا تلك الخلائق من الموت، أو لسمحوا على الأقل بتسريب الإعانة التي أرسلتها أميركا لأجل سورية، والإعانة التي كان البابا ينوي إرسالها إلى المسيحيين وهم كانوا الحائلين من دونها، أفتكون هذه هي الحقيقة وتكون التبعة العظمى في عدم دفع هذه المجاعة عليهم، ونأتي نحن لأغراض في الأنفس فنبرّئهم من جناية هم أنفسهم أدرى بأنهم كانوا فاعليها لأسباب حربية وسياسية قامت في نفوسهم، ونقول لهم: كلاّ، إنّما أجاعنا الأتراك وأنتم أولاء أحييتمونا؟ ولكثرة ما نردّد أمامهم هذه الكلمة يبلغ بهم الأمر أن يظنّوا كونهم صاروا أحق بالبلاد من أهلها، وأن يصارحونا بقولهم: لولانا لكنتم جميعًا هلكتم جوعًا. كما ردّدوا ذلك مرارًا، وآخر مرّة أعلنها الجنرال غورو على مائدة غبطة البطريرك الماروني في الديمان بدون محاباة.

هذا ولقد آن لنا أن نستشهد على أسباب هذه المجاعة بكلام عظيم هو بطريرك الطائفة المارونية من تقرير أرسل به إلى جمال باشا سنة ١٩١٦، وبعث هذا بصورته مع صور الكتب التي وردته من سائر البطاركة إلى الفاتيكان ليطّلع حضرة البابا عليها، فالبطريرك الحويّك يطري الدولة العثمانية إطراءً عظيمًا في مراحمها ومكارمها، وشخص جمال باشا في إدارته ويدافع عن أعماله ويبرّرها ثمَّ يقول ما تعريبه (لأنّ أصل التقرير باللغة الفرنساوية) بالحرف.

٣

ـ شهادة بطرك الموارنة للترك وجمال باشا

«أمّا ما يوجّهونه من التهم بشأن وسائل الضغط والتضييق التي بزعمهم قد استعملتها الحكومة بحقّ السوريين ولاسيّما الموارنة اللبنانيين، كالإجاعة والنفي فإنّنا نجد من العبث

التدابير الشديدة التي لا مناص منها في هذه الأحوال هي ممّا يجريه جميع المماليك المتمدّنة (هنا مثل لاتيني مذكور بنصّه ومعناه): إنّ أسمى عدالة هي سلامة الوطن».

«كذلك نرد صريحًا هذه الإشاعة الغريبة، وهي إننا قد أشخصنا بذاتنا إلى الديوان الحربي في حلب نحن الذين لا نزال موضوع الكرامة العظيمة والبر من قبل حكومتنا العزيزة وممثّلها قائدنا العظيم».

«وبالنهاية بجميع قوّة عواطفنا ومن صميم فوائدنا نعلن أنه ليس لنا إلاّ أمنية واحدة ودعاء واحد وهي أنّ القادر على كلّ شيء يحرس السلطنة السنيّة، ويقودها من نصر إلى نصر إلى الظفر النهائي، ونضمّ إلى هذا الدعاء التأكيد باَسمنا وبلَسم جميع الموارنة بالتخصيص أنه إن كانت فرنسا يومًا من الأيّام أو عدوّة أخرى أيّة كانت تجسر أن تتعرّض لهذه البلاد من أجزاء سلطنتنا فلتعلم أننا بأجمعنا مستعدّون للقتال في صفوف حكومتنا العزيزة، ولبذل جميع مجاهيدنا، ولتحمّل كلّ مناداة طوعًا واختيارًا، ولنسفك دمائنا إن مسّت الحاجة إلى آخر نقطة».

الياس بطرس الحويّك البطريرك الماروني

وربما قيل إنّ هذا التقرير فيه استطراد إلى غير مسئلة المجاعة، فما معنى نشره كلّه والجواب أننا لم ننشره كلّه لطوله، بل نشرنا القسم الأخير منه لما فيه من جلاء للشبهات، ولكون الكلام آخذًا بعضه برقاب بعض فلا يحسن اقتضابه، وإن شاء القرّاء ننشره من أوله إلى آخره بالحرف لأنه وثيقة تاريخية عظيمة القيمة، كما أنّ بعد شهادة البطريرك الماروني هذه ننشر الآن تقرير غبطة بطريرك الروم الأرثوذكس المتقدّم إلى جمال باشا أيضًا مع كتاب خاص، وهذا نص الكتاب معرّبًا بالحرف:

- كتاب بطرك الأرثوذكس لجمال باشا

«يا صاحب الدولة

«إننا باَسمنا وباَسم الشعب الأرثوذكسيّ في سورية وفلسطين نتشرف بأن نرفع إلى معارف معاليكم ما يأتي:

«لقد أثّرت بنا جدًّا العبارات الجارحة التي دارت بحقّ حكومتنا السنيّة في البرلمان الفرنساوي وردّتها الصحافة الفرنسية، والتي صداها يجرح كرامتنا نحن العثمانيين الصادقين، فلذلك جئنا بالوثائق الملحقة محتجّين علّنا على هذه الأكاذيب الوقحة مفنّدين هذه المزاعم الباطلة».

«وهكذا فلأجل شرف الأمّة العثمانية وبمقتضى الحرارة الوطنية المقدّسة جئنا نرجو من دولتكم، أنتم حامي سورية وفلسطين وأعظم المحسنين عليهما، أن تأذنوا بنشر هذه الوثائق لأجل نصرة الحقيقة».

«وفي جميع الأحوال نبتهل إلى الله القادر على كلّ شيء بأن يحفظ شخص دولتكم ويرفعكم من مجد إلى مجد، لأجل سعادة وطننا العزيز».

«دمشق ـ الرابع عشر من أكتوبر السنة الألف والتسعمائة والسادسة عشرة.

غريغوريوس الرابع بطريرك إنطاكية وسائر المشرق

أمّا التقرير التابع للكاتب فهو ما يأتي معرّبًا بالحرف:

«إلى دولة أحمد جمال باشا ناظر البحرية وقائد الفيلق الرابع».

«في هذا اليوم لا يجهل أحد ما قيل في البرلمان الفرنساوي، وما ردّدته الصحف الفرنسية بشأن المسيحيين عمومًا في سورية وفلسطين».

زعموا أنّ لفرنسا نفوذًا سائدًا في هذه البلاد الجميلة التاريخية التي هي جزء من السلطنة العثمانية وادّعوا أنّ الحكومة العثمانية تستعمل وسائل القهر والتضييق على المسيحيين في هذه الديار قاصدة ملاشاتهم بطرق متنوّعة كالتجويع والنفي ... إلخ.

«فنحن على ثقة بأنّ فرنسا تحاول أن تقف عنّا موقف دفاع لا فائدة له من أجل غرض في نفسها. وإنّنا نحن معاشر العثمانيين العائشين منذ قرون عديدة في هذه السلطنة أدرى بأمورنا وأولى بالدفاع عن حقوقنا».

«نسأل الله أن لا يجعل مصيرنا أبدًا مرهونًا إلى رأفتهم».

«فبأسمنا نحن بطريرك الكنيسة الأرثوذكسية في سورية وفي كلّ المشرق التي هي أقدم

كنيسة في الشرق نحتجّ بكلّ قوّتنا على ما قيل بغير حقّ عن حكومتنا العثمانية العادلة».

«لا يلزمنا أن نبحث في التاريخ وأن نسأل الأعصر الماضية لأجل إبطال هذا الحقّ التاريخي التي تدّعيه فرنسا. فنصارى سورية لم يزالوا هم قرابين أولئك الذين يزعمون أنهم حماتهم».

«أيَ فرنسا هل تقدرين أن تقولي لنا عمّا إذا كانت حريّة الأديان محترمة تحت ظلّ شرائعك كما هي محترمة عندنا؟ وهل الكنيسة والإكليروس متمتّعان في أرضك بالحماية التي تحوطنا بها نحن الإكليروس والشعب المسيحي حكومتنا السنيّة؟».

«نحن إذًا مفتخرون بأن نعلن على الملأ أنه في ظلّ مكارم حكومتنا العثمانية السلطانية وعنايتها الأبوية لا مسيحيو سورية وفلسطين فقط، بل الإكليروس المنسوب إلى فرنسا الحرّة نفسها يتمتّعون في ظلّ هذه العناية بما هم محرومون منه في بلادهم».

«وبناءً على ما تقدّم كان لنا الحقّ أن نرى فرنسا تدفعنا إلى تجديد شكرنا لدولتنا العليّة بدلاً من أن نعزو إليها تهمًا باطلة. ونضيف إلى ذلك القول بأنّ مسيحيي سورية وفلسطين هم من عناية حكومتهم الأبوية في غنى عن كلّ عضد آخر».

«أيصحّ أن يكون لنا ضلع إلى حكومة أجنبية عندما نكون عارفين يقينًا أنّ دولتنا هي أعدل وأفضل من الحكومة التي نريد أن نختارها؟ إذًا يكون ذلك منّا فداء السعادة».

«ونسأل من صميم القلب الإله القادر على كلّ شيء أن يحرس إلى الأبد حكومتنا المحبوبة وأن يوفّقها إلى تحقيق جميع مقاصدها الشريفة».

«وأمّا الحالة الحاضرة وما أوجدته من الأزمات فنعترف بأنّ مثل هذه الأزمات هي من شأن آونة كهذه على أنها تلطّفت كثيراً بعناية حكومتنا، وليس من حكومة يحقّ لها أن تفتخر بالاعتناء بمثل ذلك برعاياها».

«وبوصولنا إلى هذه النقطة لا يسعنا أن نضرب صفحًا عن ذكر علّة سعادتنا والمحسن العظيم على النصرانية في هذه البلاد، صاحب الدولة أحمد جمال باشا ناظر البحرية وقائد الفيلق الرابع الذي صورته السامية تبقى مرسومة أبدًا في قلوب المسيحيين ومآثره مكتوبة بأحرف من ذهب في تاريخ بلادنا».

غريغوريوس الرابع بطريرك إنطاكية وسائر المشرق

وهناك تقرير ثالث مصحوب بكتاب أيضًا إلى أحمد جمال باشا من (نيافة) المطران ديمتريوس القاضي قائم المقام البطريركي للروم الكاثوليك لا حاجة إلى تعريبه ونشره لأنه طويل وأشبه بأخويه السابقين، ويزيد بكونه لا يعرف للكاثوليك الشرقيين علاقة لا بفرنسا، ولا بدولة أخرى أجنبية، بل بالبابا فقط. وهذه العلاقة مع الكرسي البابوي هي دينية محضة. وربّما قيل أنّ تقارير البطاركة هذه لا عبرة بها، لأنها استكتبت تحت الضغط والإكراه، في زمان كان السيف فيه ينطف دمًا. والجواب أنّ أمثال هؤلاء الرؤساء المبجّلين يجلّون عن أن يكتبوا خلاف اعتقادهم، ولم تسمع قط يومئذٍ أنّ أحدًا أجبرهم على هذه الكتابة أو أنذرهم بشر إن تأبّوا أن يعطوا هذه الشهادات، وكانت كرامتهم دائمًا محفوظة أيّام الحرب وتوقيرهم تامًا. ومرّة تكلّم أمامي أنا جمال باشا مع بطريرك الأرثوذكس في أن يحرّر شيئًا في جريدة الشرق فلم يجاوبه البطريرك أصلاً، وكنت أراه معه في غاية المتانة، فرجل كهذا لا يصرّح بهذه الشهادة الطويلة العريضة إن خالفت وجدانه. وقصارى ما في الأمر أن يكون جمال باشا أرسل إليهم بأنه في مجلس البرلمان الفرنساوي قيل كذا وكذا فماذا يقولون هم؟ ثمّ إن قيل إنّ هذه الكتابة من غبطة البطاركة وقعت يومئذٍ بالإكراه والإجبار -وهو ما لم يقع- فلماذا لا يقال إنّ إنكار بطريركي الأرثوذكس والموارنة للمؤتمر السوري الفلسطيني المنعقد في جنيف هو واقع أيضًا تحت مثل هذا الضغط من الجنرال غورو، ولماذا تتبجّح بذلك فرنسا وأذنابها ويعدّونه حجّة علينا؟...

(٧)

ولنعد الآن إلى إكمال حديث المجاعة: لا يسعني أن أحصي المساعي التي سعيناها لأجل جلب الأقوات اللازمة من الداخل إلى لبنان والساحل، وفي هذا المعنى لا بدّ أن تكون برقيّاتي أيضًا مسجّلة في دفاتر التلغراف، ثمَّ لمّا جاء بطريرك الموارنة إلى صوفر للسلام على جمال باشا، وهذا أبدى له مزيد الحفاوة، وكان معه المطران بولس عوّاد ورهط من أعوانه - تكلّمت مع جمال أمامهم بما يتهدّد البلاد من الجوع -وكان الشيء على أوله- وكان كلامي بصراحة تامّة، فشكر لي البطريرك فيما بعد هذه الهمّة كثيرًا. ثمَّ إنّني لمّا رأيت علي منيف بك متصرّف لبنان قد أسّس في الجبل عدّة ملاجئ لإطعام الأولاد وهيّأ لها

لوازمها، وكانت كلّها في كسروان والمتن طلبت منه المساعدة في تأسيس مثلها في الشوف، وأسّست ملجأ في عين عنوب وآخر في مغواية بقرب شرتون وآخر في بريح، وجمعت لها جميع الثياب والأغطية والأكسية اللازمة من بيوت أرباب الحمية من ذوي اليسار، وأجرى عليها المتصرّف الأرزاق الكافية من إدارة الإعاشة، وعاش بها مئات من الأحداث ممن لا ملجأ لهم، وكان نحو ٩٠ في المائة من الأولاد الذين عاشوا في هذه الملاجئ مسيحيين مع أنّ الألبسة والمفروشات جيء بأكثرها من بيوت الدروز، ولكن لم نكن نشعر بهذا الفرق أصلاً ولا سيّما أيّام الحرب. ثمّ لمّا وجدنا الأمر اشتدّ عن ذي قبل، وأنه لا مناص من شر هذه المسغبة إلاّ بالاتفاق مع الحلفاء على الإذن بتسريب الإعانات من طريق البحر، راجعنا متصرّف لبنان ووالي بيروت وهما راجعا الباب العالي وجرت مساعٍ من الباب العالي لكي يُغاث أهل سورية كما أغيث أهل بلجيكا وغيرها بواسطة الحلفاء فذهبت جميع مساعي الباب العالي سدًى.

- مراوغة سفير أميركا في إرسال الإعانة إلى سوريا

وإذا بأمريكا قد أرسلت باخرة وقيل باخرتين مشحونتين أقواتًا وألبسة بناءً على إلحاح السوريين في أميركا، ووصلت هاتان إلى ميناء الإسكندرية، وذلك في أواخر سنة ١٩١٦ وانعقدت الآمال بهما لا بل نزلت أسعار الدقيق قليلاً في بيروت بمجرّد إشاعة وصولهما إلى ثغر الإسكندرية. وتألّفت في بيروت لجنة من مسلمين ومسيحيين لأجل استقبال هذه الأرزاق وتوزيعها على المعوزين من جميع الطوائف، وبات الناس يرقبون وصولها، والأعناق مشرئبَّة والعيون محدّقة نحو البحر وهذه الأرزاق لا تصل. وكان مجلس النوّاب العثماني قد افتتح، وتأخّرت عن ميعاد الافتتاح نحو شهر بسبب اشتغالي بتأسيس الملاجئ. ثمَّ ذهبت إلى الآستانة فأول شيء عملته وقبل أن أرى أحدًا من رجال الدولة هو أنني قابلت سفير الولايات المتّحدة، وسألته عن سبب تأخّر هذه الأرزاق في الإسكندرية، فأجابني بكون حكومته تأبى تسليم هذه الأرزاق إلاّ على شريطة توزيعها بمعرفة قنصل أميركا في بيروت، والحكومة العثمانية تستنكف من ذلك، فصدّقت كلامه، ولكنّني قلت له: إن كان مرادكم عمل الخير وإجابة طلب السوريين الذين في أميركا فلا يجوز أن تتوقّفوا بعلل كهذه. ثمَّ ذهبت إلى طلعت باشا أعاتبه على مثل هذه التصعيبات والعلاّت التي لا طائل تحتها عندما يكون الناس يموتون جوعًا. فأجابني هذا طلب كنّا طلبناه في الأول ثمَّ بناءً على إلحاح

سفارة أميركا رجعنا عنه وها أنا ذا أفوّض إليك أن تتّفق مع سفير أميركا على الشرط الذي يريده وأنا أنفّذه. فذهبت إلى السفير وأخبرته بما جرى فقال إنّه يريد مكاتبة بذلك من نظارة الخارجية، فذهبت إلى أحمد نسيمي بك ناظر الخارجية وهو أخ حميم لي، فاستكتبته الذي أراده السفير، ثمَّ عدت إلى السفير وقلت له: هل بقي شيء الآن؟ فقد أجبناك إلى طلبك فلم يبقَ إلاّ أن تأمر بإرسال البواخر إلى بيروت، فقال لكن أمامنا عقبة ثانية قلت: ما هي؟ قال: نخاف من أنّ غوّاصات الألمان المنتشرة في البحر المتوسط تغرق السفن المذكورة. قلت نأتي بأمر من ألمانيا إلى الغوّاصات فذهبت إلى سفير ألمانيا فون كولمان، وحكيت له القصّة فأخذني بنفسه إلى الملحق البحري بالسفارة فون هومان (وهو الآن المحرّر السياسي الأول في جريدة دوتش الغماين تسابتونغ) وقال له: أكتب له ما يشاء، فأخبرته بطلب سفير أميركا واستكتبته الإنهاء المعجّل بعدم تعرّض الغوّاصات للبواخر المحمّلة أرزاقًا لسورية، وبعد أيّام ذهبت أسأل عن الجواب فتأخّر الجواب نحو ٢٠ يومًا، لأنّ البرقيّات اللاسلكية إذا أرسلت إلى الغوّاصات وهي في البحر جائلة قد يقع فيها غلط، فلا بدَّ من انتظارها حتّى ترفأ إلى مراسيها. فلمّا ورد الجواب أبلغته السفارة الألمانية إلى السفارة الأميركية، وجئت أنا أستنجز سفير أميركا وعده، فبدلاً من أن يفرح بانحلال العقدة رأيته ضجر وتبرَّم، وقال لكن بقيت الغوّاصات النمسوية فقلت له: لا يوجد للنمسا غوّاصات إلاّ في بحر الأدرياتيك لحماية أسطولها ولم يبقَ ثمّة من خطر، فقال لا بدَّ من الأمر لها أيضًا فحصلنا على الأمر من النمسا بواسطة سفارة ألمانيا ورجعنا إليه. ولكن كنت بدأت أصدّق ما كان قاله لي طلعت من كون المانع الحقيقي ليس من الدولة العثمانية، بل من الإنكليز. فلمّا أخبرناه بأنّ العقدة الأخيرة هذه قد انحلّت قال لكنّنا أصبحنا لا نقدر على إرسال هذه البواخر، لأنّ الولايات المتّحدة قرّرت إعلان الحرب على ألمانيا فقلنا له هذه مسئلة سبقت إعلان الحرب بأشهر، على أنّ الحرب لمّا تعلن فيمكنك أن تأمر بإرسال البواخر من الإسكندرية إلى بيروت، وكلّ ذلك يتمّ في يومين قبل شهر الحرب منكم على الألمان، فلم يقتنع، فقلنا له أنتم ستعلنون الحرب على ألمانيا لا على تركيا فلا معنى لحبس هذه الأرزاق عنّا بهذه العلّة، ونحن من المملكة العثمانية لا من ألمانيا فبقي يراوغ، فقلت له حوّلوا هذه المسئلة إلى دولة متحايدة كإسبانيا أو هولاّندا فإنّها مسئلة إنسانية لا مدخل لها في السياسة فلم يجاوب بالإيجاب، وعندها صرّحت له بقولي: قد تحقّقت كون طلعت باشا هو الذي قال الحقيقة وأنّ تركيا ليست هي المانعة لوصول الأرزاق، بل أنتم لا تريدون إيصالها وتحبّون أن تعتذروا للسوريين الذين في

أميركا بكونكم عملتم الذي عليكم، وإنّما تركيا وقفت سدًّا في وجه هذا الخير. ولكن الحقيقة لن تخفى. وكنت في جميع هذه المساعي وحدي من المبعوثين السوريين لم يشاركني أحد من زملائي لا لنقص في حميتهم ومروءتهم، بل لاعتمادهم عليّ واعتقادهم بنفاذ كلامي.

- عجز البابا عن إقناع الحلفاء بإغاثة سوريا

ثمَّ لمّا قطعنا الأمل من جهة أميركا حوّلناه نحو إسبانيا وأشرنا على ناظر الخارجية بمفاتحة سفير هذه الدولة فلم يمكن عمل شيء، ثمَّ دفعت أنور باشا أن يراجع البابا بواسطة القاصد البابوي في الآستانة فاستدعاه وقال له: إنّ قلّة الأقوات في البلاد بسبب تطاول الحرب قد أعجزتنا عن ميرة جيشنا والأهالي معًا، وقد بدأ الجوع في سوريا لا سيّما في لبنان، وغدًا إذا مات جماعات من المسيحيين تجعلون اللائمة علينا، فها نحن أولاء نخبركم بالواقع ولا يصعب على الحضرة البابوية أن تنال من الحلفاء الإذن بإرسال باخرة مشحونة أرزاقًا كلّ شهر مرّة، لأجل نصارى سورية ولا سيّما لبنان. وإن احتجّ الحلفاء بكون المقصود هو توزيع أكثرها على المسلمين فنحن نتعهّد بترك التوزيع إلى قاصد البابا في بيروت وإلى البطاركة، ولا ندخل في هذه المسئلة أصلاً، وإن ظهر من أول بعثة تأتي أننا مددنا يدنا إلى شيء منها فعليكم أن لا تعيدوا التجربة، ثمَّ إن كان البابا لا يريد أو لا يقدر أن يؤدّي ثمن هذه الأرزاق فأنا أؤدّيها إليك أيّها القاصد من صندوق الحربية. فشكره القاصد كثيرًا وذهب وكتب إلى الفاتيكان فلم يرد شيء. فراجعت أنور فقال لي إنّه فاوض القاصد ولا يزال منتظرًا الجواب، ثمَّ استدعاه ثانية فقال له القاصد قد بلغت مرجعي كلّ ما ذكرتم، ولكن إلى اليوم ما جاءني جواب. وسترون فيما يأتي السبب في عدم الجواب.

عندما ذهبت إلى ألمانيا سنة ١٩١٧ دعتني الحكومة الألمانية أن أعمل سياحة في عواصمها الشهيرة مثل هامبورغ وفرانكفورت وكولونيه ولايبسيغ ومونيخ وغيرها، وأرسلت معي رفيقًا خاصًا من نظارة الخارجية وأبرقوا إلى كلّ الأماكن بالاحتفاء بنا كما يعملون للضيوف الأعزّاء، ولمّا وصلنا إلى مونيخ أدبَتْ لنا البلدية مأدبة عظيمة حضرها نحو ٣٠ رجلاً من وزراء الحكومة البافارية ورجال السيف والقلم، ثمَّ طلب منّا المسيو كمريخ قنصل تركيا وهو من أعيان مونيخ أن نلقي محاضرة بحضور ملك البافيار وجمع من أعيانها وذلك في الليلة الثانية فألقينا محاضرة في فندق (بايريشرهوف) حضرها الملك وكثير

من رجال تلك الدولة ومن الوجوه وأرباب الأقلام، وكان موضوعها (سورية في أثناء الحرب) وقد اخترت أنا هذا الموضوع قصدًا لأذكر ما جرى فيها من أهوال المجاعة بحيث ذكرت الجرائد ثاني يوم أنّ الملك رقّ جدًّا لسماع هذه المحاضرة، ثمَّ جاءني المسيو كمريخ فيما بعد وقال لي: إنّه قد حادث قاصد البابا في مونيخ وهو من مشهوري الكرادلة، وقصَّ عليه ما ذكرته من كون الحكومة العثمانية سعت بواسطة بعض الدول المتحايدة لدى الحلفاء في جلب أقوات من طريق البحر إلى سواحل سورية، وكون أنور باشا استدعى القاصد البابوي في الآستانة وكلّفه أن يعرض الأمر إلى حضرة البابا، وأنه إلى هذه الساعة لم تحصل أدنى نتيجة. فطلب قاصد مونيخ من المسيو كمريخ تقريرًا بذلك، فجاءني وأعطيته التقرير اللازم مفصّلاً بإمضائي، وذكرت فيه أنني أتعهّد بالنيابة عن الحكومة العثمانية أنه مهما ورد من الأرزاق بواسطة الحضرة البابوية إلى سورية، فلا تتعرّض له الدولة لا في قليل ولا في كثير، ولا يتناول منه أحد من المسلمين حبّة واحدة.

نعم، لنا من ذلك فائدتان: الأولى وقاية إخواننا وأبناء وطننا المسيحيين من المجاعة، والثانية كون القليل الوارد إلينا من الداخل والذي نتقاسمه وإيّاهم الآن، ولا يسدّ حاجتنا ولا حاجتهم يصير فيه كفاية نوعًا. ثمَّ ذكرت في هذا التقرير جملة مؤثّرة، وهي أنّ الحضرة البابوية إن لم تغث نصارى الشرق في أزمة كهذه الأزمة فمتى يرجون إذًا مساعدتها؟

وبعد نحو ١٥ يومًا من كتابة هذا التقرير بينما أنا في فندق آدلون الشهير في برلين إذ جاءني تلغراف من المسيو كمريخ ينبّئ فيه بورود جواب الڤاتيكان، وإنّ مآله سيرد عليّ في كتاب مضمون. ثمَّ لم يلبث أن ورد الكتاب وهو من المسيو كمريخ نفسه يذكر فيه ملخّص ما ورد من الڤاتيكان على قاصد مونيخ من الجواب على تقريري، حتّى إنّه يضع بعض العبارات بين قوسين إشارة إلى أنها هي الواردة بعينها من الكرسيّ البابوي. ومآل الكتاب أنّ البابا سعى من قبل مرارًا وكرّر السعي هذه المرّة، ولكن دولة ... (وأشار إلى إحدى دول الحلفاء) لا تزال تعارض في أرسال هذه الأقوات إلى سورية، لذلك «فؤاد الأب الأقدس مجروح من خطّة هذه الدولة» ثمَّ يقول: وسيعلم مسيحيّو الشرق فيما بعد أنّ الحبر الأعظم لم يهملهم في أزمتهم هذه ولكن ... إلخ.

ولقد اطّلع بعض صحافيي الألمان على هذا الكتاب فأحبّوا أن ينشروه فلم أجبهم إلى ذلك خشية أن أثير مسئلة، وأجعل قيلاً وقالاً بين البابا وتلك الدولة. ولكن هذا الكتاب لا

يزال عندي والمسيو كمريخ لا يزال حيًّا. وبعد إيّابي إلى الآستانة حرّرت الخبر إلى لبنان، وأتذكّر أنني كتبته إلى الشيخ بان الخازن من وجوه الموارنة. وكلّفته أن يُطلع عليه غبطة البطريرك.

ـ اعتذار بعض السوريين عن الحلفاء

وبالاختصار إنّ المسؤولية الحقيقية تقع في مجاعة سورية على أولئك الذين أبوا إدخال الإعانات إلى سورية وهم معروفون... وكان جلّ مقصدهم بذلك أن يبغضوا الدولة العثمانية إلى الأهالي ويجعلوهم منتظرين زوالها ومجيئهم هم، وأن يقتلوا الناس جوعًا ليقولوا أنّ الأتراك هم الذين قتلوهم. وأغرب من عملهم هذا أنّ أناسًا يعتذرون عنهم بأعذار واهية[1]، ويزعمون أنهم لم يكونوا يقدرون على إغاثة جيّاع سورية، وقد لقيت منذ سنتين في برن رجلاً سوريًا مقيمًا بالقطر المصري يقول إنّ سبب عدم إرسال الأرزاق إلى سورية هو كون البواخر لا تقدر أن ترفأ إلى سواحل سورية من الألغام... فليسمع الإنسان هذه الأضاحيك وليتأمّل. وأغرب من هذا الأغرب أنّ أناسًا يعرفون الحقيقة ويكتمونها ويستمرّون على نغمة أنّ الأتراك هم سبب المجاعة، وأنّ الحلفاء أرادوا رفد سورية والأتراك رفضوا. وقد بلغ الأمر من تضييق الحصر البحري على سورية أنّ بعض السوريين بمصر جمعوا إعانات نقدية لإرسالها إلى سورية، وحِيْلَ بينهم وبين مشروعهم، وهذا أيضًا معروف بمصر ... مع أنها نقود لا حبوب. ويُقال أنّ الفرنسيس كانوا يرسلون دراهم خفيّة إلى الموارنة من جزيرة أرواد، ولكن الذي كان يعوزهم هو القوت بعينه لا الدرهم، فإنّ الدولة كانت تتعهّد بدفع أثمان جميع الأقوات بشرط وجودها، فكان على الفرنسيس أن يفرغوا باخرة مشحونة طعامًا ذلك خير من إرسال حجارة رنّانة لا تؤكل.

ـ خلاصة خدمة الأمير شكيب لسورية

هذا ما عندنا من الأدلّة والبراهين على كون المجاعة هي ناشئة عن الحالة الحربية وعلى كون استمرارها نشأ عن الحصر البحري ورفض بعض الدول إيصال شيء من القوت إلى الجيّاع. فإن كان عند غيرنا أدلّة على العكس فليأتوا بها بدلاً من أن يتشدّقوا بالأقوال الفارغة، إن كانوا يقدرون أن يثبتوا أنّ الدولة كان عندها في الحرب الأرزاق الكافية، وأنّ

(١) إنّي له عن دمي المسفوك معتذر ... أقول حملته في سفكه تعبا

المجاعة لم تشتد إلاّ في لبنان فقط، وأنه لم يمت مسلمون من الجوع كما مات من النصارى، بل أكثر. وإنّ مئات ألوف من أتراك الأناضول لم يموتوا ـ فليدلّوا على ذلك بحجّتهم.

إن كانوا يقدرون أن ينكروا كون العسكر العثماني نفسه قلّ في الآخر غذاؤه وصار الجنود يفرّون بالألوف من قلّة الطعام مع الجهد والقتال، ممّا لا يبقى معه محل للشك بكون المجاعة مجاعة لا تجويعًا ـ فليأتوا ببرهانهم.

إن كانوا يقدرون أن يجحدوا كون الأرزاق التي أرسلت من أميركا لأجل سورية وقفت في الإسكندرية، ولم يكن السبب في وقفها هناك الترك، بل غيرهم وكذلك النقود التي جمعت بمصر لأجل الفقراء من السوريين، لم يرخّص في إرسالها إلى سورية ـ فليعطونا على ذلك بيّنة واحدة.

إن كانوا في شك ممّا ذكرناه من مساعي أنور باشا مع قاصد البابا في الآستانة، ومساعينا مع قاصده في مونيخ لأجل إغاثة مسيحيي لبنان خاصةً، وكيف فشلت وبسبب من فشلت تلك المساعي؟ فليسألوا الڤاتيكان نفسه.

نحن عملنا الذي عملناه أثناء الحرب من خدمة وطننا، ومعاونة أبناء وطننا، قيامًا بواجب الإنسانية والوطنية لا نريد من أحد جزاءً ولا شكورًا. ولم نكن نتصوّر أن نساق في يوم من الأيّام إلى التلويح أو الإلماع بخدماتنا هذه لأنه لا يوجد شيء أسمج من عمل الخير والمنّ به. ولكن أبى حسد الحسّاد وبغض الذين في قلوبهم مرض إلاّ أن يحملونا بافترائهم ومباهتاتهم على نشر حقائق، كنّا نود لو بقيت مطويّة. ولقد حرّرنا منها ما اقتضاه المقام الآن وسنستوفي الباقي في كتاب عن ذكريات الحرب. وإنّنا نراهن ونخاطر كلّ أحد يقصد الإنكار أن يأتي بدليل واحد على كوننا اشتركنا أيّام الحرب بأذى أقل مخلوق من أبناء وطننا أيًّا كان في أي موضوع كان، بل نراهن ونخاطر كلّ من شاء أن يأتي بحجّة تبطل دعوانا بما بذلناه من المساعدات وقدّمنا من الخدمات (قل هاتوا برهانكم إن كنتم صادقين) (إلى الله مرجعكم جميعًا فينبئكم بما كنتم فيه تختلفون).

برلين في ٤ يناير سنة ١٩٢٢

تعليق المنار على مقالات الأمير شكيب

الأمير شكيب كاتب سياسي بارع ومؤرّخ محقق، وقد كتب هذه المقالات للتاريخ فأثبت فيها ما رأى بعينيه، وما سمع بأذنيه، وما سعى إليه فأصابه، وما سعى إليه ولم يصبه. وليس الأمير بالرجل الظنون، وما هو على سياسة الإتحاديين بظنّين، بل كان متّهمًا بمشايعتهم، لأنه كان في السياسة الخارجية من شيعتهم:

كلّ من قرأ مقاله بإنصاف يجزم معنا بأنّ الحكومة التركية لم تكن تريد في تلك السنوات إماتة السوريين بالجوع ولا اللبنانيين منهم، ولم تفضّل المسلمين على النصارى في التموين ولا في غيره من المعاملات، بل كانت وطأتها عليهم أشدّ، ولم تبطل امتياز لبنان كما أبطلت الإمتيازات الأجنبية كلّها: ولكن هذه المقالات أيّدت الآراء المهمّة التي كنّا نعتقدها، ونصرّح بها، قولاً وكتابة، وإن حكمت المراقبة على الصحف بمنعنا من بعض ما كنّا نكتب.

ـ محاولة الاتحاديين تتريك العرب

١ـ كنّا نعتقد أنّ جمعية «الاتّحاد والترقّي» قد افترصت ما أعطتها الحرب من التصرّف في سلطنة آل عثمان بالحكم العرفي العسكري للقضاء على الشعب العربي فيها وجعل سورية والعراق ولايات تركية، وإنّ النهضة العلمية والوطنية لمّا كانت في سورية أقوى منها في العراق عجّل جمال باشا بتتريكها بالقوّة القاهرة، متوسّلاً إلى ذلك بتعريض الضبّاط والجنود منها للمقتل في المعارك الخطرة، وبتقتيل رجال النهضة الفكرية والقلمية ـ وبنفي البيوت ذات الثورة والملك الواسع إلى الأناضول لأجل إدغامهم في الشعب التركي هنالك، ثمّ بالإتيان ببيوت تركية تخلفهم في بيوتهم وأملاكهم في سورية. فجمال باشا كان منفّذًا لقرار جمعيّته الاتّحادية الطورانية لا مبتكرًا لهذا الفساد.

راجع قول جمال باشا للأمير شكيب معاتبًا له على التوسّل إليه بطلعت باشا أن يكفّ عن القتل والصلب: أتظن أنني أفعل ما أفعل بدون مشاورة رفقائي؟ (آخر ص ١٣٠). ثمّ ما بعد هذا من خيبة الأمل بالتوسّل بأنور باشا. ثمّ راجع كلامه في (ص ٢٠٢) وما بعدها عن إجلاء السوريين عن وطنهم الذي وضع له اسم (التهجير). ثمّ راجع في (ص ٢٩٢)

مسألة محاولة جعل سورية تركية بمشروع قانون وضع لذلك، كانوا يريدون تقريره في مجلس المبعوثين.

٢ـ كنّا نعتقد أنّ محاكمة جمال باشا لمن يريد قتلهم محاكمة صورية لا يراد بها إحقاق الحقّ ليتّبع، ولا تمييز ما يشوبه من الباطل ليجتنَب، وإنّما هو رياء السياسة العصرية المعهود من سائر الدول في معاملة من يعدّه أهلها عدوًّا لهم، يحاكمونه لأجل إدانته والحكم عليه. ولا يُعدمون ما يثبتون به التهمة من الأفك والتأويل، وليس لأحكامهم معقب من استئناف أونقض وإبرام في فند ما يأفكون!

ـ تعمّد جمال باشا للظلم وضرره

راجع قول الكاتب عن جمال باشا أنه لمّا صمّم على شنق الجماعة « استدعى إليه شكري بك رئيس الديوان العرفي في عاليه، إلى الشام وأعطاه على ما علمت من شكري بك نفسه أسماء أربعين شخصًا يجب أن يحكم عليهم بالموت! فراوده شكري بك كثيرًا ودافع كثيرًا فتهدّده بالقتل ... إلخ » (آخر ص ١٣١ وأول ص ١٣٢).

٣ـ كنّا نعتقد أنّ هذه الخطّة خطّة جهل وغرور لأنها تكون سببًا طبيعيًّا ليأس العرب من هذه الدولة وحملهم على الخروج عليها، في الوقت الذي يجب فيه من توثيق روابط الإخاء والولاء ما لا يجب مثله في غيره، لأنه أرجى الأسباب لانتصارها، فقوّتُهُ من أعظم الأسباب لانكسارها، وعندما بلغتنا أنباء فعائله، بل فظائعه، قلت لبعض إخواننا إنّني أتمنى لو أمكنني أن أصل إلى جمال باشا لأبيّن له خطأه والخطر على الدولة منه. فكانوا يقولون لي: إذًا يبدأ بقتلك وصلبك ولا يرجع عن ضلاله.

ـ تأثير ثورة الحجاز وكبح جماح جمال باشا

وقد ظهر أنّ الحقّ كان معهم فإنّ الكاتب بذل له هذا النصح فلم يسمع له، بل لولا صداقته لأنور وطلعت لفتك به، فإنّ هؤلاء المغرورين كانوا يظنّون أنّ البلاد العربية التي جنّدوا منها خمسمائة ألف مقاتل تظلّ خاضعة لهم حتّى بعد اليأس من إمكان حفظ لغة شعبها ودينها والأمن على وطنها في ظل دولتهم؟ وإنّ الخضوع بقوّة الإرهاب، خير من الخضوع بوازع الإخلاص؟ وكانت الحرب خير الفرص لاستمالة من نفّرهم الاتّحاديون

من الدولة وأيأسوهم من حفظ حقوقهم أو حياتهم معها، فعند الشدائد تذهب الأحقاد، ولكنّهم زادهم نفورًا. وتأمل كيف كانت انكلترة تبالغ في مدح أهل الهند ومصر، وفرنسة تبالغ في مدح أهل تونس والجزائر. راجع (في ص ٢٠٣) قول الكاتب في رئيس "قومسيون التهجير" نوري بك المفسد: أنه كان يكره في الباطن جمالاً وطلعت وكلّ رجال جمعيّة الاتّحاد والترقّي ولكنه كان يغري جمالاً بالنفي والتغريب انتقامًا منهم لعلمه أنّ هذه الأعمال ليس وراءها إلاّ الخراب وقيام الأهالي، وقد نبّهنا جمالاً إلى هذا الأمر وحذّرناه من نوري وأحزابه ومن أقوال الجواسيس ... إلخ.

٤ـ كنّا نعتقد أنّ ثورة الحجاز توقف بغي جمال عند حدّ، وأنه هو الذي جعلها ضربةَ لازبٍ لا مناص منها ولا مفر، وذلك أنّ الفارّين من بغي جمال باشا هم الذين جرّأوا الشريف حسينًا على ما كان يهواه من الثورة، وهم الذين قاموا مع الضبّاط العراقيين بأثقل أعبائها.

وقد كان الأمر كذلك كما بيّنه الأمير شكيب في فصل خاص من مقاله، فراجعه في (ص ٢٠٧) وما بعدها، فقد صرّح في أوله بأنّ جمالاً خاف العواقب فعدل عن المخاشنة إلى المحاسنة. وبأنه استدعاه هو وبعض زعماء العشائر (وسمّاهم) وتكلّم معهم في اتّحاد العرب والترك وفي مقاصد الدولة العليّة الحقيقية، (قال) وأفاض بكلام بعضه صحيح وبعضه سياسة، والتمس منّا السهر على الأمانة للدولة، وأنا وإن كنت لم أصدّق كلامه في البراءة من السياسة، الطورانية ... لم أخالفه في الطعن بسياسة الشريف من جهة محالفته لإنكلترة وتصديقه لمعاهداتها ... إلخ.

ثمَّ ذكر أنّ توفيق بك الذي جعله جمال باشا وكيلاً لولاية الشام اجتهد في إقناعه بوجود مؤامرة على قتله وخلع طاعة الدولة، وأنه مع ذلك اضطرّ إلى الاكتفاء بالحبس، ولم يتجاوزه إلى القتل، ـ أي بعد أن كان يقتل بغير ذنب؛ وذكر ما قيل من أنّ الآستانة أنذرته في هذه الكرة إنذارًا شديدًا بأن يعدل عن خطّته المعهودة لأنه قد طفح الكيل ... إلخ.

ـ اختلاف رأي الألمان والاتحاديين في العرب

وقد كنت صرّحت بما يجري من هذا التأثير في مقالة (المسألة العربية) التاريخية التي نشرت في الجزء الأول من المجلّد العشرين الذي صدر في شوال سنة ١٣٣٥ (يوليو سنة

١٩١٧) بعد أن حذفت المراقبة البريطانية منها ما حذفت، وكانت كتبت في السنة التي قبل هذه السنة. ثمَّ صرّحت في الفصل السابع من الرحلة الحجازية «بأنّ الثورة الحجازية قد أدّت وظيفتها، وأفادت ما رجوناه منها فأنقذت الحجاز وأوقفت بغي البغاة» ولكن خاب سعيي في إيقافها عند هذا الحدّ، حتّى لا نكون من أسباب انكسار الدولة في الحرب، كما بيّنته في مواضع متعدّدة بالتلميح عند العجز عن التصريح، ثمَّ بالتصريح عقب زوال المراقبة.

٥ـ كنت أعتقد أنّ المصلحة العامّة للبشر عامّة وللشعوب المستضعفة خاصّة أن تنتهي الحرب الكبرى بهدّ قوى الحلفين القائمين بها جميعًا وعود التوازن بين دولهما في عهد الضعف إلى ما كان عليه في عهد القوّة، وإلاّ فبانتصار الحلف الذي فيه الدولة العثمانية، وكان يخالفني في هذا بعض من أكاشفهم به حتّى من المسلمين، قائلين أنّ الاتّحاديين إذا انتصروا لا يقف بغيهم عند حدّ، فهم سيقضون على الأمّة العربية قضاءً مبرمًا، ويستعبدونها استعبادًا لا تقوم لها بعدها قائمة، وسيقضون أيضًا على الدين الإسلامي متمّمين ما بدأوا به. وكنت أجيب بأنني أعلم من سوء نيّة زعماء الاتّحاديين فوق ما تعلمون، ولكنّني أعتقد أنّ الألمان لا يمكّنونهم من مثل هذا الإفساد الذي يضطّرون إلى السكوت لهم عليه في زمن الحرب اتّقاءً للفشل فيها، وأنه لا بدَّ أن يقدّر الألمان من قدر الأمّة العربية ما لا يقدّره هؤلاء الاتّحاديون المتطرّفون، وإنّ الشعب التركي الذي يغلب عليه التديّن بالإسلام سيكون عونًا لنا وللألمان عليهم.

ـ رجوع الاتحاديين عن ضلالهم القديم

وقد ذكر الأمير شكيب في مقالته ما يؤيّد هذا الرأي، وما سبق له في هذه السبيل من السعي، وهو ما ذكره في ص ١٣٢ من سعيه لدى قنصل ألمانية في الشام ليتوسّل بنفوذ حكومته لدى حليفتها بمنع فظائع جمال باشا لأنّ الضرر يعود عليها من ذلك وقوله «إنّ قتل هؤلاء الجماعة سيحدث بين العرب والترك فتنة لا نهاية لها فتكونون زدتم الدول الائتلافية قوّة أمّة جديدة هي الأمّة العربية» وقول القنصل بعد إخباره إيّاه بعجز سفارتهم في الآستانة عن عمل شيء في هذا الباب: إنّ الأتراك سيندمون على هذا العمل ـ ثمَّ ما ذكره في ص ١٣٣ من سعيه لدى (فون كولمان) الذي كان سفير الدولة الألمانية في الآستانة لجعل الترك والعرب كالنمسة والمجر ـ ثمَّ لدى خلفه (الكونت برنستورف) الذي كان يصرّح بأنه على هذا الرأي ... إلخ.

فثبت بهذا أنّ آراءنا كانت صحيحة لأنها مبنيّة على الرويّة والتدقيق في البحث عن الحقّ، ولكنّني لم أكن آمنًا من عاقبة غرور الاتّحاديين وتهوّرهم إذا انتصروا، ولا يائسًا من رحمة الله بهذه الأمّة إذا انكسرت الدولة بسوء تصرّفهم، ولا محل ليشرح هذا هنا.

هذا وأننا سنعود إلى شيء من هذا البحث في الرحلة الأوربية ونبيّن فيها ما كان من شدّة نفور السواد الأعظم من الترك من أعمال الاتّحاديين وإضمارهم للثورة عليهم بعد الحرب، ومن منع الغازي مصطفى كمال باشا لزعمائهم من دخول الأناضول مدّة الحرب لكراهة الأمّة لهم، وحذرًا من وقوع الشقاق بوجودهم، وما علمناه ممّا لقينا من الاتّحاديين أنفسهم من اعترافهم بخطأهم في المسألتين العربية والإسلامية،ومن سعيهم الآن لتكوين الجامعة الإسلامية، مع عدم الرجوع عن الجنسية الطورانية، وقد تولّى جمال باشا أفضل عمل يمكن عمله للجامعة الإسلامية وهو تنظيم الجيش الأفغاني الباسل. ولكن وردت الأنباء بأنّ بعض أشقياء الأرمن قد اغتاله في القوقاس منصرفًا من أوربة إلى الأفغان. ولا شكّ أن فقده الآن خسارة كبيرة لأنه كان قائمًا بعمل عظيم، ولكن رجال الثورات قلّما يموتون حتف أنوفهم.

حديث الأمير شكيب أرسلان *

استمساكه بالجامعة العثمانية من قبل والبواعث عليه - صك التقسيم القديم حكاية يحيي الأطرش مع الفرنسويين في جزيرة رودس - حديث عن الحرب في طرابلس الغرب - وحكاية الهجوم على ترعة السويس - المعتقلون اللبنانيون في القدس البلدة جميلة ولكنهم لا يطربون - العفو الشامل بعد حين - انقلاب جمال إلى الشدة بعد اللين

كنت من أول نشأتي لا أميل إلى دول الحلفاء لا لسببٍ خاص أو لهوى شخصي، بل لما كنت مطّلعًا عليه من دسائس قنصليّاتهم في سوريا، وعلى الخصوص في لبنان، مّما لو حاولت أن أسرد ما أعلمه منه لأوعب مجلّدًا. ولم يكن ميلي إلى الترك واستمساكي بعروة الجامعة العثمانية يومئذٍ لمجرّد محبّتي للترك، بل لمجرّد نفرتي من هاتيك الدول التي لم تزل تعمل في الخفاء لتقسيم بلادنا، وهي تزعم أنها إنّما تعمل لخيرنا وسعادتنا. فقد كنت أعلم أنّ البلاد العربية وبالأخص سورية غير مجهّزة تجهيزًا كافيًا يمكنه أن يقيها خطر الاستيلاء الإفرنجي فكنت أرى في الترك حاجزًا من جملة موانع هذا الاستيلاء. ولعلّ كثيرًا من قرّاء «المرآة» ومن الجالية السورية في العالم الأميركي يخالفونني في مذهبي هذا ويؤثرون الإفرنج على الترك ولا يرون شرًّا أعظم من وجود هؤلاء. فأمّا أنا فكنت أرى الترك أقل خطرًا على العرب من الإفرنج، وأنّ العرب قد يسابقون الترك في المدنيّة ويتقدّمون إلى الإمام مهما أقام الترك أمامهم من الحواجز، وأنّ الأمور الاقتصادية لا يزاحم الترك فيها العرب في قليل ولا كثير بخلاف الإفرنج الذين لا يطمعون في بلادنا إلاّ من أجل مزاحمتنا على موارد الرزق.
وكانت الدولة العثمانية ذات قانون أساسي يسوّي بين التركي والعربي والأرناؤوطي والكردي والرومي والأرمني ... إلخ، وبين المسلم والمسيحي واليهودي ... إلخ، وكانت الوظائف الانتخابية في سوريا مقسومة بين المسلم وغير المسلم مهما قلّ عدد الطوائف غير المسلمة ولأضرب لك مثلاً من أمثال لا تعدّ ولا تحصى، وهو أنّ في طبريا ألوفًا من المسلمين وألوفًا من اليهود و٧٠ مسيحيًّا كاثوليكيًّا و١٢ مسيحيًّا أرثوذكسيًّا، فكان لهؤلاء المسيحيين حتّى الإثني عشر أرثوذكسيًّا عضو في المحكمة وعضو في مجلس أدارة القضاء. وكان في لواء نابلس ثلاثة آلاف مسيحي بين مائتي ألف مسلم سنّي ومع أنّ المسيحيين بهذه الأقليّة كانت

* مرآة الغرب اليومية ١٩و٣١ آذار ١٩٢٧، ١و١٢و١٩و٢٧ نيسان ١٩٢٧، ٢و٥و٢٦ أيار ١٩٢٧.

لهم عدّة أعضاء في مجلس إدارة نابلس ومحاكمها. وأغرب من هذا أنّ اليهود مع قلّة عددهم في كلّ مكان كان منهم أعضاء يمثّلونهم في المجالس والمحاكم. وأغرب من الأغرب أنّ طائفة السَّمَرة[1] التي لم يبقَ منها في الدنيا إلاّ ٦٢ رجلاً ساكنين في مدينة نابلس وهم أفقر فقرائها كان منهم مستخدمون في الحكومة يمثّلونهم. وهلمّ جرّا.

وكان منّا نحن العرب أكثر من ثلث مجلس المبعوثين ومنّا عدد عديد في مجلس الشيوخ ومنّا ولاة ومتصرّفون وقوّام مقامات وقضاة لا يأخذهم الإحصاء وقوّاد كثيرون برتبة فريق ولواء وثلاثة إلى أربعة آلاف ضابط في الجيش العثماني.

فكنت أرى أننا من أصحاب المملكة ولسنا بأهل مستعمرة وأنه يسهل علينا أن نتملّص من الترك في يوم من الأيام، أكثر من أن نتملّص من الأوروبيين الذين يملكون بالعسف والجور ووسائل علمية لا يملكها الترك. ولقد كان بعض الشرقيين يظنّون أنّ الإفرنج وإن ظلمونا وآثروا أنفسهم علينا فإنّ ظلمهم يكون مستورًا بغطاء المدنيّة مموّهًا بطلاء الإنسانية، على حدّ ما قال حافظ ابراهيم:

لقد كان فينا الظلم فوضى فهُذّبت   حواشيه حتّى صار ظلمًا منظّما

فكنت أخالفهم في هذا الظنّ وأذهب إلى أنّ ظلم الإفرنج خالٍ من صفة التهذيب أيضًا، وأنّ الناس عندنا في غرور من جهتهم وذلك لأني كنت أقرأ كثيرًا في تواريخ مستعمراتهم فأعلم ما يجري فيها من المظالم والمغارم وما يصيب أهلها المستضعفين من الفظائع والفجائع... ولقد تحقّق كلامي بما رآه الناس بعد الاحتلال من أجل هذا وأشباهه كنت من أنصار الاتّحاد العثماني، وكنت أسمّي الترك «أهون الشرّين» وعندما كنت أمازح طلعت باشا أقول له ذلك بالصراحة.

وكنت أميل إلى ألمانيا من بين دول أوروبا، لا لعلّة خاصّة، بل لكونها لا تطمع في بلادنا كفرنسا وإنكلترا، ولو كانت ألمانيا هي الطامحة إلى بلادنا لكان ميلي إلى فرنسا. ويقول أناس: لو تمكّنت ألمانيا من أخذ بلادنا لكنت ترى كيف تأخذها! وهذا أمر لا جدال فيه ولكنّنا نحن بإزاء وقائع وأفعال لا بإزاء نيّات وافتراضات. فمن جملة هذه الوقائع أنّ فرنسا وإنكلترا من زمن قديم طامحتان إلى البلاد العربية، ولا سيّما سوريا فنحن حقيقون بأن

(١) السمرة: يقصد السامريّون.

نمالئ كلّ من يناوءهما[1] حتّى تعدلا عن هذه المطامع في بلادنا فعند ذلك لا يبقى بيننا وبينهما أدنى عداء او جفاء. وليس لنا أن نحاسب ألمانيا على افتراض ماذا كان يمكن أن تعمله لو لاحت لها فرصة.

وقد يوجد من السوريين من لا يشاطرني هذه الآراء وهذه الميول، ولكن ذلك لا يقدّم ولا يؤخّر شيئًا في هذا المقام، لأني في هذه المقالات المتسلسلة لست أنشد رضى أحد ولا غضب أحد، وإنّما لأسرد تاريخ ما علمته وخبر ما عملته على وجهه مصرّحًا برأيي ووجهتي على ما هما عليه لا على ما يوافق هوى زيد وعمرو.

وكنت أعلم من مجرى الحوادث أنّ أصحابنا الإنكليز والفرنسيس يتحيّنون الفرص للاستيلاء على الشرق الأدنى ويتقاسموا أصقاعه تقاسم الورّاث لتركة شرعية.

وسنة ١٩١٢ وقّعت هاتان الدولتان على أول صك من صكوك هذه المقاسمة ولكنّهما أبقتا الأمر في طيّ الكتمان. وكان لبعض الدروز حسن ظنّ في الإنكليز فلمّا شاع هذا الخبر وكان الناس بين مصدّق ومكذّب، ذهب منهم أناس إلى قنصليّة إنكلترا في بيروت يسألونها عن صحّة الإشاعة فلم يحظوا بجواب صريح. ووجدت تلك السنة في الآستانة فقصدت سفارة إنكلترا للاستعلام عن خبر اقتسام سوريا فأجابني "ڤيس موريس" مستشار السفارة بالإنكار الباتّ وقال: إنّ هذا من أقاويل الجرائد الراجمة بالغيب.

والحقيقة أنه يكذب فيما يقول وأنّ الخبر كان صحيحًا. فقلت له: قد تقاسمتم مصر ومراكش سنة ١٩١٢ بموجب معاهدة سريّة أنكرتموها أولاً ثمَّ لم تلبث أن ظهرت حقيقتها. وسنرى أنّ اتّفاقكم مع فرنسا على سوريا وفلسطين وإن أنكرتموه الآن سيظهر فيما بعد. وهكذا حصل.

وكانت شبّت فتنة في حوران ساقت من أجلها الدولة العثمانية حملة على جبل الدروز بقيادة سامي باشا الفاروقي وذلك سنة ١٩١٠ فاستسلم إلى سامي باشا بعض زعماء أكبرهم يحيي بك الأطرش. فنفاه سامي باشا إلى رودس. وسنة ١٩١١ نشبت حرب طرابلس الغرب فأرادت إيطاليا أن تضغط على تركيا فأنزلت عساكرها في رودس وما جاورها من الجزر ـ حيث لا تزال ـ ووجدت فيها عددًا من المنفيين أطلقت سراحهم.

---

(١) يناوءهما: هكذا وردت.

ولمّا وصلت إلى يحيي الأطرش أبقته قيد الاعتقال إلى أن خاطبت فرنسا في أمره. فورد الجواب بأنه يمكن إطلاق سراحه فيما لو أعطى على نفسه تعهّدًا بالورق بأنه عندما تذهب فرنسا إلى سوريا يكون هو على رأس الدروز في خدمة فرنسا. وكان المرحوم يحيي بك يجهل القراءة والكتابة وكان جلّ رغبته في الخلاص من الأسر فقال لهم: إن كنتم لا تمنّون عليّ بالخلاص إلاّ على هذا الشرط فاكتبوا التعهّد الذي تريدونه حتّى أضع عليه ختمي، فأمّا أن أضع إمضائي بخطّي فلست بكاتب ولا قارئ. فحرّروا عليه الصك الذي أرادوه وأذنوا له بالانصراف إلى الإسكندرية حيث وكّلوا به رجلاً سوريًا من أصدقاء فرنسا يراقبه في غدواته وروحاته...

ومن هنا يعلم القارئ أنّ مسألة سوريا كانت داخلة في التقسيم الذي أجرته الدول الثلاث وخرجت به طرابلس الغرب في نصيب إيطاليا. فكانت كلّ دولة منهنّ تناصر الأخرى في إحراز حصّتها على حدّ ـ أضئ لي لأقدح لك. وقد كان هذا التقسيم الذي قسّمته دول الحلفاء منذ سنة ١٩٠٢ إلى سنة ١٩١٢ في إفريقيا وآسيا واستأثرت فيه إنكلترا بمصر ثمَّ بفلسطين وفرنسا بمراكش ثمَّ بسوريا وإيطاليا بطرابلس الغرب العامل الأكبر في الحرب العامّة بما هاج من حقد ألمانيا التي تألّبوا على حرمانها وإبقائها خارجًا ومن حقد تركيا التي كان الحلفاء تقاسموا تركتها وهي بعد في الحياة.

وكنت في الجبل الأخضر من طرابلس الغرب مجاهدًا مع قومي العرب ذهبت إلى هناك ومعي خمسة من أتباعي سالكًا طريق البرّ فوصلت إلى معسكر انور في عين منصور فوق درنة وشهدتُ هناك الوقائع بنفسي. ومرّة كنت أنا وأنور ومصطفى كمال في وسط المعمعة من الصبح إلى أن خيّم الظلام. وبقيت في تلك البلاد ثمانية أشهر إلى أن أوشكت حرب البلقان أن تنشب فمالت الدولة إلى مصالحة إيطاليا حتّى لا نقع في حربٍ مع الدول البلقانية الأربع ومع إيطاليا معًا. فانقضت السياسة أن أذهب إلى الآستانة مقترحًا بعض أمور توجبها المصلحة وفصلت من عين منصور في أواخر تموز سنة ١٩١٢ قاصدًا مصر. ولمّا وصلت إلى الإسكندرية وجدت المرحوم أحمد بك العريس ينتظرني في محطّة مريوط من قبل الجناب الخديوي العالي ويدعوني بأمر سموّه إلى النزول في سراي رأس التين فذهبت رأسًا إلى السراي وتشرّفتُ بمقابلة الجناب العالي وهو الذي أخبرني بوجود يحيي بك الأطرش في الإسكندرية ولم يلبث أن أرسل إليه بأني هناك في السراي فهرول يحيى بك

يبغي مشاهدتي وأقمنا بالإسكندرية عدّة أيّام، أخذت في أثنائها يحيي بك إلى رؤوف باشا مندوب الدولة السامي في مصر، وحكيت له قصّة نفي سامي باشا الفاروقي إيّاه بعد استسلامه إليه وأنه مع ذلك أصبح الآن طليقًا. فعفو الدولة عنه وتمكّنه من الرجوع إلى وطنه أولى من بقائه بمصر يلعب بعقله الأجانب ويغرونه بالحركات في جبل الدروز. فأبرق رؤوف باشا إلى الآستانة وورد إليه الجواب بالعفو وسافرنا من بور سعيد معًا في الباخرة فنزل هو في بيروت ومضيت أنا إلى الآستانة. وكان يحيي بك أسرَّ إلى أحد أصدقائه في الإسكندرية قضيّة التعهّد الذي أخذوه منه في رودس. وكان صديقه هذا صديقًا لي فقصّ عليّ الخبر كما هو، وتجنّبت أنا أن أسأل يحيى عنه خشية أن يجمجم أو يتحيّر في الجواب. فبينما نحن على ظهر الباخرة بين بور سعيد وبيروت لم يملك المرحوم يحيي نفسه أن يكاشفني بما جرى معه، حتّى أكون على علم بما تنويه فرنسا نحو سوريا...

وقد انتقل يحيي بك إلى رحمة ربّه في أوائل الحرب العامّة.

ومرّة جاء أمر من الآستانة بأن تكتب عناوين المخازن والفنادق بالتركي بحرف كبير، وأنّه إذا كان أصحاب المخازن والدكاكين والفنادق يريدون أن يكتبوا على الألواح التي فوق أبواب دكاكينهم وحوانيتهم بغير التركي فلهم ذلك، بشرط أن يكون الذي هو بغير التركي مكتوبًا بحرف دقيق، وأن لا يتجاوز في المساحة نصف السطر الأعلى الذي هو بالتركي. وكنت نازلاً في دمشق بأوتل إسمه "كوكب الشرق"، فسمعت مرّة ضوضاء عند الباب وجدالاً بين صاحب الأوتل واثنين من رجال البوليس، فنزلت لأرى ما هنالك فعلمت أنّ البوليس يريد إنزال اللوحة المرفوعة فوق باب الفندق لكونه مكتوبًا عليها "أوتل كوكب الشرق" والحال أنه ينبغي أن يكتب "كوكب الشرق أوتلي"، فقلت للبوليس من أين تلقّيتم هذا الأمر؟ فقالوا: من مدير البوليس. فذهبت إلى الوالي خلوصي بك وقد أخذ منّي الحنق مأخذه، وقلت له: ما هذا الأمر الغريب الذي جئتم تنفّذونه؟ إذن صحيح أنّ هنالك عملية تتريك بدت مقدّماتها، إذ بدونها لا يمكن تأويل هذا العمل. فقال لي: نعم، هذا أمر غير معقول لكنّي غير مسوءول عنه وإن أردت أن تسأل فسل أصحابك الاتّحاديين في الآستانة. فأحببت الإطّلاع على الأمر فقال لي: أنا لم أتدخّل فيه وحوّلته إلى مدير البوليس فاستطلعه من هناك. فذهبتُ إلى مدير البوليس، وكان اسمه توفيق بك، وكان تركيًا متعصّبًا فطلبت منه اطّلاعي على الأمر فأطلعني عليه. فقلت له: إنّنا نحن المبعوثين لا نسكت عن هذه القضيّة.

فقال لي: هذا لا يعنيني وإنّما بيدي أمر لا بدَّ لي من تنفيذه. ولقد فعل كما قال ونفّذه بالحرف. فما مضت أيّام حتّى رأيت فوق جميع الدكاكين والحوانيت ألواحًا مكتوبًا عليها بالتركية "ميوه جي" و "شكرجي" و "زرزواتجي" و "قيومجي" وهلمّ جرّا.

فأجمعت السفر إلى الآستانة لطرح هذه المسئلة في مجلس المبعوثين أو تلغي الحكومة هذا الأمر المهين للعرب والعربية. وقد ساء وقع هذا الأمر في الشام وتذاكرنا فيه بمنزل محمَّد باشا العظم. إلاّ أني ما علمت أنّ أحدًا اعترض على الحكومة فيه مواجهة غير هذا العاجز.

وحضر في ذينك اليومين إلى دمشق عزمي بك والي بيروت فذهبت إليه أسأله عن هذا الأمر. فأجاب أولاً بالنفي قائلاً أنّ ما بلغني كان غلطًا. وكأنّه اعتقد أني لم أطّلع على الأمر. فقلت له إنّي رأيت الأمر بعيني وأنه لا سبيل للمكابرة فيه. فأخذ يموّه ويغالط وظهر لي أنه يتجاهل صدور أمر كهذا لاعتقاده الضرر الذي ينشأ عنه وربّما يكون راجع الآستانة في إلغائه وعلى كلّ حال هو لم يطبّقه في ولاية بيروت.

ولمّا ذهبت إلى الآستانة تاركًا سورية وناويًا أن لا أعود إليها ما دام جمال باشا فيها عاتبت طلعت باشا على هذا الأمر الذي فيه ما فيه من تحقير اللغة العربية والعرب. فأقسم جهد إيمانه أنه لم يكن بحقّ العربية، بل بحقّ الرومية والأرمنية واللغات الأوروبية. وإنّ هذا الفرق كان ينبغي الملاحظة عليه فأغفلوه بطريق السهو ثمَّ عادوا فنبَّهوا عليه.

قصدنا بهذه الاستطرادات ذكر شيء من خبر خلوصي بك الذي كان واليًا في الشام لأول الحرب، وكان من قبلها ناظرًا للسكّة الحديديّة الحجازيّة وتولّى مرّة نظارة النافعة وكان من أفاضل الأتراك والمنصفين منهم. وحمله أنصافه على ترك منصبه.

ثمَّ أقول أنه قبل أن أنفذ جمال حكم القتل في القافلة الأولى تلاقيت في صوفر مع العلاّمة الأستاذ السيّد حبيب العبيدي مفتي الموصل الحالي، وكان يومئذٍ في سوريا من دعاة الاتّحاد بين العرب والترك وله منزلة عند جمال باشا. فبينما كنّا نتذاكر في الشؤون سألني عمّا أظنّه من أمر أولئك المعتقلين في عاليه ماذا تكون درجة جزائهم. فأجبته: إنّي لا أظنّ أنّ جزاءهم يتجاوز حدّ النفي. فأجابني: إنّه يخشى عليهم أكثر من ذلك. فخالفته في هذا الرأي.

وكان عزمي بك والي بيروت عندما جاء واليًا مكان بكر سامي بك مرَّ بصوفر

فرجوته بأن يشفع بالمعتقلين حتّى لا تعدم حياة أحد. فقال لي: هذا شيء لن يكون فلا تخف عليهم. فاعتقدت أنه عالم بنيّة جمال باشا وأنه يتكلّم عن علم. فلمّا نفّذ فيهم الحكم المشؤوم تذكّرت كلام السيّد حبيب. وعندما تيسّر لي لقاؤه سألته كيف عرف نيّة جمال باشا بحقّهم. فقال لي: دخلت على جمال باشا في مقرّه بفندق صوفر الكبير فوجدته يرتجف غضبًا ورأيت لحيته ترقص. وكانوا قد أتوا إليه بأوراق تثبت استمرار الحركات على الدولة حسبما قال. فالتفت نحوي وقال لي: سأريهم ماذا أفعل... وكان كلامه كلام من ينوي البطش.

وقد سبق لنا القول بأنّ المرحوم كامل بك الأسعد دعا جمال باشا إلى منزله في الطيبة في بلاد بشارة ودعاني معه ودعا كثيرين. فذهبنا من صوفر إلى عين زحلتا إلى بيت الدين وبتنا هاتيك الليلة في بيت الدين. جمال باشا وحاشيته في قصر الأمير بشير وأنا في كرسي سيادة المطران بصبوص. وكان عصر ذلك النهار شاع خبر دخول إيطاليا الحرب فعلاً. فشقّ - عليّ - هذا الخبر إلى أن كدت لا أعي من الغم وكنت ألاحظ جمال باشا فلا أجد عليه أدنى علامة همٍّ أو غمٍّ أو اكتراث بهذا الخبر، حتّى كأنّ دخول إيطاليا لا يقدّم ولا يؤخّر في الحرب كحبّة الخردلة. وهذا ما كان يقضي بدهشتي من حالته هذه. إذ كنت لا أستطيع أن أفهم أنّ قائدًا كبيرًا من قوّاد الدولة العثمانية يعلم أنّ في وجه ألمانيا وحليفاتها وكلهنّ ١٢٠ مليون نسمة دولاً مجموعها من مستعمراتها ٦٥٠ مليونًا وهي بدون مستعمراتها نحو ٢٥٠ مليونًا (وهذا قبل دخول أميركا لا بل قبل دخول رومانيا) وإنّ هذه الدول التي تحاربنا والتي مجموع رعاياها ٦٥٠ مليونًا قد ازدادت الآن دولة عظيمة أوروبية عدد نفوسها ٤٢ مليونًا وعدد جيشها ثلاثة ملايين ممّا تزداد به كفّة الدول الائتلافية رجحانًا على رجحان على رجحان، يعلم هذا ولا يكترث له ولا يتغيّر وجهه ولا تتبدّل حركته كأنه حادث معتاد. فلم أقدر أنَ أعلّل ذلك برباطة جأش ولا ثبات جنان، وكنت أرى أنّ رباطة الجأش لا تمنع الهمّ والغمّ عند الحادث الجلل الذي تترتّب عليه نتائج خطيرة كهذه وما حملته إذ ذاك إلاّ على سكرة العزّ وارنِ الجِماح ممّا يحول بين صاحبه وبين النظر في العواقب. وقد تلاقيت فيما بعد مع خلوصي بك وكاشفته بما وقع في نفسي من جهة جمال باشا، عندما رأيته يسمع خبر انحياز إيطاليا إلى الدول الائتلافية، ولا يزال يضحك ويمزح ويمشي في الأرض مرحًا وقلت له: ما رأيت ذلك منه ثباتًا ولكن غرورًا وبطرًا. فقال لي

خلوصي بك: أمّا أنا فمذ تحقّقت خبر دخول إيطاليا في الحرب مرضت من شدّة الغمّ ولزمت الفراش ثلاثة أيّام لأني أعلم عواقب هذه الزيادة الجديدة في قوّة أعدائنا.

جلسنا في المساء على مائدة العشاء وكانت موضوعة في إيوان طالما كنّا نجلس فيه ونسمر عند المرحوم نعوم باشا متصرّف لبنان الأسبق، وذلك قبل الحرب العامّة بخمس عشرة سنة. وكان القائد على رأس المائدة، وكان على يمينه علي فؤاد بك الميرالاي رئيس أركان الحرب وكان هذا العاجز على اليسار وما بدأنا بالطعام حتّى قال لي جمال: أعلمت بحادث اليوم؟ فما شككت بأنه يقصد حادث دخول إيطاليا في الحرب فقلت له: نعم، سمعت أنّ الخبر عاد فتحقّق مع الأسف. قال أي خبر؟ قلت: أفلا تعني دخول إيطاليا في الحرب؟ قال: لا بل خبر بيروت. فلم تأتِ في بالي حادثة الشنق وقلت له: هل جرى شيء في بيروت؟ قال: حادث الذين حكم عليهم بالشنق. فعلمت حينئذٍ أنّ المعتقلين في عاليه قد شنقوا وأنّ السيّد حبيب العبيدي كان مصيبًا في فراسته، وظهرت عليّ علامات الاضطراب لا سيّما أنّ من المعتقلين من كانوا أصدقاء لي خصوصًا رضى بك الصلح فتجلّدتُ وقلت له: من يا ترى الذين أنفذ فيهم حكم الشنق؟ فعدّهم واحدًا واحدًا فكانوا ١١ شخصًا. ولمّا لم يذكر بينهم رضى بك الصلح سكن روعي قليلاً، إلاّ أني بقيت مضطربًا وصرت أفكر في قتل ابن حيدر وابن عبد الهادي ولم أقدر على إخفاء ألمي ممّا سمعت، ولكن لزمت الصمت. فلمّا رأى جمال ما بي قال لي: أراك وجمت كثيرًا. فقلت له: «أنتم العسكرية لا تبالون بقضيّة القتل، بخلافنا نحن الذين لسنا بعسكر، فإنّ عقليّتنا من هذه الجهة غير عقليّتكم» هذا الذي حضرني من الجواب في ذلك الموقف الحرج.

ثمَّ قال: من الذي عزَّ عليك به أكثر من الجميع؟ فكنت في الواقع مغتاظًا من قتل الجميع لأسباب كرّرناها كثيرًا بما يغني عن الإعادة ولكنّي أحببت أن أحتجن بعض ما في نفسي وأصارح بالبعض الآخر فقلت له: أبناء حيدر أصحابي وأنا أبلغتهم أمرك بإحضار ابنهم، وبأنه لا خوف عليه ما دام بريئًا. فقال: إلاّ أنه في الحاكمة لم تظهر براءته. فلم أضبط نفسي من أن أقول له وقد كادت اللقمة تقف في حلقومي: «يا ليتني لم أبلغهم شيئًا عن أمرك. ماذا يعنيني من هذه الأمور» ثمَّ قال: ثمَّ من عزَّ عليك به عدا ابن حيدر؟ فكان لا بدَّ من الجواب. فقلت له: سليم عبد الهادي، فقد كنت أعرفه، وعمّه حافظ باشا صديقي وأخوه أمين بك عبد الهادي زميلاً في المجلس. فسكت عندئذٍ عن محاورتي في هذه المسألة

ولم يتكلّم بشيء عن دخول إيطاليا في الحرب مع أهميّة الحادث. وبعد أن انتهينا من الطعام سمرت سويعة ثمّ صعدت أبيت عند المطران بصبوص، ولمّا وصلنا ثاني يوم إلى جزّين وجدنا السلطة وزعت منشورًا عن أسباب الحكم تذكر فيه خيانة المحكوم عليهم ووجود مراسلات سريّة بينهم وبين المفسدين الذين بمصر. ومن جملة ما ورد في هذا المنشور أنه وجدت كتابات من تلك الجمعية التي بمصر تحرص على قتل أحد مبعوثي الأمّة ... وقد اكتفوا في المنشور بالإشارة ووضع نقط بدون تصريح. ويقال إنّ هذه الكتابات كانت من حقّي بك العظم، وإنّ الذي جرى التحريض على قتله هو محرّر هذه السطور بحجّة أني مع الأتراك. فلمّا اطّلع جمال على المنشور مطبوعًا ورأى عدم التصريح باسمي لم يعجبه ذلك وقال أمام الناس: أخطأوا بعدم التصريح.

أمّا الشنق فقد وقع في الليلة التي انفلق صبحها عن نهار سفرنا من صوفر. فجمال عندما تحرَّك من صوفر كان تلقّى خبر الشنق.

والذي علمناه من أفواه الناس أنّ بعض المشنوقين مثل المرحوم عبد الكريم الخليل والمرحوم حيدر وغيرهما، قد خطبوا خطبًا في غاية الحماسة وهم على دكّة المشنقة على ساحة البرج. وعبد الكريم تكلّم بصراحة على الدولة العربية المستقبلة وضرورة استقلال العرب عن الترك وصالح حيدر طعن في أحمد جمال طعنًا فاحشًا. ولا أتذكّر أسماء الآخرين الذين خطبوا في الدقيقة الأخيرة من حياتهم وأثبتوا من رباطة الجأش وعلوّ النفس ومتانة الأعصاب ما يحقّ لكلّ عربي أن يفتخر به.

ومن الحوادث التي وإن لم تكن من باب السياسة فلا بأس بإيرادها هنا لغرابتها وهي أنّ والدة عبد الكريم الخليل أيّام اعتقال ابنها في عاليه كانت تقيم في تلك القصبة بفندق يقال له: "فندق أنيسة" وكانت كما لا يخفى غائصة في لجج الهواجس كما تكون كلّ والدة ولدها معتقل تحت خطر القتل. ففي الليلة التي سيق فيها المعتقلون إلى بيروت لإنفاذ الحكم بحقّهم استيقظت والدة المرحوم عبد الكريم نحو الساعة الثانية بعد نصف الليل، وهي تعول وتولول وتصيح وا والداه - فهبّ النسوة اللآئي كنَّ نائمات بجانبها مذعورات وسألنها عن سبب هذه الصيحة فأجابت أنها رأت في منامها الجند آخذين بخناق ابنها إلى المشنقة فقلنَ لها: أرقدي يا هذه فلا يوجد شيء ولا محل للخوف، وهذه كلّها أضغاث أحلام وهواجس وخيالات... إلخ، وما زلنَ بها حتّى أقنعنها بالهجوع. ولكن في اليوم التالي صباحًا أخذت

تلك المسكينة خبر شنق ولدها وتحقّق أنه هو ورفاقه سيقوا إلى بيروت في الساعة الثانية بعد نصف الليل أي في الساعة التي هبَّت فيها هي مذعورة برؤيا أخذ ابنها إلى المشنقة.

وممّا يدل على كون أحمد جمال لم يقصد بما عمله المحافظة على الجامعة الإسلامية كما زعم في مذكّراته، وإنّما كان غرضه الأصلي السيادة التركية التورانية المحضة الحكاية الآتية:

عندما خرج الشريف حسين على الدولة كان جمال باشا في دمشق، وكان قد سبق أن وقع بيني وبينه جدال بسبب النفي والقتل، وخطّة العسف التي اتّبعها ممّا سيأتي بيانه في موضعه. فكانت العلاقات بيننا مقطوعة تقريبًا وكنت منتظرًا أول فرصة لمغادرة سوريا إلى الآستانة وكان جمال قد تلقّى خبر عصيان الأميرين علي، وفيصل في أطراف المدينة المنوّرة وشنّهما الغارة على سكّة حديد الحجاز وغير ذلك. لكنّه بقي مؤملاً أنّ هذه الحركة لا تتعدّى الأميرين ومن معهما من الأعراب وأنه وإن كان والدهما الشريف حسين ناقمًا على الدولة بعض أشياء فلن يبلغ به الأمر أن يشقّ عصا الطاعة ويمالىء الحلفاء على دولة الخلافة التي كانت في نظر الناس حامية الإسلام.

ولهذا لمّا تواترت الأخبار بأنّ الشريف حسينًا اتّفق مع الإنكليز، وقرّر الخروج على الدولة العثمانية التي كان من أمرائها، وأنّ هجوم أولاده على الخط الحديدي الحجازي لم يكن إلاّ مقدّمة لإعلانه الحرب على تركيا، بقيَ جمال يعلّل نفسه بأنّ الحسين لا يخطو تلك الخطوة الأخيرة وأنّ الصدع يمكن رأبه.

وفي تلك المدّة ذهب جمال إلى القدس، ولم أقابله، ولا استدعاني، ولا بحث معي في موضوع خروج الشريف ولا في غيره.

وبينما هو في القدس جاءه الخبر اليقين عن الحجاز، وقضي الأمر الذي فيه تستفيان. فاستطير للخبر وخشي من مغبّة حرب الشريف، ما لم يحسب حسابه من حرب دولة أوروبية، كأنه رأى أنّ دعوى الترك بعد ذاك اليوم أنهم إنّما يحاربون من أجل تحرير الإسلام، ستفقد أكثر قوّتها واستشعر أنّ الحلفاء سيستثمرون في العالم الإسلامي خروج ابن رسول الله وأمير مكّة على الدولة التي تزعم أنها دولة الخلافة. وربّما يكون توجَّس خيفة الإنتقاض في المناطق المعهود إليه بحفظها.

والحاصل أنه من بعد ذلك الجفاء وذاك الانقطاع لم أشعر إلاّ وقد جاءني تلغراف من القائد الكبير عن القدس، يشير إليَّ فيه بأن أستدعي سليم الأطرش شيخ مشايخ الدروز،

وابن عمّه نسيب الأطرش شيخ صرخد ـ وكان يومئذٍ ذا كلمة عالية وكان يدير سليمًا كما يريد ـ وكنج أبا صالح شيخ مجدل شمس، وأن نكون في انتظاره في دمشق. وعلمنا أنه استدعى إلى دمشق أيضًا كامل بك الأسعد زعيم زعماء الشيعة. فلم أقدر أن أفسّر هذا التحوّل من الجفاء إلى الوفاء إلاّ أنّ صاحبنا شعر بحرج الموقف وعلم بأنّ الأحوال أصبحت لا تسمح بمعاداة شكيب أرسلان وأمثاله لا بل صار يجب تغيير السيرة معهم وإظهار تعويل الدولة عليهم.

ومن الغريب أنه هو وأكثر الأتراك كانوا يغارون من توسّطنا بين الدروز والدولة ويشيرون إلى الدروز بأن لا يتّخذوا بينهم وبين الدولة وسطاء زاعمين أنهم هم في كلّ وقت مستعدّون لقضاء الحاجات التي تعن لهم. وكانوا في الحقيقة إنّما يقصدون تقطيع ما بيننا وبين من ينضم إلينا ومن يعترف بزعامتنا. وذلك تخلّصًا من الزعامة والزعماء وظنًّا بأنّ هذه العشائر إنّما توقّر أمراءها وتنقاد إليهم من أجل كونهم وقفوا أنفسهم على الإعتناء بعوارض أشغالها والمدافعة عنها لدى الحكومة. فكون جمال يستدعيني بعد الجفوة ويستدعي سليم باشا الأطرش وغيره بواسطتي، بعد أن كان ضدًا لهذه الواسطة جاءني برهانًا على قلق وضين الباشا ونزوعه إلى استرضاء من يعتقد أنّ في رضاهم راحة للدولة، وأنّ في استيائهم ما قد يشغل البال.

ثمَّ حضر الباشا وتلاقينا عنده في منزل على طريق الصالحية نحن وكامل بك الأسعد وكنّا خمسة. كامل بك وسليم باشا، والشيخ أبا محمَّد نسيب الأطرش، والشيخ كنج أبا صالح، وهذا الفقير إليه تعالى.

وهذا كان سنة ١٩١٥ أي منذ ١١ سنة. فمات منّا في بحر هذه السنين الإحدى عشر سليم باشا الأطرش بعد الاحتلال الإفرنسي بثلاث سنوات فيما أتذكّر، وبعد تأمير الفرنسيس إيّاه على جبل الدروز. ومات كامل بك الأسعد في منزله بطيبة بلاد بشارة منذ سنتين فأكثر. وقتل الشيخ نسيب الأطرش في واقعة عرى في هذه الثورة. رحمهم الله جميعًا. ولم يبقَ غيري وغير كنج أبي صالح. ولمّا أراد جمال أن يفتح معنا الحديث، قال لكامل بك: تقدر أن تأتي إليّ غدًا. فعلمت أنه يريد أن يخاطب كلّ فريق بلسانه، وأنه ربّما يريد أن يفضي إلينا بما يود احتجانه عن كامل بك.

ولمّا بدأ بالحديث فهمنا أنه يخشى انحياش جانب من عرب سوريا إلى أمير مكّة

الخارج على الدولة، فأراد أن يتلافى أمر الدروز والمتاولة بحيث لا يخرجون من حظيرة العثمانية ولا يلتحقون بالشريف وحزبه. وكان يهمّه أمر هاتين العشيرتين أكثر من غيرهما لأنهما في مقدّمة أهل السنان والعنان في القطر الشامي. فشرع جمال يبيّن ما تقدّم له من نصائح أهل الشام بضرب جبل الدروز، وما قيل له في تلك العاصمة من أنه لا يهدأ لسوريا حال ما دام هذا الجبل على قوّته، وأنه لم يجب أولئك الناصحين إلى اقتراحاتهم ولمّا راجعوه فيها واستنجزوه العمل قال لهم: أنتم قد أبديتم ما عندكم من الآراء وأحاطت الدولة بها علمًا، ولكن الدولة أدرى بسياستها، وكأنه يريد أن يقول إنّ الشاميّين أو أهل السنّة هم في سوريا أعداء للدروز كانوا ولا يزالون يتربّصون بهم الدوائر، فلا ينبغي لهوءلاء أن ينضمّوا إليهم في هذه الحركة الشريفة. ثمَّ أنه شرع من جهة أخرى يوءكّد أنه لا يعرف سياسة عرب وترك ولا يوافق على هذه التفرقة، وأنّ هذه الأمّة أمّة واحدة، وأنّ كلّ من يجعل بين الترك والعرب فرقًا لا يكون ارتكب خيانة للإسلام فحسب، بل يكون ارتكب خطأً إداريًّا لا يغتفر. وما زال يغرف من هذا حتّى كدنا نقتنع بأنه عارف بخطر الاسترسال إلى السياسة التورانية، وبأنها ستكون وسيلة لتمزيق المملكة.

وكان جوابنا له: بأنّ الدروز لا يحيدون عن طريق الدولة لأنهم يعلمون أنها الدرء الوحيد للبلاد من استيلاء الإفرنج... وغزّزنا كلامه بأنّ سياسة التفريق بين عرب وترك هي جناية في العمل وخطأ في الفكر.

إلاّ أنني بعد يومين من ذلك المجلس تلاقيت مع «الهر لوتيفيت» قنصل ألمانيا وكان صديقًا لجمال باشا ومطّلعًا على أسراره فقال لي: إنّه كان عند جمال هو ورصيفه قنصل النمسا فدار الحديث على «التشيك سلاف» الذين انسلوا من الجيش النمساوي عشرات من الألوف والتحقوا بالروس. فقال لهما جمال: هذا كلّه نتيجة خطأ السياسة النمسوية بإعطائها الحريّة للأمم السلافية التي في النمسا والمجر. فقال له قنصل النمسا: كيف نصنع وفي وفي مملكتنا ٥٤ في المائة من جنس سلافي فهل يمكننا محوهم؟

فقال له جمال: كان يجب عليكم بأيّ وجهٍ كان إذابتهم في الأمّة الحاكمة...

وعند ذلك ازددت يقينًا بأنّ جمالاً كان هذا مبدأ سياسته في تركيا، وأنه كان ممن يرى إدماج العناصر كلّها في العنصر التركي. وأنّ كلّ ما كان يشرحه لي ولمشايخ الدروز في عقم السياسة العنصرية، إنّما كان محض سياسة ومداجاة وتخدير للأعصاب.

ثمَّ إنّي كنت أحادث مرّة جمال باشا في أمر الأمير عمر الجزائري ابن الأمير عبد القادر، وكان ممن صدر الحكم عليه بالشنق بسبب علاقته بفرنسا وظهور أوراق في قنصلية هذه الدولة تثبت خيانته للدولة العثمانية، وتوجب الحكم الذي صدر عليه بحسب قانون الدولة. فقال لي جمال: أتعتقد أنّ الأمير عمر بريء بعد أن ظهرت كلّ هذه الوثائق؟ فقلت له: كلاّ. ولكنّني أرى العفو عنه أولى. قال: ولما يجب أن أعفو عنه؟ قلت من أجل والده الأمير عبد القادر الذي كانت له منزلة سامية في العالم الإسلامي. فأجاب: إذا كانت للأمير عبد القادر الجزائري منزلة سامية في العالم الإسلامي فماذا يخصّني من ذلك؟ وكلّمته بالتركية "بنانه" وترجمتها بالحرف "ماذا لأجلي" فهذا مخالف لتأكيدات جمال باشا في مذكّراته من أنّ إصراره على القصاص إنّما كان من أجل السياسة الإسلامية التي خاضت تركيا بزعمه غمرات الحرب من جرّائها.

وحيث أننا وصلنا إلى قضيّة عائلة الأمير عبد القادر الجزائري واختلاف الأنظار بشأنها، فلا بأس بأن أورد خلاصة ما أراه في هذه المسألة.

الأمير عبدالقادر بن محيي الدين الحسني الجزائري مجاهد عظيم من أعظم مجاهدي الإسلام في القرن التاسع عشر، كافح دولة فرنسا سبع عشرة سنة متوالية إلى أن أرسل آخر سهم بقي في جعبة قوته فاستسلم لها، وترك لنفسه ذكرًا رنّانًا في الخافقين. وقد كسب بجهاده الطويل هذا مجدًا لأولاده وأسرته ولوطنه الجزائر، وللأمّة العربية التي هو منها وللإسلام بأجمعه. وهذا لا نزاع فيه. ثمَّ إنّه بعد أن استسلم لفرنسا صدق وعده لها وأبى أن يخيس بعهده معها وهذا ممّا لا أعيبه عليه، لأنه يجب على المجاهد أن يكون كبيرًا في السلم كما كان كبيرًا في الحرب ولأنّ القرآن الكريم أمر بحفظ العهد وحثَّ على هذه الفضيلة في مواضع عديدة، وأثنى على الموفين بعهدهم وحذّر من النكث كثيرًا "إنّ العهد كان مسئولاً" وقد جاء في كلام سيّدنا علي بن أبي طالب: إنّه ما من شيء ـ الناس مع اختلافهم ـ هم أشد اتّفاقًا عليه من الوفاء بالعهود.

وقد سمحت فرنسا للأمير عبد القادر بعد تسليمه لها بزمن أن يهاجر إلى الشرق فجاء إلى الآستانة واستماح الدولة العثمانية الإذن بالإقامة بالشام فسمحت له بذلك، وأقام بدمشق محفوفًا بالإعزاز والإكرام. ومع أنّ الأمير وأسرته كانوا من تبعة فرنسا وكانت هذه الدولة تنقدهم رواتب شهرية. لم تكن الدولة العثمانية تعاملهم معاملة الغرباء، بل كانوا يتمتّعون

بجميع الحقوق التي يتمتّع بها العثمانيّون وكان اثنان من أولاده الأمير محمَّد باشا والأمير محيي الدين باشا قد أنعم السلطان عبد الحميد عليهما برتبة فريق «جنرال» وجعلهما من أعضاء مجلس التفتيش العسكري. وكذلك ولده الأمير علي انتخب مبعوثًا عن سوريا. ولمّا حصلنا في الآستانة سنة ١٩١٤ وكانت العادة في مجلس الأمّة أن يكون الرئيس تركيًا ونائب الرئيس عربيًا انتخبنا الأمير عليًا رئيسًا ثانيًا لمجلس الأمّة. هذا عدا ما أحرزته هذه الأسرة من الرتب والأوسمة، وما حازته من الأراضي والعقارات في بلاد الشام، ممّا لم تكن لتقدر أن تحوزه لو أبت الدولة ذلك.

فإذا قلنا أنّ أسرة الأمير عبد القادر يجب أن لا تخيس بعهدها مع فرنسا فلا يخرج من وفائها مع فرنسا أنه يجوز لها أن تعمل لمصلحة فرنسا، ولو بخلاف مصلحة الدولة العثمانية التي آوتها ولا نظنّ أنّ الفرنسيس أنفسهم يعدّون هذا عملاً شريفًا بعد أن فتحت الدولة العثمانية لهذه العائلة صدرها وأحلتها من بلادها محل السيادة والكرامة. وإذا نزل الكريم ضيفًا على أحد كان أوجب شيء عليه أن يرعى حقوق الضيافة وأن يكون أمينًا بحق المضيف.

فإذا كان ظهر من أسرة الأمير عبد القادر أو من بعضها ما يخالف هذا الحق المقدّس فيكون غير منتظر من مثلها ولا يتمادى اثنان في تقبيح هذا العمل على من صدر منه...

بقيَ علينا أن نعلم هل برز من هذه الأسرة شيء من هذا القبيل ثبت بالوثائق التي لا تقبل الرد؟

الجواب إنّ جمال باشا ذكر في خاطراته في الصفحة ٣٣٧ ما يلي:

«ولقد وجدنا الوثائق المضبوطة في القنصلية الفرنسية في دمشق تشتمل على أدلّة قويّة، تثبت إدانة كلّ من الأمير علي باشا ابن الأمير عبد القادر وكيل مجلس النوّاب وأخيه الأمير عمر».

أمّا أنا فلم أطّلع على شيء من هذه الوثائق حتّى أعرف هل فيها ما يوجب المؤاخذة أم لا، وإذا صحّ أنّ فيها ما تؤاخذ هذه العائلة عليه فإلى أي درجة تصح مؤاخذتها؟

ولمّا كنت على ثقة من أنّ جمالاً يقصد تبرئة نفسه من تهمة العسف وإثبات أنه لم يضع السيف إلاّ في موضعه، جاز لي أن أسيء الظن في صحّة حديثه، وأن لا أتعجّل في الحكم قبل الاطّلاع على تلك الوثائق.

قصارى ما في الأمر أنّ التواتر يوءيّد دعوى جمال من جهة الأمير عمر الذي كان لا

يخفي ميله إلى فرنسا ولا يفتأ يبث في الشام الدعاية الإفرنسية علنًا. ويقال إنّهم قد وجدوا في تلك الأوراق ما يوجب إدانة المرحوم الأمير علي، وأنه لمّا كان ولده الأمير سعيد قد شرع في محاربة السياسة الفرنسوية وحمل المغاربة الذين في الشام على نبذ تابعيّتها، كتب الأمير علي إلى قنصليّة فرنسا كتابًا يتبرّأ فيه من عمل ابنه. وبلغني أنه لمّا سأل جمال الأمير عليًا عن سبب هذه الكتابة أجابه بأنّ في عائلتهم سيّدات لهنّ رواتب تجري عليهنّ من قنصليّة فرنسا، لو حبست فرنسا هذه الرواتب لوقعنَ في الفقر المدقع فكان مضطرًّا إلى هذه الكتابة دفعًا للضرر ومن باب المصانعة.

وقد كان رأى هذا العاجز أن يتجاوز جمال باشا عن ذنب الأمير عمر وهفوة الأمير علي رعاية لاسم الأمير عبد القادر ولمكانه في الأمّة الإسلامية وكان يقدر لو أراد الاقتصاص أن يجمع هذه العائلة ويقول لهم: "إنّ فرنسا قد فتحت بلادكم الجزائر ونحن قد فتحنا لكم أبواب بلادنا، وأنّ فرنسا قد طردتكم من أوطانكم، ونحن قد آويناكم عندما طردتكم وبدلناكم وطنًا بوطن، وما دمتم بعد هذا كلّه تخدمون فرنسا وتحسنون إلى من أساء إليكم وتسيئون إلى من أحسن إليكم فما عليكم إلاّ أن تذهبوا إلى فرنسا" وكان الناس جميعًا لا يقدرون أن يعترضوا عليه.

فأمّا شنقه للأمير عمر ونفيه للأمير علي وأولاده ولجميع العائلة من دمشق إلى الآستانة فقد ساء وقع ذلك مهما كان قد وقع منهم من الخطيئات وأفظع منه تسويته لقبر المرحوم الأمير عبد القادر المدفون بجانب الشيخ الأكبر محيي الدين بن العربي في الصالحية. فممّا عيّب على جمال باشا كثيرًا أنه دخل إلى القبّة التي فيها قبر الأمير عبد القادر بجانب قبر الشيخ محيي الدين فأمر بطمسه، وأثبت بذلك عدم حرمته للأموات وأنه يعاقب الموتى بجريرة أولادهم. وقد علمت أنّ " جمال باشا الثاني " بعد انصراف الأول أعاد القبر كما كان.

ومن غريب أطوار جمال أنه بعد شنقه الأمير عمر وتسويته مدفن الأمير عبد القادر زار الأمير محيي الدين باشا ثاني أولاد عبد القادر، وهو الذي كان من أعضاء مجلس التفتيش العسكري في الآستانة وعاد في آخر حياته إلى دمشق وكان جمال يقول: "إنّي أحترم هذا الرجل كثيرًا". ويا ليت شعري كيف يعتقد جمال أنّ محيي الدين باشا يكون راضيًا منه بعد أن شنق أخاه وطمس قبر أبيه، ولم يرعَ له حرمة ولا صداقة.

قائل هذا الشعر: الشاعر المطبوع الذي لم يتجاوز من العمر الرابعة عشرة سنة أو ما بمعناه. وقد تلقّى الملأ شعري ذاك بعدم التصديق، وقالوا أنه ليس من ورى زنده وأنه قد يكون من نظم أساتيذه وقال بعضهم أنه قد يكون أصله له ولكن أدخل الأساتيذ عليه من التصحيح والتنقيح ما جعله في هذا القالب المقبول، بل في هذا القالب المأثور. وترامى إليّ ما كان يقوله الناس في ذلك فشقّ عليَّ وكنت من أصل فطرتي معاركًا مصارعًا، فأمطرت الناس مدرارًا من الأشعار في كلّ موضوع ونشرتها في الصحف وفي غير الصحف، فأحدث تتابعها ثقة تامّة بأنّ هذا الولد خُلق شاعرًا وقالوا جميعًا: آمنّا وصدّقنا.

وشعري أيام كنت في الرابعة عشرة لا أخجل به الآن، وقد أوردته في ديواني المطبوع منذ بضع سنوات، وربّما كان أرقّ وأقوى تصوّرًا من شعرى في دور الكهولة أو الشيخوخة وإن كان هذا أمتن وأرصن، ولست أريد الاستشهاد الآن بشيء منه توخيًا للإيجاز، على أنّ نظمي سبق نثري، فإنّي في الرابعة عشرة لم يكن لي نثر ولا كتابة مرسلة تستحق الذكر ممّا يدلّ على أنّ النثر أوعر مسلكًا من الشعر، عرفت ذلك من نفسي، ولكنّي في الخامسة عشر من عمري بدأت بالكتابة في الصحف، وقد كانت أوّل مقالة لي هذه التي أنا أزفّها هذه الساعة إلى القرّاء نشرتها في مجلّة الصفاء اللبنانية في الجزء الصادر منها في شهر شباط (فبراير) سنة ١٨٨٦ فيكون مضى عليها ست وخمسون تامّة، ويكون مضى عليّ في عالم الأدب والنظم والنثر سبع وخمسون سنة، ويكون مضى سبع سنوات على العيد الخمسيني الذي احتفلت لي به الجالية العربية في أميريكا.

ولم أزل ولله الحمد من فجر العمر إلى مسائه أمينًا للخطّة التي رسمتها لنفسي من ابتداء العمل إلى انتهائه، وهي خدمة الأمّة العربية والملّة الإسلامية لم أتردّد في القيام بهذا الواجب دقيقة واحدة، والله على ما أقول وكيل، وأنا فيه على حدّ قول المعرّي:

وأغدو ولو أنّ الصباح صوارم وأسرى ولو أنّ الظلام جحافل

وقد عافاني الله ـ ولله الحمد ـ من داء الخوف فلم أتهيّب المخلوقين طول حياتي ولم أعرف منهم كبيرًا غير الجمل كما جاء في المثل، ولهذا قارعت دول الاستعمار الجبّارة العاتية الطاغية الباغية التي استعبدت المسلمين، بل استعبدت جميع الضعفاء من العالمين في مشارق الأرض ومغاربها، فأصليت هؤلاء الطواغيت من خمسين سنة فأكثر نارًا حامية ولم أبالِ

نبذة مختصرة من حياة كاتب الشرق وأمير البيان الأمير شكيب أرسلان ★

نظرًا لما يتمتّع به أمير البيان والجهاد عطوفة الأمير شكيب أرسلان من حبٍّ وتقدير في العالم الإسلامي أجمع، ونظرًا لرغبة قرّاء "الوحدة المغربية" وأنصارها في الاطّلاع على سيرة الأمير الجليل، اتّصل قلم تحريرنا بعطوفته منذ شهور فطلب منه أن يوافي جريدتنا بنبذة من حياته الحافلة بجلائل الأعمال، وقد تفضّل عطوفته اليوم فخصّ جريدتنا بهذا المقال النفيس الذي ننشره، شاكرين للأمير تنازله لإجابة هذه الرغبة مؤملين منه مواصلة الكتابة في هذا الموضوع حتّى يلم المغاربة بسيرة الأمير من البدء إلى النهاية، أمّا المقال الذي تحدّث عنه الأمير فسننشره في العدد القادم بحول الله، قال الأمير حفظه الله وأبقاه ذخرًا للعروبة والإسلام:

كان الأستاذ الكبير صاحب جريدة "الوحدة المغربية" رغب إليّ في نشر شيء من ترجمة حالي وعاقني عن إجابة هذا الطلب المليئ باللطف وكرم الأخلاق، ما كنت فيه من شواغل وشواده، ثمَّ ما طرأ على مزاجي من الإلتياثات في هذه الأشهر الأخيرة، هذا مع الاعتقاد بالعجز وعدم الاعتداد بالنفس، لأنّ من يظن نفسه شيئًا يكون ظنّه هذا دليل على أنه ليس بشيء. فإن كنت الآن أجيب طلب الأستاذ رئيس الوحدة المغربية لما رغب إليّ فيه عملاً بحسن ظنّه فإنّما أنا أفعل ذلك من قبيل التحدّث بنعمة الله الذي أحياني ثلاثًا وسبعين سنة لم أفتر فيها عن العمل سويعة واحدة وإنّي بدأت بالنظم والنثر مذ كنت في الثالثة عشرة من العمر.

نعم، قرضت الشعر وأنا ابن ثلاث عشرة، وإنّي لذاكرٌ بعض أبيات ممّا نظّمته يومئذ، ولكنّي لم أكن أجرأ إذ ذاك على نشره استصغارًا لقدره، ثمَّ في السنة التالية نظّمت شعرًا رآه أهل العلم فأعجبهم ووجدوه حريًّا بالنشر، بل أكبروه على مثلي وأنا لم أشبّ عن الطوق، ونشرته جريدة المصباح وجريدة الجنّة من جرائد بيروت الصادرة في ذلك الوقت، وقالوا في

★ الوحدة المغربية السنة ٦ العدد ٢٦٥ ـ آب ١٩٤٢ ـ ص ١و٣.

على أيّ جنبيه وقع الأمر، وسيكون هذا دأبي إلى آخر نفس من أنفاسي إن شاء الله، وإن أحياني الله ثلاث سنوات منذ اليوم لأستشهدنّ بقول ذلك الشاعر الأندلسي:

لقد مرّ بي ستٌّ وسبعون حجّة ... ولي حركات بعدها وسكون
فيا ليت شعري أين أو كيف أو متى ... يكون الذي لا بدَّ أن سيكون

هذا وقد كان مولد هذا العاجز عفا الله عنه في الخامس من ديسمبر سنة ١٨٦٩، وكثيرًا ما أقول سنة ١٨٧٠ لا لأنقص من عمري فإنّي لا أقول إلاّ الحقيقة حتّى في هذه القضيّة، ولكنّي أجد أني لو قلت أنّ ولادتي في سنة ١٨٦٩ وليس بين هذا اليوم وبين رأس سنة ١٨٧٠ سوى ستة وعشرين يومًا، أكون قد زدت في عمري سنة واحدة من أجل ستة وعشرين يومًا لا غير، وهي مدّة لا تستحق ان يتحمّل فيها المعمّر زيادة سنة، على حين أني لو قلت أنّ ولادتي كانت في سنة ١٨٧٠ لم أكن خالفت الحقيقة إلاّ في ستّة وعشرين يومًا لا تعد إلاّ هنيهة بالقياس إلى ٧٣ عامًا.

وقد كان يمكنني أن أكتم عمري ولا أتعرّض لهذا الموضوع الدقيق، لا سيّما أنّ الذين يرونني يعطونني دائمًا أقل من عمري بعشر سنوات وأحيانًا بخمس عشرة سنة، وأغرب من هذا أنّ أطبّائي أنفسهم بعد أن عاينوني مرارًا يقولون لي: ألم تبلغ ستّين سنة من العمر؟ وأقول لهم حقيقة عمري فعندما يفحصونني ثاني مرّة ينسون ما كنت قد قلته لهم من قبل ويعودون فيقولون: ألم تبلغ الواحدة والستّين؟

إذن كانت هنا مندوحة عن هذا التدقيق في العمر بما وهبنيه الله من نشاط غير متناسب مع هذه الشيخوخة، وبعد فكثير من أئمّتنا المقتدى بهم كانوا يأنفون من ذكر أعمارهم إذا سئلوا عنها، وقد سئل سيّدنا مالك عن عمره فقال للسائل: أقبل على شانك. وكان سيّدنا مالك أجلّ من أن يقول غير الحقيقة حتّى في قضيّة عمره، ولكنّه رضي الله عنه وجد ذلك السؤال باردًا، فانتهر السائل ليعلّمه الذوق وعدم الاشتغال بما لا يعنيه.

ومن حيث ذكرت سنة ولادتي فيناسب أن أذكر أني بدأت بتعلّم القراءة والكتابة في الخامسة من العمر وبدأت بحفظ القرآن الكريم في السادسة ثمّ في السابعة، وأدخلونا المدرسة الداخلية في بيروت وكانت مدرسة الحكمة ونحن في التاسعة، وختمنا دروسنا هناك سنة ١٨٨٦ وهي السنة التي حبرت فيها هذه المقالة التي هي شاهدنا اليوم.

وسنة ١٨٨٧ نشرت الجزء الأول من ديوان شعري وسمّيته "الباكورة". وفي السنة نفسها جعلني والي جبل لبنان مديرًا لناحية الغرب الأقصى هناك، وهو اقطاع عائلتنا الخاص من أكثر من ألف سنة. وفي سنة ١٨٩٠ استقلت من تلك الوظيفة وسافرت إلى مصر ومنها إلى استانبول، وفي أثناء وجودي باستانبول عثرت في مكتبة عاشر أفندي على "الدرّة اليتيمة" لابن المقفّع فنسختها في يوم واحد من شدّة الرغبة، وعلى رسائل أبي اسحاق الصابي فنسختها أيضًا في أيّام، ونشرت هذين الكتابين مع تفسير لهما، وسنة ١٨٩٢ سافرت من استانبول إلى مرسيليا فباريز فلوندرة، واستمرّت سياحتي عدّة أشهر ورجعت إلى الآستانة حيث تلاقيت بفيلسوف الشرق وموقظ الإسلام السيّد جمال الدين الأفغاني فلزمت مجلسه إلى أن فارقت الآستانة راجعًا إلى سوريا، وسنة ١٩٠٢ عيّنني والي الجبل قائم مقام لقضاء الشوف الذي يبلغ ثلث جبل لبنان، والذي كان حقبة من الدهر لا يتولاّه غير واحد من بني أرسلان، وكنت قد استعفيت من قائم مقاميّة الشوف ففي سنة ١٩٠٧ عندما أعلن الدستور العثماني في السلطنة العثمانية أرادني والي الجبل عليّ قبول قائم مقاميّة الشوف مرّة ثانية فبقيت فيها إلى سنة ١٩١٠ ثمَّ استقلت منها، ثمَّ هاجمت إيطاليا طرابلس الغرب فذهبت بجماعة من أعواني مجاهدًا إلى برقة، عن طريق مصر حيث بقيت في الجهاد زهاء ثمانية أشهر وما قفلت من هناك إلاّ لأقنع رجال الدولة العثمانية بعدم ترك طرابلس وإن كان لا بدَّ من ذلك، فيجب عليهم أن يعاونوا المجاهدين فيها سرًّا، وفي أثناء وجودي باستانبول نشبت الحرب البلقانية فعهدت إلى جمعيّة الهلال الأحمر المصري بمهمّة مفتّش لبعثاتها إلى تركيا، ثمَّ في سنة ١٩١٣ انتخبت نائبًا في مجلس الأمّة العثماني عن لواء حوران في سورية، ثمَّ انتخبت عضوًا في القلم العمومي، وهو مجلس كان يرأسه طلعت باشا الصدر الأعظم وكان مؤلفًا من عشرة نوّاب أحدهم محرّر هذه الأحرف، وكان هو الوسيط بين الدولة ومجلس النوّاب. وسنة ١٩١٤ نشبت الحرب العالمية الأولى فجئت إلى سوريا وذهبت إلى ترعة السويس بمائة وخمسين مجاهدًا من جماعتي. وسنة ١٩١٦ رجعت إلى استانبول. وفي السنة التالية قمت بسياحة في ألمانيا لي عليها كتاب لم أطبعه بعد، ثمَّ رجعت إلى استانبول، ثمَّ أرسلتني الدولة العثمانية مرّة ثانية إلى ألمانيا لأجل حل مشكلات اختلف فيها العثمانيون والألمان وتوفّقت إلى ذلك، ولكن قضى الله حينئذٍ بأن تدور الدائرة على ألمانيا وحلفائها كما هو معلوم. فأمّا الحوادث التي وقعت لي في أثناء هذه السنين فليس هنا مجال لإيرادها لا إجمالاً ولا تفصيلاً، ولكنّي كتبت ترجمة فيها تفصيل

شافٍ، هي مستودعة في مكان رسمي مع إثباتها بالشهود والإيصاء بأن لا تنشر إلاّ بعد وفاتي. وهذا لا يمنع من أن أوافي الوحدة المغربية ببقيّة الترجمة الحاضرة على وجه الإختصار بين عدد وآخر، فأمّا المقالة الأولى من كتابتي فهي هذه.

شكيب أرسلان

تاريخ الأستاذ الإمام*

تقريظ الأمير شكيب أرسلان لتاريخ الأستاذ الإمام

تلقّيت الجزء الأول الذي ظهر أخيرًا من تاريخ أستاذنا الإمام الحجة، آية الله الباهرة، الشيخ محمَّد عبده قدّس الله روحه، تلقّيته والأشغال إلى ما فوق رأسي، والأفكار مشتّتة، والخواطر مقسّمة، والوقت أضيق من حلقة الميم، فلم أتمكّن من مطالعته كلّه، ولا من إحالة قداح النظر في جميع نواحيه، فاكتفيت بقراءة بعض فصوله، وبالتأمّل في فهرس موضوعاته، والمكتوب كما يقال يعرف من عنوانه، فلا شكّ عندي ممّا رأيت منه في أنّ هذا التاريخ هو واسطة عقد التواريخ في هذا العصر.

قيل أنّ الأستاذ ابن العميد سأل الصاحب ابن عباد قائلاً له: كيف رأيت بغداد؟ فأجابه الصاحب: بغداد في البلاد، كالأستاذ في العباد، وأنا أقول: تاريخ الأستاذ الإمام في الكتب كالأستاذ الإمام في الرجال، كيف لا ومحرّره حجّة الإسلام البالغة في هذا العصر، وإحدى حججه الباقية على الدهر، الذي كان أعظم من أظهر فضل الأستاذ الإمام ونشر تصانيفه، وكان منه بمنزلة أبي يوسف من أبي حنيفة، السيّد محمَّد رشيد رضا صاحب المنار، وخالد الآثار، فسبّح الله في أجله، وكافأه أحسن ما يكافئ عبدًا على عمله، فمن بعد أن نعرف أنّ هذا السفر الجليل هو من قلم هذا الحبر الحلال، ومن فيض هذا البحر الذي ليس له ساحل. أصبح التفنّن في وصفه من قبيل تحصيل الحاصل، والبديهيّات التي لا تحتاج إلى الدلائل.

دعنا من متانة عبارة هذا الكتاب وعلوّ إنشائه، وانتشار المنطق السديد على جميع قضاياه وامتزاج الذوق السليم بجميع أنحائه، فإنّ فيه من الفوائد التاريخيّة ما لا يوجد في كتاب آخر. وما لا يتمّ التاريخ العام إلاّ به، بل ما كتب السِّير والحوادث تبقى في مستقبل الأيام عيالاً عليه.

نعم، إنّ ترجمة السيّد جمال الدين الأفغاني قد سبق إليها الكثيرون وذهب كلّ كاتب فيها مذهبًا، وكان محرّر هذه الأسطر ممن طرّز بها كتاب "حاضر العالم الإسلامي" وأتى فيها بمعلومات لم تسبق لغيره، إلاّ أنه لا يوجد كتاب حوى من أخبار جمال الدين (رحمه الله) ما حواه هذا الكتاب ولا وفى بما وفى به، بحيث لا تطلب فيه مطلبًا ذا شأن عن حياة

---

* المنار ج٣٢ ـ ١٩٣١ ص ١٣٣ ـ ١٤٤.

حكيم الشرق وموقظه الأعظم (رحمه الله) إلاّ رأيته بين دفّتيه. ففي تاريخ الشيخ محمَّد عبده أو في تاريخ لجمال الدين أيضًا.

وأمّا تاريخ الشيخ محمّد عبده فمن البديهي أنه سيكون هذا الكتاب هو الأول والآخر في الإحاطة بهذا الموضوع لأنّ السيّد رشيدًا ـ وهو الذي أشعّة نظره في العلوم، كأشعّة رونتجن، في الجسوم ـ قد وقف جانبًا من حياته على تصنيف هذا الكتاب، وكان أعرف الناس بأحوال الأستاذ الإمام وألزمهم له، وأحفظهم لأقواله، وأدراهم بمقاصده، ومن قال إنّه خليفته في الأرض، ونسخة عنه طبق الأصل، لا يخطئ، فمن العبث أن ننشد للشيخ محمَّد عبده تاريخًا من بعد هذا التاريخ.

والأستاذ صاحب المنار كما يعلم كلّ من عرفه سالك طريق المحدثين في التدقيق والتمحيص، فلا يبلغ أحد من التحري والتثبّت ما يبلغه، بما غلب عليه من خلق علماء الأثر، فلذلك لا يمكن أن ينطوي هذا الكتاب من الأخبار إلاّ على ما قتله صاحب المنار علمًا، ولم يدع فيه للشكّ سهمًا، فالذي يطالع ما فيه من الروايات ويكون ممن يعلم مذهب صاحب المنار في التحرّي، لا يقدح في خاطره عارض من شكّ في أنّ الحادث المروي إنّما حدث على ذلك الوجه ـ يستثنى من ذلك هنات هيّنات لا يعبأ بها، لحظت منها ظنّه أنّ مدير المدرسة السلطانية في بيروت يوم كان الأستاذ الإمام يدرس فيها هو المرحوم الأستاذ الشيخ أحمد عبّاس، والحال أنّ المدير الذي كان يومئذٍ هو المرحوم خلقي أفندي الدمشقي وهو الذي أشار إلى صرفه بغيرة السيّد عبد الباسط فتح الله (رحمه الله) في الفصل الممتع الذي كتبه عن مقام شيخا في بيروت ـ وما عدا ملاحظة أو اثنتين ممّا ليس بذي طائل لم أجد فيما طالعته من هذا التاريخ رواية لم أقل فيها: هذه أصحّ الروايات وسندها أوثق الأسانيد. ولقد يوردها المؤلّف بطرق مختلفة ويمحّصها من جملة وجوه، ويعرضها على محك القياس، ولا يزال ينخلها إلى أن تبلغ برد اليقين، أو أقصى درجات التحقيق المستطاعة للمؤرّخين. وأنّه ليبلغ به حبّ التدقيق أنه يروي عن أستاذه ما قد ينتقده، وما يورد فيه أقوالاً أقوى من أقوال الأستاذ الإمام. فالسيّد رشيد في جميع كتاباته ليس عنده أحد فوق الغربال كما يقال، وكأنه ينظر أبدًا إلى قول مالك رضي الله عنه: ليس منكم إلاّ من ردّ وورد عليه إلاّ صاحب هذا القبر ـ يشير إلى النبي (ﷺ).

هذا وإنّك لن تجد تاريخ الثورة العرابية في كتاب بالبيان الوافي الواضح المستوفي لشروط النقل والعقل، وتعليل الحوادث بأسبابها، وردّها إلى أصولها، كما تجده في الجزء

الأول من تاريخ الأستاذ الإمام.

ـ تاريخ الثورة العرابية والأزهر والنهضتين المصرية والإسلامية

وفي هذا التاريخ أيضًا تواريخ أخرى لا توجد إلاّ فيه، ولن تكتب بقسط التحقيق الذي كتبت به. هذا وذلك لمكان صاحب المنار من القرب في الزمان والمكان، إلى الحوادث المؤرّخة وإلى الأستاذ الإمام، الذي كان يومئذٍ قطب الرّحى، وهي مثل تاريخ نهضة مصر، وتاريخ الأزهر، وتاريخ نهضة الإسلام الحديثة، ويقظة الشرق الحاضر، وكلّه مرتبط بعضه ببعض ومتسلسل تسلسلاً مطردًا بطبيعة الأشياء، وكيفما جلت في نواحيه وجدت عالمين كبيرين هما، جمال الدين ومحمَّد عبده رحمهما الله، وأنا أقول إنّ الله عزّزهما بثالث هو صاحب المنار حفظه الله.

ولا تنسَ تاريخ سموّ الخديو السابق وما فيه من الغرائب، وما يتخلّل حوادثه من النوادر، التي مع صحّتها ونخلها بمنخل التدقيق لم تخسر شيئًا من فكاهتها، فلم يزدها التحرّي إلاّ رونقًا. مثال ذلك سرور المشار إليه بوفاة الأستاذ الإمام (رحمه الله) واستياؤه من حزن الأمّة عليه، وعده ذلك تقريبًا من ذنوب الأستاذ، ولم يغفل صاحب المنار في جانب هذه الأخبار ـ التنويه ببعض حسنات وأشباه حسنات أذنت بها الأقدار الإلهية على يد سموّ الأمير، فكان مذهبه هنا أيضًا مذهب علماء الحديث، فما تحامل ولا دلس، ولا زاد ولا نقص. ولو علم أمراء الإسلام أنّ جميع مؤرّخيهم هم كالسيّد رشيد رضا يحصون عليهم ما حسن وما قبح لاعتدلوا، وعلموا أنّ قبل حساب الآخرة حسابًا في هذه الدنيا، ولكن أضرّ بأمراء الإسلام وبالإسلام تدليس المؤرّخين، وتزيّين المتزلّفين، وأكبر الإثم على أولئك الفقهاء الذين انتظر منهم الشارع أن يقوّموا الأمراء وينهوهم عن المنكر، ويحثّوا في وجوه شهواتهم ما كثف من تراب الزجر، فكانوا المعاوين لهم على أهوائهم، المفتين لهم بما يزيد في إغوائهم. وليس مرادي هنا تخصيص الخديو السابق الذي قد يكون أحسن من غيره، وإنّما أريد أمراء المسلمين جميعًا إلاّ مَن رحمَ ربّك.

والله يعلم أني جادلت الخديو السابق في أمر الشيخ محمَّد عبده ولم أحابه ولم أكتم عنه أنه كان متحاملاً عليه. ودافعت عن الشيخ عبد العزيز جاويش أمام الخديو وهو في قصره برأس التين، وذلك عندما كانوا آتين بالشيخ جاويش من الآستانة إلى الإسكندرية بتهمة المؤامرة على الخديو، ولم أكن لذلك العهد أعرف الشيخ جاويش، ولكنّي كنت أعرف

أنّ هناك نيّة للانتقام منه (رحمه الله)، فانتدبت نفسي للدفاع عنه. ثمَّ دافعت عنه مرارًا بعد ذلك أمام الخديو السابق، ولم أقبل في حقّه كلمة واحدة من سموّه.

ثمَّ إنّ في هذا الكتاب من الأخبار السياسيّة والروايات المأثورة عن أعاظم الرجال ما يجتمع منه مؤلّف مستقل برأسه ـ كما أنّ فيه من الفوائد الشرعية، ومن الحلول الوجيهة للإشكالات الحديثة والمسائل العصرية، ما لا يتأتّى في مجموع آخر، وكيف لا يكون ذلك وصاحب المنار هو فارس هذه الحلبة الذي لا يجاريه مُجارٍ، وإمام هذا المحراب الذي يصلّي وراءه الصغار والكبار.

ـ نظر الأمير في الشيخ عبد الكريم سلمان

ولم يختلف نظري عن نظره في هذا الكتاب إلاّ في أمر الأستاذ المرحوم الشيخ عبد الكريم سلمان، فإنّ السيّد رشيدًا فيما يظهر لا يراه في الرجال المعدودين، أو كما قال له شيخنا: إنّه ناقم منك إنّك لا تعتقد بعلمه. هكذا رواها لي السيّد رشيد نفسه، وكيف كان الحال فمكان الشيخ عبد الكريم لم يكن في هذا الكتاب بالمكان الذي ينحدر عنه السيل ولا يرقى إليه الطير. ولست أحمل هذا من صاحب المنار على ضغن مع علمي منه ومن الشيخ عبد الكريم نفسه بأنّ المودّة لم تكن بينهما في صفاء البلّور، ولكنّي أحمله على ما قاله الأستاذ الإمام من أنّ السيّد رشيدًا لم يكن يعتقد بسعة علم الأستاذ الشيخ عبد الكريم، ولولا هذا لوفّر له حقّه غير منقوص، لأنّ صاحب المنار ـمع ما فيه من حفيظةـ منصفٌ مقسِط لا يبخس الناس أشياءهم.

ـ كراهة الشيخ عبد الكريم للسوريين إلاّ الأمير شكيب

وأمّا أنا فكنت أعتقد بكثير من علم الشيخ عبد الكريم ولأدبه وسلاسة طبعه وحسن إنشائه. والأستاذ السيّد رشيد يقول أنّالشيخ عبد الكريم كان لا يحب السوريين إجمالاً وإنّما كان يستثنيني أنا من بينهم لفكاهتي، وعبارة السيّد هي هذه:

«ثمَّ سبب آخر هو كراهته للسوريين ولا أستثني منهم إلاّ الأمير شكيب أرسلان فإنّه حلّ من نفسه محلاً كريمًا عندما زار مصر لفكاهاته الأدبية، ونوادره اللطيفة، على مكانته من حب الأستاذ الإمام وتكريمه إيّاه، وللدعابة موقع من نفسه معروف، يعلو بها عنده صاحب المفاكهة وحاضر النادرة... إلخ». فإذا قرأ الإنسان هذه الفقرة ورأى ما تكرّر فيها من وصفي بالفكاهة والمفاكهة وسرعة البادرة عند النادرة، تخيّل أني أبو نوّاس عصري،

وأني لم أنل من الشيخ عبد الكريم موقعًا كريمًا إلاّ بمحبّة الأستاذ الإمام لي ومحبّتي أنا للفكاهة، وحاشا للشيخ عبد الكريم الذي كان للجدّ عنده نصيب وافر، والذي ما كان يميل أحيانًا للدعابة إلاّ لتكون له أعون على الصواب إذا أخذ في معالي الأمور، على نمط من قال: إنّي لأجمُ[1] نفسي بشيء من الباطل ليكون أعون لي على الحقّ ـ أقول حاشا للشيخ عبد الكريم أن يكون كرم مقامي عنده ناشئًا عن حرارة نكاتي مهما كانت رغبته في هذا الشأن. وإنّما أقول أنّ سرّ المحبّة كامن في أعماق الصدور وأحناء القلوب، وأنّ الأعمال تزيد منها وتنقص، وقد تذهب بها بتاتًا، كما قد تزيدها أضعافًا. ثمَّ إنّي أشهد للشيخ عبد الكريم أنه لم يكن على شيء من الشنآن للسيّد رشيد، وأنه كان يشهد بفضله، وأنه قال لي مرّة: قد أصفيت له المودّة بعد وفاة الشيخ.

وفي هذا التاريخ فصل من قلمي عن أيّام الشيخ في بيروت، وليس ذلك بكلّ ما كتبته عنه، وإنّما أخّر السيّد بقيّة كلامي إلى الجزء القادم لتعلّقها بما ارتسم في خاطري من أيّامه بمصر، وقد روى السيّد في هذا الجزء أشعاراً كنت نسيتها فنشرها لي بعد الخفاء، وأبرزها بعد العفاء، ووعد بنشر الأكثر من مثلها في الجزء القادم. فأنا لا أحصي عليه ثناء من أجل هذا اللطف، وإلحاقه بعض أشعاري بهذا الكتاب عملاً بواو العطف، لا سيّما أنه لم يبقَ عندي ولا نسخة واحدة من ذلك الديوان الذي أسميته «الباكورة» والذي أخرجته إذ كنت لم أتجاوز السابعة عشرة من العمر.

وأمّا عدد صفحات هذا الجزء فتربي[2] على ألف ومائة صفحة، يمتلئ دماغ القارئ ممّا تضمّنته من معالي الأمور، وسياسة الجمهور، وتراجم الصدور، ونخب الفوائد التي تمخّضت بها العصور. وليس هذا بالجزء الوحيد في موضوع حياة الأستاذ الإمام، فقد تقدّمه غيره وسيتلوه سواه. وكلّه بذلك القلم الذي دانت له أقاليم الأقلام، وخضعت ممالك الكلام، أي قلم صاحب المنار الشهير ناشر علم الأستاذ الإمام، ومخلّد مآثره على الأيّام. فمن يقدر أن ينشر من مآثره ألوفًا من الصحائف غير صاحب المنار؟ لا جرم أنه كان أبرّنا بها، وأقدرنا على القيام بالواجب نحوه، وأحرى تلاميذه بنشر آرائه في العوالم، وبأن يكون بعده مرشدًا يضيء النهج والليل قاتم.

(جنيف ـ سويسرة) شكيب أرسلان

(١) لأجم: أسكتُ نفسي.
(٢) فتربي: تربو أي تزيد وقد وردت بالياء.

تعليق على تقريظ الأمير شكيب لتاريخ الأستاذ الإمام

وإثارة من تاريخ الشيخ عبد الكريم سلمان

أشكر لأخي في البرّ والوفاء لوالدنا الروحي الأستاذ الإمام، ووليي في خدمة العرب والدفاع عن الإسلام، ما تفضّل به عليّ من هذا التقريظ، وأجدر بي أن أفاخر جهابذة الكتاب وموابذة المؤرّخين بشهادته لي ولهذا التاريخ، وهو هو أمير البيان، وأستاذ علماء العربية بالتاريخ الخاص والعام، وأنني لعاجز عن إيفائه بعض حقّه من واجب الثناء، مستعيضًا عنه بالدعاء، فجزاه الله تعالى عن أخيه وأستاذهما وعن الإصلاح الإسلامي أفضل الجزاء، ولكن لا مندوحة لي عن الاعتراف بأنه أعطاني فوق ما أستحق من الإطراء، وعن الدفاع عن نفسي تجاه ما رماني به من التقصير في حقّ المرحوم الشيخ عبد الكريم سلمان.

أظنّ أنّ الأمير لو كان قرأ كلّ ما كتبت في شأن الأستاذ الشيخ عبد الكريم لما كتب ما كتبه، فإنّي لم أصفه (رحمه الله تعالى) بقلّة العلم؛ وإنّما كان الأستاذ الإمام قدّس الله روحه هو الذي علّل موجدته عليّ بأنه يظن فيّ ذلك ـ ولرأى أنني على شدّة انتقادي لأكبر علماء الأزهر المعارضين للإمام في الإصلاح ولغيرهم في بعض المسائل العلمية قد نوّهت في مواضع كثيرة بأنّ الشيخ عبد الكريم كان تربه وعشيره، وصنوه وظهيره، وثانيه في مجلس إدارة الأزهر، وأكبر أعوانه على أعمال الإصلاح فيه، وكفى بهذا مدحًا، وأثبت أنه أمكنه بفضله وذكائه أن يكون في الذروة العليا من قضاة الشرع في المحكمة الشرعية العليا وهو شافعيّ المذهب، وإنّما الحكم في هذه المحكمة بمذهب الحنيفة، وما ذكرته مع غيره من خواص الأستاذ الإمام كحسن باشا عاصم وسعد باشا وفتحي باشا زغلول إلاّ وقدّمته عليهم في الذكر.

وبيّنت أيضًا أنه هو الذي صنّف كتاب (أعمال مجلس إدارة الأزهر) وكان هذا سرًّا لا يعرفه غيري، وصرّحت أيضًا بالمسائل التي علمت أنه انفرد بها من تلك الأعمال الإصلاحية، وأنه لم يصرّح باسمه ولا بأسم زميله الأستاذ الإمام في الأعمال التي أسندها

إلى بعض أعضاء مجلس الإدارة، لإخلاصهما لله تعالى فيها وعدم ابتغائهما الشهرة، فما عرفت له منقبة في ذلك إلاّ ودوّنتها له، والتاريخ ليس بتاريخه، والأمير لم يثن عليه بأكثر من هذا ولا بمثله، فيما انتقده علي من بخس حقّه، فأنا أقر مثله بكثير من علمه وأدبه وسلاسة طبعه وحسن إنشائه. وأزيد على هذا ما أجملته آنفًا ممّا فصلته في هذا التاريخ.

ـ ترجمة الشيخ عبد الكريم في المنار

وأعظم منه ما ترجمته به في المجلّد العشرين من المنار عقب وفاته مفتتحًا إيّاه بقولي: "في أثناء شهر شعبان من هذا العام فُجع القطر المصري بعالم من أنفع علمائه، وأديب من أبرع أدبائه، وكاتب من أبلغ كتّابه، وقاضٍ من أعدل قضاته، أحد أعضاء النهضة الإصلاحية الجمالية الشيخ عبد الكريم سلمان تغمده الله برحمته". ثمَّ ذكر تعاشره مع الأستاذ الإمام في طلب العلم وتعاونهما في ميدان العمل "تعاون إخلاء الأصحاب، المتّفقين في الآراء والمقاصد والآداب، وعاشا ما عاشا متوادّين موادة اللدات والأتراب، ثمَّ فرّق الموت بينهما مدّة التفاوت في العمر حتّى جمع بينهما تحت التراب، (أعني دفنهما في تربة واحدة) فعسى أن يكون هذا مصليًا لذلك المجلي إلى دار الثواب، وأن يجمعنا الله بهما في دار الكرامة يوم المآب" ثمَّ قلت: "لعلّ الشيخ عبد الكريم كان أذكى ذهنًا من الأستاذ الإمام، ولكن هذا فاقه ففاته بالجدّ والاجتهاد، إلى أن قلت "فكان الأستاذ الإمام البدء من مريدي السيّد جمال الدين وكان هو الثنيان[1]" ولم أدع بعد هذا شيئًا من أعماله وسيرته وأخلاقه الحسنة إلاّ ونوّهت به أحسن تنويه.

ـ العلاقة بين صاحب المنار والشيخ عبد الكريم

ـ محاولة الإيقاع بين الأستاذ الإمام وصاحب المنار

وأمّا مسألة مساعدته لمحاولي الإيقاع بيني وبين الأستاذ الإمام فإنّما ذكرتها لأنها في رأيي من أعظم مناقب الإمام أحسن الله جزاءه، وإنّني وأيم الحقّ قد تحرّيت فيها الحقّ والصدق، والتجرّد من هوى النفس، ولو كانت وقعت مع غيري لدوّنتها بهذا الأسلوب عينه بل ربّما كنت أزيدها تفصيلاً وتنويهًا أستحي كتابة مثله في شيء يعنيني ويخصّني، ولكن، لا يجوز لي أن أهضم حقّ نفسي وحقّ الأستاذ في المسألة بعد وفاة الشيخين ودخولهما

(١) البدء هو الأول في سيادة قومه ونحوها والثنيّان هو الذي يليه قال الشاعر:
ثنياننا إن أتاهم كان بدأهم — وبدوهم إن أتانا كان ثنيانا

في حكم التاريخ، وقد دوّن سلفنا الصالح من المحدثين والمؤرّخين من هفوات شيوخهم من الأئمّة، وكذا الصحابة ما هو أعظم من هفوة الشيخ عبد الكريم هذه.

ذلك بأنّ المسألة من أظهر الحوادث الواقعة التي تدلّ على أنّ الأستاذ الإمام كان يؤثر المصلحة العامّة على العلاقات الخاصّة بألصق إخوانه وأصدقائه به وأقربهم إليه، على ما اشتهر به من كمال الوفاء وصدق الوداد، وأنّ الإصلاح الإسلامي الذي انفردتُ بالإشتغال معه به في خاتمة عمره الشريفة كان عنده فوق كلّ شيء من أمور الدين والدنيا، لأنه قد رسّخ في وجدانه أنه مفروض عليه ـ يثاب على العمل له فوق كلّ ثواب، ويعاقب على التفريط فيه ما لا يعاقب على غيره، وقد أثبت في استيائه من الشيخ عبد الكريم وإنذاره إيّاه استغناءه عن صحبة أربعين سنة مكانة الشيخ عبد الكريم عنده.

ـ دعابة الشيخ عبد الكريم سلمان وعلمه

ذلك ـ ولا أرى وصف الشيخ عبد الكريم بحبّ الدعابة والفكاهة الأدبية غميزة وإزراء به وهو مشهور بهذا، وقد وُصف بالدعاية في كتب التاريخ والأدب أفراد من أرقى البشر كأمير المؤمنين عليّ وأين مثل أمير المؤمنين عليّ عليه السلام؟

وإنّي على ما فيّ من حفيظة ـ كما قال الأمير ـ لا أحمل على أحد حقدًا، ولا أبخس أحدًا حقًا، وإنّي قد أغضيت على فتور حرارة الشيخ عبد الكريم في مودّتي عدد سنين، فكنت على إبائي أزوره كثيرًا ولا يزورني على ما أعلم من عنايته بزيارة جميع أصدقائه، فلم يشعر أحد بشيء من هذا الفتور من قبلي بقول ولا فعل. والأمير ينقل عنه أنه قال له عنّي: إنّني أصفيت له المودّة بعد وفاة الشيخ. اهـ وأنا قد صرّحت بهذا في التاريخ وقلتُ إنّه صار يزورني ويأكل طعامي كما آكل طعامه، ويسألني عن أولادي ـ وهذه شهادة عليه عفا الله عنه بأنه لم يكن موادًا لي كموادّتي له، ولا كموادّته لأدنى أصحاب الأستاذ الإمام وصنائعه حتّى صنائع التملّق وطلاّب المصالح وهو يرى أنّ الأستاذ اصطفاني على الجميع، ولكن هذه هي العلّة في مماذقته[1] لي على وغر كما كنت أعتقد، لا ما قاله الأستاذ من أنه كان يظن أنني لا أعتقد أنه عالم، إذ لو كان هذا هو السبب لما صفا لي ودّه بعد وفاته (رحمهما الله تعالى) فإنّني إذا كنت أعتقد في عهد الأستاذ الإمام أنه غير عالم فلا يعقل أن يزول هذا الاعتقاد بعد وفاته، فقول الأمير عنّي «ولولا هذا لوفر له حقّه غير منقوص»

(١) مماذقته: مخالطة من غير ودّ.

مبني على رأي الأستاذ وعلى عدم قراءته هو كلّ ما كتبته في حقّه، وأنا أعتقد أنني وفّيته حقّه في هذا التاريخ لم أنقصه منه شيئًا يقتضي المقام ذكره ويعدّ من موضوعه، بل ربّما كنت قد زدته على حقّه في المنار.

ولعلّ سبب ظنّ الأستاذ فيه وفي ما ذكر أنّ الشيخ عبد الكريم ما كان يشاركنا في المذاكرات العلمية الدقيقة التي تقع بيننا وهو معنا، كمشاركته لنا في المباحث العملية من إصلاحيّة ووطنية. وإنّني لا أنكر أنني ما كنت أعتقد أنهٔ متقن لعلم من العلوم، لأنه وجه كلّ عنايته إلى الكتابة. ولكنّني لم أكن أنطق بما يدلّ على اعتقادي هذا تصريحًا ولا تلويحًا، إلاّ ما استثنيت في التاريخ من تمثّلي في أثر انتقادات لغوية وأدبية معه بقول السموأل:

وننكر إن شئنا على الناس قولهم ... ولا ينكرون القول حين نقول

ـ فكاهة الأمير شكيب ونوادره

بقي عليّ ما يخص الأمير (حفظه الله) من مودّة الشيخ عبد الكريم (رحمه الله) فإنني أراه فهم منه ما لم يخطر لي على بال، وما لا أراه يخطر على بال أحد من الناس، هو أنّ الشيخ عبد الكريم (رحمه الله تعالى) لم يجد فيه أو لم يعرف منه ما يحبّبه إليه ويحلّه من نفسه محل الكرامة إلاّ فكاهاته الأدبية ونوادره اللطيفة، وإنّ هذا التعليل منّي يخيّل إلى قارئه أنه ـ أي الأمير ـ أبو نوّاس عصره!

فضائل الأمير ومزاياه بارزة مضيئة كالشمس لا تخفى على حاسد يعميه الحسد عن رؤيتها، فإنه إن لم يرها تلذعه حرارتها، فكيف يجهلها مثل الشيخ عبد الكريم في ذكائه ولوذعيته، وإنّما أعني بما ذكرته أنّ كراهة الرجل للسوريين لم يكن يخطب مودّته منهم معها علم ولا أدب، ولا حسب ولا نسب، فهي وحدها لا تحلّهم من نفسه محل الكرامة، ولا محبّة الأستاذ الإمام أيضًا، فإنّه كان يحب السوريين ويغار عليهم، وما كان الشيخ عبد الكريم يساهمه هذا، لا في حملة العلم ووعاة الآداب، ولا في أبناء الأحساب والأنساب، وهو كما قال الأمير لم يكن يغمصني [1] في شيء ممّا ذكر، وقد أنشأ الأستاذ الكبير الشيخ محمَّد بخيت مجلّة باسم غيره كان ينشر فيها شيء من تفسيره للقرآن، فقال الشيخ عبد الكريم إنّ الشيخ بخيتًا يستطيع أن ينشئ مجلّة تنقل عنه تفسيرًا وتنوّه به مباراة للشيخ محمَّد عبده فيما تنشره عنه مجلّة المنار ولكنّه لا يستطيع أن يأتي بمثل الشيخ رشيد يحرّرها له فما الفائدة؟

---

(١) يغمصني: يكذّبني.

ـ جِدّ الأمير شكيب وشِدّته وظَرفه

الأمير شكيب مشهور بالجِدّ في علمه وقلمه، وبالشدّة في سيرته السياسية والاجتماعية ولهذا ينبزه[1] بعض الناس بلقب الكِبَر، كما ينبزون به أكثر أهل الصدق والجِد، ولا يعرف ظرفه في فكاهاته اللطيفة ونوادره الأدبية النزيهة إلاّ من عاشره وحاوره وسامره، وإنّي لأغبطه عليها، وأتمنّى لو أوتيت مثلها، فإنّ الجدّ المحض يملّ الجليس، ويوحش الأنيس، وأنا لا أعرف عن أبي نوّاس مثل هذا. إنّما كان أبو نوّاس شاعرًا، بل هو أشعر الشعراء في عصره الذي ارتقى به شعر الحضارة والتمتّع إلى أوجّه، وكان مع هذا ماجنًا فاسقًا، ولم يؤت شيئًا من الجِد في خدمة الأمّة ، ولا سياسة الدولة، ولا عني بهداية الدين ولا بيان فضائل الإسلام، فأنّى يذكر مع الأمير شكيب أو يخطر بالبال إذا ذكر علمه وأدبه، أو قرئت رسائله وكتبه؟

إنّي لأوقن أنّ الأمير لم يظن بي أنني عنيت هذا الذي عدّه لازمًا ذهنيًّا لوصفي له بحلاوة الفكاهة ولطف النادرة، وإنّما عدّه عليّ ممّا غمصتُ به الشيخ عبد الكريم دونه، فكان مثارًا لظنّ من لا يعرفه أنه أبو نوّاس عصره، وأنّ الشيخ عبد الكريم يؤثر الهزل على الجِد، والدعابة العارضة، على الفضائل الراسخة.

كلاّ، إنّني لم أعنِ بكلمتي شيئًا وراء ما تدلّ عليه دلالة المطابقة من تضمّن أو التزام، فلمّا قلت إنّ الشيخ عبد الكريم لم يكن يحبّ السوريين، خطر في بالي أنّ من واجب الصدق أن أستثني الأمير شكيبًا من هذا الإطلاق أو العموم، لما كنت سمعته من كلّ منهما من التنويه بالآخر، ثمَّ ما رأيته من اغتباطهما بالتلاقي في أثناء إلمامة الأمير الأخيرة بمصر.

ـ مثالٌ من تحَاور عبد الكريم وشكيب بالسجع

لعلّ الأمير لم ينسَ أنني كاشفته في بيروت سنة ١٣١٥ بعزمي على الهجرة إلى مصر للاتصال بالأستاذ الإمام فيها، وأنّ هذا سرّ بيني وبينه لم يتعدّنا إلاّ إلى الأستاذ عبد القادر أفندي القبّاني صاحب جريدة ثمرات الفنون والأستاذ الشيخ صالح الرافعي ناظر النفوس، ولعلّه يذكر إذا ذكّرته ما حدّثني به يومئذٍ عن محاوراته مع الشيخ عبد الكريم سلمان وابراهيم بك المويلحي، وإنّ جلّ حديثه عن محاورات الأول ما كانا يلتزمانه من السجع، والفكاهات الحسنة الوقع، وأزيد على هذا أنني لمّا بلّغت الشيخ عبد الكريم سلامه عليه،

(١) ينبزه: يلقّبه ويعايره.

واشتياقه إليه، برقت أساريره وطفق يحدّثني عن محاوراته اللطيفة معه، وأذكر ممّا ذكره لي كلّ منهما أنّ شكيبًا كان عنده بداره فسمعوا صياحًا ولغطًا أمام باب الدار بين الخدم وغيرهم فصاح الشيخ بخادمه البوّاب غاضبًا: يا ولد يا ولد، فقال الأمير رافعًا صوته ـ وأوّل لتشاجر الذي ورد ـ فسكت غضب الشيخ وأغرب في الضحك استغرابًا لهذه البديهة الحاضرة، وإعجابًا بالبادرة النادرة، وربّما لم يكن يخطر له ولا لغيره أنّ مثل الأمير شكيب يحفظ العقيدة الأزهرية المعروفة بجوهرة التوحيد، وأن يكون من قوّة الذاكرة بحيث يسبق إلى لسانه هذا الشطر منها عند صيحة الشيخ يا ولد، وهما يتباريان السجع، ومناسبتها للمعنى أقوى من مناسبتها للفظ، فإنّ الخدم كانوا يتشاجرون عند دار الشيخ، وبيت الجوهرة في تأويل تشاجر الصحابة (رضي الله عنهم).

فهذا مثال ممّا عزوته إليهما من حبّ الفكاهة والمفاكهة والنوادر الأدبية، فهل يقول أحد أنها تنافي الجدّ أو تجانب العلم، وهي لو عرضت على الحسن وابن سيرين، لقالا ربّنا لئن آتيتنا هذه لنكوننّ من الشاكرين؟

ـ ما يجب على الأمير شكيب لتاريخ الأستاذ الإمام

وأختم هذا التعليق بتذكير الأمير شكيب بأنّ لتاريخ الأستاذ الإمام عليه حقًا آخر وراء حقّ التقريظ الذي أدّى واجبه ومندوبه، وزاده من النافلة ما شاء الله أن يزيده، أعني بالحقّ الآخر تكرار التنويه في مقالاته الاصلاحيّة بالغرض المقصود بالذات من تصنيفه، وهو ما فصّلناه فيه وأجملناه في فاتحة تصديره وخاتمته، من الدعوة إلى الاصلاح والتجديد للشرق والإسلام، التي قام بها الحكيم السيّد الأفغاني والأستاذ الإمام، مع إحياء ذكرهما، بإسناد الفضل الأول فيها إليهما، ولهذه الدعوة مجالات واسعة في مقالات الأمير السياسية والاجتماعية، ورسائله الاصلاحية، وليس بكثير على غيرته أن يخصّها بمقال ممتع، ويؤيّدها بالبرهان المقنع. وهو إنّما يكتب ما يكتب بما نفخ فيه من روحهما، ونفث في روعه من حكمتهما، جعلنا الله وإيّاه خير خلف لهما، آمين.

مؤلّف تاريخ الأستاذ الإمام

محمّد رشيد رضا

آراء في الأدب والعمران*

للمرحوم الدكتور صرّوف

وذكريات شخصية من قلم الأمير شكيب أرسلان

ليس المرحوم الدكتور يعقوب صرُّوف بمحتاج إلى تأبين أحد لهُ بنظم أو نثر، ولا إلى ترجمة أحد لحياته في كتاب أو مجلّة أو جريدة سيّارة. وكيف يحتاج إلى تأبين أو إلى ترجمة من مئات أجزاء من المقتطف الحافل بأعظم الفوائد وأوسع المعارف منذ خمسين سنة، تؤبّنه وتنشر مآثره. حتّى لو قيل إنّ الدكتور صرُّوف عنوان للرقيّ العلمي في الشرق أو أنه هو بنفسه حقيقة كليّة من جملة الحقائق التي يُعنى الناس بالاطّلاع عليها لترقية عقولهم لكان بذلك جديرًا. وماذا عسى أن يقول الكاتب في مَن قال مدّة نصف قرن بدون انقطاع ـ قال وأبدع في المقال، وكتب وصدَق الرواية، وحرّر ونصح في التحرير، وعلم وعمل بما علم، ورقي أعلى مراقي الاطّلاع التي أمكنت مفكّرًا في هذا العصر وهو لا يرى نفسه شيئًا وكلّما ازداد علمًا ازداد تواضعًا، وكلّما عجب الناس من سعة علمه عجب هو من كونهم يرونه عالمًا. وهذا هو شأن العالم المحقّق والفيلسوف الكامل الذي لا يزيده تبطّن أسرار الكون والتوغّل في عالم الحقائق إلاّ معرفة بعجز الإنسان، وبأنه لم يؤت من العلم إلاّ قليلاً. ولقد قرن الدكتور صرُّوف إلى هذا العلم الواسع والنظر النافذ والقلم الساحر خلقًا عظيمًا قلّما تحلّى به أحد، كأنّما كانت فطرته الأصلية جوهرًا غاليًا صافيًا فجاءَها صقال العلم المستمرّ مدّة سبعين سنة كمالاً. فأصبحت تلك النفس الزكية درّة وهّاجة من جميع نواحيها تكاد تأخذ بالأبصار. ولعمري إنّ نعمة العلم لا تتمّ إلاّ إذا ظهر في النفس، فبعد أن يكون العلم نظريّات وآراءً يتجسّم حركات وأعمالاً. فتجد العلم الذي في مثل العلاّمة صرُّوف قد لبس رداء الحياة وعقل بجنان ونطق بلسان وأعرب عن ذات نفسه ببرهان. ولا عجب أن يكون العلماء الذين على نمط الأستاذ المرحوم ذوي نفوس تجول في آفاقٍ هي أعلى من آفاق سائر الناس، لأنهم ينظرون إلى الأشياء لا من وراء حجب الأوهام، ولا من خلال عوائق العلائق

---

* المقتطف ج٧٣ (١٩٢٨) ص ٨ ـ ١٣.
وج (١٩٣٦) ص ٦٨٣ ـ ٦٨٦.

بل من أقرب الطرق وأوضحها وأبعدها عن الأهواء. فبينما سائر الخلق لا يرون شبحًا إلاّ من دون ضباب ضلال، ولا يتمثّلون مادّة إلاّ من خلال غواشٍ مختلفة الأشكال، يكون نظر هؤلاء العلماء إلى الأمور سواء كانت مادية أو معنوية نظر الذي تجرّد عن كلّ غاشية وأبصر الحقّ بعين صافية. فلهذا كنت أرى في أخلاق الطيّب الذكر يعقوب صرُّوف من السجاحة والسماحة والنزاهة والعلو عن سفساف الأمور والتزام معاليها، ما لا أجده إلاّ في النادر الأندر من البشر. ولا شكّ أنه إذا كان أعلى أفق من الناس متّصلاً بأقرب أفق من الملائكة فيكون فقيدنا طيّب الذكر في الفوج الأول من الآدميين الفارطين إلى ذلك الأفق العالي.

كنت في الخامسة عشر من العمر عندما وقع نظري على الدكتور صرُّوف لأول مرّة في حياتي، وذلك في إدارة إحدى جرائد بيروت، وكان صاحب تلك الجريدة وهو اليوم في عالم البقاء يسأل الدكتور عن لفظة «ميناء» ومأخذها ومعناها فأخذ الدكتور يفسّر له هذه الكلمة ويذكر له اشتقاقها ومواضع استعمالها وتاريخها من الكلام العربي فدهشت ممّا سمعت وعرفت مع حداثة سنّي يومئذٍ مزية العالم على الجاهل أو المتعالم وقلت في نفسي: أنظر إلى هذا الرجل كيف سرد عن لفظة واحدة بسيطة جوابها يقع في كلمة واحدة عبارةً طويلة لا تجد فيها مع طولها حشوًا ولا حرفًا زائدًا ولا ناقصًا. إنّ مثل هذا العالم لهو الذي ينبغي أن تُشدّ إليه الرِّحال. وزاد إعجابي بما سمعت من العلم وما شهدت من اللطف والتواضع، وإنكار الذات، وعدم الصنعة في كيفيّة الإلقاء الذي سمعته.

ولم تساعدني الأقدار أن أشاهد الفقيد بعد ذلك إلاّ سنة ١٨٩٠ حينما قدمت إلى مصر أول مرّة وكنت في سنّ العشرين، فدعاني أصحاب المقتطف إلى الغداء عندهم وتذاكرنا في مواضيع كثيرة ولا يزال لتلك الزيارة أثرٌ منطبع في أعماق نفسي. ثمَّ أتيحت لي مجالسة الفقيد مرّة أخرى، وكنت من قبل ذلك أكتب بعض المقالات إلى المقتطف وكان المرحوم يستحثّ همّتي في مواصلة الكتابة العلمية، وقال لي مرّة من ذاق لذّة العلم يجد الكتابة في السياسة إسفافًا لا تطيب به نفسه. ولكنّه كان كسائر العقلاء يرى أنه لا بدّ من بعض الأمور في هذه الحياة ولو أتاها الإنسان مكرهًا.

وكانت المكاتبة قلّما تنقطع بيني وبين الأستاذ، وأنا في بعض الأحايين أراسل المقتطف، ولي فيه مقالات وجمل. كان تواضع المرحوم يحمله لا على نشرها فحسب، بل استزادتي من أمثالها. وكانت المحبّة بيننا بلغت من المخالصة أنه كان يستشيرني في أمور تتعلّق بمنهج

المقتطف والمواضيع التي ينبغي أن يتوخّاها. ومرّة أرادني على أن أكتب بصورة مستمرّة، وأن أجد للمقتطف مراسلين يصحّ الاعتماد على علمهم وبلاغتهم. فجاوبته بأنني أفضّل أن أكون في الكتابة حرًّا غير مقيَّد بزمن ولا عدد، وأن لا أتقاضى على ذلك شيئًا ولكنني استجدتُ له أقلام فضلاء مشهورين راسلوا المقتطف بعد ذلك سنين طوالاً، وكان منهم الأستاذ الشرتوني (طيّب الله ثراه) والأستاذ كرد عليّ رئيس المجمع العلمي العربي الذي كنت أنا الواسطة في مراسلته للمقتطف، وكانت هذه المجلّة من منابر رقيّة ومظاهر نبوغة. ومن هؤلاء المرحوم محمَّد أبو عز الدين رئيس محكمة استئناف الجزاء في لبنان، الذي لو لا منصبه القضائي لأمتع قرَّاء المقتطف بأكثر جدًّا ممّا أتيح له.

ولمّا جئت مصر للمرّة الثانية وذهبت منها إلى طرابلس الغرب، وذلك منذ سبع عشرة سنة أسعدني الحظ أيضًا بملاقاة الفقيد (رحمه الله). وهذه آخر مرّة تلاقينا بها، لأنّ الشواغل حالت دون كثرة الاجتماع. وكنّا من أهل بلاد لا تزال من حرب إلى حرب فكانت السياسة الممقوتة تحول بيننا وبين من نهوى لقاءهم من جلّة العلماء الذين الساعة من عشرتهم تزن الأيام الطوال من عشرة سواهم. ثمَّ جاءت الحرب العامّة، فانقطعت المواصلات كلّها وبقينا لا يعلم الواحد عن الآخر شيئًا إلاّ من أفواه القادمين. حتّى أصيب المرحوم بفقد أحد إخوته فأرسلت إليه بكتاب تعزية، وجاوبني عليه واستؤنفت بعد ذلك المراسلة بيني وبينه عودًا على بدء. وإنّني أنقل إلى القرّاء بعض أسطر من جوابه، لأنّ روحه الطاهرة تتجلّى في جميع كتاباته. وكلام المرء مرآة كماله قال:

"تناولت صباح أمس كتاب التعزية الذي تكرّمتم عليّ به. فزادني إعجابًا بفضلكم وافتخارًا بصداقتكم وإيقانًا بحبّكم. ولقد أراني موت أخي ما لا أستحقّه من كثرة الأصدقاء والمحبّين على تقصيري مع الجميع، كما أنه أنذرني بقرب الأجل، وأنا شديد الشوق إليه لعلّي أدرك شيئًا من الكثير الكثير الذي أجهله".

فلينظر القارئ ما بلغ من هذا الرجل حبّ العلم، حتّى أصبح يتوقّع الموت بلذّة المنتظر من وراء هذه الحياة حياة أخرى أوسع علمًا وأصحّ حكمًا.

ثمَّ إنّه يقول: "من غريب الاتّفاق أنني قرأت ما كتبتموه في مجلّة المجمع عن كتاب "مي" في المساواة، قبيل وصول كتاب التعزية بساعات قليلة. والمساواة مقالات نشرت أولاً تباعًا في المقتطف، ثمَّ جمعت وطبعت كتابًا على حِدَه فراقني جدًّا وصفكم له وأرجّح أنها لم

تترجم شيئًا ترجمة لأنها تتكلّم معي في كلّ المواضيع الأدبية والفلسفية كما تكتب، فإنّها قويّة الذاكرة إلى حدّ يفوق التصوّر. وقد قرأتْ كثيرًا من الكتب في اللغات التي تحسنها: الفرنسوية والإنكليزية والإيطالية، حتّى لقد تستشهد في كلامها معي بأبيات من شكسبير أو بيرون، كما تستشهد بالمتنبّي والمعرّي، وحفظت أيضًا كثيرًا من قصائد شوقي والمطران وحافظ، وأظنّها تصوغ معانيها في ذهنها بالفرنسوية أو الإنكليزية قبلما تعبّر عنها بألفاظها العربية. والظاهر أنّ الذي طبع الكتاب عن مقالات المقتطف غيّر فيها بعض الألفاظ فمصّرها، ولقد أصبتم وأحسنتم بوصفكم للكتاب وكاتبه وأنصفتموها".

ولمّا ترجمت كتاب "أناطول فرانس في مباذله" أحببت أن أطلع عليه المرحوم الأستاذ وأعرض عليه نشره في المقتطف إذا شاء. فاستحسن الفكرة أولاً وأشار إليّ بإرسال الكتاب حتّى ينشره في عدّة أعداد من المقتطف، ثمَّ يجمعه كتابًا على حدة. وكنت قد رأيت فيما نقله "جان جاك بروسون" عن أناطول فرانس كثيرًا من الرفَث والمجون ممّا حذفت منه شيئًا ولطّفت شيئًا ولِذت في أشياء منه بالمعاريض، وظننت ذلك كافيًا في تجريد الكتاب ممّا ينبو عنه نظر الأدب وتحمر له وجنة الخفر. وإذا بالأستاذ يقول لي:

"إلى أن اطّلعت على ما بعثتم به إليّ من "المباذل"، كنت أحسب الرجل شيخًا جليلاً كبعض الذين عرفتهم في حياتي "كفانديك" و"البستاني" و"اليازجي" (يريد أستاذه الدكتور فان ديك الشهير، والمعلّم بطرس البستاني، والشيخ ناصيف اليازجي) لكن المباذل صوّرته لي كأحمد فارس الشدياق كما عرفته في "السّاق على السّاق"، ثمَّ رأيته بعد ذلك في مصر. ولا أرى أنّ كاتب سر أناطول فرانس أحسن في بعض ما نشره عن أستاذه، وقد أوصينا أن نذكر حسنات موتانا. فهل من حسن الذوق في هذا العصر ما كتبه عن (الهيجان والغلمة) وما رواه عن (الصبابات الأولى) و(العنانة والعجز). لو كنّا في عصر صاحب الأغاني لالتمسنا له عذرًا بآداب العصر".

"أمّا عصرنا هذا لا سيّما بين المصريين والسوريين من قرّاء المقتطف، فأنتم أول من يقول أنه لا محل فيه لهذا التبذّل والمجون، ولو كان لي معرفة بالسكرتير لكتبت إليه ألومه على ذكر عجر أستاذه وبجره. قد يتغيّر العصر ويتغيّر نظر الناس في هذه الأمور ويصيرون ينظرون إلى تحريمها كما ننظر إلى تحريم قطّاع الطريق من اليونان، وأكل الجبن في الصوم الكبير، ولكن لا بدّ للمرء من أن يلبس لكلّ حالة لبوسها. ولولا اعتقادي أنّ رأيكم في هذه

الأمور مثل رأيي وأنكم كنتم تتململون كلّما وصلتم إلى بجرة من هذه البجر، وتودّون أن لا يكون الرجل كذلك، أو أن لا تذكر عنه تلك الهنَة لما صارحتكم برأيي. وعليه فأنا معيد إليكم الكرّاس مع هذا البريد راجيًا قبول عذري ومسامحتي إن كنت ذكرت شيئًا يشفّ عن ظهوري فيه مظهر المعلّم لمن أعدّه في المنزلة العليا بين المتأدّبين بأدب النفس، وأطال الله بقاءكم».

فوالله لقد قرأت هذا الكتاب والعرق ينحدر على وجهي من شدّة ما خجلت من رجل كنت أوفّر له من الحرمة ما لا أوفّره لغيره. ولم ألبث أن كتبت إليه بأنه قد كان في الكتاب من الطامّات الكبرى في هذا الموضوع ما لا يلبس عليه رداء كما يقال، ولقد حذفت منها ما ظننته كافيًا، ولكنّني خشيت إذا استقصيت الحذف من غضب هؤلاء الشبّان الذين يسمّون أنفسهم «بالمجدّدين»، والذين قد يسخطون عليّ ويرمونني بقوارص أنا في غنى عنها. على أنّ ملاحظتك كلّها هي في محلّها، وما كان ينبغي لمثلي أن يتساهل من هذه العُجَر والبجر في شيء. ثمَّ أردتُ أن أمازحه فقلت: «وأمّا ما قلته عن تأدّبي بأدب النفس فلقد كان ذلك، ولكن فيما يظهر إقامتنا بأوربة منذ نحو عشر سنوات قد زعزعت أركان هذا التأدّب، حتّى صرنا نترجم مثل هذه الروايات».

ثمَّ أعدت النظر على الكتاب فحذفت منه كلّ ما لحظت أنه يقع في خاطر الأستاذ صرُّوف وأمثاله الكملاء موقعًا غير مقبول. ووقعت من أجل ذلك كما حسبت في ألسنة أولئك الشبّان الذين نشروا في تخطئتي من جرّاء هذا الأمر أكثر من مقالة. حتّى قيل لي إنّ بعضهم عمد إلى المواضع التي طويتها، وأراد أن يترجمها ويسد بها بزعمه ذلك الخلل الذي أدخلته أنا على الكتاب. ولكنّه كان يهمّني أن يرضى صرُّوف ولا ينتقدني، ولو انتقدني بعد ذلك مئات وألوف. قيل إنّ السيّد الجرجاني تناظر مع السعد التفتازاني بمجلس غاص وكان السيّد شابًا حديث العهد، وكان السعد شيخ العلماء في وقته، فانتهى المجلس بأنّ السعد أقرّ للسيّد وإنّ السيّد فلج على السعد أمام ذلك الجمهور. فساء ذلك تلاميذ السعد ولمّا انصرف الناس قالوا لأستاذهم: ما كان ينبغي لك أن تسلِّم لرجل هو في سنّ أحد تلاميذك. فأجابهم وماذا أصنع إذا كان معه الحقّ. فقالوا له: قد كان يمكنك أن تقول له كيت وكيت في الجواب. فقال لهم: ولكنّه يكون مماحكة ولا يكون من العلم في شيء. فقالوا له: لكنّ الناس قد علموا الآن أنّ السيّد أعلم منك. فقال لهم: أحبّ إليّ أن يعلمني الناس جاهلاً

وأن يعلمني السيّد وحده عالمًا. فأنا كنت أوثر أن يكون الأستاذ صرُّوف راضيًا، ولو تعرّضت لسخط جمهور لا من الشباب فحسب، بل من الكهول أيضًا.

ولقد ترجم أحد البلغاء من أصحابي تأليفًا فانتقده المقتطف في عبارات معلومة. فلم يمضِ على ذلك أيام حتّى قرأت في إحدى الجرائد جملة شديدة في الردّ على المقتطف، تحت إمضاء مبهم فعلمت أنّه قد يكون الردّ من قلم مترجم ذلك الكتاب أو أحد أصحابه، فأسرعت بالكتابة إلى صديقي هذا أعذله على هذا الردّ إن كان بقلمه أو بعلمه ولم أكتفِ بذلك حتّى نشرت في (كوكب الشرق) جملة أبيّن فيها فضل المقتطف وأصحابه، ورأيي الخاص في العلامة الدكتور صرُّوف. وبعد أيام جاءني الكتاب الذي يلي بعد الترجمة...

«وقال لي بعضهم الآن إنّ في كوكب الشرق كلمة من الأمير عنّي وأتاني بالكوكب فإذا أنا بتاج وصولجان وطيلسان. والصائغ والمفضّل والمتفضّل محبّ كريم لا يرى إلاّ الحسنات ويعظّمها الحبّ في عينيه، ولست أجد كلامًا يفي بشكركم». ولمّا كان في الردّ الذي تناول صاحبه به الدكتور صرُّوف إشارة إلى كونه نصير الزويمر. وهو خبر ناشئ عن وهم ككثير من الأخبار التي تعلق بالأذهان ولا صحّة لها، فقد أوضحت في دفاعي عن الدكتور الخطأ الواقع في هذا الظنّ. وقد أضحك الدكتور ما قيل عنه، فكتب في جملة ما ذكره: «أمّا زويمر فهو يعدّني أكبر خصم له، ومرادي أن اطلعه على ما كتبتم لأقوّي حجّتي عليه».

لم يذكر لي في هذا الكتاب وهو مؤرّخ في ٣١ يوليو سنة ١٩٢٥ أنه صدر مقتطف أغسطس، وقد كتب فيه عن رواية آخر بني سراج. وقال لي هكذا:

«وطلبت منكم أن تعدلوا عمّا قلتموه في الصفحة ٣٦٦ فإنّ أوروبة سائرة مختارة أو غير مختارة إلى ابتلاع مرافق الشرق، ومتى زالت مرافقه من يد أبنائه أمسوا عبيدًا، فمصيره إلى الخراب إن لم يتّفق رجاله ويغضّوا عن كثير ممّا يفرّق بينهم ولا سيّما النعرة الدينية ويؤوبوا إلى القول المأثور «الدين عند الله المعاملة». وعسى أن تتمكّنوا من هبوط مصر في الشتاء القادم فنواصل البحث في موضوع لا تسعه الأوراق، وأكرّر الشكر الجزيل للأمير الكريم».

فكنت في الحقيقة أعلّل النفس بآمال لقاء هذا الصديق الكبير طاهر القلب وكبير العقل وواسع العلم. وطالما تخيّلت، ويا للأسف، المجالس اللطيفة التي كنت سأحظى بها منه،

ولكن الأجل قضى على هذا الأمل، وكم من حسرة تنزل مع الإنسان في التراب. ولمّا جاءني نعي المرحوم، كان أول ما انطلق لساني به قول اليازجي[1] الكبير:

قد كنت أنتظر البشرى برؤيته … فجاءني غير ما قد كنت أنتظر

ولبثت أكرّر هذا البيت ولا أزال أكرّره كأنه يشفي بعض ما في صدري، ثمَّ لينظر الإنسان إلى ما كان عليه هذا الفقيد من حبّ الخير ونقاء الوجدان، فقد كنت كتبت له فيما كتبت من الإعتذار عن الردّ الذي نشره بعضهم عليه بسبب انتقاده للكتاب المترجم، فقلت له: إنّ المترجم قد يخسر بانتقاد رجل عظيم مثله ليس خسارة أدبية فقط، بل خسارة مالية. فكتب إليّ في مكتوب آخر بتاريخ ٣١ أغسطس سنة ١٩٢٥ يقول لي: "وأؤكد لكم أنني لمّا قرأت قولكم أنّ المترجم قد يخسر بانتقادي خسارة مالية تحوّل غيظي منه إلى غيظي من نفسي، ولا أدري الآن كيف أكفّر عمّا مضى".

ولم يلبث أن نشر في المقتطف قطعة طويلة من الترجمة، حتّى لا يظن القرّاء أنه يغمط فضلها بمجرّد انتقاد بعض عبارات. نعم، قد كان في حبّ الخير والبعد عن الشرّ أمّة وحده وكنت قد ذكرت له تصرّف الدول التي تزعم أنها حاميات الحقّ والعدل فيما نكثت به من مواعيدها للعرب، وما أظهرت من الجشع والطمع بسلب حقوقهم، واحتلال بلدانها بعد الحرب الكبرى، فأجابني (أجزل الله ثوابه) عن ذلك بما يأتي قال:

"أمّا رجال السياسة الذين أشرتم إليهم فقد رأيت منهم بعد الحرب ما صغّرهم في عيني وجعلهم أحقر من أن أدافع عنهم من أكبرهم إلى أصغرهم، أبقاني الله وإيّاكم داخل سياج العلم، وأطال الله بقاكم".

ولست أُكبِرُ هذه العبارة على صحّة وجدان الفقيد، ولكنّني أذكرها في جملة حسناته الكثيرة.

لوزان

شكيب أرسلان

(١) ناصيف اليازجي.

الأمير نسيب أرسلان*

١٢٨٤ - ١٣٤٦ هـ

بقلم شقيقه كاتب الشرق
الأكبر الأمير شكيب أرسلان

ولد المرحوم أخي سنة ١٢٨٤ هـ، وكنّا ساكنين في بيروت في حيّ المصيطبة في بيت يقال له برج الجمَّال.

وبعد مولده بسنة رجع المرحوم والدي إلى قصبة الشويفات، لأنه كان قد جعل مديرًا لناحية الشويفات، أي الإقطاع الأرسلاني الخاص من قضاء الشوف. وقد ولدتُ أنا بعد أخي بسنة ونصف سنة في الشويفات، ونظرًا لقرب السن بيننا نشأنا معًا كأننا توأمان. ولمّا بلغ أخي نحو السابعة أو أقل قليلاً، وكنت أنا فوق الخامسة من العمر، ندب لنا والدنا الشيخ مرعي شاهين سلمان - الذي صار فيما بعد شيخًا لقصبة الشويفات - لأجل تعليمنا القراءة والكتابة، فهو أول من قرأنا عليه ألف باء. ثمَّ صعدنا للاصطياف بحسب العادة في عين عنوب، فندب لنا والدنا رجلاً اسمه أسعد أفندي فيصل، لأجل إقرائنا كتاب الله، فحفظنا منه جانبًا عن ظهر القلب، ولكنّنا نزلنا من الصيفية قبل أن نختمه. ثمَّ أدخلونا مدرسة للأمريكيين في حارة العمروسية بالشويفات، فتعلّمنا فيها مدّة، وقرأنا من جملة ما قرأناه الجغرافيا، والحساب، ومبادئ الإنكليزية. وسنة ١٢٩٦ هـ (١٨٧٩ م) أدخلونا مدرسة الحكمة في بيروت، وهي التي أسّسها المطران يوسف الدبس رئيس أساقفة الطائفة المارونية، وكانت هذه المدرسة مشهورة بإتقان اللغة العربية، وكان والدي (رحمه الله) يحبّ لغة قومه، وله مشاركة في النحو والصرف والأدب، وله نظم لا بأس به، فبقينا نطلب العلم في مدرسة الحكمة من سنة ١٨٧٩ إلى سنة ١٨٨٦ (١٢٩٦ - ١٣٠٤ هـ).

وفي أول سنة من دخولنا تلك المدرسة، جاء الأستاذ الشيخ عبد الله البستاني معلّمًا فيها؛ فلم نقرأ العربية إلاّ عليه، وإنّما حضرنا بضعة دروس من ابن عقيل على الخوري

* الزهراء ج٤ (حزيران ١٩٢٨) ص ٥٩٩ - ٦٠٧.

بولس عوَّاد، الذي هو اليوم المطران بولس عوَّاد. ولم نكن نتعلّم في مدرسة الحكمة سوى العربية على الشيخ البستاني، والأفرنسية على المعلّم شاكر عون، والتركية يومين في الأسبوع على ضابط يقال له عبد السلام بك من الشام. وكان أخي نسيب منذ حداثته مولعًا بلغته الجاهلية، وكان لا يكاد يقرأ شيئًا إلاّ حفظه، حتّى وقع له أن تُلي عليه بضعة أبيات ـ لا أتذكّر جيّدًا أربعة أو خمسة ـ فحفظها من دور واحد. وكان يديم مطالعة المعلّقات السبع، والدواوين الخمسة وما أشبه ذلك من الشعر الجاهلي وشعر المخضرمين، فما مضت مدّة حتّى تكوّنت له لغة عريقة في العروبة تشابه لهجة الأولين، وبقيت هذه الملكة تزداد معه بالمطالعة والممارسة إلى أن بلغ ـ في متانة اللغة ونقاوتها ـ الأمد الذي لم يحصل عليه إلاّ أفراد لا يتجاوزن عدد الأنامل في العالم العربي كلّه. ولم يكن يقرأ شعر المولدين إلاّ في الندري، وإن قرأ فمثل أبي تمّام والمتنبّي. ونظم أخي وهو في مدرسة الحكمة رواية ذات أدوار على واقعة سيف بن ذي يَزَن الحميري في قيامه على الحبشة وطرده إيّاهم من اليمن. وسننشر له هذه الرواية في جملة ما ننشره من آثاره. وكنّا في صف واحد، فلمّا ألقيت إلينا مواضيع المسابقة لأجل الجوائز، كان هو أول الصف في الشعر وكنت أنا الثاني، وكنت أنا الأول في الإنشاء وكان هو الثاني. وسنة ١٨٨٧ (١٣٠٤ هـ) دخلنا المدرسة السلطانية، فأقمنا بها سنة نتعلّم التركية والفقه، وحضرنا مجلّة الأحكام العدلية على المرحوم الشيخ محمَّد عبده، وكنّا نلازم المرحوم في مجالسه الخاصّة، لا سيّما أنه كانت انعقدت بينه وبين المرحوم والدي صداقة أكيدة، فكنّا نزوره في منزله ببيروت، وكان يزورنا في بيتنا بالجبل، وكان المرحوم والدي يجلُّ الأستاذ الشيخ كثيرًا، وكان الشيخ يجلُّ والدي كثيرًا أيضًا، ويقول إنّه من أعقل من عرف في حياته. وكان أخي نسيب مع رصانته، حلوَ المحاضرة، دقيق النكتة، سريع الخاطر، فكان الأستاذ الشيخ محمَّد عبده يحب مجلسه كثيرًا، وعاد إلى مصر وهو يتذكّر لطف أحاديثه، وسمعته بمصر ينقل من نكاته أمام سعد باشا زغلول والشيخ عبد الكريم سلمان وغيرهما من حلقة الأستاذ، وكان يقول: الأمير نسيب نكاته من كثرتها لا تحفظ.

- آل أرسلان

ولمّا جاء نعوم باشا متصرفًا للبنان سنة ١٨٩٢ (١٣١٠) وأعاد عمّنا المرحوم الأمير مصطفى إلى قائمقاميّة الشوف، جعل أخي نسيب مديرًا لناحية الشويفات، فأقام بهذه

المأمورية نحو عشر سنوات محمود السيرة. وعندما جاء مظفّر باشا خلفًا لنعّوم باشا كان عمّنا قد استعفى وصار هذا العاجز قائمقام قضاء الشوف، وكان أخي المرحوم مديرًا للشويفات، فأراد مظفّر باشا أن يبدّل الهيئة السابقة بحسب عادة المتصرّفين، فاقترح عليّ أن أكون رئيسًا لدائرة استئناف الجزاء فرفضتُ اقتراحه وفضّلت العزل التام، لأنه كان يريد أن يتّخذ هيئة جديدة في الشوف وأخذ يعزل جميع العمّال المنسوبين إلينا، فوقع الخلاف بيننا وبين مظفَّر باشا، واستعفى أخي من مديرية الشويفات التي يقال لها هناك مديرية الغرب الأقصى، ونزلنا إلى بيروت، وأقمنا بها إلى أن مات مظفَّر باشا. فجاء يوسف باشا فرنكو، وفي أيامه أعلن الدستور العثماني، وأعادني يوسف باشا المذكور قائمقام لقضاء الشوف. أمّا أخي فبقي ساكنًا في بيروت، وأبى أن يأخذ وظيفة. وسواء كان في المأمورية أم في بيته، كان معروفًا بدماثة الخلق والموادعة والتواضع والانكماش عن الشرّ وترك ما لا يعنيه وعفّة اللسان واليد وصدق الحديث. فكانت أخلاقه هذه عدا معارفه الواسعة مدعاة لحرمة الجميع ومحبّتهم له. وبعد إعلان الدستور العثماني، وتلك الحركة العظيمة التي استولت على البلاد، وأحدثت نشاطًا عامًّا في الأمّة، تأسّس في بيروت نادٍ لجمعية الاتّحاد والترقّي، دخل فيه جميع أعيان بيروت ولبنان وأدبائها ومفكّريها الذين يعوَّل عليهم، وانتخب أخي نسيب رئيسًا للنادي بأكثرية ساحقة، مع أنه كان بين المرشّحين للرئاسة عدد كبير ممن يفوقونه في الشهرة والمكانة الاجتماعية، ولكن الناس كانوا يثقون به ويميلون إليه نظرًا لحسن أخلاقه، فكانت الأصوات التي نالها غيره من المرشّحين للرئاسة قليلة جدًّا في جانب أصواته، مع أنه هو لم يكن مرشّحًا نفسه للرئاسة. ولمّا زار الأمير محمَّد علي أخو سموّ الخديوي السابق سورية، بعد الدستور، زار النادي الاتحادي واستقبله أخي حينئذٍ. وبقي أخي في بيروت إلى أن حصلت الحركة العربية الفكرية في وجه الدولة العثمانية، وقامت جرائد بيروت وغيرها من البلاد السورية تطلب الإدارة المسمّاة باللامركزية، واشتدّت هذه الحركة في أثناء حرب البلقان كما هو معلوم، فانفصل البيروتيون إلاّ قليلاً عن جمعيّة الاتّحاد والترقّي، ومن الجملة أخي المرحوم، وكان له في ذلك الوقت مقامات مذكورة في جانب القائمين بتلك الحركة، ومقالات مشهورة في جريدة المفيد التي كان يصدرها المرحومان عبد الغني العريسي وفؤاد حنتس. وبقي مدّة يلاحظ تحرير تلك الجريدة ويساعدها مجّانًا، كما هو شأن هذا العاجز فيما أكتبه في الجرائد من ٤٢ سنة. ولمّا نشبت الحرب العامّة كان أخي مقيمًا بمنزله في بيروت، وكان معتزلاً كلّ حركة، مقتصرًا على الاجتماع مع خواصّ

أصحابه الذين كانوا مغرمين بمجلسه وحلاوة نكاته التي كان يرسلها بدون تكليف، وبسكون تام يضحك منها السامعون وهو لا يضحك. ولمّا بدأ جمال باشا بالقبض على الذين اعتقلهم في عاليه، وشنق منهم وشرَّد آخرين، كان مبدأ ذلك وشاية جاءت من نواحي صيدا بحقّ الوطني الكبير رضا بك الصلح، والمرحوم عبد الكريم الخليل. ويظهر أنّ من الوشاة من استشهد بأنّ أخي نسيب كان مطّلعًا على سياسة رضا بك الصلح ضد الدولة، فأرسل الديوان العرفي في عاليه يطلب أخي للحضور، فجاء إلى عاليه وهو موقن أنه سيصيّبه ما أصاب الآخرين بسبب المقالات التي كان يكتبها في المفيد انتقادًا للدولة والأتراك، ولكن الدولة كانت تعرف صداقة الأرسلانيين لها وكونهم من أشدّ الأسر السورية على النزعة الأجنبية، وأن الاستقلال العربي عندنا محمود ما لم يكن مشوبًا بالسيطرة الإفرنجية، إذ لا يعود استقلالاً إذ ذاك، فكانت شهرة أسرتنا بعداوتها للأجانب وعداوة الأجانب لها، شفيعًا دائمًا لنا عندها، وهذا سبب خلاص أخي نسيب، وأخي عادل، مع اشتراكهما في الحركة، فبينما أخي نسيب يتوقّع الشر من طلبهم إيّاه إلى عاليه، لم يزيدوا على أن سألوه عن رضا بك الصلح وأحفوا في السؤال، فأجابهم عنه بكلّ جميل ونفى عن رضا بك تلك التهم التي أسندها إليه أعداؤه. وبعد أن أتمّ جوابه أذنوا له في الانصراف فانصرف لا إلى منزله في بيروت بل إلى منزلنا بالشويفات، وأقام هناك من سنة ١٩١٥ (١٣٣٣ هـ) إلى أن توفّاه الله في أواخر سنة ١٩٢٧ (أواسط سنة ١٣٤٦). وطيلة مدّة الحرب لم يتّصل بأحد من رجال الحكومة التركية، وسأل عنه جمال باشا فأبى أن يزوره. كما أنه منذ احتلال فرنسا لسورية لم يتّصل بأحد من رجال السلطة المحتلّة أصلاً، بل كان يقضي أوقاته بالمطالعة، وقد ينظّم ما يخطر له من الشعر ويأخذه بعضهم فينشره في الجرائد. أمّا هو فكان أبعد الناس عن حبّ الشهرة والظهور، ولا يلذُّ له شيء كالعزلة والانفراد، وإن أستأنس إلى حديث أو مجلس فإلى صديق يجالسه ويتبادل وإيّاه الأفكار. وكان له ولوع بالزراعة والتوفّر على شغل الأراضي، ولذلك قام بالنيابة عنّا أنا وأخي عادل أحسن قيام بالمحافظة على أملاكنا، وتنميتها وإتقان فلاحتها، ولم يكن يسمح لنا أن نبيع منها شيئًا مع احتياجنا إلى ذلك مرارًا، بل كان يوفّر من دخلها ما يشتري به كلّ سنة، ولولاه لكانت تبدّدت في أثناء غيابنا وما أصابنا من الجوائح منذ عشر سنوات.

ولمّا احتلّ الفرنسيس سورية كتب إليّ المرحوم أخي يبدي لي رغبته، ورغبة العائلة

ومن لنا من الأصحاب والأضراب، في رجوعي إلى البلاد. وقال لي من جملة كلامه: أنّ المرحوم الشيخ محمَّد عبده قد رضي بالإقامة بمصر، مع وجودها تحت احتلال الإنكليز، وأنه حسبي الاقتداء بأستاذنا المشار إليه إذ لا يجوز لنا ترك بلادنا بتاتًا مهما عزّ علينا استيلاء الأجانب عليها. قال لي: وإن كنت لا ترضى أن تقيم بالمنطقة الساحلية التي يخفق فوقها العلم الإفرنسي، فإنّك تقدر أن تسكن بدمشق حيث توجد حكومة عربية مستقلّة. فقد كان يومئذٍ الأمير فيصل بن الحسين على رأس حكومة عربية مستقلّة في الشام. فجاوبته بأنني أخشى إذا رجعت إلى البلاد، من الوقوع فيما لا خير فيه، لأنّ الفرنسيس لا يلبثون أن يتعرّضوا لي بسوء، مهما تجنّبت السياسة. وأمّا السكنى في الشام فلا تكون إلاّ مؤقّتًا، وسنكون بعد ذلك مضطرّين إلى الهجرة منها، لأنّ فرنسة لا بدَّ أن تستولي على الشام، وهي الآن في المكالمة مع إنكلترة والمساومة، حتّى تسمح لها بالتقدّم إلى المنطقة الداخليّة من سورية، إذن لا فائدة من إيابي إلى سورية، ولن أقدر أن أسكت بإزاء استيلاء الأجنبي. فسكت المرحوم بعد جوابي هذا ولم يراجعني مذ ذاك الحين في هذه المسألة. نعم، عندما كنت في برلين كتب إليّ يشكو مرضًا أصابه، وكان أصبح شديد الوسواس، إذا أصابته علّة، فكتبت إليه أدعوه أن يأتي إلى برلين حيث أشهر الأطبّاء، فيتسنّى له المعالجة، ويشاهد كلّ منّا الآخر فاعتذر عن هذه السياحة، لأنه كان على خلاف مشربي في هذا الأمر، فكان أقلّ الناس أسفارًا، ولم يعهد أن فارق جبل لبنان إلاّ مرّة إلى دمشق، ومرّة أخرى إلى أطنة. ولمّا سكنت بمدينة «مرسين» لأكون قريبًا من سورية، أردته على المجيء إلى «مرسين»، لمشاهدته فاعتذر أيضًا إذ لم يكن واحسرتاه يتوقّع فراق الدنيا في هذا الأجل، وكان يرجو دائمًا أن يراني في البلاد. ولمّا دعاني المسيو جوڤنيل عند نصب فرنسة إيّاه مفوضًا ساميًا على سورية، وحادثني في أمر الاتفاق بين فرنسة وسورية رغب إليّ أن أرافقه وأكون مساعدًا له على تمهيد العقبات والوصول إلى اتفاق يرضى به الفريقان، فقلت له: إنّني لا أستطيع أن أذهب إلى سورية قبل أن يتمّ الاتفاق في باريز، وتوقّع فرنسا عليه، وتبلّغ ذلك جمعية الأمم. فقال: إنّه لا يقدر على إمضاء اتّفاق كهذا بدون الوقوف على أفكار الآخرين. ففصلت من باريز راجعًا إلى برلين، وذلك أواخر سنة ١٩٢٥ والثورة السورية في إبّان اشتعالها. ولم يكن امتناعي هذا عن إجابة طلب المسيو جوڤنيل بأمر سهل عليّ، لأني كنت أرجو بدخولي البلاد مشاهدة وطني الذي أنا دائم الحنين إليه، ورؤية أهلي وأصحابي وأترابي الذين كنت أخشى أن يوافيني أجلي قبل مشاهدتهم، وأكثر ما كنت أفكّر هو بسيّدتي

الوالدة وأخي المرحوم، حتّى أنني لمّا رأيت الوالدة لا تستطيع ولا تريد أن تأتي إلى أوربة، وكنتُ لا أقدر أن أدخل سورية ولا فلسطين ولا مصر، تركتُ سويسرة وذهبتُ إلى الآستانة، ومنها إلى مرسين لأكون في أقرب الديار إلى سورية، ويهون على الوالدة أمر السفر إلى محل وجودي حتّى أتمكّن من مشاهدتها. وهكذا كان فقد أقمت بمرسين سنة ونصف سنة، ولا سبب لاختياري السكنى في تلك البلدة إلاّ هذا السبب. وأخيرًا لمّا رأيت أنّ مهمّة تعقّب القضيّة السورية لدى عصبة الأمم تقتضي أن أكون دائمًا في "سويسرة"، وجاءني الإلحاح في ذلك من أبناء وطني، لا سيّما الجالية الذين بأمريكا، تركت "مرسين" ورجعت إلى سويسرة، لكن بعد أن رويت غليلي من مشاهدة السيّدة الوالدة التي كنت أخشى أن يوافي أحدنا الأجل قبل اللقاء. أمّا أخي نسيب فلم تساعد السياسة الوطنية أن أعود إلى البلاد بدون اتفاق مع فرانسة حتّى يقيّض لي أن أشاهده، وهكذا ذهب (رحمه الله) إلى ربّه، وما تمكّنتُ أن أراه بعد غيبة إحدى عشر سنة كنت في خلالها لا أزال أحدّث نفسي بإمكان لقائه فخاب هذا الأمل، وكم من حسرةٍ تحت التراب. وكان المرحوم أخي عصبيًا قويّ البنية، شديد العضلات، طويل القامة، مهيبًا، رائعًا، وكان من أقوى الناس بنية، إلاّ أنه اعتمد كثيرًا على قوّة جسمه فكان يهمل صحّته، ومن ثمَّ استولت عليه بعض أمراض ألزمته الفراش طويلاً، ولكن في المدّة الأخيرة كانت صحّته أحسن من ذي قبل، ولم أكن أتوقّع له مكروهًا، ولكن لكلّ أجل كتاب. فقد ذهبتُ إلى بروكسل لحضور مؤتمر مكافحة الاستعمار في التاسع من ديسمبر سنة ١٩٢٧، وبقيت إلى انفضاض هذا المؤتمر في ١٨ منه، ورجعت إلى برلين، فإذا بتعزية واردة لي من الأستاذ أحمد زكي باشا تحت يد الدكتور ميخائيل بيضا، أحد كبار السوريين في العاصمة الألمانية، ولم يكن في التعزية تصريح بالسبب، فتكلّم الدكتور بالهاتف (التليفون) مع منزلي بلوزان، فعلم منهم أنّ الفقيد هو أخي نسيب. وكانوا في البيت قد تلقّوا برقيّة باسمي فيها مجرّد تعزية أيضًا، فلم يعلموا السبب. وأبرق الأخ فؤاد بك سليم ـ سفير تركيا في سويسرة سابقًا ـ المقيم اليوم بلوزان، إلى الأستاذ السيّد رشيد رضا، يستعلم عن المصاب الذي وقع فجأة، فجاء الجواب أنّ المتوفّي هو الأمير نسيب، فكانت معرفتي بمصيبة أخي (رحمه الله) في ٢١ ديسمبر، وعلمت من الكتب التي جاءتني من سيّدتي الوالدة وأخي حسن، أنّ الوفاة وقعتٍ في ٧ الشهر المذكور (١٢ جمادى الثانية ١٣٤٦) بعد الظهر وذلك على أثر حمّى فاشية في البلدة قد أصيب بها واشتدّت عليه في اليوم الثالث، وتقهقر القلب تقهقرًا عظيمًا دفعة واحدة، فحقنه الطبيب تحت الجلد أملاً

بأن ينعش القلب، فلم يحصل فائدة، وبينما هو يتكلّم مع والدته، إذ رأته قد شخص بصره، وأسلم الروح في لحظة بلا أدنى نزع، حتّى كادت لا تصدّق أنه مات، فكانت نجاته من سكرات الموت من أعظم أسباب عزائنا، وكأنّ الله شاء أن يجعل مماته مثل حياته، هناءً ودعة.

وحضر أبناء عمّنا عقب الوفاة، ونعوه إلى البلاد كلّها، وعيّن يوم ٨ ديسمبر للمأتم، فهرعت الناس جماهير جماهير من الغربين، والشحّار، والمناصف، والشوف، والمتن، والعرقوب، والجرد، وكان له مأتم نادر المثال، ولم يكن يرى إلاّ نادب وكئيب. وكان إجماع الناس على الحزن دليلاً كافيًا على زكاء سيرته وأنه من أقلّ خلق الله شاكيًا. وأبّنه المؤبّنون، ورثاه الشعراء، وأجود ما رثي به مقالة وقصيدة للشاعر الكبير أمين بك ناصر الدين. ولقد جرى دفنه في قبّة العائلة التي في أعلى الشويفات، وهي التي بناها الأمير محمَّد جمال الدين الأرسلاني الذي كان لعهد بداية الفتح العثماني، وجاهد مع مصطفى لالا باشا في فتح قبرص، وفيها دفن والدي وجدّي وأكثر أعضاء العائلة. وكان مراد أبناء الوطن أن يحتفلوا له في يوم الأربعين في بيروت، ويقرأوا المراثي والتآبين، فظهر لهم أنّ السلطة لا ترتاح إلى هذه الاجتماعات، فعدلوا.

وسننشر ما نقف عليه من نظمه ونثره، ونسأل الله أن يتغمّده بواسع رحمته ورضوانه، ويسكب عليه سجال عفوه وإحسانه، ويلحقنا جميعًا بالرفيق الأعلى إنّه سميع مجيب.

التاريخ
لا يقوم بالأدلّة الواهية والآراء الشاذّة*

خطأ من ذهب إلى أنّ الأمراء الأرسلانيين
والأمراءالتنوخيين أصلهم من الفرس

لعطوفة أمير البيان الأمير شكيب أرسلان

في أثناء هذه الحرب بالرغم من التياث صحّتي ونهي الأطبّاء إيّاي عن الشغل، لم أقعد عاطلاً لأنّ الشغل لمن زاوله من أول الحياة لا تتصوّر الحياة بدونه، ومهما نهى الأطبّاء والأهل والأصحاب فإنّ لسان حال المرء يقول له ما يأتي:

ألست وعدتني يا قلب أنّي ... إذا ما تبتُ عن ليلي تتوب

فها أنا تائب عن حبّ ليلي ... فما لك كلّما ذُكرتْ تذوب

كتبت في أثناء هذه الحرب مجلّدات فقد كنت في أيام الصِّبا نشرت الجزء الأول من رسائل أبي اسحاق الصابي، رئيس كتاب ديوان الخلافة في بغداد، وعلّقت عليه حواشي لغويّة وتاريخيّة، ولكن بقي قسم من هذه الرسائل غير مطبوع فرتّبت هذا القسم وهيّأت منه الجزء الثاني على نيّة أن أطبعه بأول فرصة لا سيّما أني كنت أول من طبع رسائل هذا الكتاب المشهور. ووضعتُ كتابًا في اللغة اسمه «القول الفصل في ردّ العامّي إلى الأصل» وسأنشر منه في البيان نموذجًا ليعرف القارئ المنهاج الذي سلكته في هذا الكتاب. وألّفت رسالة مختصرة اسمها «آثار العربية الفصحى في جبل لبنان» ذكرت فيها فصح الأسماء العربية التي تستجلب النظر في وطننا العزيز، وربّما آتي من هذه الرسالة بشواهد تلذّ القارئ اللبناني ويتذكّر بها وطنه الأصلي، ولكن أوسع ما كتبت في السنوات الأخيرة كتاب سمّيته «بيوتات العرب في جبل لبنان» يقع في نحو ألف صفحة وذلك أني رأيتني كتبت كثيرًا في علم التاريخ، وعن البلاد النائية فقلت في نفسي: ما أحراني بأن أكتب تاريخ بلادي وألمّ

---

* مجلّة البيان.

فيه بدقائق فاتت كثيرًا من الذين عانوا هذا الموضوع وإنّي موردٌ الآن لقرّاء هذه الجريدة فصلاً من ذلك الكتاب في مسألة زعم بعضهم أنّ بني معروف أصلهم من العجم وأنّ الأمراء الأرسلانيين بخاصّة هم من أصل فارسيّ، فإليك هذا الفصل بحرفه:

«ولمّا كان لا بدّ في كلّ قضيّة من أخذ وردّ، فإنّنا نذكر هنا رأ يًا غريبًا ذهب إليه بعضهم متأثرًا بهذا المشرب الفاشي في هذا العصر، وهو مخالفة المتواتر أو المشهور من الآراء والبحث من الآراء الطريفة مهما كانت شاذّة ومخالفة للعقل والنقل. فمن ذلك أنّ عرب سواحل سورية ليسوا بعرب في الحقيقة، وإنّما هم عجم استعربوا وذلك لأنه جاء في كتاب «الأعلاق النفيسة» لابن رسته (ص ٢٧) أنّ معاوية نقل إلى طرابلس (ed. du Colg) وجبيل وبيروت وصيدا قومًا من الفرس ليسكنوها.

ومن القائلين بهذه الرواية الفاضل الأب لويس شيخو اليسوعي الذي طبع تاريخ بيروت لصالح بن يحيى التنوخي، وعلّق عليه حواشي - منها ما رواه عنّا فيما يتعلّق بأماكن ورد ذكرها في الكتاب المذكور، جاء فيها بعد نقله رواية ابن رسته قوله الآتي:

قد مرّ ص (١٤) أنّ معاوية كان أسكن بيروت بعد أن فتحها قومًا جلبهم من فارس، وكانوا لم يزالوا في أيام رسته (في أوائل القرن العاشر للمسيح) يقطنوها مع المدن المجاورة لها، ولا ريب أنّ بني أميّة سلّموهم هذه السواحل لحراستها من غزوات المردة. والمردة كما بيّن ذلك بأقنع البراهين العلاّمة «أنكتيل دو برّون»:

Anquetil du Perron (Les emigratin des Mards)

قومٌ من نصارى العجم استقدمهم ملوك القسطنطينيّة للدفاع عن لبنان وقيليقية من غزوات العرب: واصل تسميتهم بالمردة من كلمة فارسية (مرد) معناها الشجاع. وبقيت بيروت تحت حكم الأمراء الفرس الذين منهم الأرسلانيون والتنوخيون، وجرت بينهم وبين المردة عدّة وقائع، أشار إليها كتّاب الروم كتاووفان وزناراس وغيرهما، ودامت هذه الحروب مدّة حتّى هادن عبد الملك بن مروان الروم يستنيل الأخرم فاسترجع المردة وردّهم إلى مواطنهم. ولمّا صار الأمر لبني العبّاس قرّروا الأمراء المذكورين في حكمهم على الساحل. وكانت بيروت وقتئذٍ بلدة صغيرة لم تنهض بعد ممّا دهمها من نكبات كالزلازل والحروب. وفي سنة ١٤٠ هـ (٧٥٧ م) حج الخليفة أبو جعفر المنصور ثمّ قدم إلى دمشق، فأقطع المنذر

بن مالك وأخاه أرسلان إقطاعات من الغرب، وأمرهما بالسكن في حمى بيروت، فاستوطن المنذر (سرحمور) ونزل أخوه أرسلان في سن الفيل وبها توفي سنة ١٧١ هـ (٧٩٧ م) لكنّه دفن في بيروت، وتجد بقيّة أخبار بيروت بعد هذا إلى زمن الصليبيين في كتابنا "بيروت أخبارها وآثارها". انتهى كلام الأب لويس شيخو اليسوعي جامع كتاب "مجاني الأدب من حدائق العرب" وهو من الفضلاء المشهورين. وكانت لنا معه مودّة وعشرة وطالما نشدنا بواسطته الاطّلاع على بعض المخطوطات النادرة في خزانة الكتب اليسوعية في بيروت، ولكن كانت له، عفا الله عنه، غرائب أقوال وأفكار يشذّ فيها شذوذًا ظاهرًا من جملتها هذا الرأي السخيف الذي لا يقوم عليه دليل، بل الأدلّة كلّها تنقضه، وهو أنّ الأمراء الأرسلانيين والأمراء التنوخيين من الفرس ...! فإنّه لم يقل بهذا أحد من المؤرّخين وهؤلاء الأمراء يستدلّ على عروبتهم الخالصة من سحنتهم وأخلاقهم وعاداتهم ومشاربهم ومنازعهم ومن سجلّات أنسابهم المسلسلة المصدّقة لدى القضاة والحكّام، وبين هؤلاء القضاة والحكّام أئمّة ثُقات أفذاذ لم يختلف الناس في صحّة رواياتهم، والاعتماد على أقوالهم، ثمّ يستدل على عروبتهم أيضًا من التواتر الذي أجمع عليه أهل أوطانهم لبنان وبيروت وصيدا وسائر سواحل الشام، وكذلك من تواريخ المسيحيين أنفسهم الذين نقلوا أخبارهم خلفًا عن سلف وصاحب الدار أدرى بما فيها. فأهل جبل لبنان وأهل هذه المدن الساحلية سواء العرب منهم أم الطوائف الأخرى السريانية لا يعرفون هؤلاء الأمراء إلاّ من صميم العرب. وفي أيدي هؤلاء الأمراء سجلّات كما تقدّم الكلام عليه، تحتوي على أنسابهم بالتفصيل والتوضيح وكيف جاءوا من الحيرة من بلاد العراق مع خالد بن الوليد، وكيف حضروا فتوحات الشام بصرى وأجنادين واليرموك ودمشق وحلب، وكيف نزلوا معرّة النعمان ولبثوا هناك طول مدّة بني أميّة، ولمّا تنازع الأمويّون والعبّاسيون الخلافة انحازوا إلى العباسيين. ولمّا جاء الخليفة المنصور إلى دمشق، شكوا إليه قحط المعرّة والجراد الذي كان يتلف زرعها، فأمرهم بالتحوّل إلى جبال بيروت تأمينًا للطريق العام بين دمشق وثغر بيروت، وقد وردت في هذه السجلّات المؤيدة بتواريخ لبنانية كثيرة أخبار كلّ من هؤلاء الأمراء، وسنو وفيّاتهم، وأخبار من نسلوا من الذريّة بطنًا فبطنًا وعصرًا فعصرًا، من أواسط القرن الثاني للهجرة إلى هذا العصر الأخير. وذلك كلّه تحت تصديق القضاة والحكّام الذين منهم أئمّة مشاهير كالعبّاس بن الوليد العذري، وأبي بكر أحمد بن محمَّد الكندي، ولأبي اسحاق ابراهيم بن محمَّد النجلي، وأبي الحسن علي بن طاووس، والعماد الأصفهاني الكاتب، وزيد بن الحسن الكندي النحوي،

والإمام النووي والإمام السبكي، وغيرهم من الأئمّة وأعلام الأمّة، الذين كلّ منهم كان يشهد بعروبة هؤلاء الأمراء وتحدّرهم من الشجرة النعمانية المنذرية اللخمية. مستندًا في ذلك إلى الوثائق المسلسلة وإلى التواتر وإلى ما يعلمه كلّ واحد منهم في عصره. فكيف يصحّ في عقل عاقل رَفْض هذه الوثائق كلّها، والتواريخ اللبنانية المصدّقة لما بين يديها وما خلفها، وطرح التواتر جانبًا والقول بأنّ هؤلاء الأمراء هم من أصل فارسي وذلك بمجرّد الظن الذي لا يغني عن الحقّ شيئًا، ولكونه قد جاء في كتاب الأعلاق النفيسة لابن رسته أنّ معاوية نقل إلى طرابلس وجبيل وبيروت وصيداء قومًا من الفرس، ليسكنوها. فلنفرض أنّ معاوية رضي الله عنه أسكن في هذه المدن الساحلية قومًا من الفرس؟ فهل يستلزم ذلك أن لا يكون في هذه المدن وملحقاتها من المسلمين غير هؤلاء الفرس لا جرم أنّ السواد الأعظم من أهل هذه المدن كانوا من العرب لأنّ العرب هم الفاتحون الذين بعد فتحهم للأقطار الشاميّة تفرّقوا في أمصارها، وكانت لهم السيادة والمكانة. ويجوز أنّ معاوية قد نقل قومًا من الفرس اختلطوا بالعرب والتحقوا بهم، ولكنّهم كانوا على كلّ حال فئة قليلة بالنسبة إلى العرب الأصليين. وقد ورد ذكر النازلين في سورية وفلسطين من مختلف القبائل العربية ومنهم من نزل في البلاد الشامية قبل الإسلام، وأمّا بعد الإسلام فأصول القبائل التي نزلت في الديارالشامية كلّها معروفة، فأهل حماة مثلاً أصلهم من اليمن في الغالب من بهراء وتنوخ واياد... وأهل حمص جميعًا يمنيّون من طي وكندة وكلب وهمدان. وأهل تدمر من كلب وأهل اللاذقية من سليح وهمدان ويخصب. وأهل جبلة من همدان ومن قيس. وأهل دمشق من قيس ومن اليمن. وأهل الجولان من قيس. جاء في خطط الأستاذ كرد علي أنّ أكثرهم من بني مُرّة. وأهل جبل لبنان الشرقي من بني ضبّة ومن كلب. ومن المشهور أنّ أهل بيروت أصلهم من اليمن. وعندما كانت تقع الحروب بين القيسية واليمنية، كان أهل بيروت إلى ما قبل هذا التاريخ بقرنين يمنية، يعرفون بالتواتر أنّ العرب الذين نزلوا بيروت كانوا من اليمن. فأمّا رواية وجود الفرس في هذه البلاد فإنّ التاريخ العربي لا ينكرها، فقد جاء فيه أنه كان في بعلبك قومٌ من الفرس، وذكر الأستاذ كرد علي أنه كان في بعلبك أيضًا قومٌ من اليمن، وذكر أنّ جبل الجليل أهله من عاملة. وهذه رواية متّفق عليها ولا يزال يقال لهذا الجبل جبل عاملة وربّما حذفوا التاء فقالوا جبل عامل. ونقل كرد علي أنّ في لبنان وصيدا قومًا من قريش. ونقل أنّ مدينة طرابلس كان أهلها من الفرس نقلهم إليها معاوية كما نقل منهم إلى جبيل وصيدا وبيروت. قال: وقد نقل معاوية قومًا من فرس بعلبك

وحمص وإنطاكية إلى سواحل الأردن وصور وعكّا سنة ٤٢، ونقل من أساورة البصرة والكوفة وفرس بعلبك وحمص إلى إنطاكية. وروى كرد علي أنه جاء في العهد الذي أعطاه أبو عبيدة إلى أهل بعلبك هذه الجملة: «رومها وفرسها وعربها» وقال البلاذري في فتوح البلدان أنّ معاوية نقل في سنة ٤٩ أو سنة ٥٠ قومًا من زط البصرة والسبابجة إلى السواحل وأنزل بعضهم إنطاكية. وكلّ هذا لا يفيد كون معظم العرب الذين نزلوا سواحل الشام هم من الفرس، بل كما قلنا لم يكن الفرس بينهم إلاّ فئة قليلة، وكانت الكثرة للعرب وكانت قبائلهم معروفة. ومن حيث أنّ الأرسلانيين والتنوخيين هم من العرب المعروفين المشهورين بعروبتهم قديمًا وحديثًا، فغير معقول أن يحكم بكونهم من الفرس ومن دون أدنى دليل سوى أنّ معاوية نقل إلى بيروت قومًا من الفرس، وأنه قد يكون هؤلاء الأمراء من جملة أولئك الفرس الذين نقلهم معاوية؟ وأمّا الاستدلال على فارسية بني أرسلان بأسم «أرسلان» نفسه فهو دليل سخيف إلى الغاية لأنّ تسمية العربي بأسم غير عربي لا تنفي عروبته. وهؤلاء الصحابة رضي الله عنهم هم أعرب العرب، وفيهم مع ذلك جماعة أسماؤهم أعجمية، منها ما هو رومي، ومنها ما هو فارسي. إقرأ الطبقات الكبرى لابن سعد تجد ما يقنعك بذلك. وذكر الأستاذ المحقق أمين الخولي المصري من القضاة والعلماء والأئمّة عصرًا فعصرا، وخلفا عن سلف، واقعًا ذلك في عشرين إثباتًا تحت تصديق المحاكم الشرعية بشهادة جماعة من العلماء المعاصرين، وعلى فرض أنه في الأعصر الأخيرة كان أولئك العلماء يشهدون على السماع بما هو معروف ومتواتر فيا ليت شعري كيف يكون هذا التواتر في نفسه أليس أنه خبر وجد من قديم الزمان وتواتر أي تتابع من الخلف عن السلف ولم يأت خبر آخر ينقضه. ثمَّ على فرض أنّ الذين جاءوا في الأعصر الأخيرة شهدوا على السماع من دون تحقيق فماذا نقول في القضاة والشهود الذين أثبتوا هذا النسب في سنة ١٤٢ للهجرة مع قرب عهدهم بالفتح العربي للأقطار الشامية، ومعرفتهم من كان من العرب وغير العرب حاضرين في تلك الفتوحات أليس هؤلاء أدرى بأهل عصرهم؟ فإذا كان مثل هذه الوثائق لا يعتبر فأيّ السندات يمكن اعتباره بعد ذلك؟ ولقد كنّا نشرنا في مجلّة المجمع العلمي التي كانت تصدر في دمشق، وذلك من نحو عشر سنوات ردًّا على الأستاذ فيليب الحتّي بمثل ما رددنا على الأب لويس شيخو الذي كانت لنا معه صلة ومودّة أكيدة. [ولنا في هذا السياق مخطوط «بيوتات العرب في لبنان»] وفيه ذكر الأمراء الذين عاصروا أجدادنا مثل: الأمراء التنوخيين، والمعنيين، والشهابيين، وبني العسّاف، وبني سيفا، واللمعيين، وكذلك من عاصر

أجدادنا من المشايخ أصحاب الاقطاعات مثل الجانبلاطيين، والعماديين، والنكديين، والتلاحقة، والملكية، وغيرهم من البيوتات القديمة وأوردنا في هذا الكتاب تراجم من عثرنا على تراجمهم من الأئمّة والعلماء الذين أثبتوا نسبنا عصرًا فعصرًا، وأتينا بفوائد تاريخية غير معروفة إلى اليوم مثل تاريخ بيروت في أيام حكم الصليبيين، ومثل تاريخ استيلاء السلطان سليم العثماني على البلاد العربية، ومثل قضيّة قيس واليمن، ومن هم القبائل التي في العرب يقال لها قيس ومن هم الذين يقال لهم اليمن، وغير ذلك ممّا يطالعه محبو الاستطلاع عندما نطبع هذا التأليف، إن شاء الله تعالى.

شكيب أرسلان

فهرست المحتويات



١٨٦٩ - ١٩٤٦

ولا يعيب العرب أنهم في القرون الوسطى لم تكن مدنيتهم أعلى من مدنية أوربة اليوم بعد القرون الوسطى بنحو تسعمائة سنة وألف سنة، فإنّه من البديهي أنّ الآخر بطبيعة الحال يعلم ما لا يعلمه الأول، وأنّ اللاحق يعي علم السابق ويضيف عليه، وأنّ الدنيا شخص معنوي كلّما علت سنّهُ ازدادت تجاربه. وقد يأتي دهر يجد الناس فيه مدنيّة أوربة الحاضرة لعبًا وددًا، ويهزأون فيه بالقواعد التي يقرّرها علماء العصر الحاضر، وذلك كما نهزأ نحن ببعض القواعد التي كان الأولون يظنّونها حقائق ثابتة، فأظهرت التجارب الأخيرة بطلانها. نعم لا يعيب السلف أن يكون الخلف أعلم منهم، وإنّما يعيب السلف أن يكونوا قعدوا عن النهوض بالواجب عليهم في زمانهم. ولكنّ طه حسين أذنه صمّاء عن الفحشاء... فلا يحبّ أن يسمع هذا اللغو الذي هو مدح العرب... وسبحان من جمع بين عمى البصائر وعمى الأبصار وأولهما أشدّ وأدهى.

يعلم الله أننا كنّا نحبّ أن لا نستعمل لهذه الطائفة مثل هذه الألفاظ، لكنّ وقاحتهم على الوطن والدين واللغة والأخلاق والصيانة والقومية وما أشبه ذلك تجاوزت حدّها، فأصبح من الواجب على كتّاب الوقت أن يضعوهم حيث وضعوا أنفسهم، وأن يصبّوا السحر على هذه الجراثيم الفاسدة للتخلّص من شرّ عدواها.

شكيب أرسلان